



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

العلاقات السياسية بين كيانات شمال بلاد الشام والجزيرة الفراتية

في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي

(600-658 هـ / 1203-1260 م)

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد

أحمد علي منصور

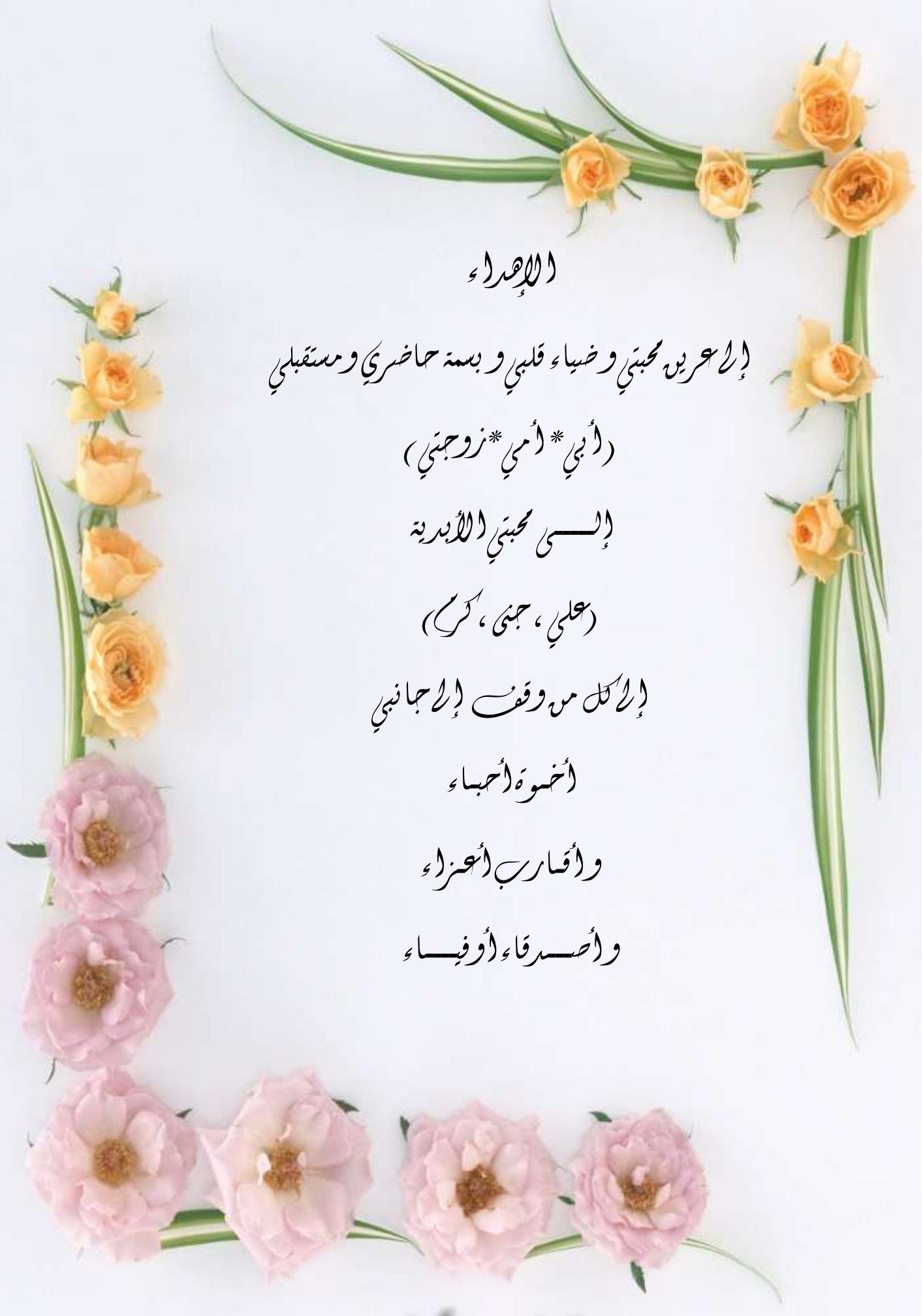
إشراف الأستاذ الدكتور

سهيل زكار

العام الدراسي

1440-1441هـ

2019-2020م



اللهم

إله عريني وضيء قلبي وبسة حاضري ومستقبلي

(أبي * أمي * زوجتي)

إلهي محبتي الأبدية

(علي، جني، كرم)

إله كل من وقف إله جانبي

أخوة أحماء

وأقارب أعزاء

وأصدقاء أوفياء

بطاقة شكر

أقدم بالشكر الكبير إلى أستاذي المشرف الدكتور

سهيل نركار

الذي تابعني - دون ملل - في كل خطوات عملي، وأفادني بتوجيهاته ونصائحه

وملاحظاته، وكره لي تصحيح الفصول مرّات ومرّات، وقدم لي الكثير من

المصادر التي أفادتني في هذا البحث.

قرار لجنة الحكم على أطروحة الدكتوراه

المحتويات

2	المقدمة
7	دراسة ونقد لأهم مصادر البحث
13	جغرافية الجزيرة الفراتية وبلاد الشام الشمالية
20	المبحث الأول : مملكة حلب ودورها في الصراع الأيوبي الأيوبي
20	تمهيد
22	مملكة حلب ودورها في الصراع الأيوبي الأيوبي
39	المرحلة الأولى : مرحلة الرعاية والوصاية من قبل ضيفة خاتون وتمتد بين عامي (634 - 640 هـ / 1236-1242 م) :
46	- المبحث الثاني : دخول المغول ونهاية الحكم الأيوبي
61	الفصل الثاني : العلاقات الخارجية لمملكة حلب الأيوبية
61	المبحث الأول : العلاقة مع الأراقة
61	1- العلاقة مع الأراقة في " ماردين " :
68	- المبحث الثاني : العلاقات الأيوبية مع الخوارزمية
78	المبحث الثالث : العلاقات الأيوبية مع سلاجقة الروم
92	المبحث الرابع : علاقة الأيوبيين مع المماليك في مصر ⁽¹⁾
107	الفصل الثالث : الأوضاع السياسية في إمارة أنطاكية
162	الفصل الرابع : مملكة أرمينية الصغرى
162	تمهيد : أ- أصل الأرمن :
209	الفصل الخامس : الأوضاع السياسية في الموصل بين سنة (600-658 هـ / 1203-1260 م)
209	تمهيد :
209	المبحث الأول : حكم الأتابكة الزنكيين (600-619 هـ / 1203-1220 م) :
232	المبحث الثاني : حكم بنو لؤلؤ (619-658 هـ / 1220-1260 م) :
236	المبحث الثالث: المغول وبدر الدين لؤلؤ :
241	المبحث الرابع : العلاقات الخارجية لإمارة الموصل
252	الخاتمة
255	مصادر ومراجع الأطروحة
255	المصادر :
260	- المراجع العربية والمعرية :
266	- الموسوعات والمؤتمرات والمجلات :
267	المصادر والمراجع الأجنبية
268	ملاحق الدراسة

المقدمة

تعد بلاد شمال الشام والجزيرة الفراتية ذات أهمية كبيرة بسبب تمتعها بمكان استراتيجي وإمكانات اقتصادية كبيرة ، لذلك كانت مسرحاً لظهور عدد من الإمارات الإسلامية التي عاشت مدة طويلة من الزمن مثل الإمارة الحمدانية و العقيلية و المرداسية .

ثم ازدادت أهمية هذه المنطقة إثر تحركات القبائل الكبرى من وسط آسيا واتجاهها غرباً كالغز و السلاجقة والقبائل التركمانية والخوارزمية والمغول.

ولذلك أضحت الجزيرة الفراتية وشمال الشام هدفاً سياسياً واستراتيجياً لثبتي نفوذ تلك القوى واتخاذها مكاناً للاستقرار ، وهذا أدى إلى تغيرات بشرية وحضارية واسعة النطاق لم تشهد مثلها الأمة الإسلامية.

- ومما تقدم يلاحظ أن بلاد شمال الشام والجزيرة الفراتية تقدم مجالات واسعة لقيام دراسات عديدة توضح الدور الذي شغلته المنطقة في سير الأحداث ، وعلى الرغم من قيام العديد من الدراسات التي غطت عهد صلاح الدين وما قبله وعهد الظاهر بيبرس وما بعده بقيت حقبة البحث ما بين هذين العهدين لم تلق اهتماماً كبيراً حتى الآن ، لذا انصب اهتمامي - بفضل التوجيهات القيمة للأستاذ المشرف - على تقديم دراسة في هذا المجال استكمالاً لسلسلة الدراسات التي عالجت تاريخ الإمارات والممالك التي قامت في بلاد الجزيرة الفراتية وشمال الشام ، وتوافر العديد من المصادر التاريخية لتلك الحقبة لأشخاص عايشوا الأحداث وكانوا شهود عيان عليها أدى إلى وضع الوقائع في أماكنها الصحيحة بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية ، إضافة لرسم صورة سياسية أوضح للصراع الذي تشهده المنطقة حالياً يشبه ما سيرد الحديث عنه بشكل مفصل في هذه الأطروحة .

حملت الأطروحة عنوان (العلاقات السياسية بين كيانات شمال بلاد الشام والجزيرة الفراتية (600-1203/1260م) ولايضاح هذه العلاقات جاءت الأطروحة في خمس فصول رئيسة . يتقدمها عرض وتحليل لأهم المصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها ، ولا سيما أن إنجاز الأطروحة تتطلب العودة إلى مصادر عدة للحدث الواحد ، لذلك تم الاعتماد في منهجية البحث على منهج استقرائي استنتاجي ومنهج نقدي تحليلي - تركيبى بحيث تم تناول المسائل وإيراد كافة الأخبار المتعلقة بها من المصادر المختلفة ومن ثم مقارنتها مع بعضها وأخذ الأقرب إلى الحقيقة التي تتناسب مع المعطيات التاريخية وتوافق العقل وخاصة في الأرقام والأعداد ليصار إلى ضبط الحدث في الزمان والمكان بهدف استخلاص النتائج .

كما شملت الدراسة على تمهيد جغرافي لمنطقة البحث ، فالتاريخ لا ينفصل عن الجغرافية ، وهنا كان لابد من وضع دراسة للترابط الجغرافي التاريخي للمنطقة ، وأماكن توزع القوى المتصارعة على أرض منطقة من أكثر مناطق العالم أهمية من حيث موقعها الجغرافي ، فهي تشكل نقطة اتصال وحدود قارية بين آسيا وأوروبا ، ومعبر إلى إفريقيا ، وهذا ما حولها إلى ساحة صراع جغرافي تاريخي ما زال مستمراً ليومنا هذا .

- كرس **الفصل الأول** لبحث الأوضاع السياسية لشمال بلاد الشام (مملكة حلب) مركز شمال بلاد الشام وحاضرة الحكم الأيوبي في حقبة الدراسة ، والدور الذي لعبته حلب في الصراعات الأيوبية الأيوبية ، ودورها في تغيير المعادلات السياسية والعسكرية في المنطقة منذ تولي الملك الظاهر غازي الذي شكل مع عمه العادل محور العلاقات الأيوبية ومركز القرار السياسي بعد وفاة صلاح الدين . وقد استطاع الظاهر غازي إلى حد ما تثبيت قواعد مملكته ، وأن يقف في وجه أطماع عمه العادل للتوسع في شمال بلاد الشام ، مستخدماً الدبلوماسية السياسية التي وصلت إلى المصاهرة مع عمه العادل ، لتجنب الدخول في الصراع العسكري من جهة ولحفظ ملكه في حلب لأبنائه من بعده وللخلاص من أطماع الأمراء الأيوبيين في حكم أبنائه من بعده ، وهذا فعلاً ما حدث فبعد موت الظاهر انتقل الحكم لابنه الملك العزيز محمد ابن ضيفة خاتون بنت الملك العادل وكان طفلاً صغيراً الأمر الذي مكن ضيفة خاتون من الحصول لابنها على مباركة العادل وأخيها الأشرف على تولي طفلها ملك حلب ، والاستعانة بهما لاحقاً في الوقوف في وجه أطماع ملوك البيت الأيوبي ومحاولتهم الاستيلاء على الحكم في حلب . لم ينته هذا الأمر بموت العزيز بل استمر لعهد ابنه الناصر يوسف الثاني الذي مع نهاية حكمه انتهى الحكم الأيوبي لمملكة حلب بدخول المغول كما سيرد لاحقاً .

أما **الفصل الثاني** فقد جاء استكمالاً للفصل الأول فقد تعرض لعلاقات حلب الخارجية التي تمتعت بموقع جغرافي متميز ووجود دول وإمارات متعددة محيطة بها ، وهذا ما دفعها للدخول في تحالفات عديدة مع تلك الدول خارج إطار البيت الأيوبي . وكان لدراسة هذه العلاقات صعوبات عديدة نظراً لتشابك العلاقات وتداخلها ووجود أطراف عديدة فاعلة في الوقت ذاته ، ولتسهيل دراسة هذه العلاقات تم تقسيم هذا الفصل لمحاور عديدة .

كان المبحث الأول للحديث عن العلاقة مع **الأرناؤة** التي تراوحت بين التحالف والمواجهة تبعاً للظروف السياسية التي أوقعت الخلاف بين أمراء المنطقة ، وخلقت حالة عدم الاستقرار ، وهذا الأمر كان عاملاً مساعداً لدخول المغول إلى المنطقة وفتح الطريق أمامهم إلى الشام ، كما أن هذه الحروب

أدت إلى إضعاف جميع الأطراف ولهذا لم يجد المغول عند دخولهم قوة قادرة بشكل فعال على الوقوف في وجههم . وسيرد تفصيل أحداث هذا المبحث في الفصل الثاني .

وتضمن المبحث الثاني دراسة للعلاقة الأيوبية مع فلول الخوارزمية وطموحات الأخيرة في التوسع بمناطق الحكم الأيوبي مما دفع بعض الملوك الأيوبيون لاستمالتهم واستخدامهم في حروبهم الأيوبية الأيوبية ، وهذا الأمر من أكبر سلبيات هذا العصر ومن أسباب دماره ويعكس صورة واضحة لما تعانيه بلادنا العربية في الوقت الحالي ، ولاحقاً انتهى أمر الخوارزمية في معركة عيون القصب . وفي المبحث الثالث تم الحديث عن العلاقات الأيوبية في مملكة حلب مع سلاجقة الروم وقد حملت عنوان التبدل والتغير تبعاً للوضع السياسي والمصلحة الاستراتيجية للمنطقة ككل .

وأفرد المبحث الرابع للعلاقة الأيوبية مع المماليك في مصر بما حملته هذه العلاقة من عدا ، وذلك لأن الأيوبيون كان من الصعب عليهم تقبل استئثار ممالكهم وممالك آبائهم بشؤون الحكم بعد أن قتلوا سلطانها الشرعي في مصر .

وينتهي المبحث الخامس بالحديث عن العلاقة مع الخلافة العباسية في بغداد والتي اقتضت على التبعية الاسمية لهذه الخلافة بلا سلطة فعلية .

على أن هذا الصراع لم يقتصر على أبناء البيت الأيوبي ، بل امتد إلى جيرانهم الصليبيين في أنطاكية والأرمن في كيليكيا وهذا ما ورد تفصيله في الفصلين الثالث والرابع.

أفرد الفصل الثالث للحديث عن إمارة أنطاكية الصليبية وعلاقتها بجيرانها من مسلمين وغيرهم ، ودخول أطراف عديدة في هذه العلاقة بشكل مباشر أو غير مباشر ، بحيث لا يمكننا إغفال أي جانب من هذه العلاقات ، وهذا ما يدفع الباحث للحديث عنها بشكل مفصل وفي فصل مستقل.

تضمن الفصل مبحثين رئيسيين . الأول كان لتوضيح التنافس والصراع على عرش أنطاكية ، والثاني للحديث عن علاقات أنطاكية الخارجية ولا سيما العلاقة مع المسلمين والمغول والصليبيين .

تناول المبحث الأول إمارتي بوهيموند الرابع الأولى والثانية في أنطاكية ، وكيفية وصوله إلى السلطة وما ترتب عليه من ترابطات سياسية لاسيما تقاربه من الاستبارية من جهة ومع الملك الظاهر صاحب حلب من جهة ثانية ، واضطراب علاقته مع البابوية من جهة ثالثة . أفقده تأييد الجميع ، مما مهد الطريق إلى اعتلاء ريموند روبين عرش أنطاكية ، ونال تأييد رجال الدين وعلى رأسهم البطريرك والبابوية ، ولكن سرعان ما تغيرت الظروف وتغيرت المواقف ، مما مهد الطريق أمام بوهيموند الرابع للعودة إلى الحكم ، ونقل الحكم إلى ابنه بوهيموند الخامس الذي تقلصت في عهده القدرة العسكرية

لإمارة أنطاكية ، وأصبحت عرضة لهجمات التركمان ، لاحقاً انتقل الحكم إلى بوهيموند السادس الذي حظي بتكريم الملك لويس التاسع وتخلص من وصاية أمه ، ولكن في عهده حصل صراع مرير بين الجنوبية والبنادقة ، في وقت كانوا فيه بأمس الحاجة للوحدة لا سيما مع وصول خطر المغول من الشمال وتنامي قوة المماليك في مصر .

أما المبحث الثاني وهو علاقات أنطاكية الخارجية لا سيما العلاقة مع الأيوبيين التي اتسمت في بدايتها بعلاقات ودية تبعاً للمصالح المشتركة للطرفين ومحاولة كل طرف تجنب الدخول في صراع يفقده ما بين يديه من السلطة والنفوذ . لكن مع موت العادل والظاهر تغيرت هذه الحالة بالنسبة لأنطاكية ، وأصبحت العلاقة رهناً بالظروف الخارجية ، لا سيما مع سقوط حلب بيد المغول ، فسارعت أنطاكية إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للمغول، كما تعرض البحث لشرح موقف أنطاكية من الحملات الصليبية المتأخرة لا سيما الحملة السادسة والحملة السابعة والدور الذي لعبته أنطاكية في مسار أحداث هذه الحملات .

- أما الفصل الرابع فكان مملكة أرمينية الصغرى ، يتقدم الفصل تمهيد عن أصل الأرمن ، وتوضيح الفرق بين أرمينية العظمى وأرمينية الكبرى وأرمينية الصغرى من حيث التاريخ والموقع الجغرافي ، ولتوضيح الصورة أكثر تضمنت الدراسة ملحق خرائط للمناطق المذكورة . بعد ذلك تم تقسيم الفصل إلى مبحثين رئيسيين الأول تناول حكام أرمينية الصغرى والثاني العلاقات الخارجية لمملكة أرمينية . المبحث الأول بدأ بعهد ليون الثاني - أمير الأسرة الروبينية - الذي أتبع سياسة ربط أسرته بملوك الغرب المسيحي من خلال علاقات المصاهرة والزواج لكي يضمن تحالفات قوية يستخدمها في وجه أعدائه .

أما المبحث الثاني أفرد لعلاقات أرمينية الخارجية، لا سيما العلاقة مع الأيوبيين التي اتخذت طابعاً حربياً في بعض مراحلها تبعاً للظروف ، وتداخل المصالح حتى فيما بين الأيوبيين أنفسهم ، والتي دخل فيها الأرمن واستغلوها لصالحهم، وكثيراً ما تجد حكام أرمينية يبرمون العقود والصلح مع كافة الأطراف ويتحولون عنها إذا ما تغيرت مصالحهم ، في المقابل كان الأيوبيين ولا سيما في حلب يسعون إلى خلق توازن بين أنطاكية وأرمينية من حيث القوة بما يصب في مصلحة حلب .

أما العلاقة بين الأرمن وأنطاكية فقد كانت في حالة توتر مستمر حتى وصول لويس التاسع إلى بلاد الشام، بالمقابل تمحورت علاقة الأرمن مع البابوية على تحقيق مطامع أرمينية في أنطاكية ، فكان تحريض أرمينية للبابوية ضد أنطاكية بحجة تحالف أنطاكية مع المسلمين .

وعند ظهور المغول على الساحة سارعت أرمينية الصغرى لوضع نفسها تحت جناح القوة الضاربة الجديدة ، أملين الحصول على اعتراف المغول بمملكتهم ، لكن المغول عاملوهم معاملة التابع الذي ينفذ أوامر السيد ، رغم أنهم استفادوا من هذه التبعية لكن الفائدة انتهت بهزيمة المغول في عين جالوت حيث كان على الأرمن الانسحاب من الأماكن التي سيطروا عليها في حلب ودمشق بعد هجمات الظاهر بيبرس عليهم.

- الفصل الخامس حمل عنوان الأوضاع السياسية في الموصل وقسم إلى أربع مباحث رئيسية يتقدمها تمهيد عن الإدارة الأتابكية للموصل ، ثم يتعرض البحث للحديث عن أبرز حكام الأتابكة ، ولا سيما عز الدين مسعود الذي حاول بعد وفاة صلاح الدين استغلال فرصة الخلاف بين حلفائه للسيطرة على الأراضي. إلا أنه مرض وهو يحاصر نصيبين في نفس السنة فعاد إلى الموصل وتوفي فيها، وبعد ذلك تمثلت العلاقة في عهد خلفائه بالمبدأ القائل لا سياسة دائمة بل مصالح دائمة.

في المبحث الثاني كان الحديث عن سيطرة بنو لؤلؤ على شؤون الحكم وتحكمهم بالدولة بشكل كامل ، ومن هنا شغل لؤلؤ الدور الرئيس في توجيه العلاقات مع كافة الأطراف المتصارعة على الساحة السياسية . وخصص المبحث الثالث لشرح علاقة المغول وبدر الدين لؤلؤ الذي كان خير تابع للمغول وخادماً وفياً لسياستهم في المنطقة ، وذلك لتحقيق مصلحته الشخصية على الصالح العام للبلاد . أما الفصل الرابع فقد ورد فيه الحديث عن العلاقات الخارجية لإمارة الموصل ، وقسم لقسمين الأول أثناء حكم الأتابكة والثاني أثناء حكم لؤلؤ وهذا ما سيرد مفصلاً في سياق البحث .

ختم البحث بخاتمة تمثل فلسفة متكاملة لكل جوانب البحث والنتائج التي تم الوصول إليها، كما ورد في نهاية البحث قائمة لأهم المصادر والمراجع التي تم الاعتماد عليها .

في النهاية أرجو أن أكون قد وفقت في إخراج هذه الأطروحة على وجه جيد ، وإن بدر أي قصور وبعد عن الهدف فأرجو التصويب وسأعمل على تلافي ذلك ، راجياً الله التوفيق لي ولكم .

دراسة ونقد لأهم مصادر البحث

اعتمدت في هذه الأطروحة على مجموعة واسعة من المصادر والمراجع التي سترد في نهاية الأطروحة بشكل مفصل، إلا أن هناك بعض المصادر كان لها التأثير الكبير في الأطروحة وسأقوم بعرضها ونقدها وإيضاح أهمية استقاء المعلومات منها، لا سيما أن الكثير من مؤلفيها عاصروا الأحداث وكانوا شهود عيان على الوقائع التي كتبوها بحكم عملهم وقربهم من سلاطين الأيوبيين .

*- **ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي الفضل عبد الله - توفي 626هـ - 1228م**

(معجم البلدان): تحقيق فريد الجندي، 5 مجلدات، دار الكتب العلمية، بيروت 1986م . كتاب هام جداً لكل عصر، يتفوق على أي كتاب من نوعه ومادته مأخوذة من مصادر موثوقة ولا سيما من أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي المتوفي عام 275هـ - 985م، ومواده على درجة عالية الأهمية، فهي مادة شاملة تقدم صوراً كاملة وجغرافية مع التعرض إلى النواحي الأخرى سياسية واجتماعية واقتصادية وإدارية، واعتمد المؤلف أسلوب التصنيف المعجمي مما يسهل استخراج المادة، وقد شملت مواده أكثر المواقع والأصقاع التي عرفت في زمانه، كما أن لديه معلومات لا نجدها عند غيره. وقد استندت من الكتاب كثيراً في التعريف بالمواقع والأمكنة التي وردت في البحث.

- **ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الشيباني، ت 630هـ/1233م) "الكامل في التاريخ"**

مؤرخ أصيل وصاحب فكر ناقد ، ورؤية دقيقة فاحصة، ينظر للحوادث العظيمة نظرة عميقة ويربط بين جزئيتها وما يتصل بها من حوادث، فهو مثلاً حين تحدث عن الحملة الصليبية الخامسة وتهديدها بلاد الشام ومصر، ربط بين خطر الصليبيين القادم من جهة الغرب وبين بدء الغزو المغولي لبلاد ما وراء النهر من جهة الشرق كخطر جسيمين هددوا العالم الاسلامي في وقت واحد.⁽¹⁾ وتظهر حاسة ابن الأثير التاريخية عندما تحدث عن غزوات المغول، فعلى الرغم من أنه توفي سنة 630هـ فإن ما عاصره من غزوات المغول الأولى جعله يتنبأ بالمصير الرهيب الذي ينتظر العالم الاسلامي

على أيدي المغول ، فقال عندما تحدث عن بدء غزوات المغول - حوادث سنة 617هـ- ((لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر

¹ - انظر ابن الأثير: الكامل ج12، ص327.

أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أُمي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً...) ثم يسرد غزوات المغول . كحادثة لا نظير لها في التاريخ.⁽¹⁾

ترجع أهمية كتاب " الكامل في التاريخ" إلى أن مؤلفه كان معاصراً لجزء كبير من الحقبة موضع الدراسة حتى سنة 628هـ حيث ينتهي تاريخه ، وقد أفاد البحث من الكامل في دراسة الموقف في بلاد الشام عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة 589هـ اذ تحدث بالتفصيل عن النزاع الذي دار بين أبناء صلاح الدين ودور عمهم العادل في ذلك الصراع ، غير أنه يجب التنبيه إلى عدم الاعتماد كلياً على ابن الأثير في هذه النقطة ، نظراً لأنه لم يشر إطلاقاً إلى الدور الذي شغله أخوه ضياء الدين ابن الأثير خلال وزارته للأفضل حيث كان سبباً في ازدياد الخلاف بين الأفضل وأخوته.

وأفاد الكتاب في دراسة سيطرة العادل على بلاد الشام ، والموقف بين المسلمين والصليبيين زمن العادل، والعلاقات بين سلاجقة الروم والأيوبيين ، وعلاقة بلاد الشام بمملكة أرمينية الصغرى ، وأثر غزوات المغول الأولى على الجزيرة وبلاد الشام.

- ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت 660هـ) :إن كتابيه بغية الطلب في تاريخ حلب، وزبدة الحلب في تاريخ حلب مصدران هامين من مصادر الدراسة وذلك لأنهما يغطيان معظم فصول الدراسة .

- كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب: هام جداً وهو يحوي على معلومات كبيرة جداً عن تاريخ بلاد الشام الإسلامي والتاريخ الإسلامي بشكل عام . كما يحوي معلومات حيوية واقتصادية تتعلق بحلب وبسكانها وسكان الثغور الإسلامية ، وتم الإفادة منه في معظم الفصول، ومما يؤسف له ضياع تراجم الملوك والأمراء الأيوبيين الذي كان لهم دور كبير في مملكة حلب من سلالة الظاهر غازي وأمرائه.⁽²⁾

- كتاب زبدة الحلب في تاريخ حلب : تم الإفادة منه في معظم فصول الدراسة ، فهو يحوي على معلومات دقيقة وشاملة في مختلف أوجه الحياة إلا أنها وردت بشكل مختصر ، ويبدو الكتاب للوهلة الأولى مرتب بترتيب السنين إلا أنه حقيقة لم يلتزم بذلك، فقد جمع الحوادث حرصاً على تسلسلها

¹ -ابن الأثير: الكامل، ج12، ص358 وما بعدها.

² - زكار : إمارة حلب ، ص 21-23. عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط1، 1989منص 77-79. ضامن ،محمد: إمارة حلب في عهد السلاجقة ، منشورات دار أسامة ، دمشق، بيروت، 1990م، ص21-22. شاعر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، م2، ص263-266.

وعلى عدم تكرارها. وقد أمدنا بمعلومات لم نجدها عند غيره من المؤرخين المعاصرين له. وقد ساعد في تحديد طبيعة العلاقات بين حلب وأنطاكية أثناء صراع صليبيها مع الأرمن ، وانفرد بذكر غارة الصليبيين على اللاذقية عام 600هـ/1203م. ومن مأخذ المصدر إيجازه الشديد الذي غلب على رواياته وخاصة في نهاية تاريخه، ولعل السبب أنه توسع في هذه المعلومات في كتابه البغية وبشكل أكثر توسعاً، أو ربما كان السبب أن ابن العديم في هذه الحقبة أنشغل بالسياسة وزادت أسفاره بين حلب والقاهرة ودولة السلاجقة .

- ابن شداد الحلبي (عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم، ت 684هـ - 1258م): الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة،

إنّ هذا العنوان يستدعي التوقف عنده والبحث في معناه وهدف ابن شداد من وضعه كعنوان لكتابه ، وبعد الاطلاع على الكتاب يجد الباحث إشكالية هذا البحث عنده ، فكلمة الأعلام معجماً تعني (الجواهر ، الثمين ، النفيس) . وهي رمزية إلى الترابط التاريخي الوثيق بين منطقتي الجزيرة وشمال بلاد الشام ، لا سيما أن ابن شداد تلقى علومه في مساجد حلب ومدارسها، وتعمق في دراسة الفقه ، وقد أعجب بكتاب ابن العديم الكبير " بغية الطلب " وبتاريخ "ابن عساكر" واقتبس منهما الأسلوب والمعلومات . وقد عمل في إدارة المملكة لدى الناصر يوسف الثاني نتيجة خبرته بالخارج والأموال . وقد قام الناصر يوسف الثاني بتكليفه في عدد من السفارات خاصة إلى أمراء الجزيرة ، وآخرها كان إلى يشموط بن هولاكو حينما كان محاصراً لميافارقين ، وهرب من حلب سنة 657هـ/1259م إلى مصر حيث عاش في كنف الظاهر بيبرس ، وفي مصر صنف كتاباً سماه " الروض الزاهر في أخبار الملك الظاهر " شارحاً فيه سيرة الملك الظاهر الشخصية وذلك تقديرًا وثناءً لإنعام الظاهر، ثم صنف كتابه " الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة الذي أتمه سنة 679هـ/1280م. وقد درس في هذا الكتاب بلاد الشام دراسة قيمة كشف فيها عن الواقع الطبوغرافي لمدينة حلب ، ودرس قنسرين والثغور والعواصم ، ثم ألحق ذلك بدراسة لدمشق ولبنان والأردن وفلسطين ، ثم كتب جزءاً ثالثاً أفرده لتاريخ الجزيرة حتى خروجها من أيدي المسلمين إلى أيدي المغول ، وغطى بذلك بلاد الشام بقسميها الشمالي والجنوبي وأضاف له الجزيرة وأهم إماراتها ومدنها . ويلاحظ أنه جمع المعلومات المتعلقة بحلب من كتاب ابن العديم " البغية" مما يقلل بعض الشيء من مكانة قسم حلب إلا أن إيراده قوائم بجوامعها ومدارسها وحماماتها وبساتينها وتفاصيل ميزانيتها أعطى أهمية لكتابه ، ورفع مكانته ، وأصبح المصدر الأساسي في بابيه من هذه الزاوية حيث استفدت منه في كتابة فصول الدراسة كافة .

* - ابن العبري، غريغوريوس بن هارون الملطي - توفي 685 هـ - 1286م

(تاريخ الزمان، المعروف بتاريخ ابن العبري): تعريب: إسحاق أرملة، دار المشرق بيروت 1986م .
والكتاب تكملة حتى سنة 697 هـ - 1297م بقلم المؤلف برصوم الصّافي، وهما من الطائفة السريانية، والمؤلف لا يخفي ابتهاجه بانتصارات الفرنجة والمغول على المسلمين واستيائه من انتصار المسلمين.

- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، 697هـ/1298م:

(مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) ، تح: جمال الدين الشيال وآخرون، دار إحياء التراث، مصر 1985م ، 5 مجلدات،.

من أهم مصادر البحث ، ويعتبر من أهم مصادر دراسة بني أيوب ، لما فيه من معلومات تفصيلية لا توجد في كتاب آخر، وخلال المدة منذ وفاة صلاح الدين سنة 589هـ حتى سنة 615هـ اعتمد ابن واصل على مصادر مفقودة مثل تارلايخ ابن القادسي، وهو مؤرخ عراقي عاش أواخر القرن السادس الهجري وأدرك القرن السابع ، وأعتمد ابن واصل على معلومات العماد الأصفهاني، حيث أرخ الأخير للسنوات السبع التي عاشها بعد صلاح الدين حتى سنة 597 هـ، كما اعتمد على رسائل ابن الأثير وزير الملك الأفضل بن صلاح الدين.⁽¹⁾

ومنذ سنة 626هـ بدأ يكتب كشاهد عيان، إذ هيأت له صلاته بملوك حماة، وصادقته للناصر داود ابن المعظم وبعض رجال الدولة الأيوبية ، أن يطلع على الكثير من خبايا السياسية وأسباب الصراع الذي اندلع بين الأيوبيين ، وقد أفادت هذه المعلومات البحث بشكل كبير في معظم فصوله ، نظراً لما فيه من معلومات قيمة وجديدة ابن واصل .⁽²⁾

* - أبو الفداء، إسماعيل بن علي الملك المؤيد - توفي 732هـ

(المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ أبي الفداء)

قام أبو الفداء ومن اسم كتابه المختصر باختصار كتب غيره ولا سيما كتاب "الكامل" لابن الأثير، وهو يبدأ كتابه من ابتداء الزمن وحتى قبيل وفاته، وقد كان الكتاب مصدراً هاماً جداً من مصادر البحث مع أن القسم الأخير من الكتاب للسنوات العشرة الأخيرة من حياة أبي الفداء جاء

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص144 وما بعد

² - هو غير بهاء الدين ابن شداد (539-632هـ) مؤلف كتاب سيرة صلاح الدين المعروف باسم (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) انظر ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج2، ص13-14.

مختصراً جداً، ويكاد يكتفي بحوادث الوفاة التي تقع في السنوات التي دونها، لأن الكتاب اعتمد أسلوب الحوليات . وقد تابع ابن الوردي تدوين الحوادث حتى عام 479هـ - 1348م، لكن معلوماته التي قدمها جاءت هزيلة وتكاد تقتصر على أخبار الوفيات التي دونت بأسلوب الحوليات أيضاً.

* - الجزري، شمس الدين محمد بن إبراهيم الجزري .

1- (تاريخ حوادث الزمان وأنبائه، ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري): لم يتحدث أحد ممن ترجم للجزري عن بدايته ونهايته، وجاء في الموسوعة العربية أنه بدأ بسنوات تسبق ميلاد مؤلفه، والواقع أنه يبدأ بحوادث سنة 593 هـ ويستمر حتى سنة 738 هـ، كما ذكر الذهبي الذي اختصر قسماً من الكتاب . وقد نشرت المكتبة العصرية بصيدا قطعة من تاريخ الجزري بتحقيق الدكتور عمر عبد السلام التدمري سنة 1993م .

وابن الجزري ينقل كثيراً عن تاريخ البرزالي، كما أن اليوناني نقل كثيراً عن تاريخ ابن الجزري، ويمتاز عن تاريخ البرزالي بما فيه من معلومات تاريخية لا توجد عند البرزالي.

2- (المختار من تاريخ الجزري): للحافظ الذهبي، وقد اختار حوادث متفرقة من سنة 593هـ حتى سنة 698هـ، وقد نشر ذلك بتحقيق خضير بن محمد خليفة، والتحقيق سيء، وقد نشرته دار الكتاب العربي في بيروت سنة 1408هـ - 1988م.

* - الفلقشندي، شهاب الدين أحمد بن علي - توفي 821هـ - 1418م .

(صبح الأعشى في صناعة الإنشاء): وهو موسوعة حضارية كاملة للعالم الإسلامي تغطي النواحي التاريخية والجغرافية والسياسية والأدبية والاجتماعية والعلمية والإدارية ونظام الحكم، وقد اعتمد المؤلف على مصادر هامة منها تقويم البلدان لأبي الفداء ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، ويضيف المؤلف عما استقاه من معلومات عن المصادر الموثوقة ما أتيح له معرفته والوثائق التي تحت يديه بصفته رئيساً لديوان الإنشاء، ويقدم المعلومات ويوثقها بالوثائق الرسمية الصادرة عن ديوان الإنشاء.

* - المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي الشافعي المقرئ - توفي 845هـ - 1441م :

درس الفقه والتحق بديوان الإنشاء في مصر . وبعد ذلك أصبح قاضياً ومدرساً في جامع الحاكم، وقد طلب منه السلطان فرج بن برقوق أن يتسلم نيابة الحكم في دمشق إلا أنه رفض ودرس في المدرسة الأشرفية، ثم عاد إلى القاهرة وانقطع للتأليف حتى وفاته.

ألف المقرئ العديد من الكتب ، وضمن الدراسة تم الاعتماد عليها بشكل كبير ولا سيما كتابه:

1- (السلوك لمعرفة دول الملوك): الذي أرخ فيه لمصر منذ بداية الدولة الأيوبية حتى قبيل وفاته.

وهو من المصادر المهمة في تاريخ مصر السياسي، وكانت الفائدة كبيرة من كتاب السلوك في معظم فصول الأطروحة، ومن الملاحظات الإدارية والاجتماعية الخاصة بتلك الحقبة والتي تميز بها المقرئ عن غيره. وللخاوي ذيل على السلوك سماه (التبر المسبوك في ذيل السلوك).

2- (المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بخط القاهرة): استفتت منه بشكل كبير فهو يعتبر مصدراً هاماً في الطبوغرافيا التاريخية والعمرانية الإسلامية، ومن أول الكتب المتخصصة في تاريخ المدن، لا يضاهيه بذلك إلا كتاب الأعلام الخطيرة لابن شداد.

*- المنصوري، الأمير بيبيرس المنصور الدوادار - توفي 725 هـ.

1- (التحفة الملوكية في الدولة التركية): تحقيق صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 1987م. الكتاب ممتاز، لكن التحقيق سيء للغاية، فقد ذكر المحقق وهو يعلق على الخليفة العباسي الأخير المستعصم صفحة 38، أنه ثامن الخلفاء العباسيين، والأخطاء المماثلة كثيرة، وينتهي الكتاب بحوادث سنة 711هـ - 1311م.

2- (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة): الجزء السابع، تحقيق زبيدة محمد عطا، شركة المدينة للطباعة والنشر، مصر، (د.ت)، وهذا الجزء يغطي الحقبة من سنة 650هـ حتى 709هـ،

*- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. توفي 733 هـ.

(نهاية الأرب في فنون الأدب): كتاب موسوعي يشمل سائر النشاط العلمي من زراعة وصناعة وتجارة وإدارة واجتماع وأخلاق، والكتاب هام جداً، أخذ من مصادر موثوقة واستند إلى وثائق بين يديه، قدم منها نصوصاً كاملة مع ذكر المصدر أو صاحب الوثيقة أو الرسالة أو نصوص محاضر مجالس الحكم وكتب دواوين الإنشاء.

*- اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد - توفي 726 هـ.

(ذيل مرآة الزمان): طبع في حيدر آباد في الهند سنة 1960م في أربعة مجلدات، تبدأ من سنة 654هـ وتنتهي بحوادث ووفيات سنة 686هـ، وهي من مكتبة الدكتور المشرف، والكتاب غني عن التعريف،. والكتاب هو ذيل على " مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " لسبط ابن الجوزي.

*- ابن سباط، حمزة بن أحمد الغزي - توفي 930 هـ.

(صدق الأخبار، ويعرف بتاريخ ابن سباط): تحقيق عمر عبد السلام تدمري، طرابلس 1993م، جزءان. والكتاب يؤرخ للحقبة من سنة 526هـ حتى سنة 926هـ أي لأربعة قرون كاملة، وفيه نقص

كبير، وقد اعتمد على من سبقه من المؤرخين، أما في القرن العاشر، فالمؤلف يذكر مشاهداته وهنا تكمن أهمية الكتاب، وهو معاصر للمؤرخ الدمشقي ابن طولون الصالحي .

ولا بد من ذكر بعض أهم المراجع العربية والمعرية التي استعنت بها في إنجاز البحث ومنها :
* - رنسيما، ستيفن .

(تاريخ الحروب الصليبية): تعريف السيد الباز العريني، طبعة مصورة نشرتها دار الثقافة في بيروت سنة 1980م، في ثلاث مجلدات، والكتاب من المصادر المهمة التي تعكس وجهة نظر المؤرخين الغربيين المنصفين، وقليل ما هم. والكتاب من المصادر المهمة التي تبين موقف الصليبيين من المسلمين وتنفذ التصرفات غير الإنسانية لعدد من قادة الحروب الصليبية الغربيين، وفيه معلومات مهمة عن التحالف المغولي - الصليبي.
* - زكار، سهيل.

(الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية): دار الفكر، دمشق 1995 م. يعد هذا العمل الرائد الذي قام به الأستاذ الدكتور سهيل زكار والبالغ مائة مجلد محاولة جدية لإرساء مصادر التاريخ لحروب القرن
جة من وجهة نظر عربية إسلامية، ولم يهمل وجهة النظر الغربية وعرضها كما هي. وقد استندت من الموسوعة بشكل كبير جداً لما فيه من تغطية واسعة لمجمل أحداث الأطروحة .

جغرافية الجزيرة الفراتية وبلاد الشام الشمالية

قبل الخوض في الأحداث السياسية لآبد في البدء من دراسة جغرافية لمنطقة البحث ، وتوضيح موقعها الجغرافي ، وما لهذا الموقع من أهمية في أنتشار القوى المتصارعة في هذه المنطقة التي تعدّ من أكثر المواقع أهمية استراتيجية في العالم العربي لما تتميز به من صلة وصل بين أوربا وأسيا والبحر المتوسط من جهة وإفريقيا من جهة أخرى . كما أنها شكلت منطقة حدود بين العالم الإسلامي من جهة والامبراطورية البيزنطية (1)

وما أتى بعدها من جهة ثانية . وهذا ما جعلها منطقة صراع مستمر حتى يومنا هذا .

¹ - خطاب، محمود شيت ، : بلاد الجزيرة قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد 1985م م 11، ص 434.

وتتضح الأهمية من التركيز الكبير للمصادر العربية الإسلامية على دراسة ووصف الجزيرة الفراتية وبلاد الشام الشمالية وهذا الأمر ظهر مع بداية الفتح الإسلامي مما جعل دراسة المنطقة هدفاً للجغرافيين العرب أمثال ابن خردادبة (272هـ/885م)⁽¹⁾ وابن رسته (367هـ/977م) وابن الفقيه (290هـ/902م)⁽²⁾ و الأصطخري (318هـ/933م)⁽³⁾ وابن حوقل (367هـ/977م)⁽⁴⁾ والمقدسي (387هـ/997م)⁽⁵⁾ وغيرهم الكثير . كانت المنطقة الشمالية الواقعة بين دجلة والفرات تعرف باسم أقور⁽⁶⁾.

أما الجزيرة⁽⁷⁾، هي الجزء الشمالي من بلاد الرافدين التي تتضمن العراق والجزيرة الفراتية ، بينما مفهوم الجزيرة تاريخياً وإدارياً يشمل أراضي تتجاوز النهرين ، وهذا يوضح الاختلاف الوارد بين المصادر الجغرافية حول تحديد حدود الجزيرة⁽⁸⁾. ولم يكن هذا الاختلاف ناتجاً إلا عن تداول مناطق الجزيرة في أيدي الملوك والأمراء وغلبة بعضهم على بلاد بعضهم⁽⁹⁾.

وورد عند الأصطخري أن الجزيرة يحدها خط يمر من الأنبار إلى تكريت في الجنوب ، ثم يسير شمالاً إلى السن والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر حتى آمد ، ثم يتجه غرباً إلى مدينة سمسيات

1 - ابن خردادبة: أبو القاسم - فارسي الأصل - نادم الخليفة المعتمد ، شغل منصب صاحب البريد والخبر بناحية الجبل ، من مؤلفاته " المسالك والممالك " شوقي شعث وفالح بكور : حلب في كتب البلدانين العرب ، دار الرواد ، بيروت 1995م ، ص 30 .

2 - ابن الفقيه الهمداني : أبو عبد الله أحمد بن إسحاق بن إبراهيم ، ولد في همدان ، جغرافي محدث . نبغ في أواخر القرن الثالث الهجري . ومن كتبه : البلدان : ألفه بعد موت المعتضد ، وصف به الأرض والبحار في الصين والهند وبحر العرب ومصر والمغرب والعراق ألخ مع شذرات ونوادر أدبية شيقة . الإدريسي في الجغرافيا العربية : م 1، ص 135 . شوقي شعث وفالح بكور : حلب في كتب البلدانين العرب . ص 40 .

3 - الأصطخري : نشأ باصطخر في إيران . في القرن الرابع الهجري ، جاب البلاد ولقي ابن حوقل ، وضع خارطة شاملة سماها "صورة الكل" . شوقي شعث و فالح بكور : حلب في كتب البلدانين العرب ، ص 61 .

4 - ابن حوقل : أبو محمد بن علي الموصلي المعروف بابن حوقل ، تاجر ورحالة ، ولد ببغداد ثم أقبل على التجوال في أنحاء العالم الإسلامي ، توفي عام 367هـ. له مؤلف " المسالك و الممالك والمغازر والممالك " اقتصر فيه على صفات الممالك الإسلامية ، مزوداً كل إقليم من أقاليم الإسلام خارطة أو أكثر وهذا الكتاب أختص بجغرافية البلاد من حيث الأنهار والعيون والمدن والثروات والتجارة ألخ وقد طبع ط 1 لدين 1873م بعنوان " صورة الأرض " باعتناء دي غويه ، وضمت المكتبة الجغرافية العربية (المجلد الثاني في قسمين) ط 2 : لدين 1928-1939. وترجم إلى الإنكليزية من قبل السير وليم أوسلي وطبعت عام 1800م 0 ويلاحظ أن ابن حوقل قد تأثر بمن سبقه مثل ابن خردادبة و الجهاني و الأصطخري . سوسة ، أحمد : العراق في الخرائط القديمة ، مجمع اللغة العربية ، بغداد 1379هـ. ، ص 19 .

5 - المقدسي: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي الشاري، المعروف بابن البناء . ولد ببيت المقدس عام 335هـ بني جده عكا لأحمد بن طولون فدعي هو بابن البناء . عده سبر نجد أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة . توفي عام 390هـ. الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ط1، عالم الكتب ، بيروت 1989م ، م 1، ص 193.

6 - المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت 1987م ، ص 154، 137، 136.

- أقور : أسم كورة بالجزيرة ، أو هو أسم الجزيرة التي بين الموصل والفرات بأسرها ، الحموي ، ياقوت : معجم البلدان ، ج 2، ص 134.

- ابن شداد : الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تح: يحيى زكريا عبارة ، منشورات دار الثقافة ، دمشق 1993م ، ج 3 ، ق 1، ص 4 .

7 - ابن الفقيه ، أبو عبد الله أحمد بن إسحاق بن إبراهيم : مختصر كتاب البلدان ، تح: يوسف الهادي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط1، 1996م ، ص 128 . - الأصطخري ، أبو أسحق إبراهيم بن محمد الفاسي: مسالك الممالك ، تحقيق محمد جابر المال ، مراجعة شفيق غريال ، دار القلم القاهرة 1961م ، ص 52 . - ابن حوقل : صورة الأرض، بيروت - لبنان 1992، دار مكتبة الحياة ، بوضه ص 189 . - الإدريسي: نزهة المشتاق ، ج 2، ص 654 ، 655 . - القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت 1970م ، ص 351 . - أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص 273.

8 - الدوري: عبد العزيز ، تاريخ العراق في القرن الرابع الهجري ، ط 2، دار المشرق ، بيروت 1986م ، ص 18، 17

9 - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج 3، ق 1، ص 7 .

فالفرات الذي يكون حدها الغربي ، ويضيف إلى ذلك قوله: وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب إلى الجزيرة وهي خارجة عنها لقربها منها.⁽¹⁾

وبهذا يشير الأصطخري إلى الفرق بين المفهوم الشائع للجزيرة والمفهوم الفعلي ⁽²⁾ ويوافق ابن حوقل الأصطخري في تحديد الجزيرة ولكنه كان أكثر وضوحاً منه ، إذ يشير إلى مدن وقرى خارجة عنها ونائية منها، وينسبها إلى الجزيرة ، ليبين أنها تشمل أراضي بين النهرين ووراءهما . ⁽³⁾

وتخلط المصادر الجغرافية بين مدن الجزيرة وثغورها، فيحددها ابن رسته بالمدن التالية: ارزان و ميفارقين و آمد و سميساط و قردى و بازدي و بلد ونصيبين ودارا ورأس العين و قرقيسيا والرقعة وسروج وحران والرها ورأس كيفيا و شمشاط . ثم يذهب إلى أن عدداً منها كانت تشكل الثغور الجزرية كشمشاط وملطية⁽⁴⁾ وزبطرة⁽⁵⁾ ومرعش⁽⁶⁾ والحدث⁽⁷⁾ و سميساط⁽⁸⁾ وحصن منصور .⁽⁹⁾ ويضيف ابن خرداذبة إلى هذه الثغور مدينة كيسوم⁽¹⁰⁾، وكمخ، وقورس⁽¹¹⁾، ودلوك ، ورعبان⁽¹²⁾ ويذهب أبو الفداء إلى أن شمشاط بلدة بالثغور الجزرية بين آمد و خرتبرت⁽¹³⁾

بينما عدّها ياقوت الحموي من ديار مضر .⁽¹⁴⁾ أما الأصطخري فيوافق ابن خرداذبة وابن رسته بأن شمشاط من الثغور الجزرية ، وأنها الثغر الحقيقي للجزيرة ، وذلك لموقعها غربي دجلة وشرقي الفرات

1 - الأصطخري: مسالك الممالك، ص 52 .

2 - الدوري : تاريخ العراق ،ص18 .

3 - ابن حوقل : صورة الأرض ، ص 189- . الدوري : تاريخ العراق ،ص18 .

4 - ملطيه أو ملطية بالعربية ؛ بلدة عامرة من قرى بلاد الروم : ابن شداد : الأعلام الخطيرة ج1، ق2،ص184.

5 - زبطرة: بلدة بين ملطية وسميساط والحدث . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ج1، ق2،ص180.

6 - مرعش: من ثغور الجزيرة التي جلا عنها الروم بعد أن خربوها لما فتحت البلاد . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ج1، ق2،ص168.

7 - الحدث: قلعة حصينة بين ملطية ومرعش: ابن شداد : الأعلام الخطيرة ج1، ق2،ص180.

8 - سميساط: مدينة صغيرة مطلة على الفرات في شرقي جبل اللكام. ابن شداد: الأعلام الخطيرة ج1، ق2،ص191.

9 - ابن رسته؛ أبو علي أحمد بن عمر: الأعلام النفيسة، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1988م، ص107، 106. - "حصن منصور" حصن صغير كان يقيم به منصور ابن جعونة بن الحارث العامري أيام مروان بن محمد . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ج1، ق2، ص183 .- ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله: بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، ج1، ص447، 444.

10 - كيسوم : ولاية عظيمة واسعة، وفيها حصن حصين . الحموي : معجم البلدان ، ج4، ص497. ابن شداد الأعلام الخطيرة ج1، ق2، ص442.

11 - قورس: مدينة قديمة من بناء الروم ، وبها آثار عظيمة، وهي كورة بنواحي حلب . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج1، ق2، ص 438-441. فيها حصن سلمان بن ابي الفرات بن سلمان - الحموي ، ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله الحموي: معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت 1957م، ج2، ص264.

12 - ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله : المسالك والممالك ، دار صادر، أفسس لين، بيروت 1889م، ص97.

13 - أبو الفداء، المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل نور الدين علي: تقويم البلدان ، تصحيح رينود والبارون ، باريس، 1840م ص277 - الفلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، ت 821 هـ/1418م) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح : محمد شمس الدين ، 14 مجلد، بيروت 1987 م . ج4، ص322.

14 - الحموي : معجم البلدان ، ج2، ص494 . - الفلقشندي: صبح الأعشى ، ج4، ص322.

وعلى الرغم من هذا الخلاف بين الجغرافيين على تحديد تبعية بعض الثغور ، إلا أنهم اتفقوا على أن حدود الجزيرة الشمالية تمتد إلى المجرى الأدنى لنهر مدينة شمشاط .

ويختلف الجغرافيون العرب في تقسيم الجزيرة ، فمنهم من يذهب إلى أنها تتكون من ديار ثلاث : ديار ربيعة ، وديار بكر ، وديار مضر ،⁽¹⁾ بينما يتحدث ابن خرداذبة ، وابن رسته و الأصطخري، وابن حوقل عن ديار مضر وديار ربيعة فقط في الجزيرة⁽²⁾

بينما يرى ياقوت أن سبب جمع ديار ربيعة وديار بكر وتسميتها بديار ربيعة يعود للقبائل العربية التي نزلت في هاتين المنطقتين وكلها من ربيعة .⁽³⁾

ديار بكر يحددها ياقوت بقوله " حدها ما غرب من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ، ومنه حصن كيفا ، و آمد ، و ميفارقين ، وقد يتجاوز دجلة إلى سعرت ، وحيزان ، وحيني وما تخلل ذلك من البلاد ولا يتجاوز السهل " .⁽⁴⁾

وبذلك تكون ديار بكر هي المنطقة الواقعة غرب دجلة ، وشرق الفرات ، وإلى الشمال من ديار ربيعة إلى تل " فافان " الواقع على نهر دجلة تحت مدينة ميفارقين .⁽⁵⁾

تمتاز ديار بكر بكثرة مراعيها وغاباتها ، ويتخللها الأودية والكهوف في قمم الجبال وهذا الأمر أعطاها تحصيناً ممتازاً مكنها من التحكم بالطرق الواصلة بين أرمينية والبلاد الواقعة إلى الشرق منها للقاصد من بلاد الشام وجنوب الجزيرة ، ومن أشهر مدنها آمد⁽⁶⁾ وهي قصبتها⁽⁷⁾ و ميفارقين ،⁽⁸⁾ وماردين، و أرزن⁽⁹⁾، هذه المدن الأربع هي أمهات أمصار ديار بكر، وفيها قلاع وحصون قوية منها ما هو روماني ، ومنها محدث في العصور الإسلامية .⁽¹⁰⁾

أما ديار ربيعة فقد ذهب ابن خرداذبة إلى أنها المنطقة التي تمتد من جزيرة ابن عمر ومن سنجار، والخابور، إلى آمد ، و أرزان ، وجعل آمد و أرزان وماردين و ميفارقين من ديار ربيعة ، وهي أساساً

1 - المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص137 . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1، ص5 . - أبو الفداء: تقييد البلدان ، ص273.

2 - ابن خرداذبة : المسالك ص 246، 245، 95، 85، 73 . - ابن رسته : الأعلام ، ص106 . - الأصطخري: مسالك الممالك ، ص52 .

3 - الحموي : معجم البلدان ، ج2، ص494.

4 - الحموي : معجم البلدان ، ج2، ص494. كانار : الجزيرة ، م11، ص434 .

5 - المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص137 .

6 - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص137. - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1، ص6 . - ابن جبير، محمد بن أحمد الكتاني : رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت

، 1964م، ص175.

7 - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 137. - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1، ص6.

8 - ابن خرداذبة : المسالك ، ص95. - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص135، 133. - الإدريسي : نزهة المشتاق، ج2، ص662.

9 - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1، ص66.

10 - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1، ص246.

من ديار بكر ، وهذا الالتباس جاء من كونه يقسم الجزيرة إلى ديار بكر وديار ربيعة فقط. (1) أما عند المقدسي وابن جبير فتصل ديار ربيعة إلى رأس العين ونصيبين ثم إلى جزيرة ابن عمر. (2)

وبذلك تكون ديار ربيعة تقع إلى الشرق من ديار مضر ، وتضم الأرض التي تقع شرقي الخابور الكبير المنحدر من مدينة رأس العين ومن الأرض التي تقع شرقي نهر الهرماس وهو النهر المنساب في وادي الثرثار باتجاه الشرق إلى دجلة ، وكذلك من الأرض التي على ضفتي نهر دجلة ، والتي تمتد من تل فافان إلى تكريت أي من غرب دجلة حتى نصيبين ، وتشمل على السهول التي يسقيها الزابان الأسفل والأعلى ، ونهر الخابور الصغير. (3)

إن أشهر مدن ديار ربيعة " الموصل " وهي قصبتها (4) ، و "نصيبين" (5) ، والتي يعدّها ابن شداد قصبة ديار ربيعة (6) ، ومن مدنها أيضاً " سنجار " ، و "رأس العين" (7) ، وجزيرة " ابن عمر " (8) وغيرها من المدن والقرى (9) وتمتاز جميعها بحصانيتها ومناعتها وحسن بنائها، وكثرة أسواقها وحماماتها ومساجدها ، وكانت هذه المدن تتمتع بنشاط اقتصادي وتجاري واسع بحكم موقعها على طرق المواصلات التي تعبّر ديار ربيعة ، ولا سيما المدن التي تقع على الطريق الرئيس الذي يصل ما بين الموصل والبحر المتوسط. (10)

أما ديار مضر فيحددها ياقوت " بالسهل الواقع إلى الشرق من الفرات ، وتمتد من " حران " و " الرقة " و " شمشاط " و " سروج " و " تل موزن " (11) وبذلك تكون المنطقة الواقعة إلى الجنوب الغربي من أرض الجزيرة ، بين الفرات والخابور إلى الغرب من ديار ربيعة وتمتد حدودها بخط من سميساط إلى ديار بكر التي تحد ديار مضر شمالاً، وينحدر هذا الخط إلى الجنوب حيث مدينة " عانه " مع السهول التي يسقيها نهر البليخ رافد الفرات الآتي من " حران " .

1 - ابن خرداذبة : المسالك ، ص 95، 245، 73، 85. - الادريسي: نزهة المشتاق، ج 2، ص 655، 657، 662.

2 - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 137. - ابن جبير : رحلة ابن جبير ، ص 175.

3 - خطاب: بلاد الجزيرة ، ق 1، ص 5-7 .

4 - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 137.

5 - ابن خرداذبة : المسالك ، ص 95. - الادريسي: نزهة المشتاق، ج 2، ص 662. - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج 3، ق 1، ص 5، 124.

6 - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج 3، ق 1، ص 5، 124.

7 - ابن خرداذبة: المسالك ، ص 95. - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص 133، 135. - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 137 .

8 - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 137. - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج 3، ق 1، ص 5، 213.

9 - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص 139. - ابن خرداذبة : المسالك ، ص 95. - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص 137 .

10 - 130 - 106 p. Nur Ad-Din, Vol. Elisseeff : Setton: Harran ,in Anotolian stadies , Vol.1,p,80.

11 - الحموي : معجم البلدان ، ج 2، ص 494

وتشكل ديار مضر هضبة واسعة تقع إلى الجنوب من جبل عبد العزيز (1).

وتبرز أهمية هذه المنطقة بما تشكله من معبر إلى الجزيرة من بلاد الشام ومن أراضي بيزنطة وأرمينية (2) وأشهر مدن ديار مضر ، مدينة حران (3)، وهي قصبتها وأكبر مدنها (4) . ومدينة الرقة (5) ، التي كانت قصبة ديار مضر قبل حران (6) . والرافقة (7)، والرها (8)، و سميساط (9) وسروج، (10) و بالس ، (11) وغيرها الكثير من المدن والقرى والحصون .

وتشمل ديار مضر على ثلاث مناطق رئيسية، وتتمثل بمنطقة حوض البليخ ، ويتخلل هذه المنطقة العديد من طرق المواصلات التي تصل إلى ديار بكر وديار ربيعة من الشمال والغرب منها ، وبرز مدنها الرها وحران وسروج وتل موزن. (12)

أما المنطقة الثانية فهي منطقة الفرات الأوسط وتمتد عبر شريط من القلاع والحصون والقرى من البيرة شمالاً إلى بالس جنوباً وإلى الرقة حيث مصب نهر البليخ في الفرات (13) ويعبر هذه المنطقة ثلاثة طرق باتجاه بلاد الشام وهي البيرة ، وقلعة نجم (14) و بالس . (15)

أما المنطقة الثالثة لديار مضر فهي الطريق المحاذي للفرات وتبدأ حدودها من نقطة على مصب نهر البليخ من الرقة باتجاه الجنوب إلى عانة حيث حد الجزيرة الجنوبي ، وتعد هذه المنطقة الطريق البري من العراق إلى الجزيرة وبلاد الشام الشمالية وأرمينية. (16)

¹ - Elisseef , Nikita , 1967,Nur-Ad-Din un grand prince Musulman de Syrie au temps des Croisades , Damas Vol.1.p.139.

² - Elisseef :Nur Ad-Din,Vol.1,p139.

³ - ابن خرداذبة: المسالك ،ص85- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص137 . - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1، ص6 .

⁴ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1، ص40، 6 .

⁵ - ابن خرداذبة: المسالك ،ص73- ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1، ص6- الأصطخري: مسالك الممالك ، ص53 .

⁶ - ابن خرداذبة : المسالك ،ص73- الأصطخري: مسالك الممالك ، ص53 . - ابن حوقل : صورة الأرض ، ص203 .

⁷ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1، ص6- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص137 . 141- ابن خرداذبة : المسالك ،ص73 .

⁸ - المقدسي: أحسن التقاسيم، ص137 . - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1 .

⁹ - ابن خرداذبة: المسالك ،ص73 . - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص136، 133.

¹⁰ - ابن خرداذبة: المسالك ،ص73 . - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص136، 133- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص137

¹¹ - ابن حوقل : صورة الأرض ، ص203- الأصطخري: مسالك الممالك ، ص54 .

- بالس: من أعمال الشام - لوقعها على يمين الفرات، غربي الرقة . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج1، ص9.

¹² - Elisseef :Nur Ad-Din,Vol.1,p139. 146-

¹³ - Elisseef :Nur Ad-Din,Vol.1,p. 146.155 -

¹⁴ - قلعة نجم : قلعة حصينة مطلّة على الفرات ، الحموي : معجم البلدان ، ج4، ص391. ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج1، ق2، ص476-472.

¹⁵ - Elisseef :Nur Ad-Din,Vol.1,p. 147 -

¹⁶ - Elisseef : Nur Ad-Din,Vol.1,p. 155.156 -

الفصل الأول : الأوضاع السياسية لشمال بلاد الشام بين عامي (600-658 هـ / 1203-1260 م)

المبحث الأول : مملكة حلب ودورها في الصراع الأيوبي الأيوبي .

أ- عهد الملك الظاهر غازي الأيوبي .

ب- الملك العزيز محمد الأيوبي (613-634 هـ / 1216-1236 م).

1- الأتابك شهاب الدين طغرل وتوطيد الحكم .

2- السلطة الفعلية للعزيز محمد.

أ- الملك الناصر يوسف الثاني الأيوبي ورعاية ضيفة خاتون .

1- المرحلة الأولى : مرحلة الرعاية والوصاية من قبل ضيفة خاتون وتمتد بين عامي (634-640 هـ / 1236-1242 م) :

2- المرحلة الثانية : الحكم الفعلي للملك الناصر الثاني وتمتد بين عامي (640-658 هـ / 1242-1260 م) .

المبحث الثاني : دخول المغول ونهاية الحكم الأيوبي .

المبحث الأول : مملكة حلب ودورها في الصراع الأيوبي الأيوبي .

تمهيد

حلب: المدينة العريقة من أقدم مدن الدنيا . قيل أول من بناها الأراميون ، وجدها السلوقيون، وقد تناوب عليها البطالسة ⁽¹⁾، وملوك الموصل ، وملوك نينوى ، واليونانيون . وهكذا كانت تنتقل بين أيدي الغزاة والفاثحين إلى أن حررت على يد أبي عبيدة بن الجراح لتتناوب عليها الحكومات الإسلامية . تقع مدينة حلب ما بين بلاد الشام وأسيا الصغرى شمالاً، وترتبط بالطريق التجاري المار عبر حماة وحمص ودمشق والقدس في الجنوب الغربي باتجاه البحر المتوسط ، إلى ارتباطها مع مدن الجزيرة

¹ - البطالسة أو البطالمة حكام مصر المعاصرين للسلوقيين ، وسموا كذلك نسبة إلى بطليموس الأول أحد قادة الإسكندر الكبير وهو زميل سلوقوس .

شرقاً. وقد أوضح الأستخري أهمية موقعها بقوله " إنها تقع على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات (1)

أما تسميتها (حلب) فقد أوردت المصادر التاريخية آراء متعددة ومتباينة فيها ، فقد أعتمد بعضها على الأبعاد الدينية التي ترجع بالتسمية إلى الحقبة التاريخية التي عاش فيها النبي ابراهيم ، وارتكزت في أحكامها على أن ابراهيم استوطن قرب التل الذي أقيمت عليه قلعة حلب حيث قال الزجاجي بحسب ياقوت : " كان ابراهيم يرعى أغنامه ويعطي حليبيها للفقراء فأقترن اسم حلب بعطاء ابراهيم الحليب " وإنها مدينة عظيمة واسعة ، كثيرة الخيرات طيبة الهواء ، صحيحة الأديم والماء ، وهي قسبة قنسرين " (2)

تقع مدينة حلب في أقصى الشمال الغربي من الهضبة الواقعة في سورية الشمالية (الشام الأعلى) (3) وقد قامت في الأصل على الضفة اليسرى لنهر قويق ، وحلب إلى جانب كونها تتوسط منطقة زراعية تنتج الحبوب ، هي ذات موقع استراتيجي مهم من الناحية العسكرية والاقتصادية ، لقد تحكمت في طريق التجارة العالمي ، وشكلت بذلك حلقة اتصال بين سورية وبلاد ما بين النهرين وفارس من جهة والأناضول و ميناء البحر المتوسط من جهة أخرى .

وعلى اعتبارها محطة للقوافل التجارية العابرة شرق البلاد وغربها ، فأختلط سكانها بالعديد من الشعوب العربية والأجنبية ، وتم بين هؤلاء التمازج وظهر التأثير في لغة الحديث وفي طرق العيش . (4) وتعد حلب إحدى أهم المدن وأقدمها في العالم التي ما تزال مأهولة ، وتتميز بموقع فريد ، حيث أمتاز التكوين الجغرافي لمدينة حلب بمواصفات إيجابية ، حيث تتألف من أرض واسعة يتوسطها تل كبير بنيت عليه قلعتها، مما هيا لها امكانيات التحصين والدفاع عنها ضد الهجمات التي استهدفتها ، وامتازت - في مقابل ذلك - بالخصوبة العالية لتربتها وفق تصور ياقوت الحموي . (5)

¹ - الأستخري: المسالك والممالك ، ص 46.

² - الحموي: معجم البلدان ، م2، ص 282 .

³ - روى غرس النعمة محمد بن هلال الصابي في تاريخه بأن السلطان ملكشاه كتب في سنة 471هـ / 1078م إلى أخيه تنش " أن لا يتعرض إلى الشام الأعلى ويقصد ناحية حلب " زكار ، سهيل . خربوطلي، شكران : تاريخ العصر العباسي والأندلسي السياسي والحضاري ، كتاب جامعي ، منشورات كلية الآداب ، جامعة دمشق ، 2010م، ص 123.

⁴ - مجلة دراسات تاريخية ، العدد 39،40، مطابع جامعة دمشق عام 1991م .

⁵ - الحموي ، معجم البلدان ، م2، ص 282 .

أما الأدلة على أهمية حلب اقتصادياً ودولياً أنها شهدت أول اتفاقية اقتصادية في الشرق الأوسط وذلك عام 1207م ما بين جمهورية البندقية والملك الظاهر غازي ، هذا على الرغم من الخلافات السياسية بين أوروبا والدول الإسلامية ولا سيما بعد النصر الكبير الذي حققه صلاح الدين على الصليبيين في معركة حطين سنة (583هـ / 1187م) وتحريره القدس وهذا ما يدل على أن حلب بقيت مركزاً أساسياً للتجارة العالمية . وقد وجد في الغرب توجه جديد لدى القوى البحرية الأوروبية وبخاصة جمهورية البندقية مفاده ضرورة ضم القسطنطينية وتصفية الدولة البيزنطية و الكنيسة الأرثوذكسية لمصلحة النفوذ الأوربي الغربي والفاتيكان وهكذا توجهت الحملة الصليبية الرابعة سنة (601هـ / 1204م) إلى القسطنطينية ودخلتها وجعلتها جزء من الممالك اللاتينية وذلك بقيادة ورعاية "داندولو" دوق البندقية وتمكنت البندقية بذلك من أحكام نفوذها التجاري والبحري على شرقي المتوسط وكان لا بد لها من تأمين الممرات البحرية لأساطيلها، والاستفادة من الاستقرار السياسي الناشئ شرق المتوسط مع الممالك الأيوبية ، فأرسلت البندقية وفداً سنة (604هـ / 1207م) إلى مملكة حلب الأيوبية وكانت حينها أهم الممالك الأيوبية وتسيطر على الشواطئ الشرقية لذلك البحر .⁽¹⁾

مملكة حلب ودورها في الصراع الأيوبي الأيوبي .

إن أهمية حلب من الناحية السياسية لا تقل عن أهميتها من الناحية الجغرافية والاقتصادية ، فقد شغلت حلب دوراً كبيراً ومهماً في العلاقة ما بين أفراد البيت الأيوبي من ناحية والقوى الخارجية المتصارعة على المنطقة من ناحية ثانية . وهذا أيضاً يدل على أهمية موقعها الجغرافي ونقلها السياسي ، ولعل هذا الأمر أدركه صلاح الدين وذلك بعد الحديث الذي دار بينه وبين سليمان بن جندر وهو أحد أصدقاء صلاح الدين وذلك عندما كان يحدثه عن موضوع الوصاية من بعده وكيفية اقتسام السلطة بين أولاده ، وقد قال له سليمان ((بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تمضي كأنك كنت خارجاً إلى الصيد ، وتعود فلا يخالفونك ، أما تستحي أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة ؟)) قال له صلاح الدين " وكيف ذلك " قال سليمان ((إن أراد الطائر أن يعمل عشاءً لفراخه، قصد أعالي

¹ - **مقطف من الاتفاقية** : إن مملكة حلب الأيوبية تمنح رعايا جمهورية البندقية حق الإقامة في حلب وممارسة العمل التجاري ، كما تمنحهم حق تشييد خان يكون مقراً لإقامتهم وعملهم ، ويحق لهم أن يحتوي الخان على كنيسة وحمام واصطبل للخيل والجمال وفندق للمبيت وغرف لممارسة التجارة ويدعى المكان خان البندقية . كما ويقدم الموظفون من أبناء حلب كافة التسهيلات اللازمة لتجار البندقية المقيمين في حلب أو في أرجاء المملكة كاللاذقية وحارم وسواها . ويسمح بتداول النقود المتداولة في البندقية إلى جانب النقود المتداولة في البلاد الإسلامية . لا تتأثر هذه الاتفاقية بما يجري من حروب أو اعتراضات أو تحريم أو مضايقات . وقع الاتفاقية مع الظاهر غازي مبعوث البندقية " بييترو مارينيانى " مجلة الحوليات ، عدد 43 ، ص 187.

الشجرة ، ليحامي فراخه ، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك ، وجعلت أولادك على الأرض ، هذه حلب وهي أم البلاد بيد أخيك العادل وحماة بيد تقي الدين ، وحمص بيد أسد الدين ، فقال له صلاح الدين : " صدقت ، واكتم هذا الأمر " ⁽¹⁾ وبعدما تنبه صلاح الدين لهذا الأمر الخطير عمل على إخراج أخيه العادل من بلاد الشام وأخذ منه حلب وأعطاه حران والرها . ⁽²⁾ و ميافارقين لتبقى بلاد الشام بيد أولاده ⁽³⁾. وهذا ما أثار غضب العادل إلا أنه كتم غيظه إلى أن توفي صلاح الدين واقتسم السلطنة بين أولاده ، وهنا استغل العادل الخلافات التي حصلت بين أبناء أخيه فنصب نفسه قاضياً فيما بينهم وبدأ بزرع الشقاق و الخلاف للوصول إلى غايته. ⁽⁴⁾ وقد أدرك الظاهر غازي صاحب حلب حقيقة ما يهدف عمه العادل إلى تحقيقه (وهذا ما سيرد تفصيله لاحقاً)

أ- عهد الملك الظاهر غازي الأيوبي (589-613هـ/1193-1216م)

هو الملك الظاهر " غياث الدين غازي بن صلاح الدين يوسف الأيوبي " (1172- 8 تشرين الأول 1216م) والي ثم حاكم حلب من عام (581هـ/ 1186م) حتى وفاته في سنة (613هـ/ 1216م) ⁽⁵⁾

هو الابن الثالث للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، الذي أمره على شمال سورية وجزء صغير من بلاد ما بين النهرين .

¹ - مهنا ، أسامة : الصراع بين أفراد الأسرة الأيوبية وأثره السياسي على مصر وبلاد الشام ، رسالة دكتوراه ، إشراف اكتمال اسماعيل ، جامعة دمشق ، قسم التاريخ 2010 م ، ص 60 .

² - الرها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ وقد سميت بالرّها نسبة إلى ابن الرّها ابن الروم بن سام بن نوح عليه السلام ؛ الحموي، معجم البلدان ، م3، ص106.

- طلاس ، مصطفى :المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، مركز الدراسات العسكرية ، ط1، دمشق1992م، م3، ص 516.

³ - ابن الأثير(عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الشيباني، ت630هـ/1233م) الكامل في التاريخ، تح : محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية ، بيروت 1424هـ/2003م ، ط4، م10، ص 224-226.

- ابن العديم(كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، ت660هـ): زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ج3، تح: سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي ، دمشق، 1954م، ص569-570.

⁴ - ابن الأثير : الكامل، م10، ص225-234-240.

-أبو الفداء: المختصر، ج2، ص178، 147.

- المقرئ (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، ت845هـ - 1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ط1، ج1، ص112-113.

- زكار ، سهيل: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية (مدخل تاريخ الحروب الصليبية) دمشق، 1416هـ-1995م ، ج3، ص403، 402.

⁵ - Cawley, Charles (2007): Rulers of Aleppo , Damascus, Hamah , Homs , Khatat (Ayubids) Medieval Lands Foundation for Medieval

Genelogy, accessed 27 December 2008.

في سنة (581هـ / 1186م) عينه والده وهو في سن الخامسة عشر والياً على حلب وبعض أراضي الموصل التي استولى عليها مؤخراً من الزنكيين ، وفي الوقت نفسه عين أخواه الأفضل بن صلاح الدين والياً على دمشق والعزیز بن صلاح الدين والياً على مصر .

وكونه حاكم حلب احتفظ الظاهر بالعديد من مستشاري والده ، فعين بهاء الدين بن شداد قاضياً لحلب (1) كما استخدم شهاب الدين يحيى السهردوري لكنه اضطر إلى سجنه في سنة (587هـ / 1191م) بسبب مطالب العلماء وذلك لآرائه الفلسفية حيث اتهموه بالزندقة (2)

كانت الأراضي التي أقطعها صلاح الدين للظاهر غازي تحت سيطرة عمه الملك " العادل " ، وقد أهتم بالظاهر . لكن الأخير استقل بعد وفاة والده صلاح الدين الأيوبي سنة (589هـ / 1193م) بحكم حلب . (3)

وفي سنة (590هـ / 1194م) تنازل الأفضل لأخيه الظاهر عن اللاذقية كجزء من معاهدة بينهما . وبحلول سنة (592هـ / 1196م) خسر الأفضل دعم عمه العادل ، بعد أن قام العادل بسلبه معظم أملاكه ، وقد كان الظاهر قد حذر الأفضل من مغبة الوثوق بعمه العادل ، لكن الأفضل لم يستمع للظاهر إلا بعد فوات الأوان وخسارته لأملاكه ، ولذلك قرر كل من العزيز والظاهر عزل الأفضل ونفيه لسوء إدارته . وما وصل إليه الأفضل يدل على عدم تمتعه بالحنكة السياسية ، وأنه بالسياسة والمصالح لا يمكنه الوثوق بأحد . على عكس الظاهر الذي كان يملك من الحكمة السياسية ما مكنه من التعامل مع عمه العادل ، وخلق نوع من التوازن في العلاقة القائمة بينهما ، وبالتالي المحافظة على أملاكه . (4)

¹ - Gabrieli, Francesco (1984). Arab, Historians of the Crusades. Routledge &

² - Islamic personalities: Muslim Shihabuddin yahya Suhrawardi Tebyan Instiute.

³ - ابن الأثير: الكامل ، م9، ص226. - أبو شامة (شهاب الدين بن إسماعيل المقدسي، ت 665 هـ - 1266م) : الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية و النورية، تح : إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت 1997م دت. م2، ص224-226. ابن واصل : مفرج الكروب، م3، ص3-5. أبو الفداء: المختصر، م3، ص87. ابن الوردي، زين الدين عمر، ت750 هـ : تتمة المختصر في أخبار البشر أو (تاريخ ابن الوردي) تح: أحمد الزاوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1970م، م2، ص162-163. النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت 733 هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب، تح : الباز العريني، 31 مجلداً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م، م28، ص440-441.

⁴ - مهنا : الصراع بين أفراد الأسرة الأيوبية ، ص 61.

اتبع الظاهر⁽¹⁾ سياسة جديدة مع عمه العادل اتسمت بالمهادنة ، ومساعدته بكل الوسائل العسكرية كما حدث سنة (599هـ - 1203م) عندما اجتمع الصليبيون في عكا استعداداً للهجوم على أملاك العادل ، فأرسل الظاهر خمسمائة فارس ومئة راجل من خيرة الحلبيين.⁽²⁾

وقام الظاهر بانتزاع قلعة نجم من أخيه الأفضل بناءً على طلب عمه العادل ، لأن الأفضل اتفق مع بعض الأمراء على الخروج على العادل ، وعصى في البلاد التي كان أعطاه إياها ، والأرجح أن استعادة الظاهر للقلعة كانت بسبب خوفه من استيلاء العادل عليها لأن العادل أرسل ابنه الأشرف لاستعادة البلاد التي أضيفت للأفضل كسروج وغيرها ، فخاف الظاهر على قلعة نجم من الأشرف . ورفض العادل شفاعته الظاهر في أخيه الأفضل وحصره في سمياط ودفع هذا الرفض الظاهر إلى قطع الخطبة لعمه العادل وخطب للسلطان سليمان بن قليج أرسلان السلجوقي صاحب الروم .⁽³⁾

وعلى الرغم من مهادنة الظاهر للملك العادل ومساعدته عسكرياً في أعماله في الجزيرة وديار بكر ضد الأرتقة في "ماردين" أو ضد الزنكيين في سنجار وغيرها ، إلا أنه كان في الوقت نفسه يستجيب لنداء الاستغاثة الذي كان يطلقه أصحاب الموصل وبلدان الجزيرة فيبادر إلى إرسال السفارات إلى العادل طالباً منه الموافقة على مصالحته الطرف الآخر ، وقد نعت ابن العديم هذه السياسة بالدهاء لأنها تمثلت بمداواة الطرفين .⁽⁴⁾ سيتم بحث علاقات حلب مع هذه الأطراف في الفصول القادمة لذلك لا حاجة هنا للدخول في التفاصيل.

¹ - الظاهر غازي : يصفه عبد اللطيف البغدادي بقوله: " كان للظاهر غور ودهاء ، والدليل على دهائه مقاومته لعمه العادل ، وكان لا يخليه يوماً من خوف وشغل قلب ، يباطن ملوك الأطراف ، ويوهمهم بأنه لولاه لكان العادل قصدهم ، ويوهم عمه بأنه لولاه لم يطعه أحد " البغدادي ، عبد اللطيف : تاريخ البغدادي ورحلته ، من الموسوعة الشامية الشاملة ، د. سهيل زكار ، م 14، ص 80 .

² - ابن واصل : مفرج الكروب ، م3، ص 135 .

- المقرئزي : السلوك ، ج1، ص160

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، ت 807 هـ - 1405م): تاريخ الدول والملوك، المعروف بـ تاريخ ابن الفرات، تح: حسن الشماخ ، جامعة البصرة، مطبعة حداد، البصرة، 1967م، م4، ص 245-246.

³ - ابن العديم: زبدة الحلب ، ص 623.

- ابن واصل : مفرج الكروب م3، ص 150-152.

- ابن الأثير : الكامل ، م10، ص283 .

- أبو الفداء : المختصر م4، ص258-259 .

- ابو شامة: الذيل ، ص33.

- النويري: نهاية الأرب م 29، ص23-24 .

- المقرئزي : السلوك ج1، ص274.

⁴ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص631.

إضافة لما تقدم خطا الظاهر خطوة هامة كان هدفه الأول منها سياسياً وهي مصاهرة الملك العادل حيث كانت هذه المصاهرة عاملاً أساسياً في المحافظة على استقلال ملكه في حلب ، حيث أرسل لهذا الهدف القاضي بهاء الدين بن شداد إلى العادل طالباً الرضا عنه واليمين على بلاده وأن يوافق على تزويجه ابنته "ضييفة خاتون" (1) ولهذا الغرض سير الظاهر القاضي " ابن شداد " لطلبها سنة (608 هـ / 1211م) فأجاب العادل بالرضا ، وكان هذا الأمر من أسباب التقارب بينهما (2)، فقام العادل وجدد اليمين على ما بيد الظاهر من البلاد وكان ذلك سنة 608 هـ - 1211م. (3)

وعلى الرغم من كل الخطوات التي قام بها الظاهر لإبقاء العلاقة سليمة مع عمه العادل ، ظلت فكرة الخوف من العادل و سياسته مهيمنة على طيلة حياته، ودليل ذلك أمرين:

= الأول: قيام الظاهر بأعمال التحصين وإعادة بناء الأسوار وتقوية قلعة حلب وتحصين الحصون كقلعة نجم على الفرات و أفامية على العاصي .

= الثاني: تجلّى فيما حدث سنة 603 هـ - 1206 م من أن الظاهر خاف من طمع العادل في بلاده ، وقيام ناصر الدين ملك حماة (4) بالشكوى للملك العادل من سوء معاملة الظاهر له.

فبادر إلى الاستعداد للمواجهة بأن جند عسكرياً إضافياً ، وقام بأعمال الغلال والأحطاب ، وأرسل القاضي نجم الدين بن الحجاج نائب قاضي قضاة حلب ليبين نوايا عمه أولاً. ووصله في كلتا الحالتين ما طمأنه وأزال الخوف عنه . (1)

¹ - ضيفة خاتون: أحب بنات العادل إليه، وقد خطبها جماعة من الملوك ، فلم ينعم عليهم بتزويجها . وهي شقيقة الكامل . وكان الظاهر في حياة أبيه صلاح الدين متزوجاً من غازية خاتون بنت العادل وأخت ضيفة خاتون لكنها توفيت فتزوج من ضيفة خاتون المولدة سنة (581/1185م) وتوفيت سنة (640هـ/1242م) ، وقد تصرف بحلب تصرفت السلطانين بعد وفاة ابنها العزيز وولاية حفيدها الناصر الذي كان طفلاً صغيراً . . ابن واصل : مفرج الكروب ، م3، ص212. ابن شداد : الأعلق الخطيرة ، ج1، ص2، ص129. الحنبلي، أحمد بن إبراهيم، 876هـ : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تلخ: ناظم رشيد، العراق، 1978م ، ص 237. الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، د.ط، ج3، ص 216.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص 632. - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص114. - الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 328.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص630-636 .

- ابن واصل : مفرج الكروب ، م3، ص212 .

- أبو الفداء : المختصر ، م3، ص114 .

- ابن الفرات: تاريخه، م1، ص125، 119، 118 .

- ابن الوردي : تنمة المختصر ، ص195، 194.

- الدواداري : كنز الدرر ، م7 ، ص 176، 178.

⁴ - تولى الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن السلطان صلاح الدين حلب منذ أيام أبيه ، على أن يتبع له صاحب حماة ناصر الدين محمد . العماد الأصفهاني : الفتح القدسي، من الموسوعة الشامية الشاملة ، د. سهيل زكار ، م13، ص 434.

بلغ الظاهر ذروة خوفه من عمه العادل سنة (613 هـ - 1216م) عندما اتفق الظاهر مع السلطان "كيكاوس بن كيسرو" ملك سلاجقة الروم ضد ليون الثاني ملك الأرمن . وسير الملك الظاهر إلى الملك العادل يستشيريه فمنعه من ذلك ، فوقع الظاهر في حيرة كبيرة بين أن يغدر بما وعد به كيكاوس وبين أن يخالف عمه العادل ، وزادت حيرته عندما راسله " ابن لاون" ملك الأرمن وأرسل له الهدايا وحصل بينهما الصلح . وجاءه الحل لما بلغه أن عساكر "كيكاوس" قد أغاروا على البلاط من مدينة حلب فتضايق الظاهر ورفض التعاون معه . لكنه على الأرجح اضطر إلى الرفض حتى يوفر الدعم والأمن لابنه العزيز من الملك العادل ، و بالوقت نفسه قام بإرسال القاضي بهاء الدين بن شداد إلى العادل يطلب منه الموافقة على ثلاثة أمور :

أن يكون الملك العزيز محمد ولي عهده وقائماً بملك حلب وبلادها من بعده .
أن يزوج الملك العزيز من ابنة الملك الكامل .

أن يكون صلح الملك الظاهر و صلح الملك الكامل مع الفرنج واحداً ، ونكثهما معهم واحد . فوافق العادل على ذلك ما عدا بند الزواج حيث أحاله إلى ولده الكامل، الذي وافق دون تردد. (2) ويبدو أن التفكير الشديد و المضني في التوفيق بين العادل و كيكاوس وفي عدم الرجوع عن يمينه قد أوقع الظاهر بمرض عضال أيقن أنه لن ينجو منه ، وبالفعل وافته المنية في جمادى الآخر 613هـ / 1216 م .

وكان قبل وفاته قد جمع أمراء وأعيان مملكته واستحلفهم لابنه العزيز محمد ، وأمر القاضي نجم الدين نائب قاضي القضاة ابن شداد ، بإعداد وصيته على نسختين وتضمنت :

- أن يكون الملك من بعده لولده العزيز محمد (1)، وبعده للملك الصالح أحمد (ولده الأكبر) وبعدهما لابن أخيه الملك المنصور محمد بن الملك العزيز عثمان ، وحتى يدعم شرعية ذلك زوجّه ابنته .

¹ - ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تح: جمال الدين الشيال وأخرون، دار إحياء التراث، مصر 1985م ، 5 مجلدات، م3، ص174-219-220 .

- ابن نطف: التاريخ المنصوري، ص52 .

- العيني ، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1985م ، ج1، ص292 . - يلاحظ هنا أن ابن العديم مؤرخ حلب ، لم يذكر شيئاً عن ذلك .

² - ابن واصل: مفرج الكروب م3، ص 234-237.

- ابن العديم : زبدة الحلب، ص637.

- ابن الفرات : تاريخه م1/ص194

- الدوداري: كنز الدرر م7، ص 184.

- أن يكون أتابك (2) الملك العزيز محمد خادمه شهاب الدين طغرل ، ويكون مقره في القلعة وجعله مسؤولاً عن خزائن البلاد ، وسلم إليه أيضاً شؤون تربية أولاده الآخرين و الاهتمام بمصالح بيته ونسائه وأعطاه كتاباً بذلك .
 - أن يعين الأمير سيف الدين علم الدين بن جندر قائداً لعسكر حلب ، وأن تكون رئاسة حلب لجمال الدين علي بن صفى الدين خلفاً لأبيه .
- ثم أمر الظاهر بإقامة البيعة الخاصة التي حلف بها الأمراء والأعيان ، ثم عقدا البيعة العامة في الجامع الكبير حيث تم تحليف أهل حلب بالولاء ، وقام الظاهر أيضاً بترتيب عدة أمور بسرعة لأن تأجيلها ربما يؤثر على مكانة ولي العهد أو قد يؤدي لخسارته العرش ، وتتلخص تلك الأمور بالتالي :
- لقد دفعه خوفه من إخوته وفي مقدمتهم الملك الظاهر خضر الذي يسكن الياشروكية في ظاهر حلب ، والظاهر داود صاحب البيرة إلى تحليف إخوته لابنه الملك العزيز محمد ، وإبعاد الظاهر إلى "كفرسوذ" التي أقطعه إياها . وما أن سمع الزاهر بمرض أخيه وتولي الظاهر " كفرسوذ" سارع إلى الاستيلاء عليها واستولى على حروص و مزربان ونهر الجوز والكرزين والعمق ، مما اضطر الظاهر للالتجاء إلى منبج ، فسير إليه الأتابك طغرل عسكرياً رحلوه عن منبج، فسار إلى الأفضل صاحب سمسياط.
 - كما تخوف الظاهر من كبار الأمراء، وعلى رأسهم علم الدين قيصر وأمير القلعة بدر الدين أيدير ، فأبعد الأول إلى حارم (3) بأنه جعله نائباً عنه فيها. أما الثاني فمنحه " قلعة نجم " وبلدة "زردنا" وتوسع ضياع أخرى بما فيها من الذخائر والآلات زيادة على ما بيده من الإقطاعات.
 - قام الظاهر بتوزيع الهبات على أمراء الدولة ، وأعتق مئة جارية ومئة مملوك من مماليكه وزوجهم من بعضهم البعض وأنزلهم من القلعة . (4)

¹ - (عندما حانت منية الظاهر تجاوز حق ابنه الأكبر الصالح أحمد في ولاية العهد، وعهد إلى ابنه الأصغر العزيز محمد، وعمره ثلاث سنوات ، لأنه ابن بنت العادل ، وما ذلك إلا خوفاً من العادل على مملكته من بعده، وأمل أن يدعم العادل ابن بنته بدل أن يهدده). الحايك ، منذر : العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية، تقديم :أ.د. سهيل زكار ، صفحات للدراسات والنشر ، ط1، دمشق 2011، ص 147.

² - أتابك ، أطابك : معناها الولد الأمير وقيل أطابك معناها أمير أب ، والمراد أبو الأمراء وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي ، وغايته رفعة المحل ، وعلو المقام ، و أول من تلقب بذلك نظام الدولة ملكشاه السلجوقي .القلقشندي : صبح الأعشى ،م4،ص18. ابن نطيف : التاريخ المنصوري ،ص39.

³ - حارم: كانت قبل الفتوح حظيرة تحيط بالمواشي ، ثم جردها الروم وبنو لها حصناً ليجمي مواشيهم من غارات العرب. ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ج1،ق2،ص55.

⁴ - ابن العديم: زبدة الحلب، تحقيق: سهيل زكار:الموسوعة الشامية،ج20 ، ص 638-639 .- ابن واصل : مفرج الكروب، م3 ، ص238-241 .

توفي الملك " الظاهر غازي"⁽¹⁾ بعد هذه الأعمال تاركاً أتابكاً لولده " شهاب الدين طغرل" ، وقد كان الأخير ذا سمعة حسنة ومكانة مرموقة و كان حاكماً ذا حيوية ومقدرة تشوبها قسوة وتسلب

ب - الملك العزيز محمد (613 - 634 هـ / 1216-1236 م)

1- توطيد حكم العزيز على يد الأتابك شهاب الدين طغرل.

ولد " العزيز محمد بن الظاهر غازي" يوم الخميس من ذي الحجة 610 هـ / السابع عشر من نيسان 1214م . وهو من زوجة الظاهر " ضيفة خاتون " بنت الملك العادل .⁽²⁾ وقد كان عمره لما جلس في الملك بعد وفاة أبيه ثلاث سنوات ، فتولى تدبير شؤون الحكم والطفل خادم الظاهر المسمى شهاب الدين طغرل استناداً إلى وصية الظاهر . إلا أن الأمور لم تستقر للوريث الطفل و أتابكه ببسر وسهولة للأسباب التالية :

1- استيلاء الوزير "شمس الدين بن أبي يعلي" على مقاليد الحكم مستغلاً غياب قاضي القضاة بهاء الدين بن شداد في مصر ، وانشغال الأمراء بوفاة الملك الظاهر . حيث أخذ يدير الأمور بطريقة استبدادية أثارت غضب الأتابك شهاب الدين طغرل وقاضي القضاة اللذان اجتمعا فور وصول القاضي إلى دار العدل وقررا صرف الوزير عن الأمور وإبعاده عن حلب ، فخرج الوزير شمس الدين إلى دمشق ، وبعد ذلك اجتمعوا بالأمراء للتشاور في أمور البلاد وكان اجتماعهم في دار العدل ، حيث اتفقوا على أن يكون " الملك المنصور بن العزيز " أتابك العسكر ، والمسؤول عن الإقطاعات ، و الأتابك شهاب الدين طغرل مسؤولاً عن الشؤون الإدارية وشؤون بيت السلطان وسائر المناصب الدينية.⁽³⁾

- أبو شامة : الذيل ، ص 93- أبو الفداء : المختصر ، م 3، ص 117- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، م 4، ص 10 .
- ابن نطيف: التاريخ المنصوري، ص 72 .- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، م 6، ص 218 .ابن الوردي : تنمة المختصر ، م 2، ص 198-199 .- ابن الفرات: تاريخه م 5 ، ص 198-201 .- العيني : عقد الجمان ، م 2، ص 355-357 .
¹ - بحسب ابن العديم في زبدة الحلب ، م 3، ص 170 : مات السلطان الملك الظاهر غازي بقلعة حلب في (الخامس والعشرين من جمادى الآخرة) من سنة (613) وجاء عند ابن واصل في مفرج الكروب ، م 3، ص 241 أن وفاته كانت في (العشرين من جمادى الآخرة) سنة (613) . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج 1، ق 2، ص 129 .
² - ابن العديم : زبدة الحلب ، م 3، ص 639 .- ابن واصل : مفرج الكروب ، م 3، ص 220 .
³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ج 2، ص 639-640 . ابن واصل : مفرج الكروب ، م 3، ص 249 . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ص 580 .

2- اعترض أخوة الظاهر على تعيين المنصور أتابكاً للعسكر ، فأضربت الأمور في حلب ، وساهم عامل آخر في عدم استقرارها وهو إرسال ملك الروم "كيكاوس" رسولاً ليعزي بوفاة الظاهر ، وللإشارة على الأمراء بكون " الملك الأفضل" أتابك العسكر ، لأنه عم العزيز والأولى بتربيته وحفظ حكمه . أدى هذا الاقتراح إلى انقسام أمراء حلب إلى فريقين :

- **الأول:** المؤيد للأفضل ، وهم الأمراء المصريون الذين انضموا للظاهر بعد حصار دمشق الأخير ، وعلى رأسهم " الأمير مبارز الدين يوسف بن خطلج" و " الأمير مبارز الدين سنقر الحلبي " والأمير جمال الدين أحمد بن أبي ذكرى الكردي" وعزوا تأييدهم للأفضل على (أنه الأكبر بين أبناء صلاح الدين ، والأقدر على إدارة شؤون الحكم وحفظ حلب ، وأكدوا على أن استيلاء الأفضل على حلب وعساكرها سيمكنه من أخذ ثأره من عمه العادل) .⁽¹⁾

- **الثاني :** المعارض للأفضل ، وعلى رأس هذا الفريق قاضي القضاة " بهاء الدين بن شداد" و الأمير " سيف الدين بن علم الدين بن جندر" الذي أوصى له الظاهر بأتابكية الجيش ، والأمير " سيف الدين بن قلعج" وقد استند هؤلاء في معارضتهم على عدة أمور .

- (إن وصول الأفضل إلى أتابكية الجيش يؤدي إلى العداء مع الملك العادل الذي أصبح رأس البيت الأيوبي بعد أن أصبح صاحب مصر ومعظم الشام والبلاد الشرقية واليمن مما سيدفعه لانتزاع حلب من الأفضل وإذا اضطره الأمر فإنه سيدافع عنها وكأنها أحد أقاليم مصر ، خصوصاً أن الظاهر أخذ الموافقة من العادل بتولية ابنه محمد أمور حلب من بعده من جهة كون العزيز محمد هو حفيد العادل من جهة أخرى) ⁽²⁾.

- الخوف من انتزاع الأفضل الملك من ابن أخيه وإبعاده عن المملكة كما فعل الملك العادل مع ابن العزيز في مصر .

وبعد طول جدال ونقاش استقر رأي الفريقين على أن يكون العرش للعزيز محمد ، ثم لأخيه الملك الصالح من بعده، وأن يكون أتابكه ومدير شؤون الدولة " شهاب الدين طغرل" .⁽³⁾

¹ - أبو الفداء : المختصر ، م2، ص212، 213. ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ، ج2، ص 131، 132. المقريزي : السلوك ج 1 ، ص185، 189. أبو شامة : تراجم رجال القرنين ، ص 94.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، ج2، ص 640- 641.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 641- 642.

- ابن واصل : مفرج الكروب م3، ص250- 251.

ونلاحظ مما سلف أن الفريق المعارض اضطر لإبعاد المنصور عن أتابكية الجيش لكسب رضا معظم أمراء حلب وكسب الملك العادل إلى جانبهم .

3- طمع الملك " المعظم بن العادل " ونائبه على دمشق في تملك حلب ، ويبدو أنه تضايق من مبايعة والده " العادل " وأخيه "الأشرف" للعزيز محمد" والموافقة على ما تم إقراره في حلب ، فسار إلى الرقة لمفاوضة الأشرف على حلب واستشفاف رأيه في المسألة ، إلا أن " الأشرف " لم يوافق على السيطرة على حلب فعاد " المعظم " إلى دمشق خاسراً⁽¹⁾ وقد بقي هذا الأمر يحز في نفسه طويلاً وكان له دور هام في إشعال الصراع بين الأخوين فيما بعد .

استقرت مقاليد الأتابكية وشؤون مملكة حلب للأتابك " شهاب الدين طغرل " وأول ما فعله أنه سكن القلعة ، ثم باشر بترتيب أمور البلاد والقلاع وتوزيع الأموال والإقطاعات ، ويشير ابن العديم إلى أنه لم يخرج في ذلك كله عن رأي قاضي القضاة بهاد الدين بن شداد ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قليج،⁽²⁾ الذي كان له دور مؤثر في استقرار الأمور على ما يبدو .

ولعل أهم الأعمال التي قام بها شهاب الدين طغرل أنه أقطع علم الدين قيصر " درب ساك"⁽³⁾ وابن أمير التركمان " اللاذقية" وسيّر علم الدين إلى "البيرة" للقاء الملك الزاهر وذلك لكسب تأييده وموافقته على ما تم من أمور في حلب ومعاتبته على الاستيلاء على البلاد المجاورة له، إلا أن الملك الزاهر اعتقل علم الدين بحجة أنه الأحق بولاية عهد أخيه الظاهر، لكنه عاد وانضم للفريق المؤيد للعزيز محمد و أتابكه، فأطلق سراح الأمير علم الدين ، وأمر بإقامة الخطبة للعزيز محمد بشرط أن تبقى البلاد التي استولى عليها تحت إدارته ، فوافق الأتابك على ذلك حفاظاً على وحدة الأمراء واتفاقهم على العمل تحت إدارته ريثما يبلغ الملك العزيز السن التي تخوله إدارة البلاد .⁽⁴⁾

وهناك رواية أخرى تقول أن زوجة الملك الظاهر " ضيفة خاتون " هي التي باشرت تدبير أمور الملك، وهي التي نصبت " شهاب الدين طغرل " أتابكاً للملك العزيز الطفل.⁽⁵⁾

¹ - أبو شامة: الذيل ، ص 92. - سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ج8، ص 575. - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،م6،ص216. - ابن كثير : البداية والنهاية م13، ص 85. - العيني : عقد الجمان ،م12، ج2، ص 357.

- زكار :الموسوعة الشامية ، ص 9155،9156.

² - ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص 72 .

³ - درب ساك: حصن قاطع النهر الأسود، جدده الأرمن عندما ملكوا الثغور: ابن شداد الأعلاق الخطيرة ج1، ق2، ص419.صبح الأعشى ،م4،ص122.

⁴ - ابن العديم : زبدة الحلب ،ص 642. - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص251-252.

⁵ - النويري: نهاية الأرب ،م29،ص75.

لقد تعرض استقرار مقاليد الأتابكية وأمور مملكة حلب لعدة عوامل كادت تؤدي إلى عدم استقرار الوضع لولا التدابير التي اتخذها الأتابك والفريق المؤيد له من الأمراء و الأعيان:

- **الأول :** قيام جماعة من ممالك الظاهر بمعارضة تسلم " شهاب الدين طغرل " الأتابكية ، وسبب اعتراضهم أنهم وجد من فيهم أحق بهذا المقام وعلى رأسهم الأمير " عز الدين أيبك الجمدار الظاهري " الذي جمع حوله عدد من المماليك والجند وراسل والي حارم "الأسد أقطغان" وأتفق معه على تشكيل فريق معارض للأتابك ، فوافق الآخر على ذلك ، فخرج أيبك ومن معه قاصداً حارم ، إلا أن الحامية في حارم وعلى رأسهم الأمير المبارك أيوب بن المبارك أقجا أدركوا المؤامرة التي حيكت بين " الأسد أقطغان " وأيبك الجمدار ، فأجتمع رأي الحامية على حفظ القلعة وموالاة الملك العزيز محمد و أتابكه شهاب الدين طغرل، فقاموا بسجن والي الأسد أقطغان وعندما وصل أيبك الجمدار ومن معه إلى حارم منعه العسكر من الصعود إلى القلعة فاضطر أيبك الجمدار إلى التوجه بمن معه إلى درب ساك طمعاً باحتلالها ، لكنه أخفق في تحقيق هدفه . فسار إلى سلاجقة الروم وتحالف مع الملك كيكافوس

- **الأمر الثاني:** قيام الجناح المعارض للأتابك طغرل والمؤيدين للملك الأفضل بالطلب من الأخير التوجه إلى حلب لتسليمه مفاتيحها ، مما شجع الملك كيكافوس أن يعرض على الأفضل أن يساعده للوصول إلى عرش حلب ، وهنا اضطر الأتابك طغرل للاستجداء بالملك العادل لحماية أملاك حفيده وخوفاً من قيام الفريق المؤيد للأفضل بتسليم حلب لكيكافوس .⁽¹⁾

- ولكن حلب نجت بسبب وصول رسول الملك العادل حاملاً خلعاً للملك العزيز حفيد العادل وعلماً يدل على الموافقة والتأييد وحلف له اليمين ورغم ما كان يواجهه العادل من وصول الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط في مصر إلا أنه استجاب لطلب الأتابك طغرل على لسان رسول الأخير القاضي زين الدين ابن الأستاذ ، حيث أمر العادل ابنه الأشرف بالتوجه لنجدة حلب وطلب من المجاهد صاحب حمص أن يأخذ مكان الأشرف في حصار الحصون والقلاع التابعة لطرابلس لتخفيف الضغط عن دمياط . وقد تمكن الأشرف من الانتصار على السلاجقة والأفضل ، وهذا النصر ترك قناعة لدى الأتابك طغرل بحاجة حلب إلى ملك قوي يدافع عنها ويحميها ضد الأعداء المتربصين بها

- ابن العميد : أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية ، بور سعيد، مصر (د.ت) ص8.

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 642-643 . - ابن واصل : مفرج الكروب ،م3، ص 252-256.

وخاصة ملوك البيت الأيوبي ، لذلك أمر أن تكون الطاعة والخطبة والسكة باسم الأشرف في مملكة حلب . (1)

وأدت وفاة العادل في قرية "عالقين" بالقرب من دمشق سنة 615 هـ/1218م . إلى قيام الأتابك طغرل بالاتفاق مع أمير الجيش سيف الدين بن علم الدين و الأمير سيف الدين بن قليجوقاضي قضاة حلب ابن شداد على إقرار الأمور التالية :

- إسناد مهمة الإشراف على الجيش وعلى ديوان الإقطاعات إلى الملك الأشرف، وهنا يذكر ابن العديم بأن الملك الأشرف قد باشر الإشراف على الجيش والإقطاعات ولم يكن يقطع بأمر إلا بعد الرجوع إلى الأتابك .

- جعل الخطبة في حلب للملك الكامل ومن بعده للملك الأشرف ثم للعزیز محمد ، وتم ضرب اسم الكامل والعزیز على السكة .

- قرروا إخلاء دار الملك الظافر في الياوقية لسكن الأشرف، ووافقوا على إقطاعه بلاد "سرمين" (2) و بزاعا (3) و الجبول وذلك لسد مصاريف جيشه أثناء إقامته في حلب .

وجلب البند الأول من هذا الاتفاق نقمة الأمراء المصريين "الظاهرية" ، وذلك لخوفهم من انتقام الملك الأشرف منهم وذلك لوقوفهم إلى صف الملك الأفضل ، ولقد علم الأشرف بتذمرهم ولذلك قرر التخلص منهم عندما تكون الفرصة مناسبة وكان له ذلك عندما أرسل الملك الكامل إليه طالباً النجدة ضد الصليبيين في دمياط . فاستقر رأي الأشرف على إرسال الأمراء المعارضين إليه وعلى رأسهم المبارزان " ابن خطلج" و " ابن كهذان" . (4) ويروي " اليونيني" أن الأمراء الخائفين على مصالحهم والمتضايقين من وجود الملك الأشرف اجتمعوا إلى كبيرهم الأمير حسام الدين عيسى بن خشتري ، وتشاوروا في كيفية إبعاد الأشرف عن حلب ، فتعهد لهم حسام الدين بالقيام بهذه المهمة ، وقام باغتنام الفرصة عندما كان الأشرف خارج حلب فوقف بين يديه وطلب منه مغادرة حلب لأنه غير مرغوب فيه

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 644-645 . - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص264-265 . - ابن الأثير : الكامل ، ج9، ص325 . - أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص119.

² - سرمين : بلد بطرف جبل السماق ، كثيرة العمل، واسعة الرستاق(السواد والقرى). ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج1، ص48-49. الحموي : معجم البلدان ، ج3، ص215.

³ - "بزاعا" او "بزاعة" : حصن منيع وعلية خندق ، وهي مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب . ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج1، ص122 . - ابن الأثير : الكامل ، ج11، ص56. الحموي : معجم البلدان ، ج1، ص409.

⁴ - ابن العديم : زبدة الحلب، ص 647-648 . - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج6، ص222 . - الدوادري: كنز الدرر، ج7، ص196.

ومنعه من دخولها . وهنا اضطر الأشرف إلى التوقف خارج حلب لأنه علم أن الأمر قد تم بموافقة الأمراء الآخرين وإلا لما تجرأ حسام الدين على هذا الطلب . (1)

ويذكر كل من "ابن العديم" و "ابن واصل" أن الأشرف بادر إلى إلقاء القبض على حسام الدين بن خشتريين والأمير "عماد الدين بن المشطوب" بعد قضائه على تحالف ماردين و آمد بمساعدة صاحب الموصل ، فحبسهما حتى ماتا. (2) وهذا ما يدل على أن الأشرف لم ينسى ما فعله الأمير حسام الدين.

ولكي يتمكن الأشرف من إسكات المعارضين له داخل حلب وما يشاع عنه من أن هدفه أن تصبح حلب من أملاكه قام بإعادة الأقاليم التي منحت له إلى ديوان حلب وطلب أن تصرف مواردها في مصالح حلب، وذلك ليعلم الجميع أن هدفه هو المحافظة على مملكة الملك العزيز محمد. (3)

- الأمر الثالث : قيام الأمير عماد الدين بن المشطوب بالهجوم على أقاليم حلب . وعماد الدين هذا هو من الأمراء الصلاحية الكبار ، أنضم إلى العادل بعد وفاة صلاح الدين وبقي في خدمة العادل حتى وفاته، ولكن من الواضح أنه لم يكن على وفاق مع الكامل فأتفق مع الملك الفائز على خلع الكامل مستغلين هجوم الصليبيين على دمياط سنة 615هـ/1218م. ولكن عند وصول الملك المعظم صاحب دمشق لنجدة الكامل سمع بالمؤامرة التي يحضرها "عماد الدين ابن المشطوب" (4) فقام بنفيه مع الملك الفائز إلى الشام. سار ابن المشطوب إلى حماة حيث أستقبله صاحبها وأكرمه، فقام ابن المشطوب بجمع الرجال والمال وقد ساعده في ذلك صاحب حماة ، وقام ابن المشطوب بالهجوم على بلاد حلب في وقت الربيع وأخذ خيولها ومواشيها المتفرقة في المراعي ، ثم هاجم قنسرين وتل أعرن ووصل في هجومه إلى نهر الساجور . فقام الملك الأشرف بإرسال قوة من جنده استطاعت القبض عليه وحملته

1 - اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، مطبعة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ط1، 1954م، م2، ص 223-224.

2 - ابن العديم : الزبدة، ص652. - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج4، ص76.

3 - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص653.

4 - ابن المشطوب: هو أحمد بن علي بن أحمد بن أبي الهيجاء الهكاري. أبو العباس المعروف بابن المشطوب. (المشطوب لقب والده لشطب كان بوجهه). كان أميراً كبيراً وافر الحرمة عند الملوك، تهابه الملوك .توفي عن 44 عاماً. ابن خلكان : وفيات الأعيان، م1، ص180. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، م6، ص 615-616. ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص187.

إلى حلب حيث عفا عنه الأشرف وأقطع "رأس العين" في الجزيرة وأشترط عليه الإقامة معه في معسكره في الياشروكية بظاهر حلب في شهر رجب 616هـ/1219م⁽¹⁾.

من المؤكد أن معالجة المشاكل التي تم عرضها قد أدت إلى استقرار شؤون المملكة وتثبيت الأتابكية لشهاب الدين طغرل وهذا ما كان ليحدث لولا وجود حليف قوي وهو الملك الأشرف. وهذا التحالف الذي كان حقيقياً ويدل عليه مشاركة الجيش الحلبي في كل المعارك التي خاضها الملك الأشرف. ويؤيد هذا الكلام رواية ابن العديم "قاتل جيش حلب تحت راية الأشرف عندما ذهب إلى دمياط لمساعدة أخيه الكامل ضد الحملة الصليبية الخامسة" (2)

كما أن حلب لم تلزم الحياد في الصراع الدائر بين الملوك الأيوبيين، حيث وقفت إلى جانب الأشرف في صراعه مع المعظم صاحب دمشق، وسبب هذا الصراع بين الأخوين هو شعور المعظم بالخطر من وجود أخوين قويين الأشرف في الجزيرة والكامل في مصر. وقد أخطأ المعظم عندما حاول احتلال حماة ومعرة النعمان وسلمية في ذي الحجة سنة 619هـ/كانون الثاني 1223 م، هذا العمل أدى إلى أرتباك وخوف في مملكة وانتشار إشاعة أن حسام الدين بن أمير تركمان والي اللاذقية قد اتفق مع المعظم وصاهر أمير قلعة صلاح الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتين، وهذا ما أدى إلى تأزم موقف الأمير سيف الدين بن قليجفي حلب لأنه هو الذي رشح حسام الدين لولاية اللاذقية. فتوجه الأمير سيف الدين إلى اللاذقية على الفور وطلب من حسام الدين تسليم المدينة فلم يتردد حسام الدين بتنفيذ الأمر فثبت بذلك للأمير سيف الدين بن قليجآن الأمر مجرد إشاعة لا صحة لها، وعلى الرغم من ذلك أصطحب الأمير سيف الدين حسام الدين معه إلى حلب من باب الاحتياط ريثما تنتهي حملة المعظم على حماة⁽³⁾. وقد أجبر المعظم على الانسحاب من مملكة حماة بأمر من الملك الكامل وبذلك استقرت حماة والمعرة وبعرين بيد الناصر صاحب حماة⁽⁴⁾. أراد الأشرف أن ينهي حالة القتال مع أخيه المعظم وذلك بسبب انكسار قواته أمام سلاجقة الروم وخوفه

¹ - ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، م18، ص29-30. - ابن العديم: الزبدة، ص648-650. - ابن نضيف: التاريخ المنصوري، ص77. - ابن خلكان: وفيات الأعيان، م1، ص180-181، م5، ص79-80. - ابن الوردي: تنمة المختصر، م2، ص202. - العيني: عقد الجمان، م1، ص387.

² - ابن العديم: الزبدة، ص652. - ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص92. - أبو الفداء: المختصر، م3، ص129. - ابن العبري (جمال الدين غريغوريوس بن هارون الملطي، ت 685هـ - 1286م) تاريخ مختصر الدول، تصحيح: الالب أنطوان اليسوعي، دار الرائد اللبناني، لبنان، 1983م، ص413. - ابن الوردي: تنمة المختصر، م2، ص211.

³ - ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص126. - ابن العديم: الزبدة، ص655.

⁴ - ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص127-129. - ابن العديم: الزبدة، ص655-656. - العيني: عقد الجمان، م1، ص2، ص435.

على انتزاع "خلاط" من قبل جلال الدين خوارزمشاه فتوجه إلى دمشق سنة (623هـ/1226م). لكن المعظم عامله كتابع له وماتل المعظم في تجديد اليمين للملك العزيز محمد و لأتابكه طغرل لذلك قام طغرل بإرسال وفد مؤلف من نائب قاضي القضاة زين الدين ابن الأستاذ والأمير مظفر الدين بن جورديك للحصول على تجديد اليمين لكن المعظم ماطل في ذلك حتى وافق الأشرف على شروطه في الوقوف إلى جانبه ضد الكامل. وقد أرسل المعظم رسالة إلى الأتابك طغرل على أنها من الأشرف ويطلب من الأتابك الوقوف إلى جانب المعظم ضد الكامل، لكن الأتابك رفض هذا الأمر لأنه كان قد حلف للكامل أن لا يهادن أحداً من الملوك إلا بعد مشورته.⁽¹⁾ ولاحقاً تراجع الأشرف عن وعده للمعظم وقال بأنه كان مجبر على الموافقة عليها.⁽²⁾

أما الأتابك طغرل فإنه لم يتردد في مساندة الأشرف الذي أراد السيطرة على دمشق بعد موت المعظم في ذي القعدة سنة 624هـ/تشرين الأول 1227م. وجلس ولده الناصر داود مكانه على عرش دمشق. وكان الأتابك طغرل يهدف من ذلك أن يقضي على معارضة دمشق لحلب ومن ناحية أخرى التقرب من الكامل الذي دب الصراع بينه وبين الناصر داود صاحب دمشق، فحوصرت دمشق من قبل الأشرف وبمساندة قوات حلب واضطر الناصر إلى تسليمها في رجب (626هـ/1230م). ودخلتها قوات الأشرف والكامل.⁽³⁾ وأعقب السيطرة على دمشق إعادة توزيع المقاطعات الأيوبية، حيث أعطى الأشرف للكامل مقاطعاته في الجزيرة مقابل دمشق وأبقى لنفسه ديار بكر و خلاط.⁽⁴⁾

من كل ما تقدم يلاحظ نجاح سياسة الأتابك شهاب الدين طغرل في الحفاظ على عرش العزيز محمد من الطامعين، وإبعاد الصراعات المدمرة عنها وهذا بدوره انعكس على ازدهار المملكة من جميع النواحي ولا سيما اقتصادياً، وهذا ما يدل على قدرة الأتابك على إكمال بناء قلعتها وأسوارها وغدت من

¹ - ابن العديم: الزبدة، ص 662.

ابن واصل: مفرج الكروب، ج 4، ص 205

² - ابن واصل: مفرج الكروب، ج 4، ص 204-206. - ابن العديم: الزبدة، ص 199-202. - أبو الفداء: المختصر، م 3، ص 137. - المقرئ: السلوك، ج 1، ص 221.

³ - ابن العديم: الزبدة، ص 622-664. - ابن واصل: مفرج الكروب، ج 4، ص 236-257. - ابن الأثير: الكامل، م 9، ص 374.

- أبو شامة: الذيل ص 154. - ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص 14-15. - ابن نطف: التاريخ المنصوري، ص 140.

- أبو الفداء: المختصر ج 3، ص 140-141. - المقرئ: السلوك، ج 1، ص 222-230، 224-235. - ابن الوردي: تنمة المختصر، م 2، ص 220. - العيني: عقد الجمان، م 14، ص 72-74، 84.

⁴ - ابن واصل: مفرج الكروب، ج 4، ص 257-258. - ابن العديم: الزبدة، ص 665. - العيني: عقد الجمان، م 14، ص 84.

- المقرئ: السلوك، ج 1، ص 235.

أقوى القلاع والحصون العسكرية والإدارية في عصرها ، كما أثمرت سياسته عن ازدهار علمي كبير .
أما سياسياً فقد جعل الأمور مرتبطة بالملك الأشرف وهذا ما جعل عساكر حلب تتضوي تحت أمر
الأشرف مع الحفاظ على استقلال الفرق العسكرية الحلبية. في حين أعتمد الأشرف على أمراء حلب
في المهمات الدبلوماسية ، وكان أغلب مبعوثيه من أمراء جيش حلب .⁽¹⁾

2- السلطة الفعلية للعزیز لمحمد:

بحلول سنة (625 هـ / 1228 م)، باشر العزیز ممارسة سلطته الفعلية ، وقد بدأ هذا الأمر بأن تفرغ
للقضاء بين الناس وحل مشاكلهم ، فجلس في دار القضاء ومعه القضاة والفقهاء .
كما أن العزیز أخذ يوطد علاقته السياسية مع ملوك البيت الأيوبي ، وتمثل ذلك بقيامه بالزواج من
ابنة الملك الكامل صاحب مصر ، وكان الهدف الذي سعى له العزیز من هذا الزواج هو إبعاد خطر
الكامل عن حلب بعد أن سعى الكامل للسيطرة على دمشق مما شكل خطراً كبيراً على حلب .⁽²⁾
وبدخول سنة (628 هـ / 1230 م) أستكمل العزیز استلامه لما في يد الأتابك طغرل ، واستقل في إدارة
شؤون البلاد، وأستلم خزانها، وباشر بتحليف القادة والعسكريين لنفسه ، كما سارع إلى وضع من له
ثقة بهم في الحصون والقلاع الهامة ، بالمقابل قام بإبعاد عدد من القادة الذين لا يثق بولائهم له . كما
أنه أنهى السلطة الفعلية للأتابك طغرل ، حتى أن العزیز قام بتجريدته من بعض إقطاعاته ومنها (تل
باشر) لذلك أعتزل الأتابك في بيته حتى وفاته سنة (631 هـ / 1233 م) .⁽³⁾
كما قام العزیز من أجل تقوية سيطرته على مملكته باستعادة " قلعة أعزاز " ⁽⁴⁾ من أولاد أخيه الملك
الصالح ، وولى عليها حاكماً من قبله .

وفي سنة (630 هـ / 1232 م) قرر العزیز استعادة شيزر وذلك لسوء تصرف صاحبها شهاب الدين
يوسف بن مسعود بن سابق الدين معه وإظهاره التعالی عليه ، لذلك أرسل العزیز إلى الكامل الأمير
سيف الدين علي بن قليج الظاهري وذلك ليستأذنه في استرجاعها وذلك بحجة أنها من أعمال حلب .

¹ - ابن واصل: مفرج الكروب ، ج4 ، ص229 . ابن العديم : الزبدة، ص663 . - المقرئ: السلوك، ج1، ص227.

² - ابن واصل: مفرج الكروب ، ج4 ، ص227 . ابن العديم : الزبدة، ص663-665 . العيني: عقد الجمان ، م14، ص84-85.

³ - ابن العديم : الزبدة، ص668-669 . ابن واصل: مفرج الكروب ، ج4 ، ص309-310 . العيني: عقد الجمان ، م14، ص312-313 . سبط

ابن الجوزي : مرآة الزمان ، م8، ص658 . النويري : نهاية الأرب ، م29، ص203.

⁴ - قلعة "عزاز" أو "أعزاز": مدينة عامرة ، ولها كورة كبيرة تشمل ما يقارب ثلاثمائة قرية ، أكثرها ملك لأهل حلب . ابن شداد : الأعلام

الخطيرة ، ج1، ق2، ص73-93 . الحموي: معجم البلدان ، م3، ص118 . ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص168.

أما سبب طلب الأذن من الكامل وذلك خوفاً من إغضابه بعد أن أصبح سيد البيت الأيوبي من جهة ومن جهة ثانية تفادياً لإعلان صاحبها الطاعة للكامل مما يؤدي إلى إحراج العزيز وعدم تمكنه من استعادتها ولاقى طلب العزيز القبول من الكامل الذي أرسل له أموالاً ليستعين بها على حصار شيزر ، وبعد ما وصلت موافقة الكامل للعزيز ، تحرك العزيز على رأس جيشه لفرض الحصار على شيزر ، وقد انضم إلى العزيز في مسعاه الملك المظفر محمود صاحب حماة .

عندما علم صاحب شيزر بتحريك العزيز والمظفر نحوه ، أدرك أنه لا سبيل للمقاومة ، فطلب الأمان من العزيز ، على أن يسلمه البلاد والقلعة ، مقابل أن يترك له أمواله وأملاكه في حلب ، فوافق العزيز على طلبه وأرسله إلى حلب وعين عليها والياً جديداً من أتباعه . (1)

يستنتج مما سلف أن عهد الملك العزيز تميز بالأمن والاستقرار ولم يكن مضطرباً إلى حد كبير ، حيث يمكننا التمييز بين حدثين هامين خلال عهده وهما :

1- مشاركة جيشه إلى جانب قوات الملك الأشرف في استعادة "أخلاط" من سيطرة جلال الدين الخوارزمي .

2- انضمام الملك العزيز إلى الحملة التي جهزها الملك الكامل ضد سلاجقة الروم للقضاء على قوتهم . مع العلم أن العزيز لم ينضم إلى الملك الكامل بشكل مباشر وإنما سمح لأخيه الملك الصالح ولأمراء الأسرة الأيوبية الموجودين في حلب بمساندته ، وذلك بسبب العلاقة التي تربطه مع كيغباذ ملك سلاجقة الروم . (2)

ب- " الملك الناصر (3) يوسف الثاني الأيوبي " ورعاية ضيفة خاتون

(634-658هـ/1236-1260م)

بعد وفاة " العزيز محمد بن الظاهر بن صلاح الدين" (4) عن عمر يناهز ثلاثة وعشرون عاماً، تولى الحكم من بعده يوسف الثاني الأيوبي (الناصر يوسف) (1)، وكان عمره سبع سنين، ولتدبير أمور

1 - ابن العديم :الزبدة،ص671-672. - ابن واصل: مفرج الكروب ،ج5، ص64-66. - أبو الفداء: المختصر ج3،152.

- ابن نطف : التاريخ المنصوري ، ص250. - العيني: عقد الجمان ، م14،ص140.

2 - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص217. - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص76 .

3 - الملك الناصر: هو صلاح الدين يوسف الثاني ابن الملك العزيز محمد ابن الظاهر غياث الدين غازي بن صلاح الدين يوسف الأول بن أيوب المتوفي سنة (659هـ / 1260م). ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج1، ق2، ص92.

4 - مات الملك العزيز في شهر الثالث من ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستمائة . ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص221. أما في رواية ابن الوردي في تنمة المختصر ، م2، ص241: (توفي الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي في ربيع الأول وعمره ثلاث وعشرون سنة وشهور) . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج1، ق2، ص131.

الدولة بسبب صغر سنه تشكل مجلس أشبه بمجلس الوصاية ، تألف هذا المجلس من شمس الدين لؤلؤ الأميني ، وعز الدين عمر بن مجلى، وجمال الدولة إقبال الخاتوني ، والمرجع في الأمور كلها إلى جدته والدة العزيز ضيفة خاتون بنت العادل ، التي أمسكت بكل شؤون الحكم ، وكانت تضع علامتها على التواقيع والمراسلات ، وأطلق عليها لقب صاحبة ولقب " الست المصونة " (2) أو " الستر العالي " (3)

يقسم عهد الملك (الناصر الثاني) إلى مرحلتين :

أ- الأولى : مرحلة الرعاية والوصاية من قبل ضيفة خاتون وتمتد بين عامي (634- 640 هـ/ 1236-1242 م)

ب- الثانية : الحكم الفعلي للملك الناصر الثاني وتمتد بين عامي (640-658هـ/1242-1260 م) .

المرحلة الأولى : مرحلة الرعاية والوصاية من قبل ضيفة خاتون وتمتد بين عامي (634-

640 هـ / 1236-1242 م) :

كانت حلب وقتها مملكة أيوبية كبيرة ، وتشغل دوراً كبيراً في السياسة الداخلية للبيت الأيوبي، وقد حافظت ضيفة خاتون جدة الناصر على كل ذلك ، واوصلت حلب إلى مرحلة متقدمة وعالية من القوة والثروة بين دول البيت الأيوبي (4).

بعد وفاة ابنها الملك العزيز محمد بادرت ضيفة خاتون بأخذ اليمين لحفيدها الملك الناصر يوسف الثاني،(5) من ملوك وأمرأء البيت الأيوبي ، وقررت مع مجلس الوصاية إرسال قاضي حلب زين الدين والأمير بدر الدين بن أبي الهيجاء إلى الملك الكامل في مصر ، وذلك لأخذ اليمين للملك الناصر يوسف الثاني ، ولكي يتوثقا من جهته ،ومعرفة نواياه اتجاه حلب ، فلما وصلا إليه ، أظهر الكامل الألم والحزن لموت العزيز ، وقصر في إكرامهما وعطائهما ، إلا أنه حلف للناصر ولكنه أشار على

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 671-672 . - ابن واصل : مفرج الكروب ، م 5، ص 115-119 . - سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، م 8، ص 703 . - أبو الفداء: المختصر، م 3، ص 158 . - ابن خلكان : وفيات الأعيان، م 4، ص 7-10 . - الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 342 . - ابن العميد : اخبار الأيوبيين ، ص 21 . - اليونيني : ذيل مرآة الزمان، م 2، ص 132 .

² - ابن دقماق ، صارم الدين ابراهيم العلاني: نزهة الأتنام في تاريخ الاسلام ، تحقيق: سمير طباره، ط1، لمكتبة العصرية ، بيروت 1999م ، ص 85 .

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 677-678 . - المقرئزي : السلوك ، ج 1، ص 253-254 .

⁴ - الحايك : العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية ، ص 285 .

⁵ - كان مولد " الناصر يوسف الثاني " في سنة ستمائة وسبع وعشرين : أبو الفداء : المختصر : م 3، ص 147 . ابن الوردي : تاريخه ، م 2، ص 153 . ابن واصل : مفرج الكروب ، م 4، ص 283 .

الرسولين إلى تقديم الملك "الصالح أحمد بن الملك الظاهر" ليكون مدبر الجيش ، وأن تكون تربية الملك الناصر إليه . فلم ير الجماعة ذلك . وبعد مدة سير الملك الكامل خلعة للملك الناصر ، بغير مركوب ، وسير عدة خلع لأمرأء الدولة ، وسير مع رسول منفرد خلعة للملك الصالح على أن يجيء إليه إلى "عين تاب".⁽¹⁾

رفضت صاحبة ضيفة خاتون إشارة أخيها الكامل وتخوفت من نواياه ، و رفضت خلعة الكامل وقررت أن تلبس الملك الناصر خلعته فقط ، فوافقها مجلس الوصاية على ذلك .⁽²⁾ بعد أن تشككت صاحبة خاتون من نوايا أخيها الملك الكامل ، كان لا بد لها من تحالف قوي تستطيع من خلاله الوقوف في وجه الكامل إذ ما فكر بأي عدوان على مملكتها ، لذلك بادرت للتحالف مع أخيها الأشرف صاحب دمشق . و كان هذا التحالف في مصلحة الطرفين . وقد رأى الأشرف في هذا التحالف قوة للوقوف في وجه الكامل الذي زادت قوته بعد سيطرته على أملاك الأراتقة في بلاد آمد الواسعة .⁽³⁾ إضافة إلى ذلك خوف الكامل نفسه من الأشرف الذي ربما كان يفكر في الفصل بين أملاك الكامل في مصر والجزيرة كونه يسيطر على دمشق التي تتوسط المنطقتين . كما أنضم صاحب حمص لتحالف دمشق وحلب فقد كان متخوفاً من أطماع الكامل في بلادة .

كما أتفق الحلفاء على ضرورة ضم حماه إليهم ولو كان ذلك بالقوة ، لما تشكل من مصدر خطر كبير على أمن حلب . وقد توسط صاحب حمص لدى الملك المظفر صاحب حماة للدخول في الحلف ، وقد وافق المظفر على الدخول في الحلف وذلك تخوفاً من هجوم الحلف على مملكته ، ويشير أبو الفداء إلى أن الأشرف قد هدد المظفر بالهجوم على بلادة ، وهذا ما دفع المظفر للذهاب إلى دمشق وإعلان قبوله أمام الأشرف وحلف يميناً بذلك . كما تم الاتفاق بين التحالف وخليفة كيخسرو الثاني للانضمام إلى التحالف وذلك لشعورهم بأن حلف الكامل ما زال أقوى من حلفهم فهو يضم قوات مصر

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 678 . / "عين تاب" : قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية ، وكانت تعرف بدلوك ، وهي من أعمال حلب . الحموي : معجم البلدان ، م4، ص 176 .

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 677-678 . - المقريزي : السلوك ، ج 1، ص 253-254 . - ابن الوردي : تنمة المختصر ، ص 241 . - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص 119-121 .

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 680-681 .

والجزيرة و آمد ، لذلك تم إرسال وفد إلى كيخسرو الثاني لأخذ يمينه ، وقد مثل حلب في الوفد
الصاحب كمال الدين ابن العديم .⁽¹⁾

لكن هذا التحالف سرعان ما تفكك وذلك لعدة أسباب أهمها :

- وفاة الملك الأشرف سنة 635هـ / 1237م وقد خلفه الصالح اسماعيل على حكم دمشق.
- عودة المظفر صاحب حماة إلى صف الكامل .⁽²⁾ وهذا الأمر أدى إلى نشوب خلاف بين حماة وحمص حول ملكية سلمية ، فبادرت صاحبة خاتون إلى درء الصدع ، وأرسلت وفداً اليهما لعلاج الأمر ، ولكن الوفد الذي كان يرأسه كمال الدين ابن العديم أخفق في مهمة بسبب تعنت الطرفين وعاد إلى حلب .⁽³⁾

وفي تطور آخر للأحداث قام الكامل بالتحضير للهجوم على حلب ، وما كان من صاحبة خاتون عندما علمت بالأمر إلا الاستعداد لمواجهة ، فجندت جنوداً من التركمان والخوارزمية ، وطلبت النجدة من سلاجقة الروم للدفاع عن المدينة ، لكن وفاة الكامل سنة 635هـ / 1237م أوقفت مشروعه بالاستيلاء على حلب .⁽⁴⁾

وبعد زوال خطر الكامل تحولت حلب من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم ، فقد قررت صاحبة خاتون مهاجمة " معرة النعمان " وحماة التي كانت خطراً على حلب ، وقد فرض الجيش الحلبي بقيادة المعظم تورانشاه⁽⁵⁾ حصاراً قوياً على المعرة فرضت وسلمت للجيش الحلبي ، وبعد ذلك تحول الجيش الحلبي لمحاصرة حماة والتضييق عليها ، وكان الهدف من ذلك ، إجبار المظفر على التوقف عن التحريض ضد مملكة حلب والتخلي عن مساندة مصر ودمشق ضد حلب ، ومن جهة ثانية إجبار المظفر عن

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 677-678 . - ابن واصل : مفرج الكروب ، م 5، ص 121-122 . - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 158-159 . - المقرئزي: السلوك ، ج1، ص 254 . - سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ، م8، ص 699-700 . - ابن كثير : البداية والنهاية ، م13، ص 167-168 . - العيني : عقد الجمان ، م14، ص 188-194 .

² - ابن واصل: مفرج الكروب ، م 5، ص 138، 147 . - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 677-678 . - العيني : عقد الجمان ، م14، ص 194 . - الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 317 .

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 683-684 . - ابن واصل : مفرج الكروب ، م 5، ص 147-150 . - العيني : عقد الجمان ، م14، ص 195 .

⁴ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 684-685 . - ابن واصل : مفرج الكروب ، م 5، ص 154-155 . - المقرئزي: السلوك ، ج1، ص 257-258 . - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 160-161 . - الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 319 . - العيني : عقد الجمان ، م14، ص 196، م 18، ص 200-205 . - ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 21-22 . - ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 243 .

⁵ - تورانشاه: ولد بمصر عام 577هـ، وهو آخر من بقي حياً من أخوته لذلك يعد كبير البيت الأيوبي ، ذا شجاعة وعقل ، وكان مقدم جيوش حلب ، وهو الذي قاد الدفاع عن حلب ضد التتار . الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 269 .

المطالبة بالمعرة والتحالف مع حلب ، وبعد أن حققت صاحبة هدفها أمرت جيشها بفك الحصار عن حماة والانسحاب وكان ذلك سنة 636هـ/1238م وعقد اتفاق بين الطرفين نص على:

- إعادة سلمية إلى صاحب حماة ، وإبقاء المعرة تحت سيطرة حلب .
 - تخلي صاحبة عن القرى التابعة للمعرة لصاحب حماة بهدف ضمه إلى جانبها. (1)
- بعد أن حققت صاحبة خاتون ما تريده من حماة التفتت إلى دمشق ولكنها وقفت على الحياد في بداية الأمر من الصراع الدائر على دمشق بين أبناء أخيها الكامل . حيث رفضت تقديم المساعدة للصالح أيوب عندما قرر الهجوم على مصر ، وأوضحت بأنها لن تدخل في الصراع الحاصل بينه وبين أخيه ولن تساعد أحدهما ضد الآخر. (2)
- إلا أن هجوم الخوارزمية على أعمال حلب أجبر صاحبة خاتون على تغيير سياستها تجاه أولاد أخيها الكامل، فانضمت إلى الحلف الذي أنشأه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ضد الصالح أيوب ، ومن الواضح أن الدافع وراء انضمام صاحبة خاتون لحلف الصالح اسماعيل هو الانتقام من الصالح أيوب الذي كان وراء قيام الخوارزمية بتخريب أعمال حلب ونهبها . (3)
- أما داخلياً فقد تعرضت حلب لبعض الحركات المناهضة التي تصدت لها صاحبة بحزم وقوة ، ومن هذه الحركات التي كانت تهدف إلى انتزاع السلطة في حلب من يد صاحبة :
- تمرد كمال الدين عمر بن العجمي بالتعاون مع صاحب "شيزر" شهاب الدين بن مسعود ، الذي قام الملك العزيز سابقاً بانتزاع شيزر منه وأجبره على الإقامة في حلب. (4) لكنهما تخوفاً من رد فعل الأشرف الذي يساند حلب ، فتم إرسال رجل يقال له " العز بن الأطفاني" لمقابلة الأشرف في دمشق ، لإقناعه بالسيطرة على حلب وأدعا أن معظم أمراء حلب يساندون هذا الأمر إضافة إلى عائلة بني العجمي . لكن الأشرف رفض هذا الأمر وكان جوابه (لا تتصور أن يبدر مني غدر، ولا قبيح في حق أحد من ذرية الظاهر) . (5)

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 685-687-691. - ابن واصل : مفرج الكروب ، م 5، ص 181-185. - المقرئزي: السلوك ، ج1، ص 269-272. - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص162. - الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 409-410. - العيني : عقد الجمان ، م18، ص 207-219. - ابن الوردي : نعمة المختصر ، م2، ص 244-245

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 691 .

³ - المقرئزي: السلوك ، ج1، ص 303-304. - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص169. - النويري : نهاية الأرب، م29، ص 227. - ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص31. - الدواداري: كنز الدرر ، م7، ص 347.

⁴ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص 128-130. - الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 409 .

⁵ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 679-680.

وقد علمت صاحبة بهذا الأمر وما يحاك ضدها ، لذلك قررت القضاء على هذا التمرد قبل أن يبدأ . فتم اعتقال الرسول عند باب العراق (1) ، واخبرها بتفاصيل التمرد ، فألقي القبض على ابن العجمي وعلى صاحب شيزر ووضعوا في السجن . وتم مصادرة أملاك صاحب شيزر كلها . ولكن لم يتم مصادرة أملاك ابن العجمي خوفاً من تحريك أسرة بني العجمي الكبيرة والهامة.(2)

- و في سنة (634هـ/ 1237م) حدث تمرد آخر ولكنه كان (خارجي) على يد أمير من التركمان يقال له "قنغر" يمتلك قوة عسكرية كبيرة ، وكان ذلك بعد موت " الملك العزيز" فقد هجم "قنغر" على أطراف حلب من ناحية " قورس" (3) فنهب ضياعاً متعددة ، وكلما قام بغارة كان يعود ويدخل بلاد الروم ، وقد خرج إليه عسكر من حلب لكنهم غلبوا.

تخوف أمراء حلب من أن يكون دخول " قنغر" بأمر من ملك الروم السلجوقي كيقباز ، فأرسلوا إليه رسولاً لاستيضاح الأمر، لكنه أنكر أن يكون على علم بما قام به قنغر وأمره برد ما أخذه من بلد حلب ، وعدم الهجوم من أراضيه على حلب . كما قدم ملك سلاجقة الروم الدعم والمناصرة للملك الناصر . في المقابل قامت صاحبة خاتون بإرسال الأمير شرف الدين بن أمير جاندار حاملاً هدية ثمينة لملك الروم تعبيراً عن شكرها له وتقديراً لما تعهد به . (4)

وهنا لا بد من التساؤل هل كان كيقباز فعلاً لا يعلم بأمر " قنغر" وما يمتلكه من قوة عسكرية مكنته من التغلب على جيش حلب ؟ ويستنتج هنا أن كيقباز كان على علم بما يحدث وهدف من وراء ذلك تحقيق عدة أهداف أهمها:

- شكلت غارات " قنغر" قوة استطلاع عسكرية ، اختبرت قوة جيش حلب ، وبهزيمته تبين ضعفه، وعدم تشكيله أي تهديد عسكري على بلاد السلاجقة .

- كان لابد من إيصال رسالة إلى حلب لا سيما بعد وفاة العزيز مفادها أن من مصلحة حلب الوفاق مع مملكة الروم السلاجقة ، وكانت ردت فعل الحلبيين تشير إلى أن الرسالة وصلت ، حيث أرسلوا إلى كيقباز يذكرونه بالعهود التي بينهم ليكف عنهم خطر " قنغر". كما قام لاحقاً الأتابك طغريل بإرسال

¹ - باب العراق : أحد أبواب مدينة حلب ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 681 .

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 679-680 . - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص 128-130.

- الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 409 .

³ - قورس: مدينة أزلية بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب ، وهي الآن خراب وبها آثار باقية . الحموي: معجم البلدان ، م4، ص 412.

⁴ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص 685 .

رسول إلى كيقباز يستحلفه لمولاة الناصر الثاني ، " فبذل كيقباز من نفسه الموافقة والنصرة للملك الناصر وكفّ من يقصد بلاده بأذى" (1)

ب- المرحلة الثانية : الحكم الفعلي للملك الناصر الثاني وتمتد بين عامي (640-658هـ/1242-1260 م) .

بعد وفاة ضيفة خاتون بنت العادل في جمادى الأولى 640 هـ/ تشرين 1242 م. (2) تسلم الناصر مقاليد الحكم بشكل مباشر ، وكان قد جمع القضاة والشهود وأشهدهم بأنه وصل إلى سن البلوغ الذي يؤهله لاستلام السلطة وشهدوا له بذلك ، وبعدها جلس على عرش المملكة ، وخلع على أمرائه، واستبد برأيه . لكن كان في حاشيته من يرجع لهم في بعض الأمور ومنهم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين. ووزيره ابن القفطي، ومدبر مملكته جمال الدولة إقبال الخاتوني. (3)

كان الناصر الثاني كما باقي ملوك البيت الأيوبي يطمح لان يعيد أمجاد الناصر الأول صلاح الدين ، وكانت جميع الظروف لصالحه في بداية الأمر لا سيما أنه يحمل الاسم واللقب نفسه ولا يوجد من ملوك الأيوبيين من يستطيع منافسته ، لكنه واجه في النهاية أسوأ مصير واجهه ملك أيوبي ، وكان قد تجاوز بطموحه الحدود وجرت الأمور لغير ما كان يتمنى " فانقطعت الطرق في أيامه ، وطمع العرب والتركمان وكثر اللصوص ، وإذا حضر القاتل بين يديه قال : الحي خير من الميت ويطلقه" (4) أخذ الناصر يتطلع إلى توسيع حدود مملكته وضم الممالك القريبة له، وإخضاع باقي ملوك البيت الأيوبي لسلطته فكانت البداية من حمص التي تولى عليها شاب فتى هو الأشرف موسى ابن المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه ، ونظراً لحدائثة عهده أعتمد على وزير أبيه مخلص الدين بن قرناص في تدبير أمور مملكته ، وقد بادر مخلص الدين بإقناع الأشرف موسى بن منصور بأن يسلم قلعة "شميميس" للسلطان الصالح أيوب عام (645هـ/1256م) . (5)

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص 681 .

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص 707 . - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص 313. - ابن العميد : أخبار الأيوبيين، 32.

- أبو الفداء : المختصر ، م3، ص171.

³ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص313.

⁴ - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 212 .

⁵ - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 176.

وعدّ الناصر الثاني هذا التصرف عملاً عدائياً من حمص ضده ، لأنه سيتسبب بدخول الصالح أيوب إلى عمق الشام،⁽¹⁾ وهذا الأمر قد يدفع الصالح أيوب للسيطرة على باقي الشام .⁽²⁾ وهذا ما يعرقل حلم الناصر الثاني من بسط سلطانه على باقي الممالك الأيوبية، وهنا قرر الناصر مهاجمة حمص بدلاً من الدخول في صراع مع قوات الصالح أيوب على قلعة شميميس .

في عام 646هـ/1257م فرضت قوات الناصر حصاراً قوياً على حمص لمدة شهرين ، لم يتمكن خلالها الصالح أيوب من إنجاز صاحبها بسبب مرضه .⁽³⁾ وهنا اضطر الأشرف موسى بن المنصور إلى التفاوض مع لؤلؤ الأميني ، وقام بتسليمه حمص على أن يبقى له " تل باشر " ⁽⁴⁾ و " تدمر " و " الرحبة " .⁽⁵⁾

شكل سقوط حمص بيد الناصر الثاني ضربة قوية للصالح أيوب الذي كان يعدّ نفسه سلطاناً على مصر والشام ، وبالمقابل تعاظم سلطان الناصر يوسف الثاني ، وهذا الأمر دفع الصالح أيوب لإرسال قواته من مصر إلى الشام لاسترداد حمص ، ولكن مرضه منعه من قيادة الجيش فكلف واليه على دمشق فخر الدين بن الشيخ بقيادة الجيش .⁽⁶⁾

قامت قوات الصالح بفرض حصار شديد على حمص ، وكادت أن تسقط بيدهم، وهنا أسرع الناصر يوسف لإنقاذ حمص، وهاجم قوات الصالح ، ولكنه أوقف الهجوم بسبب الخسائر الكبيرة التي حلت بجيشه . لكن الظروف شغلت دوراً كبيراً في تغيير الأحداث ، ولا سيما بعد سماع الصالح أيوب خبر تجهز حملة صليبية للهجوم على مصر ، فجرت مفاوضات بين أيوب والناصر يوسف ، أقرت فيها حمص للناصر يوسف الثاني ، وانسحبت قوات أيوب إلى دمشق، وقد رافق الصالح أيوب جيشه من دمشق إلى مصر محمولاً على محفة لاشتداد مرضه .⁽⁷⁾

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص377.

² - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص176.

³ - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص177. - الحنبلي : شفاء القلوب ، ص412.

⁴ - تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة شمال حلب ، بينها وبين حلب يومان. الحموي: معجم البلدان ، م2، ص40. ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج1، ص2، ص100-108.

⁵ - اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م2، ص137 .

⁶ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ، م6، ص259.

⁷ - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص177. - الحايك : العصر الأيوبي ، ص287.

كان هدف الناصر يوسف الثاني بعد ضمه حمص هو دمشق ، وقد سمح له تطور الأحداث في مصر تحقيق مراده ألا وهو السيطرة على دمشق. وسيرد الحديث بشكل مفصل عن ذلك في الفصل الثاني من خلال العلاقة بين الأيوبيين والمماليك في مصر .

- المبحث الثاني : دخول المغول ونهاية الحكم الأيوبي .

كان " التتار"⁽¹⁾ يعيشون في مناطق أواسط آسيا، حيث تمتد مناطق واسعة من الأراضي السهبية والصحراوية ، التي كانت - منذ أقدم العصور - منبعاً للهجرات ، وتعيش فيها أقوام بدوية نصف متوحشة ، ورغم تعددها، فإن كلاً منها تكوّن وحدة قائمة بذاتها على أساس الجنس واللغة .⁽²⁾ ومع التشابه الكبير في البيئة وأساليب الحياة والملاح بين التتر والأترك، فهم مختلفون تماماً، وبينهم تفاوت شاسع.⁽³⁾ وكان يطلق عليهم اسم التتر نسبة لإحدى قبائلهم القوية ، ثم أطلق عليهم اسم المغول نسبة لقبيلة " المونغول" .

¹ - التتار : أطلق الصينيون اسم التتار على الشعوب البدائية المتنقلة، التي كانت تعيش في شمال أسوارهم. والتتار خليط من الشعوب المغولية والتركية . وأطلق اسم التتار في الغرب منذ القرون الوسطى على المحاربين من المغول والتترك الذين اشتركوا في فتوحات " جنكيز خان" . . ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص49. القاموس الإسلامي ، م1، ص440.

² - Gengis- Khan, Grenard, p.8

³ - الدين، رشيد: جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران (تاريخ هولاكو) تعريب : محمد صادق نشأت ، م2، ج1، ص212.

وقد اعتنق قسم كبير منهم المسيحية " النسطورية" في مطلع القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي(كان هذا الأمر أحد الأسباب التي جعلت مسيحيي بلاد الشام يتعاونون مع التتار. سيرد تحليل هذا الجانب عند الحديث عن مملكة أرمينيا)

ظلت حياة التتار قائمة على نهب القبائل لبعضها البعض ،حتى ظهر " تيموجين" المنغولي، الذي لقب بـ " جنكيز خان ⁽¹⁾" - قاهر العالم - سنة (592هـ/1196م).وقد خاض عدة حروب ، وانتصر على القبائل واحدة تلو الأخرى، ضاماً كل من يقبل الخضوع له ، ومبيداً لمن يعاديه، واصبح بذلك ملكاً لمنغوليا.

أعاد جنكيز خان تنظيم الجيش ، مما مكنه في سنة (614هـ/1217م) من إسقاط امبراطورية الصين الشمالية ، قبل أن يتوجه غرباً ليصطدم بدولة خوارزم، التي كانت في ذروة قوتها، فسحق " جنكيز خان" جيوش هذه الدولة ، بعد عدة معارك، ولم يكن هذا النصر الساحق بسبب تكتيك فرسان التتار، فالخوارزمية والأتراك يجيدونه تماماً، بل بسبب أدوات القتال ذات الأصل الصيني ، التي استخدمها التتار. ⁽²⁾

إضافة إلى فقدان التماسك القومي في جيوش الخوارزمية ،وضم التتار العناصر التركية إلى جيوشهم طوعاً ،أو كرهاً .

وبعد مقتل جلال الدين منكبرتي عام (628هـ/ 1231 م) انفتحت بلاد الشرق الإسلامي - التي كان يسيطر عليها الخوارزميين - أمام زحف التتار " لعدم المانع " ⁽³⁾ .

وفي سنة (638هـ / 1241 م) بدأ الدخول الرسمي للتتار إلى الجزيرة ، تجلى بتحرك دبلوماسي لسفرائهم ، حيث باشروا اتصالهم مع الخلافة العباسية وممالك شمال العراق، ثم مع ملوك الجزيرة

¹ - جنكيز خان: ولد سنة(557هـ/1162م)اسمه الأصلي تيموجين ، وأبوه من القبائل المغولية الضاربة في صحراء الجوبي الممتدة شمال الصين، بدأ حياته الدموية بقتل أخيه لأنه أخذ منه سمكة ، وشنق ابن عمه بخيط رفيع من الحرير ، وكان يلقي خصومه بالزيت المغلي . فرج السيد: قاهر العالم، دار الفكر العربي ، ط2، القاهرة1377هـ/ 1957م، ص 15.

² - زكار ، الموسوعة الشاملة (مدخل تاريخ الحروب الصليبية) ج3، ص413.

³ - لعدم المانع : ذلك أن خوارزم شاه محمد كان قد استولى على البلاد ، وقتل ملوكها ، وأفناها ، وبقي وحده سلطان البلاد جميعها فلما انهزم أمام التتار لم يبق أمامهم ما يمنعهم من التقدم ولا من يحمي هذه المناطق . فبهلاكه تمكن التتار من العراق ، وسلاجقة الروم ، والجزيرة والتطرق للشام . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، م 12 ، ص 361 .ابن واصل : مفرج الكروب ، م 4 ، ص 323 .الصياد: المغول في التاريخ ،ص231.

وسلاجقة الروم ، وبعدها مع ملوك الشام .⁽¹⁾ و كان الهدف من هذا الأمر الاطلاع عن كثب على ردود فعل الملوك والأمراء ، ومدى قدرتهم على المواجهة معهم .

وفي سنة (639هـ / 1242 م) بدأ التتار تحركهم العسكري ، فهاجموا "أرزن الروم " وأغاروا على " خرتبرت " .⁽²⁾

في هذه الأثناء كان المنصور وجيش التحالف الأيوبي يخوض عمليات عسكرية ضد الخوارزمية في الجزيرة ، إلا أنه بمجرد ذكر حركة التتار انسحب إلى رأس عين . ولم يفكر بالثبات والتصدي لهم أو حتى بتوحيد جهودهم مع الخوارزمية الذين كان المغول هم أعداؤهم الأذليين وسبب نكبتهم ، بل على العكس أثر الطرفان تجنب أو التغافل عن حركة التتار .⁽³⁾ وربما كان سبب هذا التغافل عن مواجهة التتار :

- هو أسلوب التتار نفسه في السلب والنهب والقتل والعودة شرقاً ، وعدم استقرارهم في المناطق التي يغزونها ، مما دفع ملوك المنطقة إلى التقليل من شأن خطرهم .

- الانشغال في حروبهم و محاولة كل طرف التوسع على حساب الآخر .

ولكن هذا التغافل لا يعني أنه لم تقم حركات لتوحيد الجبهة الإسلامية في وجه المغول ، وكان أولها ما قام به " غياث الدين كيخسرو " الذي أرسل نائب مملكة الروم " الأمير شمس الدين الأصفهاني " إلى السعيد " صاحب ماردين " و الخوارزمية و المظفر غازي " صاحب ميافارقين " وأصلح بينهم وأرضاهم من حسابه ، وذلك لتوفير قوى جيش حلب (الحليف له) ، و تجنيد أكبر عدد من المتطوعين للمعركة القادمة مع التتار ، فأعطى السعيد صاحب ماردين رأس العين ، والخوارزمية خرتبرت وبعض البلاد الأخرى ، وأما المظفر غازي فأعطاه خلاط ومن ثم تابع طريقه إلى حلب ومعه أموال عظيمة ليستخدام العساكر .⁽⁴⁾ وبالفعل تم للسلطان " غياث الدين ما أراد ، وأرسلت حلب نجدة قوية مقدمها " أبي المعالي الناصح الفارسي " ، فالتقاهم السلطان " غياث الدين كيخسرو " ، وأكرمهم . " وفرح أهل بلاد الروم ، وقويت قلوبهم بنجدة حلب " .⁽⁵⁾ (سيرد تفصيل هذا الأمر في مبحث العلاقات الأيوبية مع سلاجقة الروم) .

¹ - ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص 231. الحايك : العلاقات الدولية عصر الحروب الصليبية ، ص 63.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، م 2 ، ص 705 .

³ - الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 331 . ابن العديم : زبدة الحلب ، م 2 ، ص 705 .

⁴ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م 5 ، ص 327 . ابن العديم : زبدة الحلب ، م 2 ، ص 708

⁵ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م 2 ، ص 708 .

وفي سنة (641 هـ / 1243 م) علم السلطان " غياث الدين كيخسرو " بوصول التتار ، سار السلطان من " سيواس " إلى " آقشهر " و أرسل بعض قواته ومعهم عسكر حلب ليكشفوهم (1)، و لفك حصار التتار عن بلدة " آقشهر " (2).

فأحاط بهم التتار ، " ولم يسلم إلا من حمل وخرج من بينهم ، وهزم السلطان " غياث الدين كيخسرو " ، وأجفل أهل بلاد الروم " (3) ثم استولى التتار على " آمد " و " خلاط " و ما بينهما من بلاد الجزيرة (4) أما الحركة الثانية فقام بها الملك الناصر الثاني يوسف صاحب حلب ، الذي سعى لحل الخلاف بين أمراء الجزيرة ، والتدخل بقوة لفرض السلم بينهم ، وذلك بهدف استمالتهم لتشكيل حلف بوجه التتار ، فأقطع نصيبين ثلث لصاحب الموصل " بدر الدين لؤلؤ " ، وثلث لصاحب ماردين ، وثلث للمعظم توران شاه صاحب حصن كيفا.

إلا أن جهوده هذه لم يكتب لها النجاح ، وكانت نصيبين التي أراد لها الناصر يوسف أن تكون سبباً للوحدة ، سبباً للخلاف والحروب التي استهلكت ما بقي من قوة لجيوش أمراء الجزيرة . (سيرد تفصيل هذا الأمر في الفصل الخامس) .

بعد سقوط بغداد بيد المغول سنة (656هـ/1258م)، ودخول التتار إلى الجزيرة الشامية، أعاد رسم الخريطة السياسية لبلاد الشام والجزيرة، مما فرض ظروف سياسية وعسكرية قاسية أخذت تحيط بالملك الناصر يوسف ، ويمكن إدراج التحالفات الجديدة لحكام الجزيرة والشام ضمن ثلاث فئات :

- الأولى : لم تكد بغداد تسقط في أيدي المغول حتى سارع بعض الحكام لتقديم الطاعة للتتار للحفاظ على عروشهم ، وكان في مقدمتهم " بدر الدين لؤلؤ " صاحب الموصل ، " والشريف تاج الدين بن صلاحيا " صاحب إربل ، والملك " المظفر " صاحب ماردين ، " وعز الدين كيكافوس الثاني " وأخوه " ركن الدين قليج أرسلان الرابع " واثري عرش سلاجقة الروم. (5)

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م 3 ، ص 268-269 .

² - آقشهر : بلدة في الأناضول قرب قونية . الحايك : العلاقات الدولية ، ج 2 ، ص 45 .

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م 3 ، ص 268-269 .

⁴ - المقرئزي : السلوك ، ج 1، ص 313. ابن واصل : مفرج الكروب ، م 5 ، ص 326 .

⁵ - العيني : عقد الجمان ، م 18، ص 397- . ابن الوردي : تنمة المختصر ، م 2 ، ص 289- أبو الفداء : المختصر ، م 3، ص 198- . المقرئزي : السلوك ج 1 ، ص 410- . النويري: نهاية الأرب ، م 27، ص 384 . - اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م 1، ص 91- ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 482-483- . عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، عصر المماليك في مصر والشام ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط 1، مصر 1994، ص 33 . - الصياد ، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ، بيروت 1980، ص 278.

- الثانية: يمثلها الحكام المسيحيون في أرمينية الصغرى وأنطاكية، حيث تعاونوا مع "هولاكو" بهدف الحصول على مساعدته لاحتلال بلاد الشام والقدس ، وقد كان هذا التحالف عاملاً مشجعاً للتتار لغزو بلاد الشام.
- الثالثة : رفضت التعامل مع المغول ويمثل هذه الفئة " الكامل محمد بن الملك المظفر غازي" صاحب ميافارقين، فقد رفضت مساعدة المغول أثناء حصار بغداد ، وسحب نوابهم الذين كانوا لديه. (1)
- ولما نزل "هولاكو" على بغداد خرج "الكامل" إلى حران ، وأرسل منها رسالة إلى الناصر في دمشق بواسطة المؤرخ "ابن شداد" يبلغه فيها أنه قادم إليه ، ولما وصل إلى " القريتين" سمع الناصر بذلك ، فبادر إلى استشارة أمراءه فيما إذا كان عليه استقبال " الكامل " بالترحاب، فكان رأي الأغلبية استقبال الكامل ما عدا " الزين الحافظي"(2) الذي احتج بأن تصرف الناصر قد يغضب "هولاكو" ويكون سبباً في مهاجمته لبلاد الشام ، لذلك من المصلحة عدم الخروج لاستقباله ، والاعتذار إليه، إلا أن الناصر استجاب لرأي الأغلبية وخرج يلاقي الكامل وانزله في دار السعادة في دمشق . (3)
- كانت لدى الكامل رؤية واضحة لمواجهة خطر التتار ، وقد تجلت في المشروع الذي عرضه على الملك " الناصر يوسف الثاني " عند زيارته له في دمشق ، والذي تمثل بالنقاط التالية :
- عدم جدوى المدارة و تقديم الطاعة للتتار . ويأتي بمثال ذلك تصرف الملك الناصر مع التتار منذ سنة (642هـ / 1244م)
- طلب من الناصر يوسف الثاني التوجه بجيشه إلى بغداد ، وسيكون الكامل معه، فمعركة بغداد هي التي ستحسم الصراع مع التتار.
- قام الكامل بتحذير الناصر يوسف الثاني من تضليل " بدر الدين لؤلؤ" المتعامل مع التتار ، ومن خيانة وزير الناصر ورسوله إلى التتار " الزين الحافظي"، وقال له (لقد جعلوك خبزاً ومعيشة). (4)
- لقد نال هذا المشروع موافقة معظم أمراء " الناصر يوسف الثاني" ما عدا الوزير الزين الحافظي ، والملك الصالح " نور الدين علي " ابن صاحب حمص، وابن أخيه الملك " الأشرف موسى " ، والأمير

¹ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق2، ص 484،560.

² - الزين الحافظي: زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر العقرياني، الحافظي نسبة إلى الحافظ صاحب قلعة جعبر ، حيث انتقل من خدمته إلى خدمة الملك الناصر يوسف الثاني ، ثم انتقل عنه لخدمة هولاكو، وأغرى التتار بالمسلمين ، ثم غضب عليه هولاكو وقام بقتله عام (662هـ/1264م). الحاويك : العلاقات الدولية عصر الحروب الصليبية ، ج2، ص 50.

³ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق2، ص 485-484.

⁴ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ج2، ص 485.

" نجم الدين محمد ابن الافتخار ياقوت "الذين كانوا متفقيين على العمل مع المغول ، وتثبيط هم جيش حلب . (1)

إلا أن الناصر " يوسف الثاني " لم يوافق على مشروع " الكامل " ، بل عرض عليه أن يرسل من طرفه رسولاً ليشفع له عند " هولاءكو " فأجابه " الكامل " : (لو أردت هذا كنت أوجه منك عنده ، فإني رأيت وجهه مرتين) وبقي الكامل في دمشق حتى سقوط بغداد بيد التتار ، وعندها اتفق مع " الناصر " على نجدة وعاد إلى بلاده . (2)

الناصر بين المقاومة والاستسلام :

بعد سقوط بغداد بيد التتار تنالت رسل هولاءكو إلى الملك الناصر ، حاملين معهم التهديد والوعيد ، مما دفع الملك الناصر " يوسف الثاني " إلى العمل على محوريين :

- الأول: عندما وصلت أخبار استيلاء " هولاءكو " على مدن الجزيرة سنة (657هـ/1259م) إلى حلب ، وجد الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، ومعه أمراء جنده وعلى رأسهم " بكتمر " و " علاء الدين القيمري " في مصر الحليف المثالي لمواجهة التتار ، لمواردها الكبيرة ، وعسكرها القوي، لذلك أرسل الناصر يوسف الثاني صاحب " كمال الدين ابن العديم " إلى مصر لطلب النجدة على التتار، ووعده " قطز " ابن العديم بنجدة حلب ونصرتها . (3)

- الثاني: هذا الرد لم يقضِ على خوف الناصر يوسف الثاني من المماليك ، لذلك سار الناصر يوسف في الاتجاه الثاني الذي تمثل بإرسال الرسل والهدايا إلى هولاءكو لاسترضائه.

بعد استيلاء هولاءكو على بغداد سنة (656هـ/1258م) "أرسل له الناصر ولده العزيز محمد بتحف وهدايا ليصانعه بذلك" ويسترضيه و يطلب إليه أن يساعده في استخلاص مصر من يد المماليك (4)،

1 - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق2، ص 485-486.

2 - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق2، ص 486.

3 - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص199- المقريزي : السلوك ج 1، ص419. ابن كثير : البداية والنهاية ، م13، ص657.

4 - الحنبلي : شفاء القلوب ، ص416.العريني: المغول ، ص200. الصياد: المغول في التاريخ ، ص290.

ولكن هولاكو أرسل إليه رسالة بالعربية ، كتبها " نصير الدين الطوسي" ⁽¹⁾ ، ويظهر من رسالته إلى الناصر أنه لم يقبل عذر الناصر (انشغاله بحماية بلاده من الصليبيين أعداء الاسلام)، وقد تضمنت الرسالة تهديداً مباشراً للناصر ، ووعداً بالويل ، وتخريب بلاده إن لم يصل هو ورجاله وأمواله إلى حضرته لتقديم الطاعة وطلب العفو . ⁽²⁾

لذلك أرسل الناصر يوسف الثاني وزيره " الزين الحافظي " ، ولكن الوزير استغل حضوره بين يدي هولاكو ، وتقرب إلى التتار " فعرف " في الدركاه ، واشتهر ، وصدر له فرمان و بايزه ⁽³⁾ إن تردد وحيرة الناصر ، وتملقه لهولاكو بالرسل والهدايا أوقع عدداً من المؤرخين بالوهم ، منهم رشيد الدين الذي قال : " وكان سلطان حلب - أحياناً- يظهر الطاعة والميل إلى هولاكو بالخفاء، فاتّهم - لهذا السبب - عند سلاطين الشام، وقصدوه، فهرب والتجأ إلى حضرة هولاكو ، فقوى ذلك عزمه على فتح حلب " ⁽⁴⁾

ومما يبين خطأ رشيد الدين أنّ الناصر هو سلطان الشام ، وكذلك فإن هولاكو فتح حلب قبل وصول الناصر إليه بمدة طويلة ، كما أن رشيد الدين يعود ليناقض ما كتبه ، فيقول : " لما وصل هولاكو خان إلى حلب ، فر الناصر إلى قلعة الكرك" ⁽⁵⁾ وهذا بالتأكيد وهم ، فالناصر ترك حلب إلى دمشق قبل حصار هولاكو بمدة طويلة .

¹ - نصير الدين الطوسي : محمد بن محمد بن الحسن ، فيلسوف وعالم فلكي ، ولد في طوس، حوالي (600هـ 1204م) وتوفي سنة (672هـ/1274م) ، عاش مدة في قلعة الموت، وبعد سيطرة هولاكو عليها رافقه وخدمه. د. عبد الأمير الاعسم : الفيلسوف نصير الدين الطوسي، ص 60.

² - العيني : عقد الجمان ، م18، ص 398- ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 287- أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 197- المقرئزي : السلوك ج 1. ص 410، 415- النويري: نهاية الأرب ، م27، ص 385. - اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م1، ص 45، ورد لديه أن السفارة كانت في سنة (655هـ) - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 484-485- ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 45-46. ابن كثير : البداية والنهاية ، م13، ص 243. -الصيدا: المغول في التاريخ ، ص 290 - 291. العبادي ، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، بيروت 1986م ، ص 150. اسماعيل ، اكتمال: الآثار الاجتماعية والاقتصادية للحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام (1250-1310م) رسالة دكتوراه لم تنشر ، إشراف: سهيل زكار ، دمشق 1994م، ص 41.

³ - الدركاه : هي الخيمة ، وهنا هي المعسكر، والفرمان هو قرار من هولاكو ، و بايزه : هي الطمغا ، و الطمغا: كلمة تركية عرفت فيما بعد بالدمغة، وهي ختم الملك ، أو شعاره، على قطعة من المعدن، وكانت تعني أن من يحملها في رعاية الخان، فهي أمان له. الحايك : العلاقات الدولية عصر الحروب الصليبية ، ص 63.

⁴ - رشيد الدين : جامع التواريخ - تاريخ هولاكو، ترجمة : محمد صادق نشأت ، ص 305.

⁵ - رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص 308.

وكذلك المقرئ ذكر أن الناصر أرسل ولده العزيز إلى هولاكو طلباً للمساعدة العسكرية ضد المماليك في مصر ، ويضيف أن هولاكو أرسل عشرين ألف فارس إلى دمشق ليكونوا بإمرة الناصر لغزو مصر ،⁽¹⁾ ويعود المقرئ ليؤكد وصول نجدة هولاكو إلى الناصر بدمشق .⁽²⁾

إلا أن سير الأحداث لا يؤكد هذه الرواية للأسباب التالية :

- "العزيز بن الناصر يوسف" ذهب إلى "هولاكو" لاسترضائه وتملقه ، وليس طلباً للنجدة لمواجهة المماليك ، فهذا لا يتناسب مع خوف "الناصر" من التتار ، وانسحابه أمام هجومهم على الجزيرة الشامية من حلب إلى دمشق ، وإرسال "ابن العديم" إلى "قطز" لطلب نجدة المماليك ضد التتار ، وكذلك رد "هولاكو" على سفارة "الناصر" وغضبه لعدم حضوره شخصياً أمامه .
- لم يذكر أي من المؤرخين المعاصرين هذه الحادثة التي وردت عن مؤرخ غير معاصر للأحداث .

سقوط حلب :

لقد اتخذت حملة "هولاكو" على الشام مسارين : الأول ، سار عليه قسم من جيش " هولاكو" بقيادة " يشموط بن هولاكو" في (ذي القعدة سنة 656 هـ / تشرين الثاني 1258 م)⁽³⁾ لمهاجمة ميافارقين التي يحكمها "الكمال" الأيوبي⁽⁴⁾.

لقد كانت رسل "الكمال" تتواتر إلى دمشق طلباً لنجدة "الناصر" ،⁽⁵⁾ إلا أن الخوف التمكن في قلب الناصر ، وضعف شخصيته ، إضافة إلى انتصارات " هولاكو" و احتلاله بغداد منعه من نجدة "الكمال" ، فأدى تصرفه المخزي إلى القضاء على آخر معقل للمقاومة ضد المغول الذين استمروا في

¹ - المقرئ : السلوك ، ج 1 ، ص 411 .

² - المقرئ : السلوك ، ج 1 ، ص 508 .

³ - أبو الفداء : المختصر ، م 3 ، ص 196 . النويري : نهاية الأرب ، م 27 ، ص 383 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 383 . الدودار ، بيبيرس : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تحقيق زبيدة محمد عطا ، شركة المدينة للطباعة والنشر ، مصر ، (د.ت) ، ج 9 ، ص 62 . ابن الوردي : نعمة المختصر ، ج 2 ، ص 287 .

⁴ - على الرغم من مبادرة الأمراء إلى إعلان الولاء لهولاكو ، فإنه لم يتردد في أن يتوجه لقتال الأيوبيين في أعالي الجزيرة لتوطيد سلطانه بها ، فأنفذ حملة بقيادة يشموط و إيلكانويان و سونثاي لقتال الكامل محمد بن شهاب الدين غازي بن العادل بن أبي بكر بن أيوب ، الذي رفض الاعتراف بسيادة المغول ، و أمر بصلب أحد القساوسة اليعاقبة (أحد رسل هولاكو) . العريني : المغول ، ص 224 . الصياد : المغول في التاريخ ، ص 292 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 244 .

⁵ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج 3 ، ص 499 ، 2 . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م 1 ، ص 91 . ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 45 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 483 .

حصار ميافارقين حوالي السنتين حتى ملكوها في سنة (658 هـ / 1260 م) بمساعدة الكرج والأرمن وقتلوا الملك الكامل¹.

الثاني ، وهو القسم الرئيسي من الجيش بقيادة "هولاكو" نفسه ، اتجه إلى حلب يعاونه جنود من الأرمن والصليبيين ، وقد اكتسح في طريقه المدن الإسلامية في الجزيرة فاستولى على نصيبين وحران والرها وسروج ، ثم احتل البيرة وعبر الفرات فسيطر على منبج ، وقتل قسماً كبيراً من أهلها .⁽²⁾ وعندما وصلت طلائع جيش المغول ، ولشدة حماس أهل حلب وعسكرها خالفوا رأي "المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين" قائد الحامية ، وخرجوا من حلب لقتال التتار ، فخدعهم التتار ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ثم وصل "هولاكو" بالقوات الرئيسية لجيش التتار ، و قد انضم إليه الأرمن مع ملكهم هيتوم الأول و الفرنج (من قبل بوهمند السادس) ، وألقى الحصار على المدينة في (الثاني من صفر ، 658 هـ / الثامن عشر من كانون الثاني ، 1260م) ، وقاموا ببناء سور واقى يحميهم من رمايات حامية المدينة ، ونصبوا عليه ما يقارب العشرين منجنيقاً ، وحفروا خندقاً حولهم يتحصنون فيه ، ولما كان التتار يفضلون استسلام المدن ، ويعملون جهدهم ذلك ، إذ لم يكن لديهم الصبر ولا الوقت للحصار الطويل الأمد ، فمشاريعهم التوسعية جعلتهم أعداء للأسوار التي تعيق حركتهم ، لذلك أرسل "هولاكو" إلى "المعظم تورانشاه" رسالة يطلب فيها استسلام المدينة ووعده بالأمان مع أتباعه لأنه ليس هو المقصود بل "الناصر يوسف الثاني" وأتباعه ، فصمم "المعظم تورانشاه" على القتال ، ورفض عرض هولاكو قائلاً: "مالك عندنا إلا السيف" ، فأمر هولاكو بمهاجمة أسوار المدينة ، واستطاعوا دخولها في (التاسع من صفر / الخامس والعشرين من كانون الثاني) ، واستباحوا المدينة سبعة أيام ، وقاموا بمذبحة عظيمة قتل فيها معظم أهلها ، وأسروا الكثير من النساء والصبيان ، وأكثرهم بيعوا في بلاد الفرنج وبلاد الأرمن ، كما دخل "هيتوم ملك الأرمن" صاحب سيس إلى الجامع ، وقتل خلقاً كثيراً ، وأحرق الجانب القبلي منه .⁽³⁾

¹ - العريني: المغول ، ص 225. الصياد : المغول في التاريخ ، ص 293.

² - المقرئزي : السلوك ، ج 1 ، ص 419. ابن كثير : البداية والنهاية ، م 13، ص 243. ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 48. أبو الفداء : المختصر ، م 3، ص 199. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج 2، ص 291. العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ، ص 151. الصياد : المغول في التاريخ ، ص 294 .

³ - أبو الفداء : المختصر ، م 3، ص 199. رشيد الدين : جامع التواريخ ، ص 306. حمادة ، محمد ماهر : وثائق الحروب الصليبية ، ص 354. ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 49. ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص 68. زكار ، سهيل : تاريخ سمباط الأرمني ، الموسوعة الشاملة ، ج 36، 331. العريني: المغول ، ص 242-245.

ولم يسلم من هذه المذبحة إلا من التجأ إلى القلعة ، ودار " شهاب الدين بن عسرون " ، ودار "البازيار " ، ودار " علم الدين قيصر الموصلية " ، و الخانقاه التي يسكنها " زين الدين الصوفي" ، وكنيس اليهود بسبب وجود مراسيم سلطانية مغولية بأيدي أصحاب هذه الأماكن (1).

وهنا يمكن التساؤل ، لماذا سلم السكان الذين التجأوا إلى هذه الأماكن ؟

- لم تعط المصادر تفسيراً لذلك ، إلا أنه يمكن القول أن أصحاب هذه الأماكن تعاونوا مع المغول ، وقدموا لهم المساعدة لإخضاع المدينة ، فكان هذا سبب حصولهم على مراسيم العفو ، و ما يبين لنا صحة هذا الاستنتاج ، أنه أثناء حصار المدينة قام جماعة من أهلها بقتل رئيس المدينة " صفي الدين بن طرزه " و القاضي " نجم الدين أحمد بن عبد العزيز بن نجم الدين بن أبي عسرون " لاتهامهم بالتعاون مع المغول ، (2) وكذلك قيام رئيس أساقفة حلب المؤرخ " ابن العبري " بالمسارعة لتقديم الطاعة والخضوع لهولاكو. (3)

أما القلعة فقد قاومت لمدة شهر حيث تسلمها المغول بالأمان في (الحادي عشر من ربيع الأول / الخامس والعشرين من شباط) ، ولم يتعرض هولاكو بأي أذى للملك " المعظم تورانشاه " الذي توفي بعد ذلك بأيام ، إلا أنه عيّن على المدينة " عماد الدين القزويني " نائباً عنه . (4)

أثار سقوط حلب في يد التتار الفرع و الوجل في نفوس المسلمين في بلاد الشام ، لما اشتهرت به من أنها حصن منيع لم يستطع الظفر به الصليبيون و الأباطرة في بيزنطة ، و أنها موطن حركة الجهاد ضد الصليبيين . فوصل إلى هولاكو ، بحلب ، كثير من الأمراء المسلمين ليعلموا ولاءهم و خضوعهم ، و منهم الأشرف موسى بن المجاهد ، الذي سبق أن انتزع منه الناصر يوسف الثاني حمص ، فأعادها

¹ - ابن كثير : البداية والنهاية ، م 13 ، ص 247 . النويري : نهاية الأرب ، م 27 ، ص 386-387 . المقريزي : السلوك ، ج 1 ، ص 422 . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م 1 ، ص 349-351 . أبو الفداء : المختصر ، م 3 ، ص 200-201 . الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 417 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج 2 ، ص 292-293 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 486-488 . العيني : عقد الجمان ، م 18 ، ص 398 . الدودار ، بيبيرس : زبدة الفكرة ، ج 9 ، ص 66-67 . الريعي ، عبد الله بن عبد الرحمن : العلاقات السياسية بين زعماء المسلمين والصليبيين من خلال المؤرخة المنسوبة إلى القائد الأرمني سمباد ، مجلة الدارة ، العدد 3 ، 1416 هـ / 1996 م ، ص 85 . العريني : المغول ، ص 244 .

² - النويري : نهاية الأرب ، م 27 ، ص 388 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج 2 ، ص 294 . أبو الفداء : المختصر ، م 3 ، ص 202 .

³ - الصياد : المغول في التاريخ ، ص 294 . اسماعيل ، اكتمال : الآثار الاجتماعية و الاقتصادية للحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام (1250-1310م) ، ص 43 . العريني : المغول ، ص 243 .

⁴ - النويري : نهاية الأرب ، م 27 ، ص 388-389 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج 2 ، ص 294 . أبو الفداء : المختصر ، م 3 ، ص 202 . الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 417 . لكنه ذكر أن حصار القلعة استمر شهرين . ابن العميد : تاريخ الأيوبيين ، ص 49 . العريني : المغول ، ص 244 .

إليه هولاكو، على أن تكون إقطاعاً وراثياً له من قبل هولاكو،⁽¹⁾ وكذلك الملك السعيد بن العزيز عثمان حيث أطلقه هولاكو من سجن البيرة ، وأعاد له ولايته على بانياس وقلعتها .

ولما بلغ الملك الناصر يوسف الثاني صاحب حلب ودمشق قصد التتار حلب ، خرج مع جيشه من دمشق ، وعسكر في برزة ⁽²⁾ في أواخر سنة (657هـ / 1259 م)، وقصده صاحب حماة الملك المنصور ، وكان مع الناصر بيبرس البندقداري الذي التجأ إليه إثر هربه من الكرك ، فاجتمع مع الملك الناصر في برزة أمم عظيمة من العساكر، إلا أن ضعف وتردد الملك الناصر وإصغاه لزين الدين الحافضي ، الذي كان متعاوناً مع التتار ، دفع بعض المماليك إلى الثورة على الناصر، و ربما كان على رأسهم "بيبرس البندقداري" لأنه كان ضد مقترحات الزين الحافضي المذلة والمهينة ، ولما دخلت سنة (658 هـ / 1260 م) ، علم الملك الناصر بمؤامرة تحاك ضده من قبل ممالিকে ، الغاية منها التخلص منه ، فهرب من الدهليز إلى قلعة دمشق ، ولما علم ممالিকে بانكشاف خطتهم هربوا إلى جهة غزة ، وذكر بعض المؤرخين أنه كان على رأسهم الملك الظاهر أخو الناصر ، وسبب هربه هو أن المماليك الثائرة أرادت تنصيبه ملكاً مكان أخيه الناصر . ⁽³⁾

وصل الملك الظاهر غازي إلى غزة ، واجتمع عليه من بها من العساكر وأقاموه سلطاناً، ولما جرى ذلك كاتب بيبرس البندقداري الملك المظفر قطز صاحب مصر ، فبذل له الأمان ، ووعد الوعود الجميلة ، ففارق بيبرس الشاميين ، وسار إلى مصر في جماعة من أصحابه .

إن تأمر المماليك الشهرزورية بقيادة الأمير " نور الدين بدلان " ، والمماليك الناصرية والعزيزية على الناصر أدت إلى التنافر بين عناصر الجيش المجتمع في برزة ، وإلى تشكيك الناصر في مدى إخلاصهم له ، إضافة إلى قيام الفريق المؤيد للتتار بنشر الخوف والذعر من هولاكو وجيشه بين أمراء وأفراد جيش الناصر . ⁽⁴⁾ وسقوط حلب بيد التتار دفع الملك الناصر إلى ترك دمشق بمن بقي معه من

¹ - المقرئزي : السلوك ، ج 1 ، ص 423-425 . ابن العميد : تاريخ الأيوبيين ، ص 51 . النويري : نهاية الأرب ، م 27 ، ص 389 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج 2 ، ص 294 . أبو الفداء : المختصر ، م 3 ، ص 202 . الصياد : المغول في التاريخ ، ص 295 . العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ، ص 153 . العريني : المغول ، ص 244-245 .

² - برزة: بلدة قريبة من دمشق من جهة الشمال ، هي - الآن - إحدى أحياء دمشق ، (المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، مادة : برزة) .

³ - المقرئزي : السلوك ، ج 1 ، ص 419-420 . ابن العميد : تاريخ الأيوبيين ، ص 48-49 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج 2 ، ص 293 . أبو الفداء : المختصر ، م 3 ، ص 201-202 . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م 2 ، ص 130 . ابن كثير : البداية والنهاية ، م 13 ، ص 248 .

⁴ - العبادي : قيام دولة المماليك ، ص 154 .

العسكر وفي صحبته الملك المنصور صاحب حماة إلى غزة حيث تصالح مع أخيه الظاهر غازي وعادت إليه مماليكه الهاربة ، تاركاً مصير دمشق لزين الدين الحافظي الذي رفض مرافقة الناصر وجمع أكابر دمشق ، واتفق معهم على تسليم دمشق لنواب هولاكو .

لقد كان لسقوط حلب بيد التتار أثر بالغ في نفوس المسلمين جميعاً ، ولكن هل كان من الممكن الا تسقط حلب ، من خلال سير الأحداث نستطيع القول نعم ، حيث يمكن مما تقدم استخلاص بعض أسباب سقوط حلب ونتائج ذلك :

- 1- قيام الناصر بسحب جيش حلب وإبقاءه في دمشق ، وترك فيها حامية صغيرة .
 - 2- ثقة الناصر الكبيرة بأن أسوار حلب ستمنع دخول التتار إليها ، وبقاءه قابلاً في معسكره في برزة دون حراك . (1)
 - 3- عدم فهم الناصر بأن سقوط ميافارقين هو إنذار بسقوط حلب ، وعدم الاستفادة من صمود ميافارقين ، إذ أنه لم ينجده وإنما أرسل رسولاً إلى يشموط بن هولاكو يهنئه بالوصول إليها . (2)
 - 4- وجود مؤيدين للتتار في بلاطه شكل عاملاً كبيراً لتخاذله وعدم قيامه بأي عمل جدي ضدهم .
 - 5- انقسام معسكر الناصر في برزة نتيجة لضعف شخصيته وتردده باتخاذ القرار الصائب أدى إلى تعارض في الآراء وعدم وجود رابطة تجمع أمراء الطوائف المملوكية .
 - 6- توجيه الناصر يوسف جل اهتمامه للصراع مع المماليك والمطالبة بالحق الأيوبي في عرش مصر .
- أما أهم نتائج سقوط حلب ودمشق فهو القضاء على الدولة الأيوبية في الشام بشكل نهائي وزوالها من التاريخ ، (3) وزوال المقاومة الأيوبية المعارضة للمماليك ، وكذلك أثر سقوط حلب على وضع المدينة الديموغرافي لفترة طويلة من الزمن نتيجة القتل و التهجير الذي كان العلماء وأصحاب المهن على رأس المهاجرين مما أدى إلى تخلف حلب علمياً وتجارياً وصناعياً لحقبة من الزمن .

نهاية الناصر :

رحل الناصر من غزة إلى العريش ، وسير القاضي برهان الدين بن الخضر رسولاً إلى المظفر قطز صاحب مصر يطلب من المعاوضة ، (4) وعندما وصلوا مشارف مصر ، خاف الملك الناصر أن يدخل

¹ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ج3، ق2، ص484-487. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص483 ظر

² - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ج3، ق2، ص486.

³ - المقرئ : السلوك ، ج1 ، ص423 . أبوشامة : الذيل ، ص203 . ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص50 . بيبيرس ، الدودار : زبدة الفكرة ، م9 ، ص67 .

⁴ - الأوتاني ، أحمد : دمشق في العصر الأيوبي ، ط1 ، دار التكوين للطباعة والنشر 2007م ، ص145 .

مصر فيقبض عليه ، ⁽¹⁾ لذلك اتجه بمن بقي معه من الجند - إذ غادره الملك المنصور مع العساكر إلى مصر - إلى صحراء سيناء .

إلا أنه بقي متحيراً إلى أين يتوجه ، وعزم على التوجه إلى الحجاز ، لكن الطبردار الكردي ⁽²⁾ و اسمه حسين ، حسن له المضي إلى المغول وقصد هولاكو فاغتر بقوله ونزل على بركة زيزاء . ⁽³⁾ واستجار ببعض أمراء الأعراب ، ⁽⁴⁾ وربما بسبب الطمع ، أو نيل الحظوة لدى التتار ، قام حسين الطبردار بالسير إلى كتبغا ⁽⁵⁾ نائب هولاكو ، وأعلمه بموضع الناصر فأرسل كتبغا إليه ، وقبض عليه وأحضره إلى عجلون ، فأمرهم الناصر بتسليمها إلى التتار ، وربما كانت هذه محاولة أخيرة للناصر لاسترضاء التتار ، وبعد ذلك قام كتبغا بإرسال الملك الناصر يوسف إلى هولاكو ، و ابنه العزيز محمد ، وأخوه الظاهر غازي ، واسماعيل بن شيركوه ، ⁽⁶⁾ وعندما وصل إلى مجلس هولاكو استقبله بترحاب ووعده برد مملكته إليه.

إلا أن هولاكو عاد عن وعده وقام بقتله وقتل من كانوا معه ، ولم ينجُ من نقمة هولاكو إلا العزيز محمد بن الناصر يوسف لصغر سنه ، وبسبب تدخل الخاتون زوجة هولاكو حيث بقي عند التتار حتى مات. وقد كان قتل هولاكو للناصر بعد انهزام جيشه في معركة " عين جالوت " التي دارت بين المماليك وجيش المغول في (رمضان ، 658 هـ / آب 1260 م) . ⁽⁷⁾ فقد عدّ هولاكو الناصر سبباً لهزيمة عين جالوت ، وأنه غرر بالتتار ، وورطهم بالهجوم على مصر ، .

¹ - ابن خلدون : العبر ، ص 365 . أبو الفداء : المختصر ، م 3 ، ص 201 . العيني : عقد الجمان ، م 1 ، ص 232 .

² - الطبر دار : هو الحارس الشخصي للسلطان ، وكان يحمل السلاح بين يديه ، و الطبر هو أداة قتال تشبه الفأس . السبكي : معيد النعم ، ص 35 .

³ - زيزاء : قرية من قرى البلقاء الكبيرة ، والبقاء كورة من أعمال دمشق ينزل بها الحجاج ويقام لهم بها سوق وفيها بركة عظيمة . ياقوت : معجم البلدان ، ج 2 ، ص 966 . الأوتاني ، أحمد : دمشق في العصر الأيوبي ، ص 145 .

⁴ - ابن كثير : البداية والنهاية ، م 13 ، ص 233 .

⁵ - كتبغا : كان اسمه كيد بوقا باورجي : و باورجي تعني الطباخ ، فقد كان مسؤول الأطعمة والأشربة في حملة هولاكو على العراق . الجويني : فاتح العالم ، ج 2 ، ص 226 .

⁶ - الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 421 ، 447 . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، م 7 ، ص 206 . ابن العماد : شذرات الذهب ، م 5 ، ص 298 . أبو الفداء : المختصر ، م 3 ، ص 212 .

⁷ - الذهبي : العبر في خبر من عبر ، تحقيق صلاح المنجد ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، 1984 ، م 5 ، ص 257 . أبو الفداء : المختصر ، م 3 ، ص 201-202 . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م 2 ، ص 131 ، 144 ، م 1 ، ص 359-361 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج 2 ، ص 293 ، 296-304 . المقرئ : السلوك ، ج 1 ، ص 429-434 . ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 53-54 . الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 420 ، بيبيرس الدوادار : زبدة الفكرة ، م 9 ، ص 69-71 . ابن كثير : البداية والنهاية ، م 13 ، ص 251-268 .

ويذكر "اليونيني" رواية أخرى حول كيفية إلقاء القبض على الناصر ، مفادها أنه تصادف وجود الناصر بالقرب من البركة عندما قام المغول بمهاجمة العرب النازلين قريبا ، ويبدو أن الروايتين مكملتين لبعضهما ولا تتناقض بينهما.⁽¹⁾

¹ - اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، م 1 / 358-359 .

الفصل الثاني : العلاقات الخارجية لمملكة حلب الأيوبية.

المبحث الأول : العلاقة مع الأرتقة .

1- العلاقة مع الأرتقة في " ماردين "

2- العلاقة مع الأرتقة في " ميافارقين "

المبحث الثاني : العلاقات الأيوبية مع الخوارزمية .

المبحث الثالث : العلاقة مع سلاجقة الروم .

المبحث الرابع : العلاقة مع المماليك في مصر .

المبحث الخامس : العلاقة مع الخلافة العباسية في بغداد .

الفصل الثاني : العلاقات الخارجية لمملكة حلب الأيوبية .

المبحث الأول : العلاقة مع الأرتقة .

ينسب الأرتقة إلى أرتق بن أكسك التركماني ⁽¹⁾، وهو مملوك من ممالك السلطان ملكشاه السلجوقي وقائد من قواده. وأول من أسس هذا البيت معين الدين سقمان بن أرتق ، الذي استولى على حصن كيفا سنة (495هـ/1102م) من يد الأمير موسى التركماني في عهد السلطان بركياروق ابن ملكشاه ، ثم ضم إليها " ماردين " ⁽²⁾ وفي سنة (502هـ/1109م) انقسمت المملكة الصغيرة إلى إمارتين إحداهما في آمد ⁽³⁾ ومعها حصن كيفا ، والثانية في " ماردين " . وقد أستمريت إمارة آمد إلى سنة (620هـ/1223م) و انتهت على أيدي الأيوبيين، وإمارة " ماردين " إستمرت إلى سنة (811هـ/1408م) أي بعد ظهور آل عثمان بمائة وإحدى عشرة سنة وانتهت على يد قره قونيلو ⁽⁴⁾.

- **علاقة مملكة حلب الأيوبية مع الأرتقة :** اختلفت طبيعة العلاقة في كلا المملكتين مع الأيوبيين فقد كانت السياسة العامة للأرتقة في إمارة آمد قائمة على التحالف مع الأيوبيين ، أما في إمارة " ماردين " فكانت سياستهم مناهضة للأيوبيين وبنيت هذه السياسة على الدخول في أي حلف موجه ضد الأيوبيين ⁽⁵⁾.

1- العلاقة مع الأرتقة في " ماردين ":

أُتصفت الحقبة الزمنية الممتدة ما بين (589هـ/594 - 1193م/1197م) بانشغال كلا الطرفين الأرتقة والأيوبيين بمشاكلهما الداخلية .

وبحلول سنة (594هـ/1197م) وقع الصراع بين الطرفين ويذكر ذلك ابن واصل في مفرج الكروب " ورد إلى الملك العادل كتاب (النظام) وهو مدبر إمارة حسام الدين يولق أرسلان بن إيلغازي بن آلي

¹ - ابن خلدون : العبر - المعروف بتاريخ ابن خلدون ، ج5، ص461 .

- ابن الأثير : الكامل ، ج8، ص 134 . اللذين يذكرا أن اسمه أكسب .

² - " ماردين " : من أشهر مدن الجزيرة، وهي مبنية على جبل كالدرج، بعضه دون بعض، ولارتفاع البلد ومساكنه لا يعلو فوقه طير ، ويرى السحاب دونها. وبها قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة، مشرفة على دنيسر ، ودارا، ونصيبين". ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج3، ق2، ص542. الحموي، ياقوت: معجم البلدان ، مادة : " ماردين " .

³ - آمد: " بلد قديم حصين، مبني بالحجارة السود على نشز دجلة تحيط بأكثره مستديرة به كالهلال " الحموي : معجم البلدان ، مادة : آمد م1، ص56.

⁴ - قونيلو : الشاة السوداء . العسيري ، أحمد معمور : موجز التاريخ الاسلامي ، مكتبة الملك فهد للنشر ، الدمام 1996م، ط1، ص 250.

- كحالة ، عمر رضا : مختصر تاريخ الدول الاسلامية ، دار الهاشمية ، دمشق 1958م ، ط2، ج2، ص155.

⁵ - خليل ، عماد الدين : الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1980، ص 170.

الأرتقي - صاحب "ماردين". يستدعيه ليسلم له "ماردين"، ويأخذ منه عوضاً عنها وقد تحرك العادل شرقاً ، وبعد أن وصل العادل لم يفي له النظام بوعده وندم على ما كاتبه به، وهنا طلب العادل النجدة من ابني أخية الملك العزيز ، والملك الظاهر، فوصله عسكر من مصر يقدر بألفي فارس ، ووصله عسكر من حلب عدتهم خمسمائة فارس⁽¹⁾، كما استطاع كسب مساعدة أصحاب الأطراف حيث أكدوا طاعتهم له.⁽²⁾ ومن ثم بدأ بمهاجمة أطراف "ماردين" واستطاع الاستيلاء على عدد من مدنها وولاياتها. ⁽³⁾ وعين ولاته في رأس عين و دنيسر.⁽⁴⁾ وألقى الحصار على "ماردين" واستمر الحصار لمدة طويلة.⁽⁵⁾

خلال حصار العادل لـ "ماردين" استجبت ظروف جديدة جعلت الظاهر يغير سياسته تجاه أراتقة "ماردين" ، فقد تحول الظاهر من التحالف مع العادل إلى التحالف مع صاحب "ماردين" ، وكان الهدف من ذلك هو إشغال العادل في الجزيرة بينما يتسنى للظاهر وأخيه الأفضل السيطرة على دمشق، وكان ذلك بعد موت العزيز صاحب مصر في العشرين من محرم سنة (595هـ/1198م) وتولية الأفضل بن صلاح الدين بعده الذي سرعان ما تقدم لأخذ دمشق من يد العادل بالتعاون مع الظاهر وصاحب الموصل.⁽⁶⁾ وخلال ذلك وصلت رسالة للعادل من أنصاره في مصر يدعونه للتوجه إليهم لتسليمه مصر ، كل هذه العوامل دفعت العادل إلى مغادرة "ماردين" إلى دمشق تاركاً ابنه الكامل لإتمام العملية .⁽⁷⁾ فاستغل نور الدين أمير الموصل فرصة تحالفه مع الأفضل لإنهاء الحصار على "ماردين" وأستطاع الانتصار على جيش الكامل بن العادل المحاصر لـ "ماردين".⁽⁸⁾ بعد هذه الأحداث وفي أقل من سنتين كان الظاهر قد دخل في تكتل جديد مع صاحب "ماردين" "حسام الدين يولق" وبعض الأمراء المحليين وعدد من الأمراء الأيوبيين المعادين للعادل ومن

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص 80.

² - أبو شامة : الروضتين ،م2،ص234،(عن العماد).

³ - أبو شامة : الروضتين ،م2،ص234،(عن العماد).

⁴ - ابن شداد : الأعلاق (مخطوطة ورقة 43ب)

⁵ - خليل، عماد الدين : الامارات الأرتقية ،ص 160،161.

⁶ - خليل، عماد الدين : الامارات الأرتقية ،ص 160،161.

⁷ - ابن الأثير : الكامل ،م12، ص58،62. الباهر ص194.

- ابن واصل: مفرج الكروب،م3،ص92-95.

⁸ - العيني : عقد الجمان ، ج1،ق2،ص228.

- ابن الأثير : الكامل م12،ص62.

بينهم الأفضل الذي أراحه العادل عن الحكم في مصر ، وكان الهدف من هذا التكتل أن يكونوا يداً واحدة بوجه أية محاولة يقوم بها العادل ضد أحدهم.(1)

وفي سنة (599هـ/1202م) تدخل الظاهر لعقد صلح بين عمه العادل وصاحب "ماردين"، وذلك بسبب خوف الظاهر من ازدياد قوة العادل باستيلائه على أماكن جديدة . حيث أراد العادل التوسع في أعالي الجزيرة وذلك بموجب اتفاقه مع الظاهر وباقي أمراء بني أيوب فأرسل ولده الأشرف للسيطرة على "ماردين"، فقام الأخير بحصار "ماردين"، ولكن دون جدوى بسبب ما تتمتع به من حصانة، وهنا رغب العادل بصلح تضمن : أن يحمل إليه صاحب "ماردين" مائة وخمسين ألف دينار . وأن يرسل صاحب "ماردين" عساكره إلى العادل حين الطلب .و يخطب صاحب "ماردين" للعادل في بلاده ويضرب السكة باسمه.

وافق صاحب "ماردين" على هذه الشروط ، ونال الظاهر من العادل لقاء سعيه في الصلح على جزء من المبلغ قدره عشرون ألف دينار . ووهبه صاحب "ماردين" ضيعة (القرادى)(2) ، ومن ثم رحل الأشرف عن "ماردين" وتفرقت العساكر .(3) ووفى صاحب "ماردين" بالشروط.(4) عاد الظاهر سنة (606هـ/1209م) لتحالف جديد مع صاحب "ماردين" وأمير الموصل وأرمل وسلطان سلاجقة الروم وأخاه صاحب أرزن الروم، وكان الهدف من الحلف إيقاف أطماع العادل في المنطقة، وحماية أملاك أمراء الجزيرة و"ماردين" منه، ولكن هذا الحلف تفرق بعد قيام الصلح بين العادل وصاحب سنجار ودخل فيه الظاهر وصاحب "ماردين".(5)

¹ - خليل، عماد الدين : الامارات الأرتقية ،ص 163.

² - القرادى: تقع قرب جبل الجودي شرقي دجلة وهي من أعمال الجزيرة . الحموي : معجم البلدان ، م4،ص322.

³ - ابن الأثير: الكامل ،م12،ص74. - ابن واصل : مفرج الكروب،م3،ص139-140 .ورد في مفرج الكروب أن المبلغ الذي قبضه الظاهر عشرة آلاف دينار فقط - أبو الفداء: المختصر،م3،ص103.- ابن الوردي: تنمة المختصر ،م2،ص179.

- ابن الفرات: تاريخه،م2،ق2،ص248. - المقرئزي : السلوك،ج1،ص161.- الحنبلي: شفاء القلوب ص213-214. - ابن العبري: مختصر تاريخ الدول،ص393-394. - زكار ، سهيل : الموسوعة الشامية، م5،ص2391.- العيني: عقد الجمان ،م1، ق2، ص278. - ابن نظيف : التاريخ المنصوري،ص38-39. - خليل، عماد الدين : الامارات الأرتقية ،ص165.

⁴ - ابن الفرات : تاريخه ،مخطوط، ص100-101.

⁵ - ابن واصل : مفرج الكروب، م3، ص 190-197. - أبو شامة : ذيل الروضتين ص67.- سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان،م8،ص541.- أبو الفداء: المختصر م3،ص118.

وفيما تبقى من عهد الظاهر ساد الأمن والهدوء السياسي العلاقة بين مملكة حلب و "ماردين" ، ويعود السبب في ذلك إلى تجنب كل الأطراف نقض الصلح الذي تم بين جميع الأطراف والعاقل سنة (607هـ/1210م)⁽¹⁾.

أما سياسة حلب في عهد العزيز بن الظاهر و أتابعه شهاب الدين طغرل فقد تركزت على الأمور الداخلية والشؤون الأيوبية ، بينما كانت العلاقات مع إمارة "ماردين" قد انتقلت للملك الأشرف منذ سنة (615هـ/1218م) وقد كانت العلاقات في تلك الحقبة عدائية وتحالفية بين كل الأطراف واعتمدت على منع زيادة نفوذ الأيوبيين في المنطقة.

أما في عهد رعاية صاحبة خاتون للناصر تجلت العلاقة مع إمارة "ماردين" بالتحالف .وذلك عام 635هـ / 1237م بعد وفاة الملك الكامل بن العادل ، وقيام ولده العادل الثاني بشؤون الحكم ، كما ضم الحلف كلاً من مملكة حمص وسلاجقة الروم، وقد كان دافع صاحبة ضيفة خاتون لعقد هذا التحالف خوفها من نوايا العادل الثاني تجاه حلب ، إلا أن هذا الحلف لم يدم طويلاً بسبب تحالف صاحب "ماردين" مع الخوارزمية ،⁽²⁾ حيث ساعدهم صاحب "ماردين" على إجلء القوات السلجوقية عن آمد⁽³⁾، وهاجم حران التي كانت تابعة للملك الصالح أيوب و كان نائبة فيها الملك المغيـث . وهنا خاف المغيـث منهم وهرب إلى قلعة " جعبر"⁽⁴⁾ على الفرات ، فلققه صاحب "ماردين" والخوارزمية ونهبوا ما معه ، واستطاع المغيـث الإفلات منهم والهـرب إلى مدينة منبج من أعمال حلب طالباً الحماية من عمته صاحبة خاتون التي ردت له بلطف ولم تقدم له المساعدة ، وبحسب بعض المصادر فإن السبب في امتناع صاحبة ضيفة خاتون عن تقديم المساعدة للمغيـث هو عدم رغبتها في زعزعة العلاقات مع ملك سلاجقة الروم .⁽⁵⁾ إلا أن هذا السبب غير مقنع لأن قيام حلب بمساعدة المغيـث ضد الخوارزمية كان قد يؤدي إلى إضعافهم أو هزيمتهم وهذا الأمر يصب في مصلحة ملك السلاجقة

¹ - خليل، عماد الدين : الامارات الأرتقية، ص 172.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، تحقيق ، زكار ، ص 689.

³ - . المقرئزي : السلوك، ج1، ص271-272 . ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 690.

⁴ - قلعة جعبر : قلعة على تل مشرف على الفرات بين بالس والرقعة قرب صفين ، لها روض، وكانت عامرة الأسواق كثيرة الأرزاق، وكانت تعرف قديماً بقلعة دوسر. الحموي : معجم البلدان، ج2، ص141-142. ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج3، ق1، ص110.

⁵ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 3، ص 241-243. ابن واصل : مفرج الكروب، م5، ص 187-188 . ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، م3، ق 1، ص119.

الذي كان على عداء مع الخوارزمية الذين طردوا قواته المحاصرة لمدينة آمد . ومن المؤكد أن دعم صاحبة للمغيث لن يزعج ملك السلاجقة بل كان من دواعي سرورهم .

أما في عهد الملك " الناصر يوسف الثاني" فقد اتسمت العلاقة مع " ماردين" بالعدائية ، والسبب في ذلك الأعمال التوسعية لـ "ماردين" ، و قيام صاحبها السعيد نجم الدين إيلغازي بالاتفاق مع الخوارزمية . ومن جهة أخرى كانت أملاك حلب قد توسعت بعد انتصارهم على الخوارزمية وسيطرتهم على مناطق واسعة من الجزيرة ، وبذلك أصبحت أملاك حلب تجاور إمارات الجزيرة بشكل مباشر ولم تعد أملاك الأمراء الأيوبيين الآخرين تفصل بين أملاك الطرفين.

وبناء على الوضع الجديد تخوف صاحب " ماردين" الملك السعيد على أملاكه من حلب ، ومن الخوارزمية من ناحية أخرى ، فبادر إلى استمالة بقايا الخوارزمية فتحالف معهم ، وقد أدى هذا التحالف إلى الاضطراب والحروب في أعالي الجزيرة ، ولا سيما بعد أن انضم إليهم شهاب الدين غازي الأيوبي صاحب " ميافارقين" .

وقد شعر " الناصر يوسف الثاني" أن هذا التحالف خطر على وجوده في الجزيرة ، ولذلك أرسل جيشه بقيادة المعظم " تورانشاه" والأمير جمال الدولة إلى " ماردين" وقاموا بالتضييق عليها وذلك في شوال 641هـ/1244م وأجبروا صاحبها على توقيع اتفاق بينهم تتضمن الاتفاق أن يأخذ صاحب " ماردين" " رأس العين" وتأخذ الخوارزمية " نصيبين" ولكن توجه الخوارزمية إلى جنوبي الشام لمساعدة الصالح أيوب دفع الناصر لإقطاع " نصيبين" لصاحب " ماردين" ولصاحب الموصل وللمعظم " تورانشاه" .⁽¹⁾ لم يورد لنا ابن شداد السبب الذي دفع " الناصر يوسف الثاني" لهذا الأمر ، ولكن يمكن إرجاع الموضوع إلى شعور " الناصر يوسف الثاني" بالخطر المغولي الذي أصبح على حدود الجزيرة العليا ، وربما كان يهدف من ذلك أن يتحد هؤلاء لمواجهة المغول دفاعاً عن إقطاعاتهم فيكون الأمر في صالحه .

استغل صاحب " ماردين" فرصة هجوم المغول على دولة السلاجقة وانشغال صاحب حلب بمساعدة السلاجقة من جهة وبالصرع القائم بين الأمراء الأيوبيين على دمشق من جهة ثانية وقام بالسيطرة على نصيبين في سنة 643هـ/1245م وهنا دخل في صراع مع صاحب الموصل الذي كان له حصة من المدينة كما قسمها " الناصر يوسف الثاني" ، وظل الخلاف قائماً بين الطرفين إلى أن حضر مبعوث الخليفة " نجم الدين البادراني" سنة (645هـ/1247م) وأصلح الخلاف بين الطرفين على

¹ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق 1، ص136-137.

القاعدة التي قررها الناصر الثاني صاحب حلب قبل أربعة أعوام .⁽¹⁾ وفي سنة 646هـ/1248م قام الملك الناصر الثاني بتقديم النجدة لصاحب "ماردين" لمواجهة

صاحب الموصل " بدر الدين لؤلؤ" الذي قام بالاستيلاء على " نصيبين " ونهب " دارا " و"راس العين ". فأرسل جيشاً بقيادة المعظم " تورانشاه" الذي سار بالجيش إلى نصيبين واجتمع بجيش " ماردين" ولاقوا جيش " " بدر الدين لؤلؤ" وذلك في ربيع الآخر / تموز ، فانهزم جيش صاحب الموصل، وسيطر جيش حلب على المدينة فاحتفظ الناصر بها ولم يقطعها لأحد وإنما أقطع سبعين ضيعة من أعمالها إلى الملك السعيد صاحب "ماردين" مكافأة له على جهوده .

لجأ " " بدر الدين لؤلؤ" صاحب الموصل إلى الخليفة العباسي ليشفع له لدى الناصر " يوسف الثاني" بشأن مسألة " نصيبين" ، وقد استجاب الناصر الثاني لوساطة الخليفة وتنازل عن المدينة لصاحب الموصل وقام بالتعويض لصاحب "ماردين" بدلاً من حصته فيها بإقطاعه قرى " ماكسين" و " المجدل " و بعض قرى الخابور .⁽²⁾

لكن الصراع حول نصيبين بين صاحب "ماردين" وصاحب الموصل لم يتوقف ففي سنة 651هـ/1253م أقدم صاحب "ماردين" على السيطرة على نصيبين ، وهنا سارع لؤلؤ صاحب الموصل بطلب نجدة الخليفة العباسي والملك " الناصر يوسف الثاني" ، وهنا قام الناصر الثاني بإرسال صاحب " كمال الدين ابن العديم" ليقوم بالصلح بين الطرفين ، وقد تم حل الخلاف بأن أتفق الطرفان على أن تكون نصيبين لـ " بدر الدين لؤلؤ" صاحب الموصل وبذلك تسلمها سنة 653هـ/1255م).⁽³⁾

مما تقدم يستنتج

- أولاً: أن هذا الصراع بين أمراء المنطقة كان عاملاً مساعداً لدخول المغول إلى المنطقة وفتح لهم طريقاً سهلاً إلى الشام .
- ثانياً: إن هذه الحروب التي دارت بينهم أدت إلى إضعاف قوة الجميع ولهذا لم يجد المغول عند دخولهم قوة قادرة بشكل فعال على الوقوف في وجههم .

¹ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق 1، ص137-138.

² - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق 1، ص138-143-144 . أبو الفداء: المختصر، م3، ص181. ابن الوردي: تنمة المختصر

م2، ص264-265. الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 412.

³ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق 1، ص138-139.

- **ثالثاً:** يلاحظ أن الملك " الناصر يوسف الثاني" كان يسعى لإقامة حلف بين هذه القوى ليوفر أمن جبهته الشرقية واستقرارها مما يتيح له التفرد للسيطرة على دمشق وضرب المماليك ، ولم يكن هدف " الناصر يوسف الثاني" من هذا الحلف الوقوف في وجه المغول كما يعتقد أحد المؤرخين (1) . وما يؤكد هذا أن " الناصر يوسف الثاني" لم يتخذ إجراءات لحماية حلب عاصمة ملكه ، بل عوضاً عن هذا هرب إلى غزة عندما بلغ هولاء حلب ، ولو كانت نيته إنشاء تحالف ليقف في وجه المغول لما تردد في الموافقة على طلب صاحب " ميفارقين" وصاحب " ماردين" عندما طلبا التحالف معه ضد المغول (2).

- **رابعاً:** إن استخدام " الناصر يوسف الثاني" للوسائل الدبلوماسية لحل الخلافات بين أمراء الجزيرة يؤكد عدم قدرته إرسال قوات عسكرية للمنطقة لضعف شخصيته وتعدد عناصر عساكره وتنافرها ولحاجته لهذه القوات ليتمكن من مواجهة المماليك .

في سنة (650هـ/1252م) تعرضت " ماردين" وباقي إمارات الجزيرة لهجوم مغولي عنيف ، وهذا الأمر دفع بمعظم أمراء المنطقة للتوجه إلى خان المغول "منكو" لتقديم الطاعة له مقابل الحصول على مراسيم مغولية تحفظ لهم أملاكهم، وكان الملك السعيد صاحب " ماردين" من بينهم (3)

وفي سنة (657هـ/1259م) أرسل هولاء إلى الملك السعيد يستدعيه إليه ، فقام الملك السعيد بإرسال ولده المظفر قرا أرسلان، والقاضي مهذب الدين بن مجلي والأمير سابق الدين بلبان ومعهم هدية قيمة ورسالة إلى هولاء ، وتضمنت الرسالة اعتذاراً من السعيد عن تباطئه بالحضور بسبب مرض منعه من الحركة ، لكن هولاء لم يصدق ادعاء السعيد فأعاد القاضي مهذب الدين بن مجلي واحتفظ بباقي الوفد لديه ومن بينهم ولده المظفر قرا أرسلان، وعندما علم الملك السعيد بما أقدم عليه هولاء أرسل إلى الملك " الناصر يوسف الثاني" يطلب منه التوجه إلى حلب حيث سينضم إليه بماله ورجاله للعمل سويّاً ضد المغول إلا أنه لم يتلقى جواباً من الناصر ، وقال ابن شداد حول هذا " إن صاحب " ماردين" عرض على الناصر أن يقدم له ثلاثمائة ألف دينار على أن يرسل له الناصر ثلاثة آلاف فارس ، وأن يصل بنفسه إلى حلب ، وتعهّد مقابل ذلك بترحيل المغول عن " ميفارقين" ثم يهاجما معاً

¹ - خليل، عماد الدين : الامارات الأرتقية، ص 194، 325.

² - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، م3، ق 2، ص 560-561، 484-486.

³ - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، م3، ق 2، ص 479.

بلد الخائن بدر الدين ⁽¹⁾ وقد قام ابن شداد بنقل هذا العرض إلى " الناصر يوسف الثاني " إلا أنه لم يجد جواباً ⁽²⁾ ومع هذا قرر الملك السعيد مواجهة المغول ، فقاموا بمحاصرته في (جمادى الأولى 658هـ/نيسان 1260م) ، واستمر الحصار إلى أن سلمها لهم ولده المظفر قرا أرسلان صلحاً في سنة (659هـ/1261م). ⁽³⁾

– المبحث الثاني : العلاقات الأيوبية مع الخوارزمية .

– تأسيس الدولة الخوارزمية:

ينتمي " الخوارزميون " إلى خوارزم ⁽⁴⁾ وهو اسم للدولة والأرض، ومنه أطلق على ملوكهم اسم " خوارزم شاه " ⁽⁵⁾ و من حيث الأصل ينتمون إلى الجنس التركي الذي غلب على معظم أجزاء آسيا الوسطى . ⁽⁶⁾ ويعود الفضل في تأسيس دولتهم إلى " أنوشتكين " الذي كان أول أمره عبداً تركياً اشتراه أحد أمراء السلاجقة " بلباك " من بلاد الغور في أفغانستان ⁽⁷⁾ ، وكان " أنوشتكين " يشغل وظيفة الساقى في بلاط ملكشاه السلجوقي . ⁽⁸⁾

كانت بداية هذه الدولة التي حكمت لحقبة طويلة من الزمن وشغلت دوراً كبيراً في مواجهة المغول حين عين سلطان السلاجقة "بركيا روق بن ملكشاه" (487 - 498هـ / 1094-1104م) " قطب الدين محمد " أنوشتكين " حاكماً على بلاد خوارزم ولقبه خوارزم شاه ثم أقره في عمله الأمير " سنجر السلجوقي " وذلك في سنة (490هـ / 1097م) وقد أستغل قطب الدين محمد " أنوشتكين " الخلافات

1 – ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق 2، ص498.

2 – ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق 2، ص499.

3 – ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق 2، ص559-570.

4 – سميت بالدولة الخوارزمية نسبة إلى إقليم (خوارزم) الذي حدده الجغرافيون المسلمون " من الغرب الترك الغزنية ، ومن الجنوب خراسان ومن الشرق بلاد ما وراء النهر ، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً " وتقع حالياً ضمن جمهوريتي أوزبكستان وتركمانستان. العبود ، نافع : الدولة الخوارزمية ، نشأتها ، علاقاتها مع الدول الإسلامية ، نظمها العسكرية والإدارية مطبعة الجامعة ، دون طبعة ، بغداد 1978م ص 17، 18.

5 – الحايك : العلاقات الدولية ، ج1، ص434.

6 – الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، ط1، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ص 699. – حمدي، حافظ أحمد : الدولة الخوارزمية والمغول ، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية ، دار الفكر ، دون طبعة ، القاهرة ، مصر 1949م ، ص 25. سليم ، صبري : الخوارزميون في الشرق الأدنى ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، دون طبعة ، ص12. – العبود ، نافع توفيق : الدولة الخوارزمية ، ص 6.

7 – ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج10، ص267.

8 – النويري : نهاية الأرب ، ج27، ص179. ابن خلدون : العبر ، ج5، ص19. الذهبي : العبر ، ج3، ص329. سليم : الخوارزميون ، ص18. حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ، ص 25.

الكثيرة التي حصلت داخل البيت السلجوقي، وظهر دول وإمارات مستقلة نتيجة الفوضى السياسية بعد ضعف سلاطين السلاجقة، فتمكن قطب الدين محمد "أنوشتكين" من تثبيت ملكه، وتأسيس الأسرة الخوارزمية الحاكمة⁽¹⁾.

واتسعت مملكته أكثر في عهد أولاده وأحفاده، وعلى رأسهم: "أتسر بن قطب الدين" (521-551هـ/1127-1156م) الذي خرج سنة (530هـ/1136م) عن طاعة السلاجقة، وخاض صراعاً طويلاً مع سنجر، انتهى بخضوعه إليه، وطلب العفو منه، فوافق وأعادته إلى بلاده. وبعد وفاة أتسر خلفه ابنه إيل أرسلان⁽²⁾ الذي أنهى عملياً سلطان السلاجقة في العراق⁽³⁾ وبعد وفاة إيل أرسلان خلفه أخوه "علاء الدين تكش" الذي استطاع خلال مدة حكمه بين عامي (568-596هـ/1172-1199م) توسيع حدود دولته غرباً، وخاض عدة معارك مع دولة "الخطا"⁽⁴⁾ وقد طلب علاء الدين تكش من الخلافة العباسية أن يكون له ما كان لسلاطين السلاجقة، وهذا ما أدى إلى نقمة الخليفة العباسي الناصر الذي قام باستعداد الغوريين عليه، كما أن تحالف الخليفة العباسي "الناصر" مع "جلال الدين الحسن الثالث" صاحب قلاع الإسماعلية كان موجهاً ضد علاء الدين تكش⁽⁵⁾، ولكن علاء الدين مات في سنة (596هـ/1199م) قبل أن يحقق كل طموحاته التوسعية، ليتسلم الحكم من بعده ولده "علاء الدين محمد" (خوارزم شاه) الذي سار على سياسة والده التوسعية فوصلت الدولة الخوارزمية في عهده إلى ذروة اتساعها حيث امتدت من حدود الهند شرقاً حتى العراق غرباً، ومن المحيط الهندي و الخليج العربي جنوباً إلى بحر قزوين وبحر أرال شمالاً⁽⁶⁾.

¹ - عرفت هذه الأسرة باسم خوارزمشاه، وقد حكمت ما بين 490هـ/627هـ/1097-1230م. الحايك: العلاقات الدولية، ج1، ص435.

² - الحايك: العلاقات الدولية، ج1، ص435.

³ - النويري: نهاية الأرب، م26، ص385.

⁴ - الخطا: أقوام من العرق التركي، موطنهم سهوب أواسط آسيا، وكانوا بدواً يسكنون الخيام. الحايك: العلاقات الدولية، ج1، ص435.

⁵ - الحايك: العلاقات الدولية، ج1، ص436.

⁶ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، م10، ص266-267.

- ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص34-35. النويري: نهاية الأرب، ج27، ص205-206. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص159. ابن خلدون: العبر، ج5، ص95-96. العبود: الدولة الخوارزمية، ص5-6. حسن، إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، 1964م، ج4، ص94-104. حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص112-113. الصياد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت 1980م، ص61-63.

لكنه لم يجني ثمار هذا التوسع وذلك بسبب ظهور الخطر المغولي الذي قوض أركان دولته وأخذ يلاحقه إلى أن مات في إحدى جزر بحر قزوين سنة (617هـ / 1220م).⁽¹⁾

إلا أنه قبل وفاته تنبه إلى أمر غاية في الأهمية فقام بنقل ولاية العهد من ابنه الأصغر " قطب الدين أوزلاغ " ومنحها لابنه الأكبر " جلال الدين منكبرتي " ⁽²⁾ (خوارزمشاه) الذي تمكن من متابعة سياسة أبيه في التصدي للخطر المغولي ، لكن مصيره كان مشابهاً لمصير والده ، فقد لاحقه المغول إلى أن لقي حتفه في إحدى جهات " آمد " على يد أحد الأكراد وذلك في منتصف شوال سنة (628هـ / 17 آب 1231م).⁽³⁾

- العلاقات الأيوبية مع الخوارزمية:

بدأت العلاقات الدبلوماسية بين الخوارزمية والأيوبيين سنة (615هـ / 1218م) عندما وصل رسول علاء الدين محمد (خوارزم شاه) إلى الملك العادل الأيوبي وهو بمرج الصفر ، وكان العادل يواجه ظروفاً صعبة بسبب ضغط الفرنجة عليه في فلسطين ، ومع ذلك فقد رد العادل على الرسالة ⁽⁴⁾ بجواب أرسله مع " جمال الدين محمد الدولي " خطيب الجامع الأموي بدمشق، و قاضي العسكر " نجم الدين ابن علي الحنفي " ، وعند وصولهما إلى " همدان " علموا أن خوارزم شاه واجه هزيمة قاسية أمام التتار ، فسارا إلى قرب بخارى، واجتمعا بولده " جلال الدين منكبرتي " ⁽⁵⁾، وأثناء الاجتماع أخبرهما جلال الدين ب وفاة الملك العادل ⁽⁶⁾.

¹ - النويري : نهاية الأرب ، ج27، ص 205 . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج6، ص224. ابن كثير : البداية والنهاية ، ج27، ص 192. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 431. العبود : الدولة الخوارزمية ، ص 39. حمدي : الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ، ص 38 .

² - " منكبرتي " : تعني هبة السماء ، أو مبعوث السماء (Heaven sent) انظر : History of Bokhara, Vambery.P.134

³ - النسوي: سيرة جلال الدين " منكبرتي " ، تحقيق : أحمد حمدي ، دار الفكر العربي ، مطبعة الاعتماد بمصر 1953م، ص120. النويري : نهاية الأرب ، ج27، ص 205 . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج27، ص192. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 431. القرمانلي : أخبار الدول ، م2، ص 464-465. العبود : الدولة الخوارزمية ، ص 40. حمدي : الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ، ص 37 .

⁴ - لم تذكر المصادر مضمون هذه الرسالة أو الهدف من إرسالها ، لا سيما أنها تزامنت مع هجوم للتتار على الخوارزمية ، وضغط الصليبيين على فلسطين وهجومهم على ثغر دمياط في مصر من جهة العادل ، ولكن من المرجح وتبعاً للظروف السابق ذكرها أن فحواها كان طلب الخوارزمي دعماً من العادل ليؤمن له عمق استراتيجي في صراعاته المتعددة مع الخلافة العباسية ومع التتار . الحايك: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية ، تقديم : سهيل زكار ، ط1، دار الأوائل للنشر والتوزيع سورية ، دمشق 2006، ج1، ص 437.

⁵ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، م6، ص223.

⁶ - أبو شامة: ذيل الروضتين، من الموسوعة الشاملة ، سهيل زكار ، م20، ص210.

وعلى الرغم من انعدام النتائج المباشرة لهذا الاتصال الدبلوماسي الأول ، فقد ترتب عليه نتائج بعيدة وعلاقات متناقضة ما بين سلم وحرب بين " جلال الدين منكبرتي" بن علاء الدين خوارزم شاه وبين الأشرف بن العادل والمعظم بن العادل فيما بعد . (1)

وقد أشار النسوي إلى أن " جلال الدين منكبرتي" طلب النجدة من الملك الأشرف بن العادل إلا أن الأخير اتجه إلى مصر عندما علم بتوجه رسل جلال الدين إليه ، ولم يسمح أمراء الأشرف في دمشق للرسول من الوصول إلى الأشرف في مصر . (2) وبعد اخفاق جلال الدين بالوصول إلى الأشرف ، قام بإرسال المؤرخ النسوي إلى الملك المظفر غازي أمير " ميفارقين" طالباً منه المساعدة ليستطيع مواجهة المغول ، إلا أن المظفر رفض تقديم المساعدة له وكانت حجتة بأنه لا يملك قراراً مستقراً ولا يستطيع التحرك إليه إلا إذا أمره الأشرف بذلك . (3) وهنا أستغل الملك المسعود "أمير آمد" محنة جلال الدين وقدم له عرضاً بأنه سيقوم بمساعدته ضد المغول وتزويده بأربعة آلاف فارس في حال ساعده على استرجاع القلاع التي أخذها منه سلاجقة الروم ، ولذلك تراجع " جلال الدين منكبرتي" عن قراره بالسير إلى "أصفهان" واتجه إلى آمد ، وعسكر بالقرب منها ، لكن المغول لم يتركوا له فرصة لتحقيق هدفه وقاموا بمهاجمته ليلاً وأعملوا القتل والأسر في جيشه. (4)

أما الذين لم يقتلوا أو يؤسروا من جيش جلال الدين فقد تفرقوا في الجزيرة والشام والعراق وتشتتوا وذلك لعدم قدرتهم العودة إلى بلادهم لأن المغول قد سيطروا على خوارزم وخرسان (5) ووصلوا إلى حدود إمارات الجزيرة العليا، وأخذ هؤلاء يعرضون خدماتهم على من يرغب في استخدامهم. (6) كما اتجه قسم منهم إلى العراق حيث اتخذ منهم الخليفة " المستنصر بالله " أربعة آلاف فارس، بينما عاث معظم الباقين في الجزيرة فساداً ، واتجه قسم منهم إلى أسيا الصغرى حيث استخدمهم " علاء الدين كيقباز" وكان عددهم يتجاوز العشرة آلاف ، وعلى رأسهم عدد من القواد المشهورين منهم حسام الدين بركة خان ، و كشلو خان، وبردي خان، وسارو خان أو (صاروخان) ، وقره خان، وبعد وفاة الملك

¹ - الحايك: العلاقات الدولية، ج1، ص 437.

² - النسوي : سيرة جلال الدين " منكبرتي"، ص 371، 370. النويري : نهاية الأرب ، م 27، ص 295.

³ - النسوي : سيرة جلال الدين " منكبرتي"، ص 373، 372.

⁴ - النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 378، 377.

⁵ - خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق : آزاد دار، قصبه جوين، بيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند : طخارستان و غزنة و

سجستان وكرمان ، وليس منها إنما هو أطراف حدودها . الحموي : معجم البلدان : ج2، ص350.

⁶ - الصياد : المغول في التاريخ ، ص179. العبود : الدولة الخوارزمية ، ص 167.

كيقباز (634هـ/1237م) قام وريثه " غياث الدين كيخسرو " بإساءات معاملتهم وقبض على زعيمهم " بركة خان" ، فهرب الخوارزميون وانتشروا في الجزيرة الفراتية نهباً وتخريباً. (1)

وقد سعى الصالح أيوب إلى استمالة الخوارزميين الذين كانوا يشنون الغارة تلو الأخرى على أملاكه في الجزيرة ، فأستخدمهم بعد أن أستاذن والده الكامل وأقطعهم مواقع هامة في الجزيرة . (2) وكان هدف الصالح أيوب من وراء استخدام هذا العدد الكبير من الخوارزمية تثبيت موقعه في الجزيرة ضد أمراء المنطقة . أما اختلافهم معه في سنة (635هـ/1237م) فقد كان اختلافاً مؤقتاً ، ويبدو أنه كان حول الإقطاعات لأن ديار مضر التي أقطعهم إياها لم تعد تكفيهم . فعاد الانسجام بين الطرفين لأن الصالح كان بحاجة للخوارزميين للوقوف في وجه صاحب الموصل الطامع في أملاكه ولأن الخوارزميين حصلوا على ما يريدون ، إذ أن الصالح أيوب قد أقطعهم إضافة إلى لما في أيديهم "حران" و"الرها" و" رأس العين" ، و"سروج" ، و" قرقيسيا" ، و"دارا". (3)

إلا أن حصولهم على إقطاعات كبيرة لم يوقف حبهم للنهب والسلب فقد تابعوا غاراتهم على بلاد الشام ووصلوا إلى حمص حيث استطاع الملك المجاهد إيقاف هجومهم ببذله الأموال الكثيرة لهم . (4) إن استخدام الصالح أيوب الخوارزمية قد أدخل عنصراً جديداً في العلاقات بين الأيوبيين ، حيث قامت علاقات عدائية وصراعات بين الأمراء الأيوبيين في الشام في حقبة خطيرة استمرت الصراعات فيها حتى القضاء على الأيوبيين في مصر على يد المماليك سنة (648هـ/1250م) وفي الشام على يد المغول سنة (658هـ /1260م) . فقد استخدم الصالح أيوب الخوارزمية لترجيح كفته على بقية أمراء بني أيوبي خاصة في الصراع على دمشق ، إذ استخدمهم في سنة (638هـ/1240م) في عمليات

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 232. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص134-135. ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص 224-232.

- أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 159. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص 255. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 437 - 438. ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 242. العبود : الدولة الخوارزمية ، ص 168.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 232. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص135 . أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 159. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص 255. ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 242 . ابن كثير : البداية والنهاية ، م13، ص 167 . النويري : نهاية الأرب ، م29، ص 232. ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 27.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 241-243. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص186-189 . أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 162. ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 244. ابن كثير : البداية والنهاية ، م13، ص172-173 . النويري : نهاية الأرب ، م29، ص 233. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان /م8، ص704. ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق1، ص 142، 109، 105، 98، 82، 59، 152.

⁴ - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 163. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص 205-206. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص 280.

دموية ضد مملكة حلب التي شكلت حلفاً مع صاحب دمشق الصالح اسماعيل والمجاهد صاحب حمص لمنع الصالح أيوب من الاستيلاء على دمشق .

لقد بادر أيوب بعد اتفائه مع " الناصر داود" سنة (638هـ/1240م) وبعد أن وصل الصالح إلى عرش مصر بمساعدة ممالك أخيه وأبيه ، إلى إرسال رسالة إلى الخوارزمية يحضهم فيها على الهجوم على حلب وحمص بهدف منع المملكتين من مساعدة " الصالح اسماعيل" في الدفاع عن دمشق . وقد أورد ابن واصل أن السبب (هو اتفاق الناصر داود صاحب الكرك مع الصالح أيوب على تسليمه دمشق مقابل أن يطلق الناصر سراحه)⁽¹⁾، حيث كان أيوب في معتقل " الناصر داود" ، وبسبب قيام حلب بتزعم الحلف الشامي الذي يهدف إلى منع أيوب من السيطرة على دمشق ، ولتحقيق هذا الغرض أنفقا على الطلب من الخوارزميين أتباع أيوب مهاجمة حلب ، فأرسلا رسالة إلى " بركة خان " زعيم الخوارزمية وطلبا منه مهاجمة حلب وحمص ، ويبدو أن الذي حمل الرسالة هو " جمال الدين بن مطروح " أحد أمراء أيوب ، الذي وصل إلى حماة للاتفاق مع صاحبها على دفع الخوارزمية للهجوم على حلب .⁽²⁾

استجابت الخوارزمية لطلب الصالح أيوب وهاجموا البلاد الحلبية ومما شجعهم على ذلك تفرق الجيش الحلبى وتوزعه : فقد كان قسم منه موجوداً في قلاع المملكة لحمايتها ، وقسم آخر في نجدة سلاجقة الروم بقيادة الأمير "حسام الدين الطاش بن تركمان" ، وقسم ثالث في حمص لمساعدتها ضد غارات الصليبيين ، وقسم رابع بقيادة الأمير ناصح الدين أبي المعالي الفارسي في قلعة جعبر لحمايتها من الخوارزمية ، ولم يبقا في حلب نفسها سوى ألفي فارس .⁽³⁾

لقد انضم إلى الخوارزمية في هجومهم على حلب كل من الملك الصالح بن المجاهد صاحب حمص وذلك بسبب سيطرة أخيه على الحكم في حمص من بعد وفاة والده المجاهد " شيركوه" سنة (637هـ/1239م) والملك الجواد "يونس بن مودد بن العادل" وذلك بسبب انتزاع "سنجار" منه من قبل أمير الموصل " بدر الدين لؤلؤ" ، كما انضم إليهم ولد الملك الحافظ " أرسلان" أمير قلعة جعبر

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص248-249 .

² - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص248-249 .

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص249. ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق2، ص465. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5،

وذلك لأنه اختلف مع والده حول تسليم بلاده لحلب مقابل تعويضه عنها من أقاليم حلب ، وانضم إليهم كذلك أمير العرب " علي بن حديثة" بسبب خلافه مع حلب التي دعمت خصومه من الأحرار. (1)

كان الجيش الحلبى بقيادة المعظم " تورانشاه" الذي اصطدم بالخوارزمية وحلفائهم الذين أغاروا على قلعة " جعبر " و " بالس" وذلك لأن صاحبها الحافظ أرسلان بن العادل قد رفض التعاون معهم ، والتجأ إلى اخته صاحبة ضيفة خاتون في حلب وطلب منها أخذ بلاده وتعويضه عنها ، فتم الاتفاق على أن تكون "إعزاز" تعويضاً للحافظ أرسلان عن بلاده ، ولذلك أغارت الخوارزمية على " بالس" وقلعة "جعبر" ونهبوها انتقاماً من الحافظ ، وعندما علموا بخروج عسكر حلب إليها تجمعوا في "حران" ثم عبروا الفرات والتفوا بعسكر حلب في وادي " بُزاعا" قرب البيرة في (ربيع الآخر سنة) 638هـ/تشرين الأول 1240م) حيث انهزم عسكر حلب هزيمة كبيرة، وأسر الكثير من أفرادهم وعلى رأسهم قائد الجيش الملك المعظم " تورانشاه" وأخوه نصر الدين ونهبت الخوارزمية معسكر الحلبيين. (2)

وبعد هذا النصر للخوارزمية وسعوا غاراتهم لتشمل كل أقاليم حلب وأعمالها وفي مقدمتها إعزاز، وتل باشر ، و برج الرصاص (3)، وجبل سمعان، و بلد الحوار، وأطراف العمق، و بُزاعا، والباب . ثم هاجموا منبج (4) وقتلوا سكانها وخرّبوا دورها ونهبوا أراضيها فاعتزوا على أموال طائلة ومئات كثير . (5)

أدعى الخوارزميون أن ما يفعلونه كان خدمة للملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر لأن حلب وحمص ودمشق تحالفوا ضده (6) وبهذا وجد الخوارزميون في الخلافات الأيوبية ستاراً ومسوغاً لعدوانهم وجرائمهم ، وبالفعل قامت الأطراف الثلاثة تحت ضغط وتهديدات الخوارزمية والمتعاونين معهم بتوحيد قواتها تحت قيادة الملك المنصور حاكم حمص ، كما نجحت حلب في إغراء بعض

1 - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 249. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص282 . الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص 75.

2 - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 250 - 251. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص284،282. أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 167. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، م8، ص735. الغامدي، محمد علي عوده : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، مكتبة الطالب الجامعي ، العزيزية ، مكة المكرمة 1986م، ص 339.

3 - برج الرصاص: قلعة من أعمال حلب قرب أنطاكية. ابن شداد الأعلام الخطيرة ج1، ق2، ص12.

4 - منبج : مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . الحموي : معجم البلدان ، ج5، ص206. ابن شداد الأعلام الخطيرة ج1، ق2، ص444.

5 - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 251 - 253. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص284،286. أبو الفداء : المختصر ، م3، ص

167 - 168. الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص 340 - 341.

6 - المقرئزي : السلوك ، ج1، ص 303.

المتعاونين مع الخوارزمية وكسبهم إلى جانبها ⁽¹⁾، ويذكر ابن شداد " أن صاحبة اهتمت أيضاً بتأمين العساكر الجدد وفتحت خزائن المملكة وصرفت الأموال لتأمين حاجات الدفاع عن حلب ، وارسلت في طلب النجدة من أمراء الممالك الأيوبية المختلفة ومن السلاجقة ، وكان منهم أمير " ميفارقين" المظفر غازي إلا أنه ماطل ولم يقدم المساعدة " . ⁽²⁾ واستطاعت صاحبة ضم أمير العرب " طاهر بن غنام " ليكون حليفاً لحلب وقد أقطعتة إقطاعاً مرضياً، وعينته أميراً على جميع العرب، وزوجته بعض جواريتها . ⁽³⁾

نتج عن هذه التحركات لمملكة حلب ضعف الموقف العسكري للخوارزميين ، الذين ما أن علموا بما يجري من الاستعدادات العسكرية ضدهم حتى عادوا من أقطاعاتهم وتجمعوا في حران ، ⁽⁴⁾ وعبروا الفرات في رجب سنة (638هـ/ كانون الثاني 1241م) . وعاثوا تخريباً ونهباً في أعمال حلب متجنبيين الصدام مع عسكر المنصور ابراهيم قائد الجيش الحلبي ، وقد هاجموا الصافية ، وسرمين ، و كفر طاب ونهبوا شيزر واتجهوا إلى حماة ثم سلمية ⁽⁵⁾ ثم الرصافة عندما سمعوا بتحرك جيش المنصور بعد استكمال استعداداته تجاههم ، وخيموا في مكان يدعى " البليل" على ضفة الفرات الغربية ، فأسرع المنصور وجيش حلب لقطع الطريق عليهم ومنعهم من عبور الفرات ، إلا أنهم استطاعوا العبور على الرغم من تعرضهم لهجوم عنيف من العرب ، وعلى الرغم من التعب الذي حل بهم وبخيولهم نتيجة السير السريع والمتواصل ، إضافة إلى قلة المؤونة والعلف ، فالتقوا كل ما يعوق خيولهم من عبور النهر ، واطلقوا الأسرى الحلبيين وعبروا إلى الرقة . ⁽⁶⁾

أخفق المنصور في محاولة قطع الطريق عليهم ، واتجه إلى البيرة وعبر منها واتجه إلى حران ، حيث كان الخوارزميون يستعدون للمواجهة، وهنا عمدوا إلى الخديعة وذلك بأنهم قاموا بوضع رايات من قصب على ظهور الجمال ليظهر للخصم أن عددهم كبير جداً ، فيقع الخوف في قلبه ويجبن عن القتال ، أما الملك المنصور فسار إلى لقائهم ولم ينتظر وصول النجدة من سلاجقة الروم ، والتقى

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 253-255. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص289،287.

² - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ق2، ص465-66 .

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 254-255. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص287-288.

⁴ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 254.

⁵ - سلمية : بلدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينها مسيرة يومين ، وكانت تعد من أعمال حمص . الحموي : معجم البلدان ، ج3، ص240.

⁶ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 255-256. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص291،289. أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 168. الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص 342 - 343.

الطرفان في (رمضان 638هـ/أذار 1241م) حيث دارت معركة حامية أنهزم بنتيجتها الخوارزميون، وتفرقت جموعهم، ولاحقهم المنصور حتى حل الليل وفي الصباح سار في إثرهم واضطروهم للجوء إلى وادي الفرات ، فأتاهم السيل فأغرق الكثير واتجه ما تبقى منهم إلى بلدة " عانة" التابعة للخلافة في بغداد . (1)

وكان من أهم نتائج المعركة استيلاء حلب على مناطق واسعة في الجزيرة وأهمها مدن: حران، وسروج، والرها، ورأس العين، والرقعة، ونصيبين، ودارا، وقد نال المنصور قرقيسيا وبلاد الخابور ، أما دارا ونصيبين فقد أقطعها الناصر لـ " بدر الدين لؤلؤ"، لأنه أنقذ المعظم " تورانشاه" من سجن الخوارزمية في دارا ، وأقطع رأس العين للملك السعيد الأرتقي أمير " ماردين"، وبعد ذلك سار جيش حلب إلى آمد تسانده نجدة سلاجقة الروم فسلمها لهم المعظم " تورانشاه" بن الصالح أيوب مقابل أن يتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم (2)

يلاحظ مما سبق أن هجوم جيش حلب على مناطق سيطرة " تورانشاه" بن الصالح أيوب ما كان إلا انتقاماً من والده الذي كان السبب في الخراب والدمار الذي أحدثه الخوارزميون في حلب ، وبعد هذا النصر قرعت الطبول ورفعت الأعلام وعم الفرح ، وعاد سكان المناطق إلى بيوتهم وأعمالهم وعادت الأمور لسابق عهدها .

- معركة القصب وانتهاء أمر الخوارزمية (644هـ/1224م)

اضطرت حلب إلى الدخول في صدام جديد مع الخوارزمية لأن الصالح أيوب استدعاهم لمساعدته ضد الحلف الشامي الذي قام ضده ، فقد تحالف الصالح اسماعيل مع الصليبيين واعطاهم القدس مقابل ذلك ، وتحالف أيضاً مع الناصر داود صاحب الكرك والمنصور ابراهيم صاحب حمص ضد الصالح أيوب ، وعندما أخذت جيوشهم بالاستعداد للهجوم عليه، أرسل إلى الخوارزمية وقادتها طالباً المساعدة ضد هذا الحلف ، فاندفع حوالي العشرة آلاف خوارزمي في سنة (642هـ/1244م) إلى جنوب الشام فاسترجعوا القدس من الصليبيين والتحقوا بجيش أيوب في غزة. وقد دارت معركة قوية

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 257-259. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص294،292. العبود : الدولة الخوارزمية ، ص 173-174.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص 259-260. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص294،296. أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 168. ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 249. الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 410-411. ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، م3، ص1، ص 152،126،150،109،98،82،60.

بينهم وبين الحلف الشامي انتهت بهزيمة كبيرة للجيش المتحالفة وحاصر الخوارزمية الصليبيين ولم ينجو منهم إلا القليل .

ثم توجه الخوارزميون يرافقهم جيش الصالح أيوب إلى دمشق وهاجموها، وبعد حصار شديد استسلم الصالح إسماعيل والملك المنصور في (جمادى الآخرة ، 643هـ/تشرين الأول 1245م)⁽¹⁾ بشرط أن تعطى بعلبك وبصرى للصالح إسماعيل مقابل دمشق فتسلمها قائد جيش الصالح أيوب معين الدين ابن الشيخ ، الذي كان من أولى مهامه منع الخوارزمية من دخول دمشق لحمايتها من شغبهم وإعطائهم الساحل الفلسطيني بدلاً عنها. فبادر الخوارزميون بشن الغارات على الغوطة ثم تحالفوا مع إسماعيل والناصر داود وركن الدين بيبرس الصالحي الذي انشق عن الصالح أيوب للهجوم على دمشق ، وتم حصارها سنة (643هـ/1245م) إلا أن فكرة سيطرة الخوارزمية على دمشق كانت لا تناسب حلب ولا حليفها الملك المنصور صاحب حمص ، فتم الاتفاق بينهما على التعاون مع الصالح أيوب لفك الحصار عن دمشق ومنع الخوارزمية من دخولها، وعندما سمع الخوارزميون بأخبار الاتفاق سارعوا إلى ضرب قوات حلب وحمص قبل استكمال الاستعدادات وقبل وصول قوات الصالح أيوب ، فترك الخوارزميون حصار دمشق واتجهوا إلى حمص ، حيث تلاقى الطرفان في مكان يدعى (عيون القصب) بالقرب من بحيرة حمص في(المحرم 644هـ/أيار 1246م) ودار قتال عنيف بين الطرفين أسفر عن هزيمة منكرة للخوارزمية وحلفائهم ، وقد تشتت الخوارزمية بنتيجة هذه المعركة وقتل قائدهم " بركة خان" وحمل رأسه إلى حلب . وقد عدت هذه المعركة ضربة قاضية للخوارزمية أدت إلى إضعافهم وتفتيت قوتهم ولم تقم لهم قائمة بعدها. واتجه من بقي منهم على قيد الحياة إلى بلاد القدس حيث استمالهم الناصر داود ، وفر قسم آخر إلى المغول وعمل تحت إمرتهم، أما القسم الثالث فقد هرب إلى صرخد حيث انضم إلى عز الدين أيبك المعظمي، واتجه القسم الرابع إلى الصالح إسماعيل في حلب ، حيث اعتقلهم الناصر إلا أنه أكرم الصالح إسماعيل ورفض تسليمه إلى الصالح أيوب مضحياً بعلاقاته التي أخذت بالتحسن مع صاحب مصر .⁽²⁾

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص336،349. أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 172-173. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص 316،321. ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 33.

² - ابن العديم : بغية الطلب 1810. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص358-360. أبو الفداء : المختصر ، م3، ص 175. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان /م8، ص760-762. ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 257. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص 324. ابن

بناءً على ما تقدم تعد معركة " عيون القصب " نهاية حاسمة لوجود الخوارزميين كقوة عسكرية ضاربة كان لها وزنها وتأثيرها السياسي على مسرح الأحداث في المنطقة ، وقد شكلت خلال هذه الحقبة عنصر قلق واضطراب واستغلال لظروف الصراع المستمر بين أمراء البيت الأيوبي على السلطة والنفوذ ، إلى درجة أوصلت هؤلاء الأمراء إلى إيقاف صراعهم والقضاء على نفوذ هذه القوة التي لو لم تجد من يقف في وجهها لتمكنت من تغيير وجه المنطقة وخارطة أحداثها ، ومن جانب آخر فإن الدولة الخوارزمية لم تخرج بسياساتها عن أخلاقيات ذاك العصر⁽¹⁾ والدليل على ذلك أنهم في البداية كانوا يشكلون سداً منيعاً يقف في وجه التتار ولكن قيام المغول بدفعهم غرباً ، وعدم تقديم العون لهم من قبل الأيوبيين جعلهم يدخلون في خضم الصراع والتنافس بين الملوك الأيوبيين الذين لو استطاعوا استثمارهم بشكل صحيح لما تمكن التتار من الاندفاع غرباً واسقاط عروشهم التي كانوا يتصارعون من أجلها .

المبحث الثالث : العلاقات الأيوبية مع سلاجقة الروم .

- تأسيس دولة سلاجقة الروم .

مع نهاية القرن الخامس الهجري كان العالم الاسلامي منقسماً بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة ، وساد الانقسام كامل المنطقة فما أن تظهر دولة حتى تزول أخرى ، إلى أن ظهر السلاجقة على مسرح الأحداث ، ودخلوا إلى خراسان وانتزعوها من الغزنويين .⁽²⁾ وبذلك شكل السلاجقة واحدة من أكبر الدول الإسلامية ، وقد شملت سلطتهم أغلب مناطق الخلافة العباسية الشرقية ، .⁽³⁾

وتعود بدايات الدولة السلجوقية إلى " دُقاق " أحد زعماء الأتراك ، الذي كان يرأس قبيلة " قنق " ، التي ضمت قبائل الغز⁽⁴⁾ باتحاد قبلي ، ولاحقاً قام ولده " سلجوق " بالنزوح إلى اقليم بخارى المسلم ، حيث

العميد : أخبار الايوبيين ، ص 35. النويري : نهاية الأرب ، م 29، ص 319-322. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، م 6، ص 326. العبود : الدولة الخوارزمية ، ص 180-190.

¹ - الحايك: العلاقات الدولية ، ص 462.

² - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 9، ص 473. برجوي ، سعيد: الحروب الصليبية في المشرق ، ط 1 ، بيروت 1984، ص 58. كرد علي، محمد : خطط الشام ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت 1983، ط 3، ج 3، ص 234.

³ - نسيم ، جوزيف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ط 3، بيروت 1981، ص 146.

⁴ - لقد كان الغز في القرن الثامن مؤلفين من تسع قبائل و كان لكل قبيلة أميراً أو مقدّم - بك- دعاه المسلمون "دهقان"

اعتنق مع قبيلته الاسلام⁽¹⁾، وهنا حاول السلطان "محمود الغزنوي" طرده لكن سلجوق تمكن من الانتصار عليه ، واحتل خراسان عام (431هـ/1093م)، ومن بعده تابع ابنه "طغرل بك " التقدم غرباً ، حتى استدعاه الخليفة العباسي إلى بغداد عام(447هـ/1055م) فسيطر عليها وتحكم بالخليفة القائم بأمر الله ، وأخذ طغرل بك لنفسه لقب (سلطان) .

وقد رافق السلاجقة في رحلتهم تلك جموع كبيرة من " الأتراك والتركمان " (2) ، وتمكنت هذه الجموع في عهد السلطان " ألب أرسلان (3) " وعهد ابنه "ملكشاه (4)" من تشكيل دولة قوية وكبيرة امتدت من أفغانستان حتى حدود دولة الروم البيزنطيين غرباً، وحتى عسقلان على حدود مصر جنوباً. وبعد أن تمكن ألب أرسلان عام (463هـ/1071م) من هزيمة الجيش البيزنطي في معركة ملاذكرد، وأسر الإمبراطور⁽⁵⁾، انفتحت آسيا الصغرى بكاملها أمام الأتراك ، فتوسعوا حتى سيطروا على كامل الأناضول (6) الذي بقي بيدهم إلى يومنا هذا بسبب قيام الدولة العثمانية⁽⁷⁾ . ومثل كل الممالك الكبرى جاء وقت تجزأت فيه مملكة السلاجقة ، فاستقل في الأناضول ابن عم ألب أرسلان ، وهو سليمان بن قُتْلُمُش بن سلجوق ، الذي احتل أنطاكية ، ومن بعدها توسع حتى نيقية⁽⁸⁾ عام (469هـ / 1077م)

¹ - ابن العبري(جمال الدين غريغوريوس بن هارون الملطي، ت 685هـ - 1286م): تاريخ الزمان، تعريب: إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت 1991م، بدون جزء، ص 87.

² - الترك : قبائل " أورو آسيوية " أقامت في مناطق آسيا الوسطى، وتعود أصولهم إلى ترك بن كومر بن يافث بن نوح (عليه السلام) . وتنقسم هذه القبائل إلى نحو عشرين قبيلة ، ويتوزعون في أماكن مختلفة على النحو التالي : بجنك، جكل، قيجاق، تخسي، يغما، يماك، اعزاق، بشغرت، جرق، يسمل، جمل، قاي، ايغر، يياقو ، تنكت، تثار، ختار، قرقرز، تغجاج، أوغوز .

و (أوغوز): هي من أهم الفروع التركية وأشهرها ، وقد ارتقوا إلى المرتبة الأولى خلال حكم الأتراك وذلك بظهور السلاجقة منهم على مسرح التاريخ . وأتراك (الأوغوز) هم الذين فتحوا الأناضول وأسسوا دولة تركيا. فأترك تركيا هم جميعاً من (الأوغوز) . وقد انتشر الاسلام بصورة واسعة بين (الأوغوز) سنة 915م، وفي النصف الأول من القرن الحادي عشر أصبح كل الأوغوز مسلمين، ونتيجة لذلك فقد أطلق العرب على هذه القبيلة التركية التي أسلمت بأكملها "ترك إيمان" تمييزاً لهم عن غيرهم من الأتراك الذين لم يسلموا. ومع مرور الزمن تم حذف الألف والياء ، فأصبحت الكلمة تلفظ (تركمان) أي أن التركماني يقصد به (التركي الأوغوزي الذي اعتنق الاسلام).ابن كثير : البداية والنهاية، ج18، ص48. ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج1، ق2، حواشي ص 332.

³ - السلطان ألب أرسلان: حكم عرش السلاجقة في الحقبة ما بين عامي 1063-1072م. الحايك: العلاقات الدولية ، ص 406.

⁴ - السلطان ملكشاه : حكم عرش السلاجقة في الحقبة الممتدة بين عامي 1072-1079 م . الحايك: العلاقات الدولية ، ص 406.

⁵ - الرواندي : راحة الصدور ، تعريب إبراهيم الشواربي ، ص 189.

⁶ - الأناضول : مرتفعات آسيا الصغرى ، وهي ما كان يعرف في العصر الأيوبي باسم بلاد الروم، ونسبة إليها سمي السلاجقة : سلاجقة الروم . الحايك: العلاقات الدولية ، ص 406.

⁷ - ينتسب العثمانيون إلى عثمان بن أرطغرل بن سليمان ، الذي أقام مملكته على أنقاض دولة سلاجقة الروم ، واستقل في عاصمته يكي شهر، بعد مقتل آخر سلاطينهم على يد التتار عام 699هـ/1300م، ثم أخذ يتوسع في الأناضول . الحايك: العلاقات الدولية ، ص 407.

⁸ - نيقية: مدينة في أسية الصغرى قرب القسطنطينية. . الحايك: العلاقات الدولية ، ص 407.

وبعد الحملة الصليبية الأولى انتقلت العاصمة إلى قونية⁽¹⁾ عام (477هـ/1084م) وكان قلج أرسلان بن سليمان هو أول من تصدى لطلائع حملات الفرنجة في الأناضول عام (489هـ/1096م). وتوارثت هذه الأسرة الملك في بلاد الروم حتى كانت وفاة السلطان ملك شاه الثاني عام (588هـ/1192م)⁽²⁾ ، فتولى السلطة غياث الدين كيخسرو الأول بن قلج أرسلان الثاني⁽³⁾.

- علاقات سلاجقة الروم مع مملكة حلب الأيوبية :

أ- في عهد غياث الدين كيخسرو الأول⁽⁴⁾ (588-596هـ/1192-1200م) وولده كيكافوس الأول :

كانت لسلطنة سلاجقة الروم علاقات سياسية مميزة مع مملكة حلب الأيوبية ، فهي الجار المباشر لهم ، وقد بدأت العلاقات بمحاولة السلاجقة احتلال حلب ، وانتهت بمعاهدات ومساعدات عسكرية و مصاهرات بينهما (وهذا ما سيتم تفصيله لاحقاً). أما العلاقة مع بقية الممالك الأيوبية فقد بدأت عدائية ، حيث تم تبادل الهجمات العسكرية وبعد ذلك تحسنت العلاقات بين السلاجقة والممالك الأيوبية بحيث أدت إلى التحالف ضد الخوارزمية⁽⁵⁾.

في حلب اتخذ الملك الظاهر غازي سياسة التحالف والود مع "ركن الدين سليمان الثاني بن قلج أرسلان" و " كيخسرو الأول بن قلج أرسلان" ضد ليون الثاني ملك أرمينية الصغرى⁽⁶⁾ وكان الظاهر يأمل من وراء هذا التحالف إيجاد الطريقة التي يدخر فيها قوته العسكرية ليوجهها ضد دمشق وتحقيق أمن حدوده الشمالية وإبقائها هادئة ومستقرة. وقد وقف الظاهر على الحياد في الصراع الذي نشب بين

¹ - قونية : مدينة وسط الأناضول ، جنوب أنقرة، يقول ياقوت عنها (من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها قبر أفلاطون). الحموي : معجم البلدان ، مادة قونية ، والشهير فيها قبر الشاعر جلال الدين الرومي . الحايك: العلاقات الدولية ، ص 407.

² - لتفاصيل أكثر حول نشأة سلاجقة الروم أنظر : الراوندي، محمد بن علي : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ، ترجمة عربية ، القاهرة 1960م، ص 155، 154-157، 162-167، 165-168. الفتح البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق - القاهرة 1900م، ص 5-8. البيهقي ، أبو الفضل : تاريخ البيهقي- ترجمة للعربية مكتبة الأنجلو المصرية ، ط القاهرة ، (بدون ت.) ، ص 12-13، 67-68، 73-74 ، 139-141 ، 421-423 ، 474، 437-475 ، 531، 581، 536، 535-593 ، 605-615، 607-621-624-625، 680-691.

³ - الحايك: العلاقات الدولية ، ص 407.

⁴ - غياث الدين كيخسرو الأول: حين وصلت أركان الدولة إلى «قونية» ، أجلسوا السلطان غياث الدين -وكان قد تيمّن عن أبيه وهو ابن سنتين ونصف- على عرش السلطنة/، ثم أقسموا على الولاء له ونصرته. وياشر كلّ من الصّاحب [فخر الدين علي] و « پروانه »مصالح الدولة متعاونين فيما بينهما بالكفالة والكفاية. جمال الدين، محمد السعيد: أخبار سلاجقة الروم ، جامعة عين شمس، (دون. ط، دون. ت)، ص 368.

⁵ - الحايك: العلاقات الدولية ، ص 432.

⁶ - ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص 87.

غياث الدين كيخسرو الأول وركن الدين سليمان الثاني ، حيث انفجرت العداوة والحسد بين الأخوين وذلك عندما أقدم " ركن الدين سليمان الثاني " على انتزاع " قونية " من يد أخيه غياث الدين كيخسرو سنة (597هـ/1200م). فقصد الأخير الملك الظاهر غازي صاحب حلب طالباً منه النجدة ⁽¹⁾، وكان الظاهر قد رفض نجده خوفاً من إثارة عداوة ركن الدين سليمان الثاني، وعدم رغبته بتعريض حدوده الشمالية للخطر بسبب انشغاله بالتحضير للهجوم على دمشق للمرة الأخيرة ، إضافة إلى أنه لم يكن يملك قوات كافية للحرب على جبهات متعددة . وهنا لجأ غياث الدين كيخسرو إلى القسطنطينية ⁽²⁾ فاراً من وجه أخيه، فأحسن إليه الإمبراطور البيزنطي ⁽³⁾.

توفي ركن الدين سليمان الثاني عام (599هـ/1203م) فخلفه ابنه قلع أرسلان الثالث، ولكن الأتراك الأوج (الشغريون) - وهم معظم قبائل تلك البلاد - لم يقبلوا به، واستدعوا غياث الدين كيخسرو، فدخل قونية عام (600هـ/1204م) ⁽⁴⁾ وتمكن من السيطرة على البلاد وجلس مكان أخيه على كرسي الحكم في (جمادى الآخرة سنة 601هـ/شباط 1204م) ⁽⁵⁾.

عاد الملك الظاهر لسياسة التحالف مع " غياث الدين كيخسرو الأول ، وانضم إلى هذا الحلف كل من الأفضل علي أخو الظاهر ونظام الدين صاحب حصن زياد " خربت ⁽⁶⁾. ومن الواضح أن الطرفين كانا بحاجة إلى هذا التحالف وذلك ليتفرغ كلاهما إلى مشاكله الداخلية والخارجية ، فقد كانت حلب في ذاك الوقت تقاوم محاولات العادل في زيادة نفوذه في المنطقة ، مما دفع الظاهر للانشغال في تحصين حلب وتسويرها . وفي الطرف الآخر أنشغل السلاجقة في إيجاد منفذ بحري على المتوسط بهدف تنشيط تجارتهم مع بلدان المتوسط . ⁽⁷⁾

¹ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، م9، ص 267. زكار : الموسوعة الشامية : م5، ص2390. ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 165. الدواداري : كنز الدرر، ج7، ص 111-112.

² - القسطنطينية: اسمها القديم بيزنطة، بناها الامبراطور الروماني قسطنطين الكبير، فدعيت باسمه. الحايك: العلاقات الدولية ، ص 407.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص160. ابن واصل : مفرج الكروب ، م3، ص160. ابن الأثير : الكامل م9، ص 267. - زكار : الموسوعة الشامية : م5، ص2390-2391. - ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 182. - الدواداري : كنز الدرر، ج7، ص 112.

⁴ - ابن الأثير : الكامل م12، ص 200.

⁵ - ابن الأثير : الكامل م9، ص 267-268. زكار : الموسوعة الشامية : م5، ص2395-2396. ابن كثير : البداية والنهاية : م13، ص50. - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 397-98. - ابن واصل : مفرج الكروب ، م3، ص166.

⁶ - ابن الأثير : الكامل م9، ص 268. زكار : الموسوعة الشامية : م5، ص2396. ابن كثير : البداية والنهاية : م13، ص50.

⁷ - ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 185.

في سنة (605هـ/1028-1209م) تحالف كل من الظاهر و كيخسرو ضد ليون الثاني ملك أرمينية الصغرى ، الذي استتجد بالملك العادل حيث قام الأخير بالوقوف إلى جانبه مما أدى إلى إبرام صلح بين الطرفين (سيرد ذكر بنود الصلح في فصل العلاقات مع أرمينية الصغرى)

فقد بادر كيخسرو إلى القبول بالصلح ⁽¹⁾، أما الظاهر فقد التزم الصمت وهذا ما يدل على أنه غير موافق على تدخل عمه العادل في المشكلة مع أرمينية ، وكان همه عدم قيام وفاق بين عمه العادل وملك أرمينية من جهة وعدم تمكن العادل من إضعاف نفوذه في حلب وعدم تعرضه لحلب من جهة ثانية .

اضطر كيخسرو لخوض معركة مع " ثيودور لاسكارس" ⁽²⁾ الإمبراطور البيزنطي في نيقية فانتصر كيخسرو ، ولكنه قتل أثناء مطاردة المنهزمين. فخلفه أولاده الثلاثة : "قلج أرسلان الثالث بن سليمان" أخذ السلطنة ، و "عز الدين كيكافوس الأول" في ملطية، و"علاء الدين كيقباز الأول" ⁽³⁾ في توكات ⁽⁴⁾. وسرعان ما تفرغوا للصراع على التركة، مما أربك الظاهر الذي كان يعتمد على تحالفه مع مملكة السلاجقة بشكل أساسي، ولذلك سعى الملك الظاهر في الصلح بين "عز الدين كيكافوس الأول" وأخيه "علاء الدين كيقباز الأول" وكان سبب الخلاف قيام كيقباز في سنة (609هـ/1212م) باحتلال مدينة " أنكورية " (أنقره حالياً) التابعة لكيكافوس ، فبادر الأخير إلى حصار كيقباز بداخلها ، مما اضطر كيقباز من طلب التدخل والمساعدة من الظاهر ملك حلب ، فقام الظاهر بإرسال سفارة برئاسة الشيخ "

¹ - لم يرد ذكر بنود الصلح إلا في رواية ابن العديم ، وقد وضح أن كيخسرو سارع إلى تنفيذ أمر العادل بوقف القتال وعقد الصلح ، بينما لم يذكر مسارعة الظاهر إلى فعل الأمر نفسه والاستجابة إلى طلب العادل ، وهنا لا بد من التساؤل عن السبب الذي دفع كيخسرو بالمسارعة إلى وقف القتال بالرغم من سياسته في تلك الحقبة التي تمثلت بالتوسع جنوباً ، وعلى ما يبدو أن سبب موافقة كيخسرو على الصلح : هو محاولته التفرغ لمشاكله العديدة : فقد أدى احتلاله لمنفذين بحريين (:أضاليا anataya) على المتوسط في الجنوب و(صمصوم samsum) على البحر الأسود في الشمال ، إضافة إلى المشاكل التي تسبب بها التركمان في الشمال على الحدود مع نيقية ومع حاكم قبرص الصليبي، ومشاكله مع إمبراطور القسطنطينية اللاتيني هنري صاحب فلاندرز ، كل هذه الظروف الضاغطة أجبرته على قبول الصلح دون تردد .
Chen:pro- Ottoman Turkey.p.119-120.

² - ثيودور لاسكارس: تسمية المصادر العربية باسم " الأشكري" تعريباً للقبه لاسكاريس. الحايك: العلاقات الدولية ، ص 411.

³ - علاء الدين قيقباز الأول : اسم فارسي من مقطعين : كيا- قباد، ورد الاسم لدى معظم المؤرخين العرب بالذال المعجمة، على عادة العرب بقلب كل دال فارسية إلى ذال معجمة، لذلك رسمت بهذا الشكل . الحايك: العلاقات الدولية ، ص 411. وهو ألمع سلاطين سلاجقة الروم، قال عنه ابن العبري : " كان ممتازاً بين ملوك زمانه بمنظره الخيف، وذكائه المفرط، وشخصه النقي البعيد عن الأهواء ، خلافاً لملوك العرب المعتادين على الانغماس فيها. (ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص283).

⁴ - توكات : مدينة في شمال تركيا، تبلغ مساحتها 912,9 كم² . موسوعة ويكيبيديا الحرة.

تقي الدين علي بن أبي بكر الهروي " إلى كيكائوس للصلح بين الطرفين ، إلا أن كيكائوس رفض الصلح وشدد الحصار حتى فتح المدينة وألقى أخاه ومن معه في السجن .⁽¹⁾

لم تذكر المصادر ردة فعل الظاهر بسبب رفض كيكائوس وساطته ، ولكن على ما يبدو أن الحادث لم يكن له تأثير سلبي على العلاقات بين الطرفين والدليل على ذلك استمرار التعاون بينهما ، ففي عام (613هـ/1216م) راسل الظاهر كيكائوس بن كيخسرو للخروج معه في حملة مشتركة ضد ملك الأرمن فأجابته كيكائوس إلى ذلك وخرج بنفسه يقود الجيش إلى أطراف الجزيرة ، لكن الظاهر ندم و تراجع عن هذه الحملة خوفاً من إغضاب عمه العادل حليف ملك الأرمن ورأى أن حفظ بيته أفضل⁽²⁾ و خوفه من وقوعه تحت سلطة كيكائوس الذي أخذ يحرضه على الخروج من جهة أخرى ، فوقع الظاهر بين ناريتين ولشدة تفكيره بالأمر مرض ومات⁽³⁾.

اهتزت العلاقات بين مملكة حلب والسلاجقة في بداية عهد العزيز، فقد استغل كيكائوس فرصة موت الظاهر سنة(613هـ/1216م) وما نجم عنه من:

- وجود طفل صغير بالحكم في حلب .
- معارضة بعض أمراء حلب لأتابكية طغريل لملك حلب الطفل.
- حقد كيكائوس على الظاهر غازي ، فقد عدّه مسؤولاً عن توريطه بالخروج بحملة عسكرية ضد الأرمن ، ثم تخلى عنه، والتجأ إلى عمه العادل.
- انشغال الملك العادل بهجوم الفرنج على دمياط ، وجهده في تسيير النجيدات من الشام إلى مصر.
- وجود من يحبذ أتابكية الملك الأفضل لابن أخيه الظاهر من أمراء حلب ، والأفضل في طاعة كيكائوس ويخطب له.⁽⁴⁾

وتنفيذاً لأطماعه قام كيكائوس في سنة (615هـ/1218م) باستدعاء الملك الأفضل من " سمسيات" ، وأكرمه ، وأقنعه أن يسير معه، ويكتب أمراء حلب ليأخذها له ، ويأخذ كيكائوس بلاد الأشرف . وكانت كيكائوس علم الدين قيصر متولي قلعة " درب ساك" فصار إليه، وجاهر بالعصيان، كما وافقهم

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م3، ص217-18. ابن الفرات : تاريخه ، م5، ق1، ص 128-29.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص637.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص637.

⁴ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص644. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص309.

الصالح الأرتقي صاحب آمد، وكذلك نزل إليه " نجم الدين أطنبغا الظاهري من بهنسا، وكان قد عصي بها . (1)

في (ربيع الأول 615هـ/أيار 1218م) سار كيكافوس والأفضل فأخذا رعبان ، وسلمت للأفضل، ثم حاصر كيكافوس قلعة بهسنا، ثم اتجه الهجوم إلى تل باشر وكان صاحبها الأمير "بدر الدين بن دلدرم" قد رفض تسليمها فحاصروها وتملكوها بالقوة ، وعندما سيطروا عليها احتفظ بها كيكافوس لنفسه، " فنفر الأفضل ، وقال : " هذا أول الغدر ، ونفرت أهل البلاد ، فقد كانوا فرحين بتملك الأفضل، فلما رأوا ذلك خافوا " . (2)

ولما تحقق الأفضل من سوء نية عز الدين كيكافوس حاول إعاقة تقدمه بعض الوقت ريثما تتمكن حلب من اتخاذ تدابير الدفاع، وعندما وصل خبر قرب الهجوم السلجوقي على حلب سارع أتاكها بإرسال القاضي " زين الدين ابن الأستاذ" إلى الملك العادل يطلب النجدة، فاستجاب العادل على الفور، وكتب إلى الملك الأشرف الذي كان يشن هجوماً احترازياً على صليبي طرابلس (3)، وقلعة الحصن ، وصافيتا. فسار الأشرف إلى حلب وخيم مع عساكره في الميدان الأخضر حيث أنضم إليه جيش حلب، ووصل إليه الأمير مانع بن حديثة أمير العرب على رأس جمع غفير. وبينما كان كيكافوس والأفضل يتسلمان " منبج" بسبب خيانة الأمير الصارم المنبجي وأتباعه، وصل جيش الأشرف إلى "وادي بزاعة" فأرسل كيكافوس مقدمة جيشه البالغ تعدادة ألف فارس لوقف هجوم الأشرف ريثما يصل باقي الجيش السلجوقي ، إلا أن مقدمة جيش الأشرف المؤلفة من العرب بقيادة الأمير مانع اصطدموا بها قرب " تل قباسين" فكسروها واستولوا على أثقالها واستباحوها قتلاً وأسرًا.

أما كيكافوس فقد انهزم إلى بلاده إلا أن الأشرف قام بملاحقته واسترد أثناء الملاحقة كل الأقاليم التي احتلها السلاجقة " كرعبان، وتل خالد ، وتل باشر، و برج الرصاص" . وكان الأشرف يرغب في ملاحقة كيكافوس حتى داخل أرضه إلا أن وفاة الملك العادل ووصول حملة صليبية إلى دمياط أجبره

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م3، ص265-266.

- أطنبغا: لفظ تركي يعني الثور الذهبي ، وهو من أمراء الظاهر غازي ، كان قد ولاه قلعة بهسنا، وزوجه إحدى سراريه، فاتفق الطنبغا مع كيكافوس ونزل إليه ليسلمه القلعة ، فتسلمت زوجته القلعة ، وعصيت بها ، فعذب كيكافوس أمام القلعة ثم قتله، ولم تسلم القلعة له، وبعد هزيمة كيكافوس تسلم نواب العزيز القلعة ، وأنعم على زوجة الطنبغا وأولادها بإقطاع إعزاز. ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص10.

² - ابن واصل : مفرج الكروب ، م3، ص263.

³ - طرابلس: مدينة على ساحل البحر ، وهي الاقليم الرابع طولها ستون درجة وخمس وثلاثون دقيقة وعرضها أربع وثلاثون درجة . الحموي : معجم البلدان ، ج4، ص26.

على التوقف والعودة إلى حلب حيث أطلق سراح الأسرى السلاجقة ، فقام كيكائوس بإحراقهم عندما وصلوا إليه. (1)

كان من نتائج الهجوم السلجوقي الذي قام به كيكائوس إخفاقه في التوسع جنوباً بسبب تدخل الملك الأشرف بن العادل، إضافة إلى استقرار الحكم في حلب للملك العزيز محمد ، كما أجبرت هذه التطورات السلاجقة على العودة إلى سياسة التحالف مع الأيوبيين وتركيز توسعهم فيما بعد باتجاه الشرق.

ب- في عهد السلطان كيقيباذ الأول

تبدلت سياسة سلاجقة الروم تجاه الأيوبيين بعدما مات كيكائوس عام (615هـ/1218م) (2) وخلفه أخوه "علاء الدين كيقيباذ الأول" الذي راسل الملك الأشرف واتفق معه (3)، ضمن سياسة حل المشاكل مع الأقوياء، والتفرغ للضعفاء . لذلك حل كيقيباذ مشاكله مع الأشرف ، ومع عمه طغرل شاه (4) صاحب أرزان الروم (5).

وفي عام (616هـ/1236م) تابع كيقيباذ سياسة التوسع شرقاً وقد تمكن من خلال التحالف مع الأشرف من انتزاع عدة حصون من أملاك الأرتقة أصحاب آمد وحصن كيفا . وربما كان سبب هذه السياسة التي سلكها كيقيباذ هو خوفه من الخطر الخوارزمي ، فجلال الدين " منكبرتي" كان يكتسح ممالك الشرق ، ويتقدم غرباً وقد مد نفوذه نحو الجزيرة وأطراف الأناضول يدعمه في ذلك تحالفه سنة (623هـ/1226م) مع كل من الصالح الأرتقي صاحب آمد، والمعظم عيسى صاحب دمشق ومظفر الدين في إربل (6).

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م3، ص263-269. ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص168-169. المقرئ : السلوك ، ج1، ص200.

ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، م9، ص325-326. ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص200-201.

- الدواداري : كنز الدرر، ج7، ص196. ابن الفرات: تاريخه ، م5، ص243-246. ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص74.

العيني : عقد الجمان ، م1، ق2، ص385-386. الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص318-321.

² - أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص113.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص650.

⁴ - طغرل شاه: هو مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان . الحايك: العلاقات الدولية ، هوامش ص416.

⁵ - أرزان الروم : بلدة من أرمينية أهلها أرمن، وهي الآن - ولاية واسعة كثيرة الخيرات. الحموي: معجم البلدان ، مادة أرزان الروم. وهي آخر

حد لبلاد الروم من جهة الشرق . كتاب الجغرافي، المغربي، ص187. وبها منبع الفرات من شرقها وشمالها. أبو الفداء : تقويم البلدان،

ص385. ويقال لها أرزروم. (Erzurum).p.125. Clud Cahen. pre-Ottoman

⁶ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م4، ص202.

و كان هذا التحالف سبباً لقيام الملك الأشرف بتشكيل تحالف مضاد مع كيقباز الأول الذي عدّ دعوة الأشرف موسى للتحالف معه بمثابة ضوء أخضر له للتوسع باتجاه إقليم الجزيرة ، لا سيما أن علاء الدين كيقباز كان يتحين الفرصة للقضاء على مسعود الأرتقي الذي استقل بإمارته وسك النقود باسمه وخطب لنفسه (1)، فعّد كيقباز هذا الأمر تحدياً له وخروجاً عن طاعته، فجهز الأخير جيشاً كثيفاً انطلق من ملطية باتجاه قلعتي " كختا" و"جمكازاد" (2) التابعتين لصاحب آمد ، وحاصرهما. ويذكر ابن الأثير " أن الجيش السلجوقي تمكن من ضم حصني منصور (3) و جمكازاد وغيرهما" (4) أدرك الصالح مسعود الأرتقي مدى الخطأ الذي وقع فيه، وأنه ليس من مصلحته معادة الأشرف موسى ، فبدّل سياسته ، وانضوى تحت لواء الأشرف ، فأرسل الأشرف إلى كيقباز يطلب منه إعادة ما استولى عليه إلى صاحب آمد، لكن السلطان السلجوقي لم يجبه إلى ذلك وقال : (لم أكن نائباً للأشرف يأمرني وينهاني) (5) فدب النزاع بينهما .

قام الأشرف موسى بإرسال قوة عسكرية لنجدة صاحب آمد، بقيادة "عز الدين محمد بن بدر الحميدي" واشتبك مع قوات علاء الدين كيقباز في رحى معركة قاسية انهزم على إثرها الجيش الأيوبي ووقع "عز الدين محمد" أسيراً في يد السلاجقة الذين تمكنوا من السيطرة على قلعة الكختا. (6) وهنا عاد الصالح مسعود عن تحالفه مع الأشرف وقرر التفاهم مع كيقباز ودخل في طاعته. (7) على الرغم من كل هذه التقلبات السياسية فقد حافظت حلب على علاقة مستقرة مع السلاجقة خلال عهد العزيز و أتاكبه طغرل بالرغم من بعض المناوشات المتباعدة، على اعتبار أن جيش حلب كان يعمل تحت قيادة الأشرف ، وقد ساند الجيش الحلبي الأشرف بالأعمال التي كان يقوم بها لحماية أملاكه.

ويمكن عدّ العلاقات التي نشأت عن تطبيق السلاجقة سياسة التوسع شرقاً، والعلاقات التي نتجت عن اندفاع الخوارزمية أمام جيوش المغول إلى منطقة الجزيرة ، بأنها علاقات بين الملك الأشرف

1 - ابن بيبى، ناصر الدين يحيى بن محمد : مختصر سلجوق نامه، المسمى " الأوامر العلانية في الأمور العلانية ، تحقيق: هوتسما، 1902م، ص122.

2 - جمكازاد: قلعة ومدينة بين آمد وملطية، قرب حصن المّران . الحموي: معجم البلدان ، ج3، ص363.

3 - ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص 148. ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص470.

4 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، م1، ص 415.

5 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، م1، ص 415 . ابن واصل : مفرج الكروب ، م4، ص203.

6 - ابن واصل : مفرج الكروب ، م4، ص 203. ابن بيبى: الأوامر العلانية ، ص118-119.

7 - ابن بيبى: الأوامر العلانية ، ص122-123.

والسلاجقة من جهة ، وبينه وبين الخوارزمية من جهة أخرى، لذلك حافظت حلب على استقرار علاقتها مع السلاجقة ، ولكنها انضمت سنة (631هـ/1233م) إلى التحالف الذي أقامه الملك الكامل ، والذي يعدّ أوسع تجمع عسكري عرفته الممالك الأيوبية منذ موت السلطان صلاح الدين ⁽¹⁾، حيث ضم سنة عشر ملكاً ، ما عدا العزيز بن الظاهر صاحب حلب ، الذي وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه، فقد كان محرجاً بين حليفه السلجوقي كيقباز و السلطان الأيوبي الكامل ، فأرسل كيقباز للعزيز يقول له : (أنا راض منك بأن تمدّه بالأجناد والأموال ، على أن لا تنزل إليه أبداً) ورضي منه الكامل بذلك ، فأعفاه من النزول بنفسه ⁽²⁾ .

وبذلك أرضى العزيز القوتين المتحاربتين ، ولم يخسر أيّاً منهما. وبالعودة إلى هدف الكامل من هذا التحالف السياسي الواسع فقد كان :

- تحقيق رغبة (الكامل) في ضرب السلاجقة ، لا سيما بعد تمكنه من توحيد البيت الأيوبي من جهة ومن جهة أخرى الاستفادة من المعلومات التي أطلعه عليها بعض أمراء جند الشام- أثناء توافدهم إلى "سيواس" في بلاد سلاجقة الروم، عن قوة السلاجقة ، وحصانة معاقلهم ، حيث استضعفوها، ووصفوا ذلك للسلطان الكامل، وهذا ما وافق مخططاته السياسية والعسكرية. ⁽³⁾
- قيام كيقباز بالهجوم على أملاك الأشرف في الجزيرة العليا ، حيث هاجم "خلاط " سنة (630هـ/1233م). وقام بعمارتها ، ونقل إليها الفلاحين ، وزرعها. ⁽⁴⁾ وسيطر على عدد من المناطق ما بين خلاط و آمد ، وحاصر حران والرها والرقّة ، واستولى على مناطق واسعة في الجزيرة ⁽⁵⁾. وكان ذلك بمساعدة عدد من أمراء العسكر الشاميين الفارين، يدلونه على المواقع ويدعمونه بالرأي. ⁽⁶⁾
- كان الكامل يعدّ كيقباز قوة خارجية غريبة عن الجزيرة، يجب إبعادها، في المقابل كان لكيقباز نفس الاعتبار اتجاه الكامل فمجال الكامل مصر وغير مرغوب فيه في الجزيرة .

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص75.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص673.

³ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص74. الحنبلي: شفاء القلوب ، ص 314. ابن الوردي: ذيل المختصر ، م2، ص234.

⁴ - ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص255.

⁵ - ابن الجزري : المختار من حوادث الزمان ، ص147.

⁶ - ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص255.

- رغبة الكامل بتحقيق نصر شامل وكامل على السلاجقة وهذا ما يتيح له فرصة التفرغ للأمراء والملوك الأيوبيين والخلاص من مؤامراتهم وخلافاتهم بضربة واحدة، عن طريق نزاعهم عن ولاياتهم في الشام والجزيرة، مما يمكنه من توحيد بلاد الشام والجزيرة وآسيا الصغرى تحت حكمه لوحده . (1)
- في أوائل سنة (632هـ/1235م) سار السلطان الكامل نحو كيقباز الذي نزل بجيشه على " الدريند" (2) وبنى عليه سوراً وقا تل من يطلع إليه" (3) ويذكر ابن واصل أن " كيقباز حفظ الطرقات إلى بلاده، وهي صعبة و ضيقة جداً " . (4)
- اضطر الكامل إلى الانسحاب بعد أن واجهته مجموعة من المشاكل تمثلت بـ:
- امتناع الدريند بسبب الاستحكامات التي أقامها السلاجقة، وفشل جيشه في اختراقها.
- تناقص الأوقات .
- رغبة الكامل التفرد بحكم بلاد الشام ، فقال لأتباعه ((أن صار لنا ملك الروم ، فإننا نعوض ملوك بلاد الشام والشرق مملكة الروم بدل ما بأيديهم ، ونجعل الشام والشرق مضافاً إلى ملك مصر)) (5)
- وهذا الأمر أدى لنشوء الخلافات بين الملوك الأيوبيين ، الذين خافوا من انتزاع أملاكهم بعد أن تتم السيطرة على بلاد السلاجقة ، فاتفقوا عليه . و" يذكر المؤرخون " أن الملك المجاهد صاحب حمص علم بنوايا الكامل ، فكان المحرض الأول ضد الكامل ، حيث أخبر الأشرف موسى فتوجس الأخير خيفة من ذلك ، لا سيما أن الأشرف كان قد طلب من الكامل أن يعطيه الرقة فرفض . وهنا اتفق الأشرف موسى مع باقي أمراء بني أيوب على الانسحاب من التحالف، وكتبوا إلى كيقباز بذلك لكن الكتب وقعت بيد الكامل ، فكتبها (6)

¹ - المقرئزي : السلوك ، ج1، ص288.

² - الدريند: هو ممر جبلي ضيق، يخترق جبال طوروس ويؤدي إلى داخل بلاد الأناضول ، وهي تفصل بلاد الشام عن آسيا الصغرى. طقوش : تاريخ الأيوبيين ، ص337.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م2، ص674. كانت القوات السلجوقية تعبر المضائق وتصطدم بالقوات الأيوبية داخل حدودها، ثم تعود أدرجها. ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص159. زكار : الموسوعة ، ج16، ص317.

⁴ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص77.

⁵ - ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص159. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص77.

⁶ - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج6، ص282-83. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص369.

وأدى هذا الأمر إضافة إلى إخفاق القوة التي ذهبت إلى "حصن منصور" ⁽¹⁾ إلى انسحاب الكامل وصدره ممثلياً حنقاً على الملوك من أقاربه. ⁽²⁾

و بعد رحيل الأيوبيين عن المنطقة أصبح هناك فراغ سياسي في المنطقة حاول السلطان السلجوقي كيقباز أن يحتويه ، فاستولى على حران والرها والرقّة . ⁽³⁾ وبعدها عاد كيقباز إلى بلاده ، فأستغل الكامل هذه الفرصة وسار من مصر سنة (633هـ/1236م) فاستعاد الرها وحران ، وعاد إلى دمشق ومعه بعض الأسرى من السلاجقة .

وفي سنة (634هـ/1236م) نشأ خلاف بين الأشرف والكامل ، لا سيما بعد ظهور اطماع الكامل في أملاك الأشرف بالجزيرة ، وتحضره للهجوم على حلب ، ولذلك سعى الأشرف لتشكيل حلف شامي كبير ضد الكامل انضم إليه الملكة خاتون بحلب و الملك المجاهد صاحب حمص والملك المظفر صاحب حماة ، وسيروا رسلاً من جهتهم إلى ملك الروم كيقباز لموافقتهم بالخروج على الكامل .

- العلاقات في عهد السلطان " غياث الدين كيخسرو الثاني":

في (شوال 634هـ/ حزيران 1237م) مات كيقباز قبل وصول الرّسل واجتماعهم به ، فقابلوا ولده " غياث الدين كيخسرو الثاني"، و قدموا له التعزية بوالده ، واتفقوا معه، وحلف لهم على الشروط التي

¹ - يذكر اليونيني : أن الكامل أرسل المظفر صاحب حماة والطواشي شمس الدين صواب العادلي على رأس ألفين وخمسمائة فارس للدخول إلى بلاد الروم من جهة الحصن ، لكن كيقباز علم بهذا التحرك ، فأرسل قوات كبيرة لمقاتلتهم ، ودارت بين الطرفين مناوشات تخللها كر وفر ، هزمت فيها القوة الأيوبية وقتل منهم عدد كبير ، وأسر سبعمائة ، واحتفى قسم منهم في حصن زياد، فحاصروهم ملك الروم إلى أن نزلوا بالأمان وأطلقهم ، واستولى كيقباز على حصن زياد. اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج1، ص 131. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص78-79. / (

الطواشي) : تعني "الخصي" أو "الخادم" . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج4، ص 18. المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج3، ص 347.

² - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص74-81. ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص216-220. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص248-249. أبو الفداء : المختصر ، م3، ص154-156. ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص234-235. الحنبلي: شفاء القلوب ، ص 314-315. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، م8، ص648. ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص19. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج 6، ص 83-282. النويري : نهاية الأرب ، م29، ص 198-199. الدواداري : كنز الدرر، م7، ص 311. العيني : عقد الجمان ، م14، ص 156-168. الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص 327-329.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص484-485. ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص 281 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص161.

استقرت مع والده كيقباز .⁽¹⁾ و لم يكتفي كيخسرو بهذا التحالف وإنما أراد أن يوثق صلاته أكثر مع حلب عن طريق المصاهرة ، فعقد غياث الدين كيخسرو على "غازية خاتون" بنت العزيز صاحب حلب ، على أن يزوج أخته للملك الناصر، وتم العقد على يد المؤرخ ابن العديم،⁽²⁾ وقد هدف كيخسرو من هذه المصاهرة أن تكون حلب حليفاً أيوبياً قوياً يساهم في تخفيف الضغط الأيوبي على السلاجقة، ويمنحهم الفرصة لاحتلال الأملاك الأيوبية في الجزيرة.

ولم يطل الوقت حتى أخذ كيخسرو باستغلال ظروف حلب إلى أبعد حد ، فبعد مقدمات المصاهرة والتحالف والمودة أرسل في سنة (635هـ/1238م) رسولاً من قبله إلى حلب ، طالباً إقامة الخطبة ليخسرو وضرب السكة باسمه في مملكة حلب ، ولم يكن أمام صاحبة ضيفة خاتون و الأتابك طغريل وأمرائها إلا الموافقة وذلك خوفاً من إقدام كيخسرو على عمل عسكري في الوقت الذي كان فيه معظم عساكر حلب محاصرين لحماة⁽³⁾.

وفي تطور جديد للأحداث فقد حدث سنة (635هـ/1238م) أن توفي الأشرف موسى في دمشق، بعد أن أوصى بدمشق للملك الصالح اسماعيل ، الذي قام بمراسلة كيخسرو ، وأكد على التحالف بينهما.⁽⁴⁾ لكن الصالح اسماعيل سرعان ما خسر دمشق، فقد سيطر عليها الكامل بالقوة وأخذ يخطط لأخذ حمص بعدها ومن ثم حلب ، وهنا بادرت حلب بعد أن عرفت بتجهز الكامل لطلب النجدة من كيخسرو الثاني، فقام الأخير بإرسال قوة عسكرية من أفضل عساكره، كما قام كيخسرو بخطوة سياسية لمساعدة حلب حيث راسل الكامل لثنيه عن قصد حلب ، فرفض الكامل . ولكن حلب نجت بأيسر السبل وذلك بسبب وفاة الكامل في قلعة دمشق في (رجب 535هـ/شباط 1238م) فزاح ثقل الحرب عنها⁽⁵⁾.

استمرت العلاقات الودية بين الطرفين أثناء صراع حلب مع الخوارزمية، ووقف السلاجقة إلى جانب حلب في هذا الصراع، إلا أن كيخسرو استغل هذا الصراع لمصلحته، إذ استمر في سياسة التوسع في

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص121-124. ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص227-232. أبو الفداء : المختصر ، م3، ص158-159.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص240.

³ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص190- ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص242.

⁴ - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص160.

⁵ - ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص180-181. ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص220. العيني : عقد الجمان ، م14، ص206.

البلاد الشرقية فسيطر على " آمد" في سنة (639هـ/1241م)⁽¹⁾ ، وقد حاول مساعدة حلب ضد " ميافارقين" إلا أن وصول المغول إلى حدود بلاده الشرقية قد أوقف سياسته ومخططاته، وقد أصبح هو بحاجة إلى من يساعده ، فقام بإرسال نائبه شمس الدين الأصبهاني لطلب المساعدة من حلب ، فأرسلت له نجدة بقيادة " ناصح الدين الفارسي" وكان ذلك في (ذي الحجة 640هـ/ حزيران 1243م) حيث التقت مع جيش كيخسرو في " سيواس"⁽²⁾. وانضمت إلى جيشه ، فدارت معركة كبيرة بين المغول والسلاجقة في (كوز-داغ)⁽³⁾ انهزم بنتيجتها كيخسرو ، وهرب إلى قلعة " العلانية " فتوغل المغول في أراضيه مما أجبره على طلب الأمان من المغول .⁽⁴⁾

وكان من نتائج هذه المعركة الفاصلة في تاريخ سلاجقة الروم هو القضاء على استقلالهم ، فقد تمكن المغول بعد هذه المعركة من السيطرة على الأناضول والتحكم بمصيره، وأصبح حكام السلاجقة يحكمون بأمر من المغول . فبعد كيخسرو تسلم الحكم ثلاثة من ابنائه معاً وهم " عز الدين كيكاوس الثاني" و" قلج أرسلان الثالث" و" و كيقباز بن كيخسرو".

وبذلك فقدت دولة سلاجقة الروم دورها السياسي في المنطقة ، وقضى احتلال المغول على أراضيه على العلاقة التي كانت قائمة مع حلب ، كما أدى احتلال المغول إلى تحرك التركمان في أطراف الشام وآسية الصغرى وعاثوا فساداً، وحدث اضطراب في بلاد الشام بسبب هجرة مجموعات كبيرة من سكان تلك المناطق .

¹ - ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص32- النويري : نهاية الأرب ، م29، ص 280.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص267-68- ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص252. أبو الفداء : المختصر ، م3، ص171. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص314-326.

³ - كوز- داغ: منطقة تقع على الطريق ما بين (سيواس و ارزنجان) . ريس، تامارا تالبوت : السلاجقة تاريخهم وحضاراتهم. جامعة اكسفورد 1982. ص86.

⁴ - أبو الفداء : المختصر ، م3، ص171-172. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص327. ابن العديم : زبدة الحلب ، م3، ص269. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص313. ابن الوردي : تنمة المختصر ، م2، ص252-53. العيني : عقد الجمان ، م18، ص 258. ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص32. الغامدي : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ص 375-376.

المبحث الرابع : علاقة الأيوبيين مع المماليك في مصر (1).

على الرغم من أن الدولة المملوكية جاءت امتداداً لدولة بني أيوب في البناء، والطبيعة العسكرية، والأسس السياسية الاقتصادية التي قامت عليها، إلا أن العلاقة الأيوبية المملوكية اتسمت بالعداء، وذلك لأن الأيوبيين في الشام كان من الصعب عليهم تقبل استئثار مماليتهم ومماليك آبائهم بشؤون الحكم.

حكم مصر المماليك البحرية، وهؤلاء في غالبيتهم من مماليت السلطان الكامل، وولده الصالح نجم الدين أيوب (2) وقد ذكر المؤرخون أن الصالح أيوب (3) اهتم بشراء المماليك الأتراك إلى درجة فاق بها الأمراء الآخرين من الأسرة الأيوبية، (4) ويمكن رد ذلك للأسباب التالية :

- انقلاب الخوارزمية ضد الصالح نجم الدين أيوب بعد معركة غزة .
- مساعدة المماليك الكاملية الملك الصالح أيوب ليصبح حاكماً على مصر و سماهم " البحرية "
- لسكناهم معه في قلعة الروضة على بحر النيل .

و بعد وفاة الملك الصالح "نجم الدين أيوب" في (شعبان، 647هـ/ تشرين الثاني، 1249م) (5) في المنصورة (1)، تولت زوجته "شجر الدر" (2) ترتيب أمور الدولة، وإدارة شؤون الجيش في ميدان

¹ - المملوك، جمعه مماليت: هو العبد الذي سُبِي ولم يملك أبواه، والعبد القن هو الذي ملك هو وأبواه. ابن منظور : لسان العرب، ج10، ص493. والمملوك عبد يباع ويشترى. العبادي: قيام دولة المماليك في مصر والشام، ص11.

² - ابن سباط (حمزة بن أحمد بن عمر، ت 930 هـ): صدق الأخبار أو تاريخ ابن سباط، تح: عمر عبد السلام التدمري، جزآن، طرابلس 1993م، ج1، ص348.

³ - الملك الصالح أيوب (نجم الدين، أبو الفتوح، وقيل: المظفر وأبو الفتح) بن الملك الكامل ناصر الدين محمد (الأول) بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد (الأول)، سابع الملوك الأيوبيين في مصر وتاسعهم في دمشق، ولد بالقاهرة سنة (603هـ/1206م) وتولى حصن كيفا سنة (629هـ/1232م) ثم تولى الرها وحران سنة (633هـ/1235م) ثم سنجار ونصيبين سنة (635هـ/1237م) ثم دمشق سنة (637هـ/1239-1240م) وتوفي بمصر سنة (647هـ/1249م). ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص98. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص163-179. الشهابي، قتيبة: معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، مكتبة الأسد، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1995م، ص131.

⁴ - أبو الفداء: المختصر، ج3، ص179. المقرئ: السلوك، ج1، ص399-400. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1982م، ج1، ص296. العيني: عقد الجمان، ج18، ص305. زكار، سهيل: فلسطين في عهد المماليك، الموسوعة الفلسطينية، الدراسات التاريخية، ط1، بيروت 1990م، القسم الثاني، ص537. عاشور، سعيد عبد الفتاح: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، سلسلة الألف كتاب، (رقم 227). (د.ت) ص13.

⁵ - ابن سباط - صدق الأخبار - تاريخ ابن سباط، ج1، ص345. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص179. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج23، ص187. ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص177. المقرئ: السلوك، ج1، ص339. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص263.

القتال، وأخفت نبأ موت السلطان، فأعلنت أن الأطباء منعوا زيارته، و أرسلت إلى " تورانشاه " (3) ابن زوجها الصالح نجم الدين أيوب تحته على مغادرة " حصن كيفا" (4) - بالقرب من حدود العراق - والقدوم بسرعة إلى مصر كي يعتلي عرش السلطنة.

- استيلاء المماليك على الحكم في مصر (648-922هـ/1250-1517م) :

كانت معركة المنصورة الظافرة ضد الجيوش الصليبية السابعة بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك فإن إنقاذ المماليك لمصر من غزو الصليبيين بقيادة لويس التاسع (5) سنة (648هـ/1250م) جعلهم يشعرون بأهميتهم، ويعتدون بقوتهم، في الوقت الذي كانت فيه الدولة الأيوبية تعاني الكثير من مظاهر الضعف لا سيما بعد وفاة الصالح أيوب التي أفسحت المجال لظهور قوة المماليك من جهة، وكشفت عجز الأيوبيين من جهة ثانية، فقد فشل السلطان المعظم " تورانشاه" في الاستجابة للتحديات التي كانت تفرضها الظروف التاريخية، وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً ناصب المماليك العداء من خلال :

- ¹ - المنصورة : بلد أنشأها الملك الكامل بن العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة، وربط بها في وجه الافرنج عندما ملكوا دمياط سنة 1213هـ/616م. الحموي : معجم البلدان ، ج5، ص 212. ابن إياس (محمد بن أحمد ، ت 930هـ/1523م) : نزهة الأعم في العجائب والحكم ، تح محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة 1995م ، ص 221.
- ² - الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر : كانت تركية الجنس ، وقيل أرمنية، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وحظيت عنده بحيث كان لا يفارقها سقراً ولا حضراً .ولدت منه ابناً اسمه خليل مات وهو صغير، وهي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك . المقرئزي: السلوك، ج1، ص459.
- ³ - الملك المعظم تورانشاه (الثالث) ، غياث الدين، بن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد (الأول) . ثامن ملوك الأيوبيين وآخرهم في مصر وعاشروهم في الشام ، ولادته غير معروفة، تولى (حصن كيفا) سنة (635هـ/1238م) واغتيل في مصر سنة (648هـ/1250م). الشهابي: معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، ص155.
- ⁴ - أبو الفداء: المختصر، ج3، ص182. العيني : عقد الجمان ، م18، ص310-312. ابن واصل : مفرج الكروب ، م5، ص355-356، زكار: فلسطين في عهد المماليك، ص537-538. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص364.
- ⁵ - لويس التاسع ملك فرنسا: هو ابن لويس الثامن ملك فرنسا أيضاً، وحفيد فيليب أغسطس. مات والده عندما كان في الثانية عشرة، وأصبحت أمه الملكة "بلانش أف كاستيل" التي تعلق بها تعلقاً شديداً وصية على العرش خلال سن قصوره، وقد نشأ ليصبح رجلاً دينياً بشكل عميق . عندما أبحر إلى الشرق كان عمره 34 سنة ، وبالتالي تكون ولادته سنة 1214م، وكان فارساً مغموراً بالقتال وبطلاً عنيداً وناسكاً مكرساً، لكنه كان مستبداً مع أطفاله وزوجته " مرغريت أف بروفانس" ذات الروح السامية . بروج (أنتوني) تاريخ الحروب الصليبية ، تر: أحمد غسان سبانو ، ونبيل الجيرودي، دار قتيبة، ط1، دمشق 1406هـ/1985م، ص262.
- ⁶ - أبوشامة : ذيل على الروضتين ، ص365. ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج22، ص412. ابن كثير: البداية و النهاية ، ج13، ص412. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص192. ابن الوردي: تنمة المختصر ، ج2، ص182-183. أبو الفداء: المختصر، م3، ص181. المقرئزي: السلوك، ج1، ص455-456. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص361.

- أعرض السلطان تورانشاه عن المماليك وأظهر لهم الجفاء في حين أغدق المناصب والعطايا على رجاله الذين جاؤوا معه من أعالي الجزيرة .

- تراجع " تورانشاه" عن وعده لكبير المماليك " أقطاي " ⁽¹⁾ بأن ينصبه أميراً على الجيش.

- تخوف " تورانشاه" من مزاحمة المماليك له على السلطة ، لذلك أراد الخلاص منهم بسرعة، كما بدأ يدبر للتخلص من زوجة أبيه "شجر الدر" فأخذ يضغط عليها ويهددها متهماً إياها بالاستيلاء على أموال أبيه ، ، فتخوفت شجر الدر" من نواياه. نتيجة لما تقدم تلاقت مخاوف "شجر الدر" مع مخاوف كبار المماليك لذلك استقر الرأي على ضرورة التخلص من تورانشاه ، فأقدم كبار أمراء المماليك البحرية وهم الأمير "ركن الدين بيبرس البندقداري" والأمير "قلاوون الصلاحي" والأمير "أقطاي الجمدار" على قتل " تورانشاه" وذلك في (27 محرم ، 648هـ / 2 أيار ، 1250م) ² وبذلك انقرضت دولة بني أيوب في مصر . ⁽³⁾

و بعد مقتل " تورانشاه" اجتمعت المماليك البحرية وأعيان الدولة ، واتفقوا على إقامة "شجر الدر" زوجة الصالح ملكة على مصر ، على أن يكون مقدم العسكر الأمير "عز الدين أيبك" ⁽⁴⁾ التركماني الصالحي. ⁽⁵⁾

أرسلت "شجر الدر" عقب مبايعتها الخطيب "أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الإسعدي" لأخذ البيعة لها من أمراء الشام الذين رفضوا أن يحلفوا اليمين " للسلطانة الجديدة" وعلى رأسهم "الناصر

¹ - أقطاي : هو أقطاي بن عبد الله الجمدار ، الأمير فارس الدين الصالحي النجمي التركي. قال عنه الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه " أنه كان مملوك التركي إبراهيم المعروف بالحبيلي، اشتراه بدمشق ورياه وباعه بألف دينار ، فلما صار أميراً أقطعوه الإسكندرية. كان طائشاً عاملاً على السلطة ، تزوج من بنت صاحب حماة. قتل سنة 652/1264م. ابن تغري بردي (ابو المحاسن يوسف، ت 874هـ/1470م) : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، 7 أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط1، القاهرة 1984م ، ج2، ص 502-503.

² - نزل تورانشاه بفارسكور

³ - أبو الفداء: المختصر، ج3، ص181. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص183 . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج13، ص180. الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج23، ص193. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص457-458. الفلقشندي: مآثر الأتاقاة، ج2، ص93. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص192-193. ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج22، ص416-418. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6، ص371.

⁴ - عز الدين أيبك: تركي الأصل والجنس ، انتقل إلى ملك السلطان الصالح نجم الدين أيوب مع بعض أولاد التركماني فعرف بين البحرية بأيبك التركماني، وترقى عنده في الخدمة حتى صار أحد الأمراء الصالحيية ، واسم أيبك يتكون من مقطعين أي: وتعني القمر و بك : وتعني الأمير ، فيكون اسمه (الأمير القمر) . المقرئزي : السلوك ، م1، ص463. أبو الفداء: النبر المسبوك، ص78.

⁵ - أبو الفداء: المختصر، م3، ص182. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص183. ابن كثير : البداية والنهاية ، ج13، ص179. المقرئزي : السلوك ، م1، ص361. الفلقشندي: مآثر الأتاقاة، ج2، ص95. ابن سباط: صدق الأخبار ، ج1، ص351. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج6، ص372-373. ابن إياس: بدائع الزهور ، ج1، ص285.

يوسف الثاني" - صاحب حلب- ،⁽¹⁾ لأنه جرت العادة منذ أيام صلاح الدين ، أن يكون لسلطان مصر سيطرة على بقية أمراء بني أيوب ، كما انضم إليهم بعض أمراء المماليك في بلاد الشام .

فرفض المماليك القيمرية⁽²⁾ في دمشق ، أن يحلفوا يمين الطاعة والولاء لشجر الدر ، وكتبوا للناصر يوسف الثاني -صاحب حلب- يستدعونه للقدوم إليهم ليسلموا له دمشق .

وجد الملك الناصر في هذه الدعوة فرصة سانحة لتحقيق حلم جده الكبير "الظاهر غازي" بالسيطرة على الشام من جهة، والمطالبة بحقه الشرعي في السلطة التي اغتصبها المماليك من جهة ثانية ، فزحف باتجاه دمشق مستغلاً انشغال المماليك بتثبيت حكمهم في مصر، ودخلها دون أي مقاومة تذكر في (8 ربيع الآخر، 648 هـ/10 تموز، 1250م)، وخلع على الأمير جمال الدين بن يغمور⁽³⁾ بعد أن عفا عنه - لوقوفه موقف الحياد مما يجري -، وعن جماعة من الأمراء المصريين من ممالك الصالح أيوب .⁽⁴⁾

وبذلك خرجت بلاد الشام من قبضة "شجر الدر" ، وانقسمت الجبهة الإسلامية ، فأضحت مصر في يد المماليك ، وبلاد الشام تحت سيطرة الأيوبيين .

عندما علم المماليك في مصر باستيلاء الناصر على دمشق ، وتوجه الأيوبيين بزعامته إلى مصر ، عمدوا لمواجهة هذا الخطر بالطرق السلمية أولاً وذلك من خلال :

1- زواج "شجر الدر" من الأمير "عزالدين أيك" وتنازلها له عن الحكم⁽⁵⁾، وذلك للأسباب التالية:

¹ - العبادي : قيام دولة المماليك ، ص 124،128،133،145 . زكار : فلسطين في عهد المماليك ، ص538.المقريزي: السلوك،ج1،ص462.

² - قلعة القيمرية : نسبة إلى قيصر ، وهي قلعة بين الموصل و خلاط ، وكان سكانها زمن ياقوت الحموي من الأكراد . ياقوت الحموي : معجم البلدان ،ج4، ص424 .

³ - جمال الدين ابن يغمور : هو الأمير جمال الدين موسى بن يغمور الباروقي نائب السلطنة بديار مصر ودمشق. توفي سنة 633هـ/1264م، وكان معزولاً بالقصير (وهو موضع قرب عيذاب من أعمال مصر) عن عمر يناهز 64 سنة . المقريزي : السلوك، ج2،ص29.

⁴ - العيني :عقد الجمان ، ج1،ص 33 - النويري : نهاية الأرب ، ج29،ص 367 . يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على الشام ، دار النهضة ، بيروت ، 1981م، ص 142.أبو شامة: النيل على الروضتين ،ص285.ابن الجوزي: مرآة الزمان ،ج22،ص413.ابن كثير: البداية والنهاية ،ج13،ص179.أبو الفداء :المختصر،ج3،ص183.المقريزي: السلوك،ج1،ص463.ابن الوردي: تنمة المختصر،ج2،ص184.العريني:المغول ،ص228.

⁵ - أبو الفداء: المختصر،ج3،ص183. المقريزي: السلوك،ج1،ص464. ابن الوردي: تنمة المختصر،ج2،ص185.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج6،ص374. ابن إياس: بدائع الزهور،ج1،ق1،ص288.

- كسب رضا الخليفة العباسي المستعصم بالله ، الذي عاب على المماليك تنصيب امرأة في الحكم ، وأعلن السلطان المعز أيبك وضع البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية ، وأنه يحكم بوصفه نائباً عن الخليفة . (1)

- تمكن "أيبك" من قطع الطريق على الأمير "ركن الدين ترك خاص" الذي رفض سلطنة "المعز أيبك" فانضم مع القوة العسكرية المرافقة له (2) إلى "المغيث عمر" - أمير الكرك - (3) وأقامه في السلطنة وخطبوا له في (الرابع من جمادى الآخرة / الثالث من أيلول) . لكن بعد معرفتهم بقيام المعز أيبك والأمراء المخلصين له بوضع البلاد تحت سلطة الخليفة العباسي "المستعصم بالله" اضطروا للهرب إلى الشام والكرك . (4)

2- اختار السلطان المعز أيبك بالاتفاق مع كبار أمراء المماليك صبيّاً صغيراً في السادسة من عمره ، من بني أيوب ، هو الأمير الأشرف "مظفر الدين موسى" (5) وأقامه سلطاناً و شريكاً له في الحكم ، فخطب لهما وضربت السكة باسميهما . (6)

إلا أن هذه الحيل لم تنطّل على "الناصر يوسف الثاني" الذي سعى لالتماس مساعدة الصليبيين و على رأسهم الملك "لويس التاسع" المقيم في عكا ، فأرسل سفارة إلى عكا لإجراء مباحثات معه (7) ، و لكن أيبك عندما علم بسفارة "الناصر الثاني" للملك "لويس التاسع" أرسل للأخير إنذاراً يهدده فيه

¹ - كان سبب إعلان (المعز أيبك) أنه يحكم باسم الخليفة العباسي ، هو إضفاء صبغة شرعية على حكم المماليك لمصر .المقريزي :السلوك ، ج1 ،ص 6 .

² - كان "عز الدين أيبك" قد أرسل الأمير "ركن الدين ترك خاص" على رأس قوة عسكرية لمواجهة القوة العسكرية التي أرسلها "الناصر يوسف الثاني" إلى غزة ، و لاستطلاع تحركات جيش الناصر الأساسي .

³ -المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل أبي بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، أرسله الملك المعظم تورانشاه لما ملك مصر إلى الشوبك واعتقله بها ولما قتل تورانشاه أفرج عن المغيث عمر وتملك قلعتي الكرك والشوبك .أبو الفداء :المختصر، ج3،ص182.

⁴ - المقريزي: السلوك، ج1، ص464-465.ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص185.

⁵ - الأمير الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المسعود يوسف - ويقال له الناصر صلاح الدين - بن الملك المسعود يوسف - المعروف باسم القسيس - ابن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب .المقريزي: السلوك، ج1، ص464.

⁶ - ابن إياس : بدائع الزهور ، ج1، ق1 ، ص 289 .ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص185 .ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج 7 ، ص 5 . أبو الفداء : المختصر ، ج3 ، ص 183 .المقريزي : السلوك ، ج1، ص464-465 .العيني : عقد الجمان ، 18، ص 320 .

⁷ - لم يكد لويس التاسع يصل إلى عكا حتى قدمت إليه سفارة من قبل الناصر يوسف ، و عرضت عليه التنازل عن بيت المقدس ، مقابل ما يبذله الملك لويس لمساعدة الناصر يوسف لانتزاع مصر من المماليك لكن لويس التاسع لم يشأ الالتزام بشيء لاهتمامه بموضوع الأسرى الصليبيين في مصر .العيني: المغول ، ص229.

بقتل الأسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر منذ أيام الحملة على دمياط ، في حال دعمه " للناصر الثاني " .

- ولما يئس " الناصر يوسف الثاني" من استقطاب الملك لويس التاسع ، زحف بجيوشه نحو مصر ولما ورد الخبر بذلك قام الملك المعز أبيك بعدة أمور لافشال حملة الملك الناصر يوسف الثاني:
- قبض على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل للملك الناصر .
- خلع الملك المعز على الملك المنصور محمود، وعلى أخيه الملك السعيد عبد الملك ⁽¹⁾ (كانا في حبس الملك الصالح نجم الدين أيوب) وأركبهما في القاهرة ، ليوهم الناس أن الملك الصالح مباطن له على الملك الناصر ، حتى يوقع بينهما.
- نوذي بالقاهرة أن الصلح انتظم بين الملك المعز والبحرية ، وبين الملك المغيث عمر – صاحب الكرك- ولم يكن هذا صحيحاً و إنما قصد أن يوقف الملك الناصر عن الحركة.
- لكن محاولات الملك المعز أبيك كلها باءت بالفشل ⁽²⁾، والتقى الجيشان الأيوبي والمملوكي في (العاشر من ذي القعدة ، 648هـ / الثالث من شباط ، 1251 م) في معركة حاسمة في موقع "الكراع" - قرب بلدة "العباسة" الواقعة بين بلبيس والصالحية- انتصر فيها " الناصر يوسف الثاني" ، في بداية المعركة ، إلا أن الوضع انقلب في النهاية لصالح المماليك للأسباب التالية:
- انحياز فرقة من جيش الناصر الثاني ، وهم "المماليك العزيزية" إلى الجيش المملوكي وذلك لكرههم لقائد الجيش الأمير "شمس الدين لؤلؤ" وانحيازهم للعصبية المملوكية .
- عدم إدراك الناصر يوسف الثاني لمجريات المعركة الذي فرّ هرباً إلى دمشق بينما كانت القوة الأساسية لجيش الناصر تلاحق الفارين من جيش المماليك ، واجتمعت في "العباسة" بانتظار الناصر لدخول القاهرة وخطب للناصر في قلعة الجبل مصر⁽³⁾ و أيقن الكل بزوال دولة الملك المعز أبيك في

¹ - وهما ولدا الملك الصالح إسماعيل الأول، عماد الدين ، أبو الجيش، وقيل أبو الخيش، بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ،سادس ملوك الأيوبيين في دمشق وبصرى وخامسهم في بعلبك . قُتل على يد المماليك سنة (648هـ/1250م) في قلعة الجبل ، وعمره نحو الخمسين . المقرئزي: السلوك، ج1، ص471، 467. الشهابي: معجم ألقاب أرباب السلطان ، ص130.

² - المقرئزي: السلوك، ج1، ص467. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص185-186.

³ - قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) شرع صلاح الدين الأيوبي في تشييد قلعة فوق جبل المقطم في القاهرة سنة (572هـ/ 1176م) ، أتمها السلطان الكامل بن العادل سنة (578هـ/1183م) فكان أول من سكنها من السلاطين الأيوبيين لغاية عهد الصالح أيوب الذي نقل مقر الحكم ومكان إقامته مع مماليكه لجزيرة الروضة وسط نيل القاهرة . بعد وفاة الصالح أيوب ونشوء دولة المماليك بقيت قلعة الجبل مكان إقامة ومقر حكم سلاطين مصر . المقرئزي : السلوك ، ج1، ص173. ويكيبيديا.

حين كان الملك الناصر الثاني ليس له علم بما وقع من القتال وهزيمة المماليك وهو واقف بسناجقه⁽¹⁾ وأصحابه ينظر ما يرد إليه من أمر جيشه ، مما يشير إلى ضعف في المناورة العسكرية وقلة خبرة قتالية .

دخل المعز القاهرة في (الثاني عشر من ذي القعدة / الخامس من شباط) ومعه المماليك العزيزية والصالحية الذين انضموا إليه والأسرى الشاميين ، واستقرت قواعد ملكه .⁽²⁾

إن هزيمة الناصر في معركة العباسية وخسارته لمعظم قواده وأمرائه (المعظم تورانشاه ، الملك المنصور صاحب حمص ، شمس الدين لؤلؤ،...) شكل نقطة تحول في تاريخ مملكة حلب الذي تتالت عليه سنوات الخيبة والإحباط ، و أدت لخسارة الناصر سمعته التي تمتع بها كملك أيوبي قوي مؤهل وصاحب حق شرعي لاستلام السلطة في مصر ،مما ساهم في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشئة فأرسل المعز أيبك بعد شهر جيشاً بقيادة "فارس الدين أقطاي" مقدم البحرية قام بالاستيلاء على غزة⁽³⁾، ثم قرر الزحف إلى بلاد الشام للسيطرة عليها ،ولكي يضمن النجاح في مهمته قرر ضم الملك لويس التاسع إلى جانبه ، فعقد المعز أيبك والملك لويس التاسع معاهدة في (ربيع الأول، 650هـ/أيار، 1252 م) واتفق فيها الطرفان على القيام بحملة مشتركة ضد الناصر ملك حلب والشام ، على أن يستولي " لويس التاسع" على يافا والمعز على غزة ويلتقي الجيشان في غزة للقيام بهجوم مشترك على أملاك الناصر مقابل إطلاق جميع الأسرى الصليبيين الذين أسروا في معركة غزة مع الصالح أيوب ، وحصول الملك لويس على بيت المقدس .

وتنفيذاً لهذا الاتفاق قام لويس التاسع باحتلال يافا ،وتقدم جيش المماليك في سنة (649هـ/1251م) بقيادة "فارس الدين أقطاي" واستولى على الساحل ونابلس إلى نهر الشريعة⁽⁴⁾، وعاد إلى القاهرة.

¹ -سناجق: مفردة سنجق ، لفظ تركي - فارسي معناه العلم أو الراية ورد ذكره في مصادر العصرين الأيوبي والمملوكي . الخطيب :معجم الألقاب والمصطلحات التاريخية،ص259.

² - أبو الفداء : المختصر ،ج3، ص 184-185 .المقريزي : السلوك ،ج1، 379،373 .النويري : نهاية الأرب ،ج29، ص420-422 . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ،ج22، ص 414-415 . أبو شامة : الذيل، ص286.عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص24. الحنبلي : شفاء القلوب ،ص 413-414 . ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص 40-41 .ابن الوردي: تنمة المختصر،ج2،ص186.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج7،ص6-8.

³ - العيني :عقد الجمان ،18،ص326. أبو الفداء : المختصر ،ج3،ص185. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ،ج7،ص20 .المقريزي :السلوك ،ج1،ص472 . ابن الوردي: تنمة المختصر ،ج2،ص186.

⁴ - نهر الشريعة: أطلق هذا الاسم على نهر الأردن زمن الحروب الصليبية وخصوصاً جزؤه الواقع بين بحيرة طبرية إلى مصبه في البحر الميت . المقريزي : السلوك ،ج1، ص381 .

ويبدو أن الملك الناصر قد علم باتفاق أيبك ولويس التاسع فسير الملك الناصر قوة عسكرية عسكرت عند تل العجول قرب غزة ، وخرج المعز أيبك ومعه الأشرف موسى وفارس أقطاي وسائر البحرية وعسكروا بأرض السانح قرب "العباسة " ، بقي الوضع على ما هو لمدة سنتين .⁽¹⁾

انتهى الوضع المتوتر بين المماليك والأيوبيين بوساطة الخليفة العباسي المستعصم ، الذي أرسل "نجم الدين البادرائي " ⁽²⁾ رسولاً إلى الطرفين ومعه الأمير " عزالدين أزدمر " ، ورافقهما إلى مصر كاتب الإنشاء في حلب " نظام الدين محمد بن المولى الحلبي " ، وتمكن البادرائي من عقد الصلح بين الطرفين في (صفر، 651هـ/نيسان، 1253م) وتقرر فيه :

- اعتراف الناصر يوسف بالدولة المملوكية في القاهرة رسمياً ، وبسيادة المماليك على بلاد الشام حتى نهر الأردن ، وبذلك تنازل لهم الناصر عن القدس ونابلس وغزة والساحل ويكون للناصر ما وراء ذلك شرقاً.

- أن يطلق المعز أيبك جميع الأسرى الذين أسروا في معركة "الكراع " .⁽³⁾

لم يكن الصلح الذي أبرم بين " المعز أيبك " و " الناصر يوسف الثاني " نابعاً من جنوح الطرفين للسلم ولكنه فرض عليهما نتيجة تطور الأحداث الإقليمية فقد شرع هولاكو بالتحضير مع أخيه منكوقاآن بالسيطرة على بغداد وإسقاط الخلافة العباسية وهذا ما دفع الخليفة المستعصم بالله لإرسال سفارة مستعجلة إلى كل من " الناصر يوسف الثاني " و " المعز أيبك " طالباً منهما تجاوز خلافتهما و التضافر والتوحد لمواجهة الخطر القادم المتمثل بالتتار . وربما كان دافع الخليفة العباسي حماية عرش

¹ -جوانفيل :القدس لويس ،ص 228،229 . رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ،ج3،ص 477. جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على الشام ، ص 177-179. زكار : فلسطين في عهد المماليك ،ص 539.عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ،ص 54.العبادي : قيام دولة المماليك ،ص 126-127.المقريزي : السلوك ،ج1،ص 475.أبو الفداء : المختصر ،ج3،ص 186.العيني : عقد الجمان ،ج18،ص 329.ويذكر العيني هذه الأحداث في حوادث 651هـ ولكن الأصح ما ذكر في المتن .

Labarge:Saint Louis,P.138

² - البادرائي: نسبة إلى باداريا ، قرية من عمل واسط، وهو نجم الدين أبو محمد عبدالله بن محمد بن الحسن بن عبد الله البغدادي، توفي سنة (655هـ/1257م) . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ،ج7،ص 12،59.

³ - الحنبلي : شفاء القلوب ،ص 415. ابن كثير : البداية والنهاية ،ج13،ص 209. العيني : عقد الجمان ،ج18،ص 339. أبو الفداء : المختصر ،ج3،ص 186.المقريزي : السلوك،ج1،ص 479. ابن الوردي: تنمة المختصر ،ج2،ص 189 . زكار: فلسطين في عهد المماليك ،ص 539.العبادي : قيام دولة المماليك،ص 127،128.ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ،ج7،ص 10.ابن الجوزي: مرآة الزمان ،ج22،ص 423.

خلافته من السقوط في يد التتار وليس إصلاح ذات البين ما بين الناصر والمعز أيبك ، والدليل على ذلك أنه لم يبادر لعقد الصلح بين الطرفين طيلة مدة الصراع بينهما .

والواضح أن موجة الرعب التي أثارها المغول أثناء زحفهم من جوف آسيا باتجاه العالم الإسلامي ، وأخبار وحشيتهم ، جعلت الطرفين يستجيبان بسهولة لدعوة الخليفة .

أما الملك " الناصر يوسف الثاني " فقد استمر بسياسته العدائية تجاه المماليك ، إلا أنه لم يسعَ لاغتنام الفرص التي سنحت له لاستعادة مصر من المماليك ، وتمثلت هذه الفرص بالآتي :

- ثورة الأعراب في سنة (651هـ/1253م) ضد المعز أيبك ، وقام زعيمها " حصن الدين بن ثعلب " بطلب المساعدة من الناصر لمحاربة المعز ، إلا أن الناصر لم يقدم المساعدة لهم بسبب اتفاقية الصلح بين الناصر و أيبك بواسطة الخليفة العباسي .⁽¹⁾

إقدام " المعز أيبك " على قتل " الفارس أقطاي " سنة (652هـ/1254م) ، فهرب عدد من مماليكه إلى الناصر يوسف الثاني - صاحب حلب والشام - طالبين الدخول في طاعته وكان على رأسهم " ركن الدين بيبرس البندقداري " و " سيف الدين بلبان الرشدي " و " شمس الدين سنقر الأشقر " وغيرهم من مماليك الفارس أقطاي ، وعمد هؤلاء على تحريض الملك الناصر للهجوم على مصر .⁽²⁾

استغل " المعز أيبك " مقتل " أقطاي " الذي كان يمنعه من الاستقلال بالسلطنة من جهة وانشغال الخلافة العباسية بالخطر المغولي ، فتخلص من شريكه في الحكم " الأشرف موسى " ، فحذف اسمه من الخطبة ، وألقى القبض عليه ، وسجنه في قلعة الجبل ، واستقل بالسلطنة سنة (652هـ/1254م) .⁽³⁾ لذلك استغل الملك الناصر يوسف الثاني هذه الفرصة فأرسل في سنة (653هـ/1255م) عسكرياً ومعهم البحرية⁽⁴⁾ و عدة من مماليك الفارس أقطاي إلى جهة الديار المصرية ، و نزلوا في غزة و خرج المعز من مصر ونزل في " العباسية " إلا أن الخليفة العباسي أمام زحف التتار ، واقترب طلائعهم من بغداد

¹ - المقرئزي: السلوك ، ج1، ص479-481. ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج22، ص425. ابن دقماق : نزهة الأنام، ص219.

² - المقرئزي: السلوك، ج1، ص483-484. ابن إياس : بدائع الزهور ، ج1، ق1، ص291-292. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص12، 34. ابن العماد: شذرات الذهب، م7، ص441. أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص289. ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج22، ص426. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص209-210. ابن كثير: البداية والنهاية، ج13، ص185. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص190. ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص219-220.

³ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج7، ص12. ابن إياس: بدائع الزهور، ج1، ق1، ص292. ابن الوردي : تنمة المختصر، ج2، ص192. أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص190. ويذكر المقرئزي أن المعز أيبك استقل بالسلطنة سنة (650هـ/1252م): السلوك ، ج1، ص477.

⁴ - البحرية : الأمير سيف الدين بلبان الرشيد ، و عز الدين أزدمر، و شمس الدين سنقر الرومي ، و شمس الدين سنقر الأشقر، و بدر الدين بيسرى، و سيف الدين قلاوون، و سيف الدين بلبان المسعودي، و ركن الدين بيبرس البندقداري. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص487.

كان بحاجة لقوة الشام ومصر لدعمه ، فعاد و أرسل الشيخ "تجم الدين البادرائي" لحل المشاكل بينهما سنة (653هـ/1256م) وتم الاتفاق على أن تكون الشام كلها للناصر إلى العرش ، وأن تبقى مصر بيد المعز ، ⁽¹⁾ ، وذكر المقرئ بنداً ثالثاً وهو ألا يحمي الناصر أحداً من البحرية ⁽²⁾ ومما يؤكد صحة ما ذكره المقرئ أن الناصر يوسف أشاع فيما بعد "أنه نقل إليه أنهم يريدون أن يفتكوا به " . ⁽³⁾ بعد هذا الاتفاق انتقلت العلاقة بين المماليك والأيوبيين من مرحلة الصراع العسكري إلى الصراع الدبلوماسي ، فقد تمكن أيبك من تعطيل خلة الخليفة للناصر وتأجيلها للسنة التالية (سيرد ذكر الحادثة في المبحث اللاحق) .

إن السنوات الطويلة من العلاقات العدائية بين الناصر والمماليك قد زرعت الخوف والشك بين الطرفين ، وأدت إلى عدم توحيد الجهود لمواجهة خطر التتار ، فرغم وعد "قطز" ⁽⁴⁾ للناصر بنجده على التتار سنة (657هـ/1258م) ، ⁽⁵⁾ و إرسال قطز للناصر يطمئنه ويتعهد له بالولاء والطاعة عندما علم بوصول نجدة من المغول للناصر في دمشق و يقسم بالإيمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وأنه نائب عنه بديار مصر ، وختم كتابه هذا بقوله : "وإن اخترتني خدمتك ، وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك ، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختار" . ⁽⁶⁾ تخوف الناصر يوسف من جواب المماليك ولم يثق بهم فسمعة المماليك تجعل تبدل ولائهم بسرعة منطقياً ، لذلك عندما وصل إلى حدود مصر فاراً من التتار لم يجرؤ على دخولها بل عاد إلى الشام حيث وقع بيد جنود "كتبغا" ⁽⁷⁾ ، وفضل الوقوع بيد المغول على أن يقع بيد المماليك.

- المبحث الخامس : العلاقة مع الخلافة العباسية في بغداد :

¹ - ابن الوردي : تنمية المختصر ، ج2 ، ص192 . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج1 ، ص12 . العيني : عقد الجمان ، ج18 ، ص367 . أبو الفداء : المختصر ، ج3 ، ص190-191 . ويذكر المقرئ أن الصلح تم سنة (654هـ/1256م) : السلوك ، ج1 ، ص489 . ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص226 .

² - المقرئ : السلوك ، ج1 ، ص489 .

³ - أبو الفداء : المختصر ، ج2 ، ص192 .

⁴ - الملك المظفر قطز (سيف الدين) بن عبد الله المعزي ، ثالث من تسلطن مصر من المماليك البحرية الأتراك ، تولى سنة (657هـ/1259م) وقتل سنة (658هـ/1260م) . الشهابي : معجم ألقاب أرباب السلطان ، ص152 .

⁵ - انظر الفصل الأول .

⁶ - أبو الفداء : المختصر ، ج3 ، ص199 . المقرئ : السلوك ، ج1 ، ص508 . ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص254 .

⁷ - الملك العادل كتبغا : هو كتبغا المغلي المنصوري زين الدين . كان أسمر اللون قصير القامة صغير اللحية . أسر من عسكر هولاكو سنة (648هـ/1250م) اشتراه الملك المنصور وتنقلت به الأحوال . توفي سنة (702هـ/1302م) . ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج2 ، ص297-299 .

لم يكن للخليفة العباسي سلطة على الممالك الأيوبية ،أو غيرها من الممالك ،بل اقتصرت سلطة الخليفة العباسي بالتبعية الاسمية التي لا تتعدى ذكر اسمهم في خطبة الجمعة على المنابر يسبقه اسم الملك المحلي ،ونقش اسمهم على العملة التي يصكها هذا الملك ضمن أراضي البلاد ، التي كانت- فيما مضى - تسمى أراضي الخلافة العباسية .

إن شرعية حكم الملوك والأمراء لبلاد سيطروا عليها فعلياً بالحرب والقوة ، ولا تنقص ولاياتهم أو يزول حكمهم عنها إلا بالحرب والقوة تمثل بالموافقات الشرعية للخليفة التي عرفت بعدة أسماء منها: التقليد⁽¹⁾ : التي حرص أمراء بني أيوب على طلبها من الخليفة ،لكسب الناس بغطاء الشرعية بعد أن كسبوا السلطة فعلياً ، ولإيمانهم وتمسكهم بشرعية الحكم الديني . والتشريف (خلعة التشريف)⁽²⁾ ، و الخلعة⁽³⁾ .

إن خير دليل على أن الخليفة العباسي كان يمنح شرعية الحكم لمن تكون له الغلبة ، هو ما حدث سنة (654هـ / 1256م) عندما أرسل الملك "الناصر الثاني " صاحب "كمال بن العديم " لطلب الخلعة للناصر من الخليفة المستعصم بالله⁽⁴⁾ وصحبته مقدمة جليلة ليؤكد شرعية الحكم الأيوبي مقابل عدم شرعية حكم المماليك ، بينما سعى المعز أيبك لتعطيل الخلعة للناصر ، فأرسل "شمس الدين سنقر"⁽⁵⁾ وصحبته مقدمة جليلة .

وأمام هذا الموقف حار " المستعصم بالله " فيمن يرضي من الطرفين ،فقد قدما هدايا جليلة لا يمكن أن ينكر تأثيرها ،لكنه لم يشأ التدخل في صراع الملوك على السلطة ، فدوره إقرار من يتغلب منهم

¹ - التقليد : ويعني التولية ، وهو مرسوم سياسي يصدر من ديوان الخلافة لتكليف شخص ما بالحكم في بلد ، أو بلاد معينة .
² - التشريف (خلعة التشريف) : وهو جبة ،أو عباءة سوداء (السواد هو شعار بني العباس) تكون مذهباً عادةً ، وتسمى بالتشريف الإمامي ، لأنها تشريف من إمام المسلمين (الخليفة العباسي) وكان رسول الخليفة يقوم بوضع التشريف على أكتاف الشخص المرسل إليه ، بعد قراءة التقليد ، فيلبسه ، ويسير به في شوارع بلده ،أو بين خواصه .ابن واصل : مفرج الكروب ،ج5،ص350 ، ج3،ص180،ج4،ص352.المقريزي : السلوك ،ج1،ص425. ابن أبي الدم : التاريخ المظفري ، الموسوعة الشاملة ، زكار ، ج21 ، ص256.
³ - الخلعة : وهي ما يخلعه الخليفة أو الملك على أحد من الناس ،وانواع خلع بني أيوب هي خلع أصحاب الجيوش وولاة الحرب ، وهي غالباً ترافق التقليد وتكمل التشريف . الخطيب ، مصطفى : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ،ص165. الصابئ :رسوم دار الخلافة ،ص93 .

⁴ - المستعصم بالله (640-656 هـ/1242-1258م) : أبو أحمد ، عبد الله بن المستنصر بالله ،آخر الخلفاء العباسيين ، ولد سنة 609هـ/ 1212م ، أمه هندية ،اسمها : هاجر ، بويح بالخلافة بعد وفاة والده . السيوطي : تاريخ الخلفاء ،ص708 . الغساني، الملك الأشرف اسماعيل بن العباس :العسجد المسبوك ، تح شاكر محمود عبد المنعم ، دار التراث الاسلامي ، بغداد 1975، ص509-510.

⁵ - سنقر الأقرع : من مماليك المظفر غازي صاحب ميافارقين ، فارقه ، والتحق بمصر .ابن الوردي : تنمة المختصر ،ج2،ص193.

وعندها تكون الخلعة حقه الطبيعي ، ولذلك وجد الخليفة لنفسه مخرجاً بأن أعطى سكين كبيرة من اليشم⁽¹⁾ لرسول الناصر ، علامةً منه أن له خلعة لديه في وقت آخر .(2)

على الرغم من هذا الدور الضئيل للخلافة العباسية إلا أن السفارات والرسول لم تنقطع بين الخليفة وملوك بني أيوب ، وكان لها عدد من المهام منها :

- أولاً: محاولة الخلفاء العباسيون استمالة الملوك والأمراء الأيوبيين بالهدايا وغيرها ، ففي سنة (622هـ/1225م) وصل رسول الخليفة "الناصر لدين الله" (3) الشيخ "شهاب الدين السهروردي"⁽⁴⁾ إلى الملك الأشرف بالرفقة بهدايا وتحف ، وأشياء لم يسمح خلفاء بني العباس لأحد من ملوك الأطراف بمثلها . وهنا يجب التساؤل عن سبب هذه المعاملة الخاصة للأشرف؟

ولعل السبب هو أن الملك الأشرف هو أقوى الملوك المجاورين لشمال دولة الخلافة ، وليس له مطامع فيها ، إضافة لالتزام بني أيوب المطلق بدعم الخليفة . والظروف المحرجة التي كانت تحيط بالخليفة الناصر لدين الله ، فقد هجم الخوارزمي "جلال الدين منكبرتي" على خوزستان⁽⁵⁾، وكانت للخليفة ، ووصل جنوده لأعمال بغداد ، التي استعدت للحصار .(6)

تكرر ذلك في عهد الخليفة المستنصر⁽⁷⁾ سنة (625هـ/1228م) إذ أرسل الخليفة رسول الديوان بهدايا وتحف للملك الأشرف الذي كان يتجهز لدخول تبريز، وغيرها بناءً على طلب أهلها ، إلا أن الأشرف أمام هذه المعاملة المتميزة من الخليفة وجد نفسه مضطراً لاستئذانه بدخول بلاد العجم ، وجاءه الرد

¹ - اليشم : حجر كريم .

² - العيني : عقد الجمان ، ج1، ص 117 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص 193.

³ - الناصر لدين الله: هو أحمد بن الحسن المستضيء بن يوسف المستنجد وكان يكنى أبو العباس ، ولد سنة 553هـ / 1158 م ، أمه تركية ، اسمها زمرد ، ويبيع له بعد وفاة والده سنة 575هـ / 1179م ، توفي سنة 622هـ / 1225 م . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص686. الغساني: العسجد المسبوك: ص173

⁴ - شهاب الدين السهروردي (539-632هـ / 1144-1234م) : أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله البكري ، كان كبير القدر والشأن ، وله تصانيف في علم التصوف . زكار : الموسوعة الشاملة ، ج16 ، ص318-319 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص161.

⁵ - خوزستان : الخوز و يقال لها الأخواز وهي كلمة فارسية عرّيها الناس فأصبحت الأهواز ، أما ستان فهي كالنسبة في كلام الفرس ، وهي في دولة إيران حالياً . الحموي ، ياقوت : معجم البلدان ، ج2، ص404-405.

⁶ - المنصوري : ابن نظيف ، ص 110 . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج4، ص152. أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص 134.

⁷ - المستنصر بالله (623هـ-640هـ/1226-1242م): أبو جعفر ، منصور بن الظاهر بأمر الله ، ولد سنة 588هـ / 1192م، وأمّه جارية تركية . السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص702.

بالرفض والبقاء في سنجار .فحرمه بذلك من دخول بلاد العجم التي لم يسبق لبني أيوب أي سيطرة فيها .⁽¹⁾

- ثانياً: كان للخليفة رأي في التوسط والشفاعة بين ملوك بني أيوب ، ويحدد ذلك وفقاً لمصلحة دولة الخلافة ، أو مصلحة منصب الخليفة .

ففي سنة (623هـ /1235م) قدم ابن الجوزي رسولاً من الخليفة الظاهر إلى الملك المعظم بدمشق "يطلب إليه الرجوع عن حلف الخوارزمي " ويعرض التوسط بالصلح بين المعظم وأخوته ، ولم يكن هذا التدخل من الخليفة حرصاً على وحدة البيت الأيوبي ، أو رغبة في إزالة الخلافات بين ملوك بني أيوب . بل ضد الخوارزمي جلال الدين ،الذي كان يهدد الخليفة ، ويجتاح ممتلكاته .

إلا أن المعظم رفض لعدم ثقته بقدرة الخليفة على نجدة عند الحاجة لتقاعس الخليفة عن نجدة الأيوبيين وهم على دمياط في مواجهة الفرنج .وبالمقابل نجد أن الكامل نفسه الذي لم ينجده الخليفة الناصر على دمياط ، عندما استنجد به الخليفة المستنصر لدفع جحافل التتار المتقدمين نحو بغداد عام 635هـ/1238م، جند له الفرسان من ماله الخاص، ورفض أن يستخدم أموال الخليفة .⁽²⁾ في سنة (630هـ/1233م)، استغل الملك الناصر داود تأمر الملوك الأيوبية على الكامل أثناء غزوه بلاد الروم ،فانخرط في حلف ضده .

علم الملك الكامل دور الناصر داود في التحريض ضده ، فألزمه بطلاق ابنته "عاشوراء " وتهدده ، فخاف الناصر خوفاً عظيماً، ولشدة خوفه من الملك الكامل ترك الناصر بلاده سنة (633هـ/1235م)، وسار إلى بغداد لائذاً بالخليفة المستنصر ،فأمر الخليفة "حاشيته" باستقباله ، وإنزاله بدار الوزارة، وقام الناصر بتقديم الهدايا النفيسة (التحف والجواهر) إلى الخليفة .

لقد كان لجوء الناصر داود للخليفة سابقة لملوك بني أيوب، وذلك لخوفه الشديد من الملك الكامل ، ولغدر ملوك بني أيوب به سابقاً وأخذهم معظم بلاده ، إلا أن الخليفة لم يوافق على استقباله شخصياً إرضاءً للملك الكامل ، فمن المؤكد كانت مصلحة الخليفة مع سلطان الأيوبيين ، لا مع أمير مغضوب عليه يرتعد خوفاً من سلطانه.

¹ - ابن نطف: المنصوري ، ص157، 155 .

² - ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص 264. ابن العميد: أخبار الأيوبيين ، ص21 .المقريزي: السلوك ، ج1، ص380. ابن الجزري: المختار من حوادث الزمان ، ص166 .

فأنشأ الناصر داود قصيدة يمدح فيها الخليفة ، ويقارن فيها بين إعراض الخليفة عن لقاءه ، واستقبال الخليفة " لمظفر الدين كوكبري بن زين الدين" صاحب إربل ، فاستدعاه الخليفة سراً ، وسير الرسول "سعد الدين حسن بن علي " من كبار خواص الخليفة مع الناصر داود ليشفع فيه إلى الكامل ، حتى لا يتعرض لبلاده ، وتم له ما أراد .⁽¹⁾

بعد موت الكامل سنة (635هـ / 1237م) تنازع ولداه الصالح والعاقل على السلطة ، وتمكن الصالح أيوب من أخذ دمشق ، وسار إلى مصر ، وفي الطريق تخلى عنه جنده وأصحابه لخروج دمشق من يده ، فقبض عليه الناصر داود ، واعتقله في الكرك ، ثم اتفق معه وأخرجه ، وتملك الصالح أيوب مصر ، لكنه تنكر لعهوده ، فدخل الناصر داود ضده في حلف الشام . لكن بعد هزيمة غزة ، وأخذ أيوب لدمشق ، وضغط ابن الشيخ العسكري على داود وحصاره في الكرك ، ضاقت به الدنيا فسار الناصر داود نحو الملك الناصر يوسف الثاني في حلب معترضاً به ولاجئاً إليه سنة (647هـ / 1249م) ، وكان لدى الناصر داود من نفائس الجواهر كالنجوم الزواهر .

ويبدو أنه خاف أن يطمع الناصر يوسف الثاني بالجواهر الذي معه ، لذلك سيره وديعة إلى الإمام المستعصم ، ظناً منه أنها أكثر الأماكن أمناً - إنها ذمة الخليفة -

بعد سجن الناصر يوسف لداود في قلعة حمص ، كتب أولاد داود إلى الشيخ نجم الدين البادراني - الذي توسط للصلح بين الناصر والمماليك - سنة (651هـ / 1253م) فرأف بحالهم ، وحدّث الناصر يوسف بأمر داود ، فأطلقه ، مشترطاً ألا يقيم عنده ، وبنفس الوقت أرسل للخليفة يطلب منه عدم استقباله ، ولعل الخليفة وجد في طلب الناصر يوسف فرصة مناسبة للتتكر للناصر داود لعدة أسباب منها:

- لم يكن يريد أن يتبنى داود ، الذي أصبح غير مرغوب به في بلاده .
 - أراد أن يحافظ على علاقات جيدة مع الناصر يوسف الثاني .
 - رغبة الخليفة في منعه من الحضور ، وذلك لمنعه من طلب وديعته .
- فأقام داود في أزوار الفرات ، لكن الخليفة ظل قلقاً لوجوده قريباً من العراق ، لذلك طلب من الناصر يوسف السماح له بالعودة إلى دمشق ، فعاد داود نحوها سنة (653هـ / 1255م) ، ومنها توجه إلى الحجاز ، واستشفع بقبر النبي (ص) ، وأشهد الناس على غدر الخليفة به الذي لم يرد وديعته ، مما

¹ - أحمد الحنبلي : شفاء القلوب ، ص 348 . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج 5 ، ص 113 ، 100 . أبو الفداء : المختصر ، ج 3 ، ص 157 . ابن الجزري : المختار من حوادث الزمان ، ص 162 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج 2 ، ص 163 .

أثار ضجة دينية حول الخليفة ، فسارع بإرسال من يحاسب داود ، فحسبوا عليه ثمن كل طعام تناوله عندهم ، وثنى كل هدية أخذها بأعلى الأثمان ، وأعطوه نزرًا يسيرًا⁽¹⁾ .
وفي النتيجة فإن العلاقة بين ملوك بني أيوب و الخلفاء العباسيين اتسمت غالباً بالدبلوماسية ، حيث اقتنع الخلفاء بإقرار حكام الشام ومصر بسيادتهم الاسمية ، والدعاء لهم بالخطبة ، ونقش أسمائهم على السكة ، وفي الوقت نفسه وجد ملوك بني أيوب في الخلافة العباسية مكسباً كاملاً بدون أي تبعات مادية ، فهم يحصلون على دعم معنوي كبير لسلطتهم ، ويستمدون شرعية لها من شرعية الخلافة ، وكانت العلاقة بينهم تترجم بالرسائل وإيفاد الرسل ، على تعدد غاياتها وأهدافها .

الفصل الثالث : الأوضاع السياسية في إمارة أنطاكية .

- تمهيد : تسميتها - وصفها - أهميتها و تاريخها .

¹ - ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص185، 189. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص184، 186، 179، 191. داود- الأمجد حسن : الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية - سيرة الناصر داود ، ص218، 228، 243. الحنبلي ، أحمد : شفاء القلوب ، ص353، 355-356.

تأسيس إمارة أنطاكية :

- المبحث الأول : حكام إمارة أنطاكية :

أ- في عهد بوهمند الرابع .

• ثورة رينورد حاكم أنفة :

• ثورة البطريرك بطرس الأنطاكي :

ب- في عهد ريموند رويين

ج- عهد بوهمند السادس .

- المبحث الثاني : العلاقات الخارجية لإمارة أنطاكية :

أ- العلاقة مع الأيوبيين .

ب- العلاقة مع المغول .

ت- العلاقة مع القوى الصليبية الأخرى .

الفصل الثالث : الأوضاع السياسية في إمارة أنطاكية .

إمارة أنطاكية

- **تسميتها:** أنطاكية : بالفتح ثم السكون، والياء مخففة، مدينة عظيمة تعد من أعيان المدن على طرف (بحر الروم) البحر المتوسط.

سميت أنطاكية بهذا الاسم نسبة إلى أنطاكية بنت الروم بن سام بن نوح ⁽¹⁾ عليه السلام ، وقد قيل في المأثورات الشعبية: " كل شيء عند العرب من قبل بلاد الشام فهو أنطاكية" ⁽²⁾

- **وصفها:**

مدينة أنطاكية قسبة إقليم العواصم و حاضرتة ⁽³⁾ ،بينها وبين حلب من جهة الشرق مسيرة يومين ، وبينها وبين شاطئ البحر من جهة الغرب حوالي ستة أميال ⁽⁴⁾ . والمدينة تحتل سهلاً طوله ثلاثة أميال ، تحيط به استحكامات طبيعية تتمثل في جبل اللكام ⁽⁵⁾ شرقاً ونهر الأورنت (Ornte) ⁽⁶⁾ غرباً على شكل نصف دائرة قطرها متصل بالجبل ، والأسوار " تصعد مع الجبل " لتتم دائرة يبلغ طولها اثني عشر ميلاً ⁽⁷⁾ يمكن اجتيازها عن طريق عدة أبواب تؤدي إلى الطرق الموصلة إلى حلب وإلى اللاذقية غرباً وإلى الاسكندرونة وميناء السويدية شمالاً ⁽⁸⁾ . وهكذا توفرت الحصانة لمدينة أنطاكية ذات الأسوار القوية بأبراجها العالية التي أثارت كل من رآها وطمع فيها . ووقفت حائلاً بينه وبين اختراقها . هذا إلى

¹ - الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، بيروت، دار الكتاب العربي، م/1 ص 266.

² - الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار العلم للطباعة والنشر 1975، ص 39 .

³ - قسم الجغرافيون العرب الشام إلى خمس كور أو أجناد هي : قنشرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين و... " وأما قنشرين فقصبته حلب، ومن مدنها أنطاكية " المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص 154 .

" والعواصم جمع عاصم ، وهو المانع ، والعواصم : حصون وموانع وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية وقصبته أنطاكية ... وسماها الرشيد حين استخلف العواصم لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها ... " الحموي : معجم البلدان ، ج 4، ص 165-166.

⁴ - القفطي (جمال الدين يوسف) : تاريخ الحكماء ، لبيزج ، 1903م ، ص 296. العمري (ابن فضل الله) : مسالك الأبصار ، نشره أحمد زكي باشا ، القاهرة 1924م، ص 23.

⁵ - جبل اللكام هو الفاصل بين ثغور الشام و الجزيرة ، و هو داخل بلاد الروم و متصل بجميع جبال بلاد الروم ،...، يسمى اللكام إلى أن يجاوز اللاذقية ثم يسمى جبل بهراء و تنوخ إلى حمص ، ثم يسمى جبل لبنان ثم يمتد على الشام حتى ينتهي إلى بحر القلزم من جهة و يتصل بالمقطم من أخرى . ابن حوقل : صورة الأرض ، ص 155-156.

⁶ - ويسمى " العاصي " لأن أغلب الأنهار تتجه إلى الجنوب وهذا ينتج إلى الشمال ، ومنبعه عند بعلبك ويصب في البحر المتوسط عند السويدية غربي أنطاكية واسمه قرب أنطاكية الأرند وهذه التسمية عند ياقوت الحموي يقابلها في الفرنسية Oronte . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج 1، ق 2، ص 354. القلقشندي :صبح الأعشى ، ص 80.

⁷ - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ليدن 1302م ، ص 50. ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، نشره الياس سركيس ، بيروت ، 1909م ، ص 320. ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار ، القاهرة 1958م ، ج 1، ص 43.

⁸ - William of Tyre. A History of Deeds done beyond the sea, trans. By E.A. Babcock and Vol1.pp.377.76A.C.Krey ,NewYork 19-378

جانب وجودها في الوادي بين نهر العاصي والجبل ، فأصبحت صعبة المنال سواء براً أو عن طريق البحر (1) .

أنطاكية إحدى المدن القديمة المهمة التي تم إنشاؤها في العصر الهلنستي في عصر الاسكندر الكبير وقادته العظام ، لكن معظم الروايات التاريخية تجمع أن المدينة تم انشائها سنة 300 ق.م على يد القائد الكبير سلوقس (2)، ضمن مجموعة مدن شكلت ركائز للحضارة الهلنستية في الشرق (3). وقد أسهب المؤرخون في وصف جمال وروعة المدينة بعد اكتمال بنائها نتيجة لما اشتملت عليه من الدور الفخمة وقنوات المياه والأسوار العملاقة التي تجل عن الوصف (4).

وينقل الحموي عن ابن بطلان الذي زار أنطاكية حوالي منتصف القرن الخامس الهجري وصفاً رائعاً لهذه المدينة يقول فيه "خرجنا من حلب طالبين أنطاكية ، وبينهما يوم وليلة ، فوجدنا المسافة التي بين حلب وأنطاكية عامرة لا خراب فيها أصلاً، قراها متصلة ورياضها مزهرة ومياها منفجرة، وأنطاكية: بلد عظيم ذو سور وفصيل، ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً يطوف عليها بالنوبة أربعة آلاف حارس ينفذون من القسطنطينية من حضرة الملك يضمنون حراسة البلد سنة، ويستبدل بهم في السنة الثانية، وشكل البلد كنصف دائرة قطرها يتصل بجبل، والسور يصعد مع الجبل إلى قمته فتتم الدائرة، وللور المحيط بها دون الجبل خمسة أبواب، وفيها هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون ، وكان على الهيكل أروقة يجلس عليها القضاة للحكومة ومتعلمو النحو واللغة، وهناك من الكنائس ما لا يحد كلها معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزع ، وفي البلد بيمارستان يراعي البطريك المرضى فيه بنفسه ، وللمدينة من الحمامات ملا يوجد مثله في مدينة أخرى " (5).

¹ - القفطي : تاريخ الحكماء ، ص296. ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص220.

Willbrand of Oldenburg:" Itinerarium Terrae Sanctae, ed,J.C.M. Laurent, in peregrinatore mediacvi qutour,Leipzig.1873. pp171

² - بعد أن خضعت سورية الشمالية و دمشق للاغريق المقدونيين ، أصبحت هذه الأراضي بعد وفاة الاسكندر و تقسيم امبراطوريته سنة (301ق.م) بيد القائد سلوقس - مؤسس الإمبراطورية و السلالة السلوقية - ، التي اتخذت من أنطاكية على العاصي عاصمة لها ، و امتدت الإمبراطورية السلوقية ، التي كانت قوتها في سورية العليا و بلاد الرافدين (أنطاكية على العاصي ، و سلوقيا على الفرات)، إلى آسيا الصغرى ، و إيران ، لكن المركز السياسي لهذه الإمبراطورية كان سورية الشمالية من المتوسط حتى الفرات ، ومن هنا أطلق عليها بعض الكتاب المعاصرين اسم " مملكة سورية " ، و اقتصر حكم السلوقيين في نهاية المطاف على هذه المنطقة . الخوند، مسعود : الموسوعة التاريخية الجغرافية ، مؤسسة هانياد، لبنان، ج9، ص341.

³ - داووني، جلائيل: أنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير، ت. د. ألبرت بطرس، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، بيروت ، 1968، ص29.

⁴ - الجنابي، طلب صبار : إمارة أنطاكية دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية، دار نينوى للدراسات والنشر 2013، ص21.

⁵ - الحموي، ياقوت: معجم البلدان ، م1، ص266-267 .

- أهميتها و تاريخها:

كانت مدينة أنطاكية تعتبر أروع مدن الشرق اليوناني ، و قد أسماها المؤرخ مارسيلينوس الأنطاكي " تاج الشرق الجميل" ⁽¹⁾ ، و تميزت بموقع جغرافي على درجة كبيرة من الأهمية ، حيث تقع في ملتقى الطرق التجارية بين الشرق و العالم اليوناني الروماني مما وفر لها رخاء و حضارة رفيعة ، فاشتهرت بصناعة المنسوجات الحريرية والبسط والزجاج والصابون ⁽²⁾ ، وإلى جانب ذلك فقد كان ميناء السويدية هو السلم البحري للمدينة مما زاد من أهميتها السياسية والتجارية ، خاصة في مستهل الحملة الصليبية الأولى حيث رست فيها الأساطيل الغربية بالمؤن والعتاد والرجال ، وكان وسيلة الفرنج للاتصال بالغرب ⁽³⁾ . و إلى جانب أهميتها العسكرية و الاستراتيجية والتجارية ، فقد كانت أنطاكية مقر أسقفية الشرق و تمتعت بأهمية روحية وصيت ذائع منذ خلفاء الاسكندر ، مما جعلها عزيزة على الوثنية وقبل ظهور الإسلام والمسيحية بقرون عديدة ⁽⁴⁾ ، ولقد كان في انتظار أنطاكية شهرة من نوع آخر ، وأهمية لدى المسيحية ، حين استقبلت بطرس الحواري كأول أسقف لها بمساعدة حبيب النجار ⁽⁵⁾ وهكذا كانت مدينة أنطاكية بموقعها المتميز على ملتقى الطرق بين الشرق والغرب ، وبثرواتها وتحصيناتها ، معدة لأن تكون عاصمة قوية لمن يحكمها ⁽⁶⁾ .

ومما لا شك فيه أن أنطاكية اكتسبت هذه الأهمية نتيجة لعوامل عديدة ، لا سيما موقعها الجغرافي والاستراتيجي الهام الذي جذب إليها أنظار الرومان منذ وقت مبكر ، حيث سعوا منذ مطلع القرن

1 - داوني، جلانفيل : أنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير ، ص16.

2 - ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص153. داوني، جلانفيل : أنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير ، ص17.

3 - Caffaro de Cashlilone, Deliberulion Orientis, in R.H.C -Hoccc, vol.V. pp50. عن عطية ، ص108.

4 - يذكر الراهب اليوناني يوانس فوقاس الذي زار أنطاكية في عام 1185م كيف كانت أنطاكية تخطف الأضواء من كل مدن الشرق من خلال عدد سكانها الكبير وثرواتها ومعابدها و مسارحها وأروققتها . فوقاس، يوانس: رحلة يوانس فوقاس في الأراضي المقدسة، زكار: الموسوعة الشامية، ج34، ص379-380.

وكانت أنطاكية مكان الإقامة المفضل للعديد من الأباطرة الرومان وجذبهم إليها معابدها الشهيرة و نافوراتها وغابات دفنة المكرسة لغراميات أبوللو إلى جانب جوها الرائع . William of tyre: vol 1, p.201

5 - ونزلت الآية : " وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين " (القرآن الكريم) سورة يس آية 20، و " القرية" هي أنطاكية والرجل هو " حبيب النجار" ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج6، القاهرة ، طبعة دار الشعب ، 1971م، ص556. و دعا التلاميذ مسيحين في أنطاكية أولاً". العهد الجديد : سفر أعمال الرسل، (11،26)

6 - Cahen: La Syrie du Nord, p.127.-

الأول قبل الميلاد إلى تحقيق السيادة على هذه المنطقة، وقد تم لهم ذلك سنة 64 ق.م . وأعلنوا أنطاكية عاصمة للدولة السورية الرومانية.

كان على أنطاكية أن تتحمل عبئاً كبيراً بسبب الأطماع الساسانية والفارسية في ممتلكات الامبراطورية الرومانية الشرقية، حيث تحولت أنطاكية محوراً لذاك الصراع الذي استمر حتى عهد الامبراطور (دقلديانوس 284-305م) الذي زار أنطاكية وزاد من وسائل دفاعاتها. (1)

وفي سنة 333م انتقل الامبراطور قسطنطين رسمياً من روما إلى القسطنطينية واتخذ من أنطاكية عاصمة جديدة لمملكته (2). ويمكن أن نطلق على تلك الحقبة من تاريخ أنطاكية حتى الفتح الإسلامي بالعصر البيزنطي الأول. (3)

وقد تابعت أنطاكية مكانتها السياسية والحضارية في ظل الامبراطورية البيزنطية حتى الفتح الإسلامي . دخلها المسلمون لأول مرة عندما فتحها أبو عبيدة بن الجراح في سنة (17 هـ / 638م) أثناء فتح الشام أيام الخليفة أبي بكر الصديق . (4)

حظيت أنطاكية بأهمية كبيرة لدى المسلمين في صدر الاسلام وفي العصرين الأموي والعباسي ، فكانت من مدن الثغور أيام الخلافة الراشدة والأُموية ، وسميت من مدن العواصم أيام الخلافة العباسية ، حيث أشار البلاذري إلى ذلك بقوله: (كانت ثغور المسلمين المعروفة بالشامية أيام عمر وعثمان وما بعد ذلك ، أنطاكية وغيرها من المدن المدعوة بالعواصم) (5)

ثم عادت انطاكية إلى سيطرة البيزنطيين سنة (359هـ/969م)، وأصبحت عاصمة لإقليم إداري واسع وحمل الحاكم فيها لقب دوق وهو (القبطان) كما يعرف عند المسلمين. (6)

حاول الفاطميون بسط سلطانهم على حلب وأنطاكية سنة (384هـ/995م)، وهنا ظهرت أهمية أنطاكية في الدفاع عن الوجود البيزنطي في شمال بلاد الشام ، حيث استتجد صاحب حلب الحمداني

¹ - الجنابي، طلب صبار : إمارة أنطاكية ، ص22.

² - أصبحت أنطاكية مقر القيادة العسكرية التي أقيمت لمواجهة غزوات الفرس، و من ثم أصبحت مقراً إمبراطورياً حربياً يشمل مقر حاكم سورية و موظفيه ، و نظراً لأهمية الولايات الشرقية الحيوية ، فقد نظمت تنظيمياً خاصاً جديداً، كأسقفية الشرق، فأطلق على رئيسها لقباً خاصاً هو "كونت الشرق" . داوودي، جلائيل : أنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير، ص75.

³ - الجنابي: إمارة أنطاكية ، ص22.

⁴ - البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان، تحقيق: أنيس الطباع، بيروت 1987م، ص 152.

⁵ - البلاذري : فتوح البلدان ، ص 153.

⁶ - الانطاكي، يحيى بن سعيد : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، نشر دار شيخو ، بيروت عام 1990، ص 247.

(سعيد الدولة أبو الفضائل⁽¹⁾) بدوق أنطاكية وبالإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية حيث كتب للإمبراطور قائلاً (متى أخذت حلب أخذت أنطاكية ، ومتى أخذت أنطاكية أخذت القسطنطينية)⁽²⁾ .
 إن هذا الأمر دفع الامبراطور إلى الحضور شخصياً إلى الشام سنة (385 هـ / 995م) لصد الزحف الفاطمي عن شمال الشام. وبعد عودة الامبراطور عاودت الجيوش الفاطمية وأنزلت الهزيمة بدوق أنطاكية ، فعاد الامبراطور (باسيل الثاني) مرة ثانية إلى بلاد الشام وعقد صلحاً مع الفاطميين أشبه بتقاسم مناطق النفوذ . إذ صار للبيزنطيين أنطاكية وما يجاورها من إقليم قيليقية ، في حين صار للفاطميين باقي البلاد الشامية.⁽³⁾

وفي سنة (477 هـ / 1084م) عادت إلى أيدي المسلمين عندما استولى عليها " سليمان بن قتلمش السلجوقي " ⁽⁴⁾ . ومنذ دخول أنطاكية تحت حكم السلاجقة لم تنعم بالاستقرار السياسي ، شأنها شأن الشرق الإسلامي في تلك المدة فعند ظهور السلاجقة على مسرح الأحداث كانت الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة تعانيان من عوامل الضعف والانحيار ، مما ساعد السلاجقة على بسط نفوذهم فامتدت حدود الدولة السلجوقية من فارس شرقاً إلى حدود مصر غرباً . ولكن هذا الامتداد كان يحمل في طياته عوامل الضعف والتفكك ، فقد مات السلطان السلجوقي ملكشاه وبدأ الصراع بين خليفته بركياروق وبقية أخوته ، لتضعف الوحدة التي حققها السلاجقة في أراضي الدولة العباسية⁽⁵⁾ ، وقام الصراع بين السلطان بركياروق وعمه تاج الدولة تنش الذي حطم الصراع بين أولاده من بعده ممتلكاته الشامية .

قررت نتيجة هذا الصراع بين ملوك السلاجقة مصير الحملة الصليبية الأولى . إذ لم يواجه الصليبيون تلك الموارد المشتركة للدولة المتحدة التي أسسها ملكشاه مما أدى لسقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين ليقيموا فيها ثاني دولة لاتينية في الشرق الإسلامي هي إمارة أنطاكية .

تأسيس إمارة أنطاكية :

¹ - هو ابن سعيد الدولة ابو المعالي الحمداني صاحب حلب ، تولى بعد أبيه. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص 34-39 . ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 180-187.

² - ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج4، ص120.

³ - الحمد ، عامرة علي : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية الصليبية في عهد الامبراطور الكسيوس كومنين (1908-1118م) رسالة ماجستير ، جامعة الكويت 1967م ، ص 32.

⁴ - ابن الأثير : الكامل ، م8، ص435-436 . ابن العديم : زبدة الحلب ، ص212.

⁵ - البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص76-80.

بعد إعلان مولد الحملة الصليبية الأولى على يد البابا "أوريان الثاني" في كلير مونت في أواخر عام (488هـ/1095م). بدأت استعدادات التنفيذ، فقام البابا بجولات دينية في بلدان الغرب الأوربي لتعبئة الرأي العام، وكان يعتقد أن جيشاً منظماً تحت رعاية روحية واحدة وقيادة عسكرية موحدة، سنكفل للحملة التقدم والنجاح.

ولكن دعائه الذين بثهم في أرجاء بلدان أوربا، سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضي المقدسة، لذلك باءت هذه الحملات الشعبية بالفشل.

بعد قيام الحملات الشعبية، كانت الاستعدادات تجري في الغرب الأوربي لتحرك الجيوش النظامية باتجاه الشرق، وفعلاً تكونت حملة من أربعة جيوش نظامية تولى "بوهمند" ⁽¹⁾ وابن أخته "تانكرد" قيادة القوات النورماندية. أما القوات البروفنسالية فكانت تحت قيادة "ريموند الرابع"، كونت تولوز، والقوات الفرنسية، تحت قيادة "إيتين" كونت بلوا و"هيو" كونت فرماندوا الابن الأصغر لهنري الأول ملك فرنسا، و"روبرت الثاني" كونت فلاندر، أما "جودفري دي بوايون" دوق اللورين وأخوه "بلدوين" فقد قادا قوات اللورين السفلى. ⁽²⁾

اتخذت هذه الجيوش أربع طرق مختلفة لكنها اتفقت على الالتقاء عند أسوار القسطنطينية ⁽³⁾، وعلى الرغم من الدعم الذي قدمه الامبراطور البيزنطي ألكسيوس للفرنجة إلا أنه لم يثق بهم، فقد تولدت لديه قناعة أنه مهما تكن الأسباب المعلنة للحملات الصليبية فإن الهدف الحقيقي للفرنج هو الحصول على إمارات في الشرق، وفي الواقع هو لم يمانع هذه الحقيقة طالما أنه السيد الأعلى لأية دولة قد تنشأ، لذلك قرر أن يطلب من جميع القادة الغربيين أن يقسموا له كي يساندتهم في غزواتهم المقبلة. ⁽⁴⁾

لدى وصول بوهمند إلى القسطنطينية أقسم يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي ألكسيوس دون تردد، إذ كان يعلم أن بيزنطة لاتزال قوية جداً، و لن يتحقق شيء بغير مساعدتها، و كان يطمح بالحصول على موافقة الإمبراطور لتعيينه الحاكم المحلي الشرقي أي القائد العام لجميع القوات

¹ - كان بوهمند من أبوليا من حيث المسكن، إنما كان نورماندياً من حيث المولد، و هو ابن روبرت غويسكارد من زوجته الأولى، و صاحب تارنتوم Tarentum. زكار: الموسوعة الشامية، ج39، ورود التاريخ، ص27، 15. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص257.

² - الصوري، وليم: تاريخ الحروب الصليبية (ترجمة تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار)، ج1، ص195-225.

³ - يذكر رنسيما أن جملة من دخلوا الامبراطورية بين صيف 1096م و ربيع 1097م تراوح بين ستين ألفاً و مائة ألف. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص275.

⁴ - أقسم جودفري و بلدوين و لورداتهم الرئيسيين على الاعتراف بالإمبراطور سيداً أعلى في جميع غزواتهم، و أن يسلموا إلى مسؤولي الإمبراطور جميع الأراضي المستردة التي كانت تابعة للإمبراطور فيما سبق. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص253.

الإمبراطورية في آسيا ، ليغدو المحور الذي يدور حوله التحالف المسيحي ، و الذي يتعين على الصليبيين تسليمه الأراضي المستردة للإمبراطورية ، لكن الإمبراطور البيزنطي عمد إلى مراوغته في طلبه إذ بدا له أن بوهمند هو أخطر الصليبيين جميعاً لذلك، و كان محقاً بذلك إذ ستكون أنطاكية فيما يلي سبباً للنزاع بين الإمبراطورية البيزنطية و الصليبيين (1). نجح الصليبيون في اختراق آسيا الصغرى بعد سقوط نيقية ، و واصلوا تقدمهم باتجاه بلاد الشام ، فبلغوا مدينة أنطاكية ، باستثناء " بلدوين " الذي انفصل عن الجيش الرئيسي عند " عينتاب " قاصداً " الرها " بناءً على دعوة تلقاها من الأمير "ثيودور" حاكم الرها (2).

وصل الفرنجة و الروم (3) إلى أنطاكية في (ذي القعدة 491هـ/تشرين الأول 1097م) ، و كان الحاكم عليها " ياغي سيان " أصغر أولاد الملك السلجوقي الذي أمر بإغلاق المدينة و الاستعداد للحصار الذي استمر سبعة أشهر بدت خلالها معاناة الصليبيين واضحة ، فتفتشت المجاعة في معسكرهم ، ولم تجد فرق السلب والنهب التي شكلوها للإغارة على المناطق الريفية المجاورة ما تنهيه حتى باتوا في مأزق حقيقي .

في الواقع ، إن بوهمند قد فاق جميع اللاتين الذين مروا بالقسطنطينية بالخداع و الشجاعة و الوقاحة ، و في الوقت نفسه كان أقلهم ثروة و أضعفهم موارداً لذلك طمع بالاستيلاء على حكم أنطاكية و التفرد به بعد أن كتم خبر اتفاقه مع الحامية في أنطاكية (4) أبدع خطة محكمة للتخلص من منافسيه على حكم أنطاكية تمثلت بما يلي :

1 - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص261-263.

2 - كان " ثيودور كوريلات بن هاتيم " يحكم الرها ، و عندما علم بحصار الفرنجة لأنطاكية ، خاف من تأمر رعيته مع الفرنجة من دون علمه ، لذلك أرسل رسله إلى الدوق " غودفري " رئيس الفرنجة وقائد جيوشها، يطلب منه إرسال فرق عسكرية لحماية الرها من التركمان ، فأرسل " غودفري " أخيه بلدوين لمساعدة الرها ، لكن أعداء ثيودور تأمروا عليه وقتلوه، و سلموا المدينة " لبلدوين " . زكار : الموسوعة الشامية ، ج5، روايات المؤرخ الرهاوي، ص22-23.

3- أرسل الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس مع الفرنجة ، القائد تاتيشوس ، و هو قائد عالي الرتبة ، كانت مهمته مساعدة الفرنجة و حمايتهم بكل مناسبة في الظاهر لكن في الواقع إن خشية الإمبراطور من خيانة الفرنج و نكثهم بوعدهم و يمين الولاء له و عدم تسليمهم المناطق التي يستولوا عليها هو السبب الحقيقي لإرسال تاتيشوس مع الفرنج .

4 - كان هناك قائد أرمني الأصل اسمه " فيروز " قد تأصلت الصداقة بينه و بين بوهمند، و كان فيروز يتولى حراسة ثلاثة أبراج، فوعد بوهمند بالتنازل عنها وتسليمها له وذلك بعد أن أطعمه بوهمند بمكانة سامية و ثراء كبير . زكار: الموسوعة الشامية " ج6، يوميات صاحب أعمال الفرنجة ، ص 126. الحريري، سيد علي: الأخبار السنية، ص19. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص358.

- أولاً: لما وصلت الأخبار إلى الفرنجة بقرب وصول قوات كبيرة من المسلمين قادمة من خراسان بقيادة "كربوغا" أمير الموصل ، وعلم بوهمند بقدمهم، ولكونه لم يكن راغباً بتسليم أنطاكية إلى تاتيشوس ، ويريدها لنفسه ، فقد أبدع خطة شيطانية لإبعاد تاتيشوس طواعية من قبل نفسه، فدنا منه وقال له: ((بودي أن أبوح لك بسر، لأنني أجد نفسي مسؤولاً عن سلامتك ، فقد وصل تقرير مزعج إلى مسامع الأمراء ، بأن السلطان بعث بهؤلاء الرجال من خراسان ضدنا ، بناء على طلب من الامبراطور، ويعتقد الامراء بصحة هذه الرواية ، وهم لهذا يتآمرون لقتلك ، وأنا قُمت بما يتوجب علي وحذرتك ، إن الخطر وشيك ، والبقية عليك، فأختر ما تراه مفيداً لك ، وفكر بأمر حياتك وحياة رجالك)).

كان لحديث بوهمند أثر كبير في نفس تاتيشوس ، الذي كان يواجه مصاعب كثيرة ، فقد كان هناك مجاعة كبيرة ، وكان يائساً من قدرته الاستيلاء على أنطاكية ، ولذلك غادر المنطقة ، وركب هو ورجاله السفن الراسية في السويدية إلى قبرص. (1)

- ثانياً: لم يبقَ أمام بوهمند سوى القادة الفرنج الآخرين ، لذلك اقترح عليهم أن تكون أنطاكية لأول رجل ينجح باستمالة الحراس للدخول إلى المدينة ، وهنا لم يكن أمام قادة الفرنج سوى الاستجابة لطلب بوهمند لا سيما بعد وصول خبر اقتراب جيش "كربوغا". (2) وبهذا تمكن بوهمند بحيلته ومكره من التخلص من منافسيه على حكم أنطاكية ، وبناءً على اتفاقه السابق مع " فيروز" دخل المدينة وتملكها .

بعد دخول الفرنجة إلى مدينة أنطاكية ، وصلت قوات "كربوغا" ، فأصبح الفرنج بين فكي كماشة تمثلت بالمدافعين عن القلعة من جهة ، و قوات "كربوغا" خارج مدينة أنطاكية من جهة ثانية ،فاشتد الحصار على الفرنجة ، و فتكت بهم المجاعة ، و لكن عثر الفرنجة على المسامير المقدسة (3) قلب موازين المعركة ، إذ ملأتهم الحماسة و الاندفاع ، فخرجوا مغيرين على جيش "كربوغا" الذي انسحب أمام اندفاعهم و تنظيمهم، أما حامية القلعة فقد اضطرت إلى التسليم للفرنجة ، و بهذا استحوذ بوهمند على أنطاكية و جعل منها مقراً لإمارة خاصة به .

1 - زكار: الموسوعة الشامية " ج6، الالكسياد - للأميرة اناكومينا ، ص 47-48. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص349-350.

2 - زكار: الموسوعة الشامية " ج6 ، ص 48. ابن العديم: زبدة الحلب ، ص238.

3 - المسامير المقدسة أو حرية : و هي الحرية التي أطلقها لونجينس ، طعنت الجاني الأيمن من المسيح كما ورد في الإنجيل. زكار : الموسوعة الشامية، ج6، ص344.

أعلن بوهمند تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية في (جمادى الآخرة، 491هـ / حزيران، 1098م)، و هي الدولة الثانية التي يؤسسها الصليبيون بعد كونتية الرُّها.⁽¹⁾

في سنة (498هـ/1104م) ، عاد بوهمند إلى موطنه (أبوليا) ، و سلم حكم أنطاكية لابن أخته تانكرد⁽²⁾ الذي توفي سنة (507هـ/1113م) و لم يكن له ولد ، فتسلم حكم أنطاكية ابن أخته روجر بن ريتشارد⁽³⁾، و بعد وفاة الأخير تسلم زمام السلطة في أنطاكية ملك بيت المقدس بلدوين الذي أرسل إلى أوربا ليحضر ابن بوهمند الأول⁽⁴⁾ ، و جعله حاكماً على أنطاكية في سنة (520هـ/1126م)⁽⁵⁾، و في سنة (525هـ/1130م) مات بوهمند الصغير ، فاستدعى شعب أنطاكية ملك القدس "بلدوين" الذي تسلم حكم أنطاكية و أقطع ابنته الأميرة أليس (زوجة بوهمند الصغير) اللاذقية و جبلة ، و عاد بعدها إلى القدس⁽⁶⁾، و في سنة (527هـ/1132م) تزوج ريموند كونت أوف بواتو "Poictou" من كونستانس ابنة بوهمند الأصغر⁽⁷⁾ ، فأصبح حاكم أنطاكية ،وفي سنة (552هـ / 1157م) ،أصبح أحد أبناء ريموند حاكماً لأنطاكية و هو بوهمند الثالث⁽⁸⁾.

في عهد بوهمند الرابع :

اضطربت أحوال إمارة أنطاكية في أوائل القرن (السابع هجري /الثالث عشر ميلادي) لوفاة أميرها "بوهمند الثالث" سنة (598هـ / 1201 م) ، وما أعقب تلك الوفاة من مشاكل الوراثة ونزاع مع مملكة أرمينية الصغرى .

-
- 1 - الصوري ، وليم: تاريخ الحروب الصليبية ،ج1، ص 53-67. زكار: الموسوعة الشامية، الالكسياد- الأميرة انا كومينا ،ج6، ص58.
 - 2 - الالكسياد - الأميرة انا كومينا: زكار ، الموسوعة الشامية ،ج6، ص 74-75 .رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص76-77.
 - 3 - المؤرخ الرهاوي المجهول : ميخائيل السوري : زكار ، الموسوعة الشامية ،ج5، ص107،37.الصوري ، وليم :الحروب الصليبية،ج2، ص299.
 - 4 - مات بوهمند ،و له ولد أيضاً اسمه بوهمند، و لد له من كونستانس ابنة فيليب ملك فرنسا .ويندوفر، روجر: ورود التاريخ : الموسوعة الشامية، ج39، ص119.
 - 5 - تشارترز، فولتشراف: تاريخ الحملة إلى القدس: الموسوعة الشامية ،سهيل زكار،ج6، ص538.رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص206.الصوري، وليم: الحروب الصليبية،ج3، ص59.
 - 6 - إن بلدوين قد نفى ابنته إلى اللاذقية و جبلة و حرّمها من الوصاية على ابنتها كونستانس و على أنطاكية لمحاولتها التفرّد بحكم أنطاكية و مراسلتها عماد الدين زنكي لهذه الغاية . رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ،ج2، ص214.الصوري، وليم : الحروب الصليبية ،ج3، ص75.
 - 7 - ويندوفر ، روجر: ورود التاريخ : الموسوعة الشامية، ج39، ص140-141.الصوري، وليم : الحروب الصليبية،ج3، ص129.
 - 8 - المؤرخ الرهاوي المجهول: الشاملة ،ج5، ص84-85.

في الوقت الذي بعث بوهمند الثالث في سنة (589هـ/1193م) بابنه بوهمند الرابع إلى طرابلس ليصبح كونتاً لها بعد موت ريموند الثالث كونت تولوز⁽¹⁾، عقد النية على أن يحكم ابنه الأكبر ريموند أنطاكية من بعده . وفي سنة (591هـ/1195م) تزوج ريموند من الأميرة أليس ابنة روبين أخ ليو الثاني - حاكم أرمنية-⁽²⁾ . مات ريموند في حياة أبيه سنة (594هـ/1197م) ولم ينجب إلا طفلاً واحداً هو "ريموند روبين" الذي عدّ وريثاً لعرش أنطاكية حسب قوانين الوراثة الإقطاعية⁽³⁾. فبعث بوهمند الثالث بالطفل وأمه إلى أرمنية لضمان أمنهما ، وربما لإبعاد الأرمن عن حكم أنطاكية . إلا أن المندوب البابوي كونراد أوف مينز (الذي جاء مع الحملة الألمانية) أجبر بوهمند الثالث على استدعاء بارونات و جعلهم يقسمون يمين الولاء لريموند روبين⁽⁴⁾.

لم يعترف بوهمند الرابع حاكم طرابلس بهذا الإجراء ، فلما توفي بوهمند الثالث في (رجب 597هـ/نيسان 1201م)، سارع البارونات في أنطاكية والذين كانوا يخشون المطامع الأرمنية في إماراتهم ويحرصون على بقائها لاتينية ، باستدعاء كونت طرابلس الذي وصل في يوم جنازة أبيه " واستدعى قومون أنطاكية ، وكل النبلاء والفرسان وطلب أن يعترف به حيث أنه كان الوريث الشرعي للإمارة التي مات أبوه من أجلها فاعترفوا به وأقاموه سيداً وأميراً عليهم " ⁽⁵⁾. لم يجد بوهمند الرابع كونت طرابلس صعوبة في تنصيب نفسه على عرش أنطاكية ، فقد ساندته الداوية⁽⁶⁾ لحقنهم على

¹ - رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص127.

² - عندما قام ليون الثاني بأسر بوهمند الثالث ، أرسل قومون أنطاكية الذي أنشئ سنة (589هـ/1193م) الرسل إلى هنري (أوف شامباني) - ملك القدس - يتوسلون إليه لينجد أنطاكية من الأرمن . فلما وصل هنري إلى مشارق سيس قابله ليون الثاني و اتفقا على إطلاق سراح بوهمند الثالث دون أية فدية ، و أن يُعترف ببغراس والأراضي المحيطة بها على أنها أراضي أرمنية ، و ألا يكون أي الأميرين سيداً على الآخر ، و للتصديق على المعاهدة و توحيد الإمارتين ، اتفق على أن يتزوج وريث بوهمند الثالث - ريموند- من ابنة أخ ليون الثاني و الوريثة الشرعية ، أليس ابنة روبين الثالث- . رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص127. زكار : الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية ، سمباط ، ج35، ص303.

³ - عاشور: الحركة الصليبية ، ج2، ص231. رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص138.

⁴ - حضر المندوب البابوي إلى سيس لتتويج ليون الثاني ملكاً على أرمنية الصغرى مقابل تبعيته للإمبراطورية الألمانية ، لذلك كان توافاً للاستيلاء على عرش أنطاكية لصالح ليون الثاني .رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص139.

⁵ - Eracles,p313; Sempad:,p632. عن عطية إمارة أنطاكية ، ص255.

⁶ - الداوية :فرسان الهيكل ، أو فرسان المعبد كانوا أحد أقوى التنظيمات العسكرية المسيحية ، و أكثرها ثراءً و نفوذاً و أحد أبرز ممثلي الاقتصاد المسيحي ، و دام نشاطهم قرابة قرنين من الزمان في العصور الوسطى ، ومن جمعية من تسعة اشخاص أخذت تنمو لتصبح امبراطورية مصغرة عاصمتها في القدس و مستعمراتها في أوربة .هوارث، ستيفن: فرسان الهيكل ، المركز القومي للترجمة ، ت .إبراهيم محمد إبراهيم ، 2013، ط1 ، ص75-76.

ليو الذي لم يرد حصن بغراس معقلهم القديم . كما أيده الاستبارية ⁽¹⁾، لما بذله لهم من منح أيضاً ، كما كان من الطبيعي أن ينال بوهمند الرابع تأييد قومون ⁽²⁾ أنطاكية الذي كان يخشى استيلاء الأرمن على عرش أنطاكية ، كما انضمت الكنيسة في أنطاكية إلى القومون ⁽³⁾ و المنظمات العسكرية (الداوية و الاستبارية) في معارضتها للاستخلاف الأرمني في أنطاكية . أما الأميرة أليس وابنها ريموند روبين فقد كانا في أرمنية حيث قام ليو بالوصاية على الطفل وتربيته ، وبتلقي كونت طرابلس يمين الولاء من القومون لم يعد هناك قيمة لحق ريموند روبين الذي لم يستلم ميراثه من قبل . وكان ليو في طريقه إلى أنطاكية، وعندما علم بما تم فيها عاد أدراجه إلى قيليقية ليلحق به بعد ذلك النبلاء الموالين له من لاتين أنطاكية الذين كانوا قد أقسموا يمين الولاء لريموند روبين من قبل ، والذين كانوا عليهم بعد ذلك أن يحاربوا في صفوف الأرمن ضد بوهمند الرابع ⁽⁴⁾.

واجه بوهمند الرابع عدد من التحديات بعد توليه إمارة أنطاكية :

• ثورة رينورد حاكم أنفة :

في نهاية سنة (601هـ/1204م) ، زادت الأمور تعقيداً بالنسبة لبوهمند الرابع ، فكان على " بوهمند الرابع" إلى جانب مقاومته لمطامع " ليون الثاني " ملك أرمنية في إمارته ، أن يقاوم ثورة إقطاعية

¹ - الاستبارة: طائفة دينية عسكرية مسيحية ، مركزها في عكا وهم يقابلون " المرابطين في الدول الإسلامية تقريباً ، وهم أعضاء الهيئة العسكرية الدينية التابعة لمستشفى القديس يوحنا في القدس، و عندما تحررت القدس انتقلوا إلى عكا ثم إلى قبرص ثم إلى رودس ، وقد قضى السلطان سليمان الكبير على عدد كبير منهم ، فالتجؤوا إلى جزيرة مالطة سنة 1530م، و في سنة 1798م قضى عليهم نابليون بونابرت نهائياً . منصور، أحمد علي: تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام على الصعيدين السياسي والاقتصادي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق ، 2011م، ص78.

2 - في سنة 589هـ/1193م تمت الموافقة على إنشاء قومون (مجلس شعبي) أنطاكية عندما حاول ليو الثاني الاستيلاء على أنطاكية بعد أسره لبوهمند الثالث ، كان القومون مكوناً من رئيس (عمدة) وأعضاء يمثلون سكان المدينة والذين لا بد من حضورهم اجتماعات القومون . وكان يعلن عن اجتماع القومون بقد أجراس الكنيسة وانحصرت مهمة القومون في الدفاع عن المدينة ضد الغزو الخارجي و إدارتها في غياب الأمير . ويعتبر قومون أنطاكية هو أقدم القومونات اللاتينية في الشرق . رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص128. عطية : إمارة أنطاكية ، ص238.

³ - انضمت الكنيسة في أنطاكية لصالح بوهمند الرابع بسبب تجاهل ليون الثاني تلميحات الكنيسة بشأن إعادة حصن بغراس للداوية ، و الذي كان مهماً بالنسبة لملك الأرمن لتحكمه بمدخل إمارة أنطاكية الشمالي . رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص140.

4 - يمدنا المؤرخ سمباد بأسماء كثيرة من بارونات أنطاكية اللاتين الذين انحازوا لصف ريموند ويقوا في أرمنية حتى استولى الأرمن على أنطاكية في 1216م ومن هؤلاء أوليفر "Olivier" الحاجب و روجر دي مونت "Rojer de Monte" كند اسطبل أنطاكية ، وغيرها من الأسماء التي تظهر في وثائق ليو وريموند كمنح للاستبارية في 1210م ، مثل روبرت مانسل وآدم حاكم بغراس اللاتيني و ابشغارد السرميني شقيق أشاري السرميني حارس أنطاكية (قيم الخدم) لدى بوهمند الرابع والذي سيفتح أبواب المدينة للأرمن في 1216م . زكار: الموسوعة الشامية ، تاريخ سمباط، ج35، ص309.

قامت ضده في إقليم طرابلس قام بها رينورد "Reynouard" (1) حاكم نيفين (أنفة حالياً) (2) فقد تزوج رينورد من ايزابيلا "Isabella" ابنة استيفورت "Astefort" حاكم حصن عكار (3) دون الحصول على موافقة سيده بوهمند الرابع كما تقضي القوانين الإقطاعية في الشرق الفرنسي (4) ، ولما رأى بوهمند الرابع أن في ذلك إهانة له، فقد أمر باستدعاء رينورد صاحب أنفة ليمثل أمام محكمة الأمير في طرابلس التي أقرت بأن "رينورد" قد ارتكب خطأ في حق سيده بوهمند الرابع ، وأقرت حق بوهمند الرابع في الاستيلاء على اقطاعات تابعة له ، و بقي أن يتحول هذا إلى أمر واقع .

إلا أن رينورد لم يمثل أمام المحكمة فبدأ بوهمند الرابع يعد نفسه للقيام بعمل كبير ضد تابعه من ناحية و ضد ملك أرمنية من ناحية أخرى (5) . لذا نجده قد سعى إلى توثيق عرى الصداقة بينه وبين سادة جبيل الجنوبيين (6)، بمصاهرة صاحب جبيل (7) ، وبإلغاء كافة الضرائب المفروضة على التجارة الجنوبية (8). كما عمل بوهمند الرابع أيضاً على التقارب مع الاسبتارية ، بأن شجع حملة قامت بها الاسبتارية على أملاك الظاهر - صاحب حلب- دون أن يشترك بوهمند الرابع نفسه في ذلك حرصاً منه على أن يبدو موالياً للملك الظاهر الذي يساندته دائماً ضد "ليون الثاني" . إلا أن مشروع جماعة

¹ - كان أول حكام نيفين هو رينورد دي نيفين الذي صحب الملك عموري الأول إلى القسطنطينية في سنة (565هـ/1169م) . وثاني الحكام كان ابنه ريموند الذي أنجب ثلاثاً ، الأولى اجلانتي وتزوجت من روهارت حاكم حيفا ، و هلفيس التي تزوجت حنا ابلين حاكم بيروت العجوز ، وأخيراً رينورد الثاني الذي ثار ضد بوهمند الرابع . عطية : إمارة أنطاكية، ص267.

² - نيفين (Nephein) أنفة حالياً (Enfe) تقع على بعد 16 كم جنوبي طرابلس في وسط الطريق بينها و بين البترون . فولغانغ مولر - فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية ، ت . محمد وليد الجلاذ ، دار الفكر ، دمشق 1984م، ص60. كندي، هيوغ: القلاع الصليبية، الموسوعة الشامية: زكار، ج52، ص99.

³ - حصن عكار بالعربية حصن عكار العتيقة ، بالفرنسية أكأر Akkar ، و هو قلعة صغيرة مخربة في شمال شرقي طرابلس تريض فوق جرف جبلي على السفوح الشمالية لجبل عكار ، و هي جزء من دفاعات الحدود الشمالية لإمارة طرابلس . فولغانغ مولر - فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص60.

⁴ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص182. عطية : إمارة أنطاكية ، ص267.

⁵ - ضرب ليون الثاني - ملك الأرمن - الحصار على أنطاكية و لم ينسحب إلا عندما أرسل الظاهر صاحب حلب جيشاً لمساعدة بوهمند الرابع . رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص182.

⁶ - جُبَيْل أو جُبَيْل باليونانية بيبيلوس بالفرنسية جبيلة ، جبيلة (Giblet, Gibelet) مدينة و قلعة على الساحل اللبناني مع مرفأ صغير جيد الحماية ، بُني في موقع مرفأ بيبيلوس الفينيقي القديم . في سنة 1109م سلم برتراند (ابن ريمون أوف سينت جايل) المدينة إلى كاتدرائية جنوى ، و جاء التسليم إلى يدي وليم إمبرايكو و كانت أسرة إمبرايكو Embriacos أسرة جنوبية. كندي، هيوغ: القلاع الصليبية، الموسوعة الشامية ، زكار، ج52، ص97. فولغانغ مولر - فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص82. هايد: تاريخ التجارة ، ج1، ص150.

⁷ - تزوج جي حاكم جبيل من أليس Alice شقيقة بوهمند الرابع الذي كان قد تزوج من بليزانس "Plaisance" شقيقة جي في كانون الأول 1204م. هايد : تاريخ التجارة ، ج1، ص328.

⁸ - هايد: تاريخ التجارة، ج1، ص328-329.

الاسبتارية هذه المرة كان يختلف عن مشروعاتهم السابقة و التي كانت بمثابة مجرد غارات ضد المسلمين في حمص و حماة و شبهية بغارات الملك عموري نفسه ، التي لم تكن إلا استغلالاً لهدوء المسلمين بسبب ورود الأخبار بقرب وصول الحملة الصليبية المرتقبة إلى بلاد الشام ، و التي لم تكن إلا مجرد مظاهرات عسكرية يقوم بها الملك ليحفظ مكانته بين المسلمين و الصليبيين على السواء (1). ولم يكن هذا النوع من الأعمال ضد المسلمين ليهم بوهمند الرابع الذي كان يضمن هدوء أقرب المسلمين إليه وهو الملك الظاهر غازي بتحالفه معه . إلا أن مشروع الاسبتارية هذه المرة كان ضد اللاذقية التي كان الاستيلاء عليها يؤدي إلى إعادة ربط أملاك بوهمند الرابع في أنطاكية و طرابلس وخاصةً من ناحية الساحل.

لذا لم يجد بوهمند الرابع مشكلة في منح الاسبتارية عدة امتيازات بسيطة في الوقت الذي سيبدو فيه بعيداً عن الشبهات أمام ملك حلب (2) . و في ربيع سنة (601هـ/1205م) قام الاسبتارية من حصن الأكراد (3) بهجوم على اللاذقية و جبلة ، واستطاعوا أن يجذبوا قوات المسلمين في جبلة إلى كمين ، وقتلوا من المسلمين جماعة كثيرة ، و عادوا إلى طرابلس و قد ملأوا أيديهم بالسبي و الغنائم (4). و

¹ - في (3 رمضان، 599هـ/17 أيار، 1203م) تمكن المنصور - صاحب حماة- من هزيمة الاسبتارية الذين هاجموا بعين ، كما تمكن في (21 رمضان، 599هـ/3 حزيران، 1203م) من هزيمتهم مرة أخرى . إلا أن الاسبتارية هاجموا حماة نفسها ونهبوا بلدة " الرقيطا" المجاورة للباب الغربي لحماة في العام التالي وأسروا كثيراً من المسلمين بعد أن هزموا قوات المنصور . كما أغار الاسبتارية في نفس السنة على حمص . أما الملك عموري فإنه قام بغارة على مصر في (18 رمضان، 600هـ/20 أيار، 1204م) ، فوصل بصحبة سبعين سفينة إلى فرع الرشيد ونهب رجاله "قوة" ، وكان الملك عموري قد أغار على إقليم الأردن وعزم على قصد بيت المقدس لولا خروج العادل لصدّه ، وتم الاتفاق بينهما على عقد هدنة في (محرم، 601هـ/أيلول، 1204م) تنازل بمقتضاها الفرنج عن نصف كل من صيدا واللد والرملة الخاص بالمسلمين ، إلى جانب يافا التي كان قد استولى عليها منهم زمن الحملة الألمانية (593هـ/1197م) حين استولوا على بيروت .ابن واصل : مفرج الكروب ج3، ص141، 74، 70-149، 159-163.ابن الأثير : الكامل، م10، ص291، 245، 263-259، pp.Eracles

² - في سنة (601هـ/1204م) و سنة (602هـ/1205م) على التوالي ، وعد بوهمند الرابع كلاً من جي حاكم جبيل و الاسبتارية بريع و عقارات من الأراضي في اللاذقية وحصن صهيون إذا ما " ردها الله إليهم" . عطية: إمارة أنطاكية، ص270.

³ - حصن الأكراد (قلعة الحصن) : بالفرنجية حصن الاسبتارية (Crac de L'opital) التسمية الأجنبية الحديثة حصن الفرسان (Crac Des Chevaliers) قلعة و قرية في وادي النضارة في وسط سورية ، فوق ذروة مرتفعة تزيد عن 2100 قدم ، في سنة 1142م منح صاحب طرابلس الكونت ريموند الثاني الحصن إلى الاسبتارية . فولفغانغ مولر - فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص76-77.

⁴ - ذكر هذه الواقعة من المؤرخين المسلمين ابن واصل و المقريزي ، وكلاهما ذكر خروج الاسبتارية من طرابلس ومن المؤكد أن المقصود إقليم طرابلس الذي تقع فيه أملاك الاسبتارية في حصن الأكراد وحصن المرقب . و من المؤكد أن المسلمين لم يتأكدوا من هجمة الظاهر على أملاك الاسبتارية في حصن المرقب الذي هاجمه عسكر الظاهر بقيادة مبارز الدين أقجا الذي تمكن من هدم أحد أبراج الحصن أعلى الباب المواجه للساحل ، و كاد المسلمون يفتحون الحصن لولا مقتل قائددهم ، وذلك في أعقاب غارة الاسبتارية على اللاذقية و جبلة .ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص166-167. المقريزي : السلوك ، ج1، ص277.

بذلك ضمن بوهمند الرابع حياد الاسبتارية في خلافه مع تابعه صاحب نيفين ، خاصة و أن الأخير كان يتمتع بتأييد كل معارضي بوهمند الرابع و خصومه و كان أول هؤلاء بطبيعة الحال هو " ليو الثاني " الذي رحب بالتحالف مع رينورد ليستطيع تطويق خصمه من شمال أنطاكية وجنوبها، و إلى جانب " ليون الثاني " كان هناك من يؤيدون رينورد من بين سادة الفرنج في فلسطين ، و الذين كانوا معارضين لمزاعم بوهمند في السلطة ، وكان من بين هؤلاء رالف حاكم طبرية ، الذي كان أخوه أوتو في ذلك الوقت يعمل في خدمة " ليون الثاني " في أرمينية ⁽¹⁾. و أخيراً كان هناك الملك عموري الثاني ⁽²⁾ الذي سعى لكسب رضا الملك العادل الذي ازداد قوة ب وفاة الملك العزيز - صاحب مصر - ⁽³⁾ ، فقد كان الأخير يضمم العداوة لبوهمند الرابع لتحالفه مع الظاهر غازي - صاحب حلب - ، و أمام هذا التأييد لرينورد يأس بوهمند الرابع من نجاح خطته و بدأ يفكر باستمالة رينورد ، إلا أن وفاة الملك عموري الثاني في (3 شعبان، 601هـ/أول نيسان ، 1205م) ⁽⁴⁾ أفقدت رينورد أهم سند له .

فقد تولى أمور مملكة بيت المقدس حنا أبلين "John of Ibelin" حاكم بيروت ⁽⁵⁾ الذي سحب كل تأييد للمتمردين . وفي شتاء عام (605هـ/1205م) قام بوهمند بحصار رينورد الذي حاول أن يقاوم إلا أنه لم يستطع الصمود أمام قوات بوهمند و الجنوبية الذين استولوا على نيفين و أسر رينورد بالرغم من إصابة بوهمند الرابع بسهم أثناء القتال أفقده إحدى عينيه ⁽⁶⁾ ، و عندما وصل الملك المجاهد أسد الدين - صاحب حمص - بقواته لنجدة رينورد الذي استغاث به ، لم يستطع عمل شيء لسقوط

¹ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص182.

² - عموري الثاني :ورث مملكة قبرص بعد وفاة أخيه غي لوزجنان (591هـ/1194م) ، حضر إلى بلاد الشام و تزوج من إيزابيل وريثة عرش مملكة بيت المقدس و أرملة هنري دي شامباني (495هـ/1198م) و بهذا الزواج أصبح عموري ملكاً على بيت المقدس باعتباره زوج الوريثة الشرعية ، و تم توحيد مملكتي بيت المقدس وقبرص . توفي سنة 601هـ/1204م. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص126. عاشور ، سعيد عبد الفتاح: قبرص و الحروب الصليبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2002، ط2، ص35. الحريري، سيد علي :الأخبار السنية ، ص221.

³ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص138.

⁴ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص142. عاشور ، سعيد عبد الفتاح : قبرص و الحروب الصليبية ، ص38.

⁵ - حنا ابلين : هو ابن باليان الثاني ابلين ، الابن الثالث لباليان الأول الذي جاء إلى الشرق مع الملك فولك في سنة (526هـ/1131م) ، وكان باليان الثاني قد تزوج ماريا كومنين ابنة شقيق مانويل كومنين و أرملة الملك عموري الأول . لذا يعتبر حنا ابلين حاكم بيروت أماً غير شقيق للملكة إيزابيل من أمها ماريا كومنين ، ويطلق عليه سيد بيروت العجوز تمييزاً له عن ابن أخيه حنا ابلين حاكم يافا وواضع مؤلف عن قوانين وعادات مملكة بيت المقدس. عطية ، حسين محمد: إمارة أنطاكية الصليبية و المسلمون، مكتبة التاريخ الوسيط، ط1، 1989م، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ، ص272.

⁶ - بدأت المصادر الصليبية تطلق على بوهمند الرابع لقب بوهمند الأعور "La Borgne" منذ ذلك الحين . رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص182.

الحصن بيد بوهمند الرابع ، فأغار على ضواحي طرابلس حتى حصن الأكراد ، " و أخذ من الغنم والمواشي ما لا يحصى " (1) ، ثم سلم رينورد حصن جبل عكار إلى بوهمند الرابع (2) الذي تفرغ لصد هجمات " ليون الثاني" ملك أرمينية على أنطاكية التي لم يحفظها من السقوط بيد الأرمن أثناء انشغال بوهمند الرابع في قمع ثورة نيفين سوى نجدة الملك الظاهر غازي لها.

• ثورة البطريك بطرس الأنطاكي :

استولى بوهمند على العديد من ممتلكات الكنيسة و عين بطريك يوناني (إغريقي) لكنيسة أنطاكية يدعى سيمون الثاني (Simon II) (3) للأسباب التالية :

- في (جمادى الآخر، 602هـ / شباط، 1206م) أصدر المبعوث البابوي " بطرس أوف سانت مرسيل" قرار الحرمان ضد بطريك أنطاكية " بطرس الأنطاكي" بسبب خلافهما حول بعض الوظائف الكنسية (4).

- وقوف قومون أنطاكية ضد روما بسبب التقارب بين البابا و ليو الأرمني ، مما دفع القومون لتأييد تصرف بوهمند، و لعل القومون هو من اقترح ذلك.

- كره اللاتين و " الأغريق " الروم الأرثوذكس في أنطاكية للأرمن حلفاء البطريك، إضافة لتأييد البطريك لحق ريموند روبين في حكم أنطاكية .

- لم تعد بيزنطة قادرة على تهديد بوهمند .

و أدى هذا إلى التقارب بين المبعوث البابوي و البطريك اللاتيني الذي عادت إليه سلطاته ، فأصدر المبعوث البابوي قرار الحرمان ضد كل من بوهمند و البطريك الإغريقي و إمارة أنطاكية أيضاً(5).

إلا أن هذا لم يكن ذا تأثير لأن منافسيه من أعضاء القومون اللاتين و الأمير قد اعترفوا بمنافسه البطريك اليوناني .مما دفع البطريك إلى اتخاذ تدابير مضادة ضد بوهمند الرابع . فقد بدأ يعد لقيام ثورة في أنطاكية ففي سنة (604هـ/1207م) أدخل إلى المدينة ليلاً بعض الفرسان الذين يدينون له بالولاء ، و تمكنوا من الاستيلاء على أسفل المدينة ، إلا أن بوهمند الرابع جمع قواته في القلعة وسرعان ما ردهم إلى خارج المدينة ، و في أعقاب هذا النصر ، اعتقل بوهمند الرابع البطريك ،و

¹ -ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص168 .

² - كندي،هيوچ: القلاع الصليبية، الموسوعة الشامية: زكار، ج52، ص100.

³ - رنسيماں : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص183.

⁴ - رنسيماں: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص182.

⁵ - زكار : الموسوعة الشامية، ج34، ص379-380. - رنسيماں: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص183.

حاول أن ينتزع منه اعترافاً بشرعية حكمه للإمارة ، و أمام رفضه العنيد ، ألقاه بوهمند الرابع في السجن حيث مات بعد شرب زيت المصباح لشدة العطش ، وذلك في (23 ذي الحجة ، 604هـ / 8 حزيران ، 1208م) و بموت البطريرك يكون بوهمند الرابع قد تخلص من أحد مناوئيه (1) .

كان البابا انوسنت يعلم أن بوهمند الرابع كان يتمتع بتأييد الداوية فقد خشي أن تتحول القوة التي يستمدّها بوهمند من هذا التحالف إلى مكاسب تأتي على حساب الكنيسة لذلك سعى البابا انوسنت الثالث إلى أن يباعد بين بوهمند الرابع والملك الظاهر غازي حليفه الأساسي ، فأرسل خطاباً إلى الملك الظاهر - صاحب حلب - يرجوه أن يعمل على حماية بطريرك أنطاكية اللاتيني ، والعمل على أن لا يناله أي شخص بضرر ، و أن يحمي كنيسة أنطاكية (2) .

لقد اتخذ البابا نموذجاً جديداً لدبلوماسية الحروب الصليبية عندما نرى أنه مما يتناقض مع وظيفته أن يرسل أحد حكام المسلمين لصالح الكنيسة ، و إن كان تصرف البابا هذا يثير الدهشة (3) فإنه في الوقت نفسه يثير تساؤلاً هاماً : هل كان الظاهر ملك حلب المسلم ، الذي كان منقذاً لبوهمند الرابع و السياسة اللاتينية في مواجهة الأرمن سيصبح مخلصاً للكنيسة اللاتينية في مواجهة اليونانيين و اللاتين من بارونات أنطاكية و أميرها أيضاً؟

و الإجابة على هذا التساؤل تتضح من التمعن في موقف البابا نفسه من مشكلة أنطاكية :

- من الواضح أن انوسنت الثالث كان يسعى لحماية استقلال الكنيسة اللاتينية وسط التيارات السياسية المتناقضة و كانت هذه أحد الأركان الأساسية للحركة الصليبية نفسها (4) .
- حاول أن يحافظ على توازن القوى بين بوهمند وليو .
- اعتقد البابا أن مساندة الملك الظاهر لبطريرك أنطاكية ربما تبعده عن بوهمند الرابع ، لكن البابا أخفق في تحقيق مسعاه لأن خطابه لم يكن له أي تأثير على الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - .

¹ - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص183 .

² - انظر الملحق رقم 1 .

³ - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص183-184 .

⁴ - كان كل بطاركة أنطاكية السابقين (فيما عدا رالف دمفرنت Ralph de Domfront) قد عينوا بواسطة أمراء أنطاكية أما بطرس الثاني هذا فإن بوهمند الرابع لم تكن لديه السلطات التقليدية لتعيينه ، ويبدو البابا نفسه قد رشحه لهذا المنصب ، وتم تنفيذ ذلك على أيدي مجلس كهنة أنطاكية ، وتحت إشراف بطريرك بيت المقدس بالرغم من اعتزال رئيس المجلس مع اثنين من أعضائه إلى قلعة القصير ، ورفضهم العون . عطية ، حسين محمد: إمارة أنطاكية الصليبية، ص 326 .

و لم يباعد بين الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - و بوهمند الرابع - أمير أنطاكية - سوى تعدي بوهمند دون تفكير على أتباع ملك حلب من الحشيشية الذين كانت لهم نفس القيمة التي يتمتع بها بوهمند كحليف ربما يفيد الظاهر في مواجهة طموح أي من أفراد أسرته في بلاد الشام أو مصر و لو عن طريق الاغتيال ، و دون المشاركة العسكرية (1).

و شهدت سنة (609هـ/1213م) بداية لعدة أحداث جعلت هذه السنة تشهد تغيراً كبيراً في موقف بوهمند الرابع ، و أبعدت عنه كل من تمتع بتأييدهم في السنوات السابقة ، تمثلت بالآتي:

- كان البابا يستعد ليشهد الرحيل الوشيك للحملة الصليبية التي لم يتوقف عن الإعداد لها منذ انحراف الحملة الرابعة عن الخطة المرسومة لها ، لذلك كان على استعداد ليمنح ليو مغفرته شريطة أن يساعد في الحملة الصليبية التالية ، و بعد خضوع ليون الثاني لم يعد البابا انوسنت الثالث يؤيد بوهمند الرابع الذي لم يكن يطلق عليه سوى كونت طرابلس (2).

- إن تأييد الروم الأرثوذكس لبوهمند الرابع أدى إلى استئثاره عداا الاسبتارية ، و نقمة معظم اللاتين عليه (3).

- كذلك أعاد أراضي الكنيسة اللاتينية في كيليكية مما أكسبه رضا بطريرك أنطاكية اللاتيني "بطرس أوف لوسيديو" (4).

- زواج ريموند - روبين من سيبيل Sibylle (أخت ملك قبرص) (5).

- كان زواج جون (أوف بريين) (6) من ستيفاني ابنة ليو في سنة (1214م/610هـ) بمثابة تصديق على تحالف أرمنية و عكا (7).

¹ - مبحث العلاقة مع الأيوبيين

² - لم يطلق البابا على بوهمند لقب أمير أنطاكية ، بل اقتصر على تسميته في كل رسائله إلى الشرق بلقب كونت طرابلس ، ولم يطلق عليه لقب أمير إلا مرة واحدة ، عندما طلب منه أن يكون لرهان كنيسة القديس بولس في أنطاكية الحق في اختيار رئيس لهم بأنفسهم . عطية: إمارة أنطاكية ، ص 291.

³ - عاشور: الحركة الصليبية ، ج 2، ص 233.

⁴ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج 3، ص 185.

⁵ - سمباط : التاريخ المعزو إلى سمباط ، الموسوعة الشامية : زكار ، ج 35، ص 317. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص 184.

⁶ - جون أوف بريين ، ملك القدس (1210-1225)، و امبراطور القسطنطينية (1228-1237) ، و قد تسلم تاج القدس عندما تزوج من ماري دي مونتفرات في سنة 1210 ، و فقد سنة 1225 عندما تزوجت ابنته إيزابيل من فريديك الثاني. الموسوعة الشامية : زكار ، ج 33، ص 357. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج 3، ص 180.

⁷ - تزوج الملك جان أوف بريين من ستيفاني "Stephannie" ابنة ليون الثاني ، كما أقرض الاسبتارية ليون الثاني ثلاثين ألف دينار إسلامي لإتمام هذا الزواج . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج 3، ص 222. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج 3، ص 180.

- نجح ليون الثاني في استمالة الداوية عندما وعدهم بإعادة حصن بغراس إليهم سنة (608-609هـ/1212م) بعد استيلائه على أنطاكية و نجح بذلك في تحييدهم في خلافاته مع الأخير وإبعادهم عنه ، و بالفعل سلم ليون الثاني حصن بغراس إلى الداوية قبل العودة إلى بلاده (1).
- و هكذا أصبح ليون الثاني يتمتع بتأييد البابوية ، و جماعة التوتون (2)، و الاسبتارية و أخيراً ملك القدس (3)، بينما كان قد أنهى خلافاته مع الداوية حلفاء بوهمند الرابع .
- أما سكان أنطاكية فقد أرهقتهم الحرب ، وكانوا قلقين أن تحل الحرب مع المسلمين محل الحرب مع الأرمن ، و أصبحوا أقل قدرة على الدفاع عن أنفسهم ، و ملوا مساندة بوهمند (4).
- كما أن بوهمند الرابع أصبح يفضل الإقامة في طرابلس الأقل عزاً و الأحسن مركزاً (5)، و هجر أنطاكية ، و تركها فريسة للأرمن .
- و في النهاية أدت تلك الأحداث إلى أن يعتلي عرش إمارة أنطاكية حاكم غير لاتيني - لأول مرة- منذ أقامها بوهمند الأول منذ ما يقرب من مئة و عشرين عاماً قبل ذلك التاريخ .

ب- في عهد ريموند روين :

تمكّن ليون الثاني - ملك أرمينية - مستغلاً كل الظروف المتقدمة الذكر و غياب بوهمند الرابع في طرابلس (6) ، من الاستيلاء على أنطاكية من دون أن تعترضه مصاعب ، و من دون خوض معارك ضارية بمساعدة بعض الأثرياء و الأعيان ، وكان بينهم عدد من الأمراء، فهؤلاء قد تعاونوا مع ليون

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص233. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص185.

² - منح ليون الثاني فرسان التوتون حصون في كيليكية. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص184.

³ - كان ملك عكا بعد الحملة الصليبية الثالثة يسمى ملك القدس ، على الرغم من أن القدس ذاتها كانت خارج قبضة الصليبيين . رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص117 .

⁴ - " وملك ابن لاون ، ملك الأرمن ، أنطاكية ، و حسن إلى أهلها ، و أظهر فيها العدل و كان الابرنس صاحبها ظالماً ، فحسن موقع ابن لاون من أهل أنطاكية " و يعتبر هذا النص من أندر الروايات التي تصلنا عن أحوال أنطاكية في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري ، حيث ندرت المعلومات عن لاتين شمال الشام بعد موت وليم الصوري لعدم اهتمام المؤرخين الصليبيين والمسلمين بشمال الشام نظراً لتركز الأحداث بين الفرنج و الأيوبيين ومن بعدهم المماليك في فلسطين ومصر . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص233.

⁵ - Cahen, la Syrie du Nord, p.621.

⁶ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص184.

الثاني ، وفتحوا له أبواب المدينة في مساء (يوم الأحد 24 شوال ، 612هـ / 14 شباط ، 1216م) ، و عند مطلع الفجر ، كان الأرمن هم سادة أنطاكية (1) .

فدخل ليو - ملك أرمينية - بصحبة ريموند روبين و توجهوا إلى كنيسة القديس بطرس ، و قدما فروض الولاء و الطاعة إلى البطريرك اللاتيني الذي أعلن ريموند أميراً على أنطاكية ، و هو اللقب الذي لم يستطع بوهمند الرابع الحصول عليه رسمياً حتى ذلك التاريخ . ثم قدم البارونات فروض الولاء إلى ريموند كأمر لهم (2) ، ولجأ آخر أتباع بوهمند الرابع مع الداوية إلى القلعة ، إلا أنهم ما لبثوا أن استسلموا ، ربما لشعورهم بفقر حماسه الداوية في الدفاع عن المدينة ، في الوقت الذي وصل فيه بوهمند الرابع إلى حصن المرقب ، ثم عاد إلى طرابلس بعد أن تأكد له سقوط أنطاكية في أيدي خصومه .

و إذا كانت الظروف التي تهيأت أمام ليو ، و أحسن استغلالها ، هي التي جعلت بوهمند الرابع يفقد تأييد البابوية ، و الاستتارية ، و التيوتون ، فإن ما يثير التساؤل هو موقف الملك الظاهر غازي - صاحب حلب- ، الذي تقاعس عن الوقوف في صف بوهمند ، و العمل على عدم سقوط أنطاكية في أيدي الأرمن، و الحرص على بقاء بوهمند أميراً لها في نفس الوقت ؟

كان الملك الظاهر غازي - صاحب حلب- أهم مؤيدي بوهمند ، الذي لطالما سارع لنجدة بوهمند ، فليس هناك أي دليل على تقرب ليو من الملك الظاهر إلا بعد نجاح خطته ، لكن يمكن الإجابة على هذا التساؤل بالنقاط الآتية :

- منذ سنة (609هـ/1213م) لم يكن هناك ما يعكر صفو العلاقات بين الملك الظاهر وعمه العادل الذي كان التوجس منه هو الدافع وراء حرص الظاهر على علاقته الطيبة مع بوهمند صاحب أنطاكية . بل إنه حدث ما قرب بين الظاهر و العادل أكثر من ذي قبل (3).
- ثم جاءت غارة بوهمند الرابع على أملاك الحشيشية سنة (611هـ/1214م) (4) في الوقت الذي أصبحوا فيه أتباع الظاهر) الأمر الذي باعد بين الظاهر و بوهمند (1).

1 - سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج22، ص203. ابن العديم : زبدة الحلب ، ص453. أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج6 ، ص213. ابن كثير: البداية والنهاية ، ج13، ص69. سمباط : التاريخ المعزو إلى سمباط ، الموسوعة الشامية : زكار، ج35، ص317. رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص184.

2 - سمباط : التاريخ المعزو إلى سمباط ، الموسوعة الشامية : زكار، ج35، ص317.

3- فقد تزوج الظاهر من ابنة عمه العادل في (15محرم، 609هـ/تموز، 1212م). ابن العديم: زبدة الحلب، ص450.

4 - انظر مبحث العلاقة مع الأيوبيين .

- وصول أنباء عن حملة صليبية جديدة (الحملة الصليبية الخامسة) ، الأمر الذي تتلاشى أمامه كل خلافات بني أيوب ، و يجعل الظاهر لا يفرق بين بوهمند وليون الثاني ، أو بين حليف صليبي وعدو مسيحي، و الخلاف بين هؤلاء في ذلك الوقت بالذات كان يعد مكسباً للمسلمين .
- و إذا كان الظاهر لم يهب لنجدة أنطاكية فإن ليون الثاني أقدم - بعد استيلائه على أنطاكية- على ما يطمئنه ، و يجعله يجني أول ثمار سياسته ، و يؤكد له فضل اتباعها (2).
- و هكذا يكون ليو قد استطاع أن ينهي الصراع حول أنطاكية لصالحه ، و يحقق أهدافه في السيادة على أنطاكية التي كانت هدفه منذ تولي الحكم في قيليقية .
- بدأ ريموند روبين مدة إمارته بداية حسنة و هو يتمتع بولاء أتباعه من بارونات أنطاكية اللاتين ، و تأييد رجال الدين وعلى رأسهم بطريرك أنطاكية نفسه ، ومساندة جماعة الفرسان الاسبتارية و التيوتون ، و رضا جماعة الداوية، و بعد أن بدأت بشائر السعادة تحيط بإمارته ، تغير الموقف تماماً بعد مدة قصيرة ، ففي ظروف غامضة ساءت العلاقة بينه و بين ليون - ملك الأرمن - الذي استطاع بمساعدة الداوية أن يهرب من أنطاكية قبل أن يعتقله ريموند (3) . و ربما شعر ريموند بأن وصاية ليون الثاني عليه قد أثقلت كاهله ، و وجد من الأفضل أمام رعاياه الجدد الذين غالبيتهم من اللاتين ألا يبقى تحت وصاية أرمني ، إرضاءً لمشاعرهم ولا سيما أنهم كانوا يمقتون النفوذ الأرمني الذي يستشري في أنطاكية دون أن يجدوا وسيلة لصده (4) . و من سوء حظ ريموند أن يفقد حليف قوي آخر له وهو البطريرك اللاتيني لأنطاكية الذي توفي سنة 1217م وهو الذي كان مستشاره المخلص (5) و

¹ - في سنة 608هـ/1212م أعلن جلال الدين حسن إمام الحشيشية في ألمات للخليفة في بغداد أنه أظهر شعائر الإسلام و أمر رعيته بالحج و صيام رمضان و....، وخضعوا للخليفة و للأيوبيين ، وخاصة الملك الظاهر . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص211. ابن الأثير : الكامل، م10، ص357. أسامة زيد : الصليبيين و إسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، الاسكندرية1980، ص237.

² - " وصل رسول من ابن لاون إلى الملك الظاهر برسالة مضمونها : إني مملوك السلطان ، و غرس دولته ... و إن كان الإبرنس قد خدم السلطان ، فخدمتي أكثر من خدمته ، ... و قد أوصيت ابن أختي الذي نصبته في أنطاكية بملازمة خدمته ... و بعث ابن لاون مع هذه الرسالة هدية عظيمة فاخرة فمال الظاهر إلى قوله ، و بقي متردداً" . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص235.

³ - أهان ريموند عمه الكبير إهانات بالغة و بقي ليو مريضاً و مصاباً بالشلل حتى مات ربما بسبب جحود ريمون .

عن عطية ، ص302. Sempad, p. 644. Eracles, p.347.

⁴ - عطية: إمارة أنطاكية الصليبية ، ص302.

⁵ - مات بطرس الثاني في ربيع عام 1217م بسبب المرض الذي لازمه طويلاً حتى لم يتمكن من حضور مجتمع اللاتيران الرابع في سنة 1215م و أناب عنه أسقف أنطربوس. و بقي كرسي البطريركية شاغراً لمدة عامين حتى شغله بطرس دي كابوا "Pierre de Capoue" لمدة عام واحد (1219م) .

.B.Hamilton, The Latin Church, p.317.Rey, Les Dignitaires, p.140

اتسمت الحاشية التي أحاطت بريموند بالجشع و سوء التدبير ، و أمام مطالبها أصبح السخاء الذي أظهره ريموند عبئاً ثقيلاً على خزانته ، فلجأ إلى إجراءات أثارت استياء السكان ، و أفقدته شعبيته ، و أصبح متشككاً في الجميع ، و راح يبطش برجال الدين و العامة على السواء ، مما عرض تحالفه مع الكنيسة للخطر . و كان من الصعب أن يقف قومون أنطاكية في صف ريموند ، الذي فرض إرادته على أعضائه ، ما لم يضمن لهم الرخاء .

و هكذا ساء موقف ريموند في أنطاكية، و عادت الفرصة تنتهياً أمام بوهمند الرابع لاستعادة سلطته فيها .

و على الرغم من الصراع الطويل و المستمر بين بوهمند الرابع و ليون الثاني حول أنطاكية والأطراف العديدة التي شاركت فيه من إسلامية ومسيحية جرياً وراء مصالحها ، فلم تكن إمارة ريموند جديرة بأن تكون نتيجة لهذا الصراع المرير فلم تلفت مدة حكمه إليها الأنظار ، ولم تتعد أعماله القيام بتحرير عدة وثائق منح بمقتضاها الامتيازات لكل الذين ساندوه ، والذين كانوا هم المستفيد الوحيد من وراء فوزه بكرسي أنطاكية .

ت-بوهمند الرابع للمرة الثانية :

في سنة (614هـ/1218م) ازدادت قوة بوهمند الرابع بعد زواجه من ميلسند ابنة عموري ملك قبرص (1)، و تمكن بوهمند الرابع من استرداد أنطاكية ، أما ريموند روبين فقد استطاع أن ينجو بنفسه و توجه إلى دمياط لطلب المساعدة من بيلاجيوس - المبعوث البابوي- ، و في سنة (618هـ/1221م) مات ريموند روبين في السجن ، و لم يعد ينافس بوهمند الرابع على أنطاكية أحد (2).

أحسن بوهمند اختيار الوقت الذي يعود فيه إلى عرش أنطاكية . فقد مات ليون الثاني - ملك الأرمن - غير راضٍ عن ريموند روبين ، و قبل موته حرم ريموند من أن يرثه (3)، و المسلمون والصليبيون مشغولون بالصراع حول الفوز بدمياط ، و لن يتفرغ الاسبتارية و لا ملك بيت المقدس لمساندة ريموند الآن لانشغالهم بالحملة الصليبية الخامسة .

¹ - رنسيما ن : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص195.

² - انظر تفصيل ذلك في الفصل الرابع، ص22.

³ - يذكر ابن العبري أن ريموند روبين قد طمع بالاستيلاء على قيليقية و القبض على ليون الثاني الذي لاذ بالفرار. ابن العبري : تاريخ الزمان، ص252-253.

و لاشك أن نجاح بوهمند الرابع أدى إلى وحدة أنطاكية و طرابلس، و هي الوحدة التي استمرت حتى استيلاء المماليك على المدينتين، و لكن النزاع حول حكم أنطاكية جاء عاملاً قوياً من عوامل إضعاف الصليبيين في شمال بلاد الشام ، بعد أن أدى إلى تضارب طوائفهم بعضهم مع بعض ، فاصطدم الداوية بالاسبتارية، والأرثوذكس بالكاثوليك ، و الأرمن بالفرنجة ، مما عاد بالخسارة على المسيحيين جميعاً.

بعد أن استرد بوهمند الرابع حكم أنطاكية ،عزم على الانتقام من الاسبتارية ⁽¹⁾، الأمر الذي جعل الاسبتارية يرفعون شكواهم أكثر من مرة للبابوية ، فعاد البابا هونوريوس مضطراً إلى اتباع أسلوب سلفه تجاه بوهمند الرابع ، فرفض أن يمنحه لقب أمير أنطاكية ، وأصدر البابا قراراً بحرمان بوهمند الرابع ⁽²⁾.

من حقبة حكم بوهمند الرابع نخرج بانطباع عنه كرجل نشط ، تارة لا يعرف التردد ، و تارة مخادع و سياسي ماهر ، يضعه فيليب نوفار الذي أعجب بعلمه وحدة ذهنه بين كبار المشرعين الصليبيين ⁽³⁾ ، و بموت بوهمند الرابع يمكن أن نعتبر أنه قد مات آخر أمير لأنطاكية . فسيحمل ثلاثة من خلفائه هذا اللقب ، ولكنهم لن يكونوا أمراء بالفعل لأنطاكية التي أفقرتها الحروب الداخلية ، وبعدها مباشرة هجمات التركمان ، ثم ذبول نشاطها التجاري ، فقد عزلها العائق التي كانت تشكله اللاذقية التي يحكمها المسلمون ، و التي لم تعد بالنسبة لأنطاكية ذلك الميناء المزدهر، الذي يعتبر منفذاً إلى الغرب الأوربي ، ووسيلة اتصالها السهلة بكونتية طرابلس ، إلى جانب ذلك فقد دارت في موانئ لبنان الجنوبية و قبرص أحداث التاريخ الفرنجي الداخلي و التي كانت تتطلب اهتماماً أكبر مما تتطلبه إمارة أنطاكية في شمال الشام ، و منذ الغزو المغولي و الرد المملوكي عليه ، أصبحت مصر أهم بلد إسلامي يجذب الأنظار ، وخرج شمال الشام على مدى ثلاثين سنة تقريباً من التاريخ العام للمنطقة ، وقد ظهر ذلك جلياً في الجزء الأخير من مدة حكم بوهمند الرابع ، و سيتأكد في عهد بوهمند الخامس ، و منذ ذلك الوقت تقريباً ، لم تعد هناك علاقات بين تاريخ إمارة أنطاكية الصليبية و بين أمرائها أنفسهم ⁽⁴⁾ .

¹ - انظر العلاقات مع القوى الصليبية ،ص

² - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص220. عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص234. ف.هايد: تاريخ التجارة ، ج2، ص22.

³ - زكار : الموسوعة الشامية، ج34، ص29.

⁴ - Cahen , La Syrie du Nord, p.644 .

إمارة بوهمند الخامس (630-649هـ/1233-1251م):

لم يكن بوهمند الخامس أميراً قوياً ، بل كان ابن الكنيسة البار لذا بدأ بكسب ود البابوية (1) مستقيماً من تجربة أبيه (بوهمند الرابع) ، فحصل من روما على ضمان بعدم إمكان الحكم عليه بالطرد من الكنيسة إلا عن طريق البابا شخصياً ، كما ترك أنطاكية التي لم تكن سلطته نافذة فيها مثلما كانت سلطة القومون الذي سيطرت عليه الجالية البيزنطية (2) و أقام في طرابلس ، و بدأ بوهمند يكتسب تأييد الإيطاليين حتى ينمي موارد خزائنه في طرابلس بعد أن ضعفت موارد أنطاكية الاقتصادية (3) .

خلال مدة حكم بوهمند الخامس أصبحت أنطاكية تعتمد على مواردها الخاصة ، و قل عدد المدافعين عنها بسبب :

- خسارة بوهمند الخامس دعم و مساندة الجماعات العسكرية الدينية . فقد كانت علاقات بوهمند الخامس بالداوية متوترة بسبب تصرفاتهم الرعناء ضد المسلمين في حلب (4) ، و هو الحريص (أي بوهمند الخامس) على عدم إثارة المشاكل مع جيرانه كون أراضيهم لم تشملها معاهدة فريدريك الثاني . و في نفس الوقت كانت علاقات بوهمند الخامس مع الاسبتارية سيئة لمساندتهم الحشيشية الذين اغتالوا أخاه . أما التيوتون رغم إمكاناتهم الضئيلة مقارنة بالداوية و الاسبتارية إلا أن علاقتهم مع بوهمند الخامس كانت مرتبطة بعلاقاته مع أرمينية ، و التي كانت سيئة في ذلك الوقت .
 - إضافة إلى تقلص حدود إمارة أنطاكية منذ فتوح صلاح الدين الذي ساهم في نقص عدد المقاتلين من جهة ، و شطر أراضي بوهمند الخامس إلى قسمين .
 - انشغال حكام بيت المقدس بالخلافات التي دبت بين طوائفهم .
- فلم يعد هناك من يقدم العون لأنطاكية مما جعلها عرضة لهجمات مستمرة من قبائل التركمان (5) الأمر الذي أضر بإمارة أنطاكية أشد الضرر .

¹ - تم طلاق بوهمند الخامس من أليس ملكة قبرص في سنة 1237م بناءً على أوامر البابوية لصلة القرابة التي بينهما ، فقد كانا أولاد عمومة من الدرجة الرابعة و هو ما كان يحرم عليهما الاقتران ببعضهما حسب تعاليم الكنيسة الرومانية ... و تزوج بوهمند الخامس من لوسي دي سيني ابن الكونت ريتشارد دوق سورا شقيق البابا انوسنت الثالث و التي رشحها له البابا جريجوري التاسع . رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص242، 257.

² - Cahen, La Syrie du Nord, p.659.

³ - أكد بوهمند الخامس فور توليه السلطة (في مارس 1233م) للبيزاوية كل الامتيازات التي منحها لهم ريموند الثالث كونت طرابلس. ف.هايد : تاريخ التجارة، ج1، ص331.

⁴ - انظر مبحث العلاقات مع الأيوبيين.

⁵ - العريني : المغول ، ص226.

في سنة (622هـ/1225م) اندفع الخوارزمية نحو إقليم جورجيا⁽¹⁾ ، و في سنة (629هـ/1232م) هزموا الجورجيون و أخضعوهم لسلطتهم ، و أمام هذه الهجمات اندفعت قبائل التركمان إلى الأناضول و أرمينية و استقرت هناك .

إن وفاة كيخسرو - سلطان سلاجقة الروم - و نشوء الخلافات بين أبنائه من جهة ، و عودة القوات المغولية إلى الشرق من جهة ثانية⁽²⁾ ترك الميدان خالياً أمام التركمان لعدة سنوات ، و لم يمهّد هذه الحالة من الفوضى سوى الغزو المغولي في سنة 1260م .

أصبحت المناطق الريفية حول أنطاكية فريسة للتركمان ، و في سنة (646هـ/1248م) ، و بينما كان لويس التاسع راسياً بأسطوله في قبرص لقصد مصر ، طلب منه بوهمند الخامس و بطريك أنطاكية المساعدة ضد التركمان ، فأرسل الملك لويس إلى أنطاكية ستمائة فارس⁽³⁾ . إلا أن بوهمند الخامس آثر الاحتفاظ بالقوات التي أرسلها الملك لويس في طرابلس ، لأنه لم يرد أن يجهدوا بالدفاع عن أنطاكية من جهة ، و لحرصه على العلاقات السلمية مع المسلمين في حلب من جهة ثانية . فأصبحت أنطاكية فريسة سهلة لهجمات التركمان مما كان له أسوأ الأثر على الإمارة الصليبية المتهاكمة ، و يمكن ذكر بعض نتائج هذه الهجمات :

- هجرة المزارعين الأنطاكيين و سكان المدينة نتيجة لغارات التركمان ، الذين نهبوا المحاصيل ، و خطفوا قطعان الماشية ، و خربوا الحقول . مما أثر سلباً على الانتاج الزراعي الوافر للمدينة و كذلك على الصناعات التي اشتهرت بها أنطاكية مثل صناعة الزجاج و النسيج .
- خوف المسلمين من المرور عبر أقاليم أنطاكية و طرابلس نتيجة الفوضى التي سببها التركمان ، فقل عدد المسلمون الذين كانت تعج بهم موانئ طرابلس و السويدية . و بالطبع كان لذلك بالغ الأثر على اقتصاد أنطاكية . فلم تكن السفن الإيطالية لتأتي إلى ميناء السويدية و حتى طرابلس دون أن تضمن رواج لسلعها .

¹ - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص299-300 .

- يقع إقليم جورجيا بين البحر الأسود و بحر قزوين عاصمتها تفليس و عرف الجورجيون المسيحية في القرن الرابع الميلادي ، وكانت كنيستهم أرثوذكسية و تحت التأثير اليوناني ، و كانت تتبع كنيسة أنطاكية و تخضع لبطريك أنطاكية . عطية : إمارة أنطاكية و المسلمون ، ص372-373 .

² - توفي أوكتاي خان سنة 639هـ/1241م ، و بعد وفاة خلفه كيوك خان سنة 647هـ/1249م ظلت الخلافات دائرة بين الأمراء الكبار في الأسرة المغولية الحاكمة لمدة عامين تقريباً . انتهت بتولي منكو خاناً أعظم للمغول . الصاوي : هولاكو الأمير السفاح ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط1، 2012م ، ص142، 145، 149 .

³ - رنسيان تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص313 . عطية : إمارة أنطاكية ، ص376 .

و خير دليل على ذلك قلة الامتيازات التي منحها بوهمند الخامس في أنطاكية للجاليات الإيطالية المتحكمة بتجارة الشرق .⁽¹⁾

و كل ذلك أدى إلى اضمحلال الإمارة التي نعم سكانها بالرخاء طويلاً، فهجرتها سكانها بعد أن ضاقت بهم السبل أمام الأخطار المحدقة بهم من جانب جماعات التركمان المغييرين عليهم باستمرار و الخوف من الخطر المغولي المحقق بهم .

و كذلك فعل أميرها بوهمند الخامس الذي آثر البقاء في طرابلس تاركاً أنطاكية دون مدافع إلى أن توفي سنة 649هـ/1251م.⁽²⁾

أنجب بوهمند الخامس من زوجته لوسي ابناً يدعى بوهمند ، تولى الحكم في أنطاكية و طرابلس باسم بوهمند السادس⁽³⁾. كما أنجب بوهمند الخامس ابنة تدعى بليزانس تزوجت في (شعبان ، 648هـ / أيلول ، 1250م) من هنري الأول ملك قبرص⁽⁴⁾.

لقد حاول بوهمند الخامس أمير أنطاكية و طرابلس خلال حقبة حكمه أن ينأى بنفسه عن اهتمامات جيرانه من الجماعات العسكرية الدينية ، و حافظ على علاقات جيدة مع البابوية بنفوذ زوجته الإيطالية " لوسين " ، و ربما أرسل كتيبة لمعركة غزة بناءً على طلب البابا ، غير أنه احتفظ على علاقات جيدة مع الملك فريدريك الثاني ، و منح لوثر فلانجيري و توماس (أوف أكير) اللجوء في طرابلس ، مما ضايق البابا ، مع أنه رفض منحهم مساعدة إيجابية و استمر خلفه مع المملكة

¹ - كانت المنحة التي حصل عليها البنادقة في 1183م من بوهمند الثالث هي آخر ما حصلوا عليه من امتيازات في أنطاكية حتى منحهم بوهمند السابع في 1277م حرية البيع في طرابلس . أما الجنوية فقد كانت آخر منحة لهم في أنطاكية في عهد ريموند روبين الذي منحهم في سنة 1216م حق إنشاء محكمة خاصة بهم . كذلك كانت آخر امتيازات البيزاوية في عهد ريموند روبين في 1216م عندما أكد المنح التي منحها لهم بوهمند الثالث . ف. هايد: تاريخ التجارة ، ج1، ص344، 158.

² - عاشور : الحركة الصليبية، ج2، ص260.

³ - اتفق المؤرخون الحديثون على أن بوهمند السادس قد ولد في سنة 634هـ/1237م دون تحديد تاريخ دقيق لمولده و لما جاء في خطاب البابا انوسنت الرابع و المؤرخ بالسابع من تشرين الثاني 1252م / 3 رمضان ، 650هـ ، و الذي أرسله إلى كل من بطريك انطاكية و أسقف طرابلس لمساعدة بوهمند على تولي الحكم في انطاكية، بأن بوهمند قد بدأ بالفعل عامه الخامس عشر، و أنه سيتمه في أول آب ، 1253م / 4 جمادى الآخر ، 651هـ ، فيمكن القول ان بوهمند السادس قد ولد في آب ، 1237م / 7 ذي الحجة ، 634م. عطية: إمارة أنطاكية الصليبية، ص380.

⁴ - انفرد مارينو سانودو بتحديد تاريخ الزواج ، و قد مات هنري الأول ملك قبرص (1218-1253م) في 18 كانون الثاني 1253م ، و قيل موته بأشهر ، أنجبت له بليزانس ابنه وخلفه هيو الثاني ملك قبرص (1253-1267م) و ماتت بليزانس في أيلول 1261م و هي وصية على مملكة بيت المقدس (1258-1261م).

الأرمنية لسنوات ، و قد حاول عبثاً حث البابا على ترتيب طلاق الأميرة الروبينية الشابة من الملك الجديد هيثوم ، لكي يحرم هيثوم من العرش ، لكن روما منعتة من مهاجمة الأرمن تحديداً.

ج- عهد بوهمند السادس :

اتبع بوهمند السادس في بداية حكمه سياسة والده نفسها ، إذ بقي في طرابلس و لم يبدِ اهتماماً كبيراً بإمارة أنطاكية التي واصل التركمان هجماتهم عليها و لكن بشكل أشد قسوة فقد هاجموا الاقليم كله ، و قتلوا من وجدوه من السكان ، وأسروا المزارعين ، و نهبوا الماشية واستولوا على البضائع الواردة إلى أنطاكية ، ووصلوا إلى أسوار المدينة . فلم يعد باستطاعة الفرنج مزولة أي نشاط خارج مدينتهم ، و جعلوا إمارة أنطاكية لا تتعدى أسوار المدينة .

لم تقتصر متاعب إمارة انطاكية على التركمان فقط ، بل تعدت ذلك إلى أن بوهمند السادس تولى الحكم تحت وصاية أمه الأميرة لوسي التي أقامت في طرابلس تاركةً أنطاكية نهياً للصراعات التي لا تنتهي بين السكان الروم الأرثوذكس و اللاتين في المدينة⁽¹⁾ .

و كان يتولى الحكم في أنطاكية نائب ، إلى جانب القومون الذي كان من المفترض أن يخضع لسلطة البطريرك الكاثوليكي⁽²⁾ . إلا أن الأخير تضاعلت أهميته كثيراً منذ ان خضع البطريرك اليوناني للبابوية و اقام في أنطاكية ، لذلك كان القومون موضع سخط السكان الوطنيين في أنطاكية الذين كانوا يفضلون الحبر الأرثوذكسي الذي مالبت أن تفوق نفوذه على نظيره اللاتيني الذي اضطر - بعد أن تزعزع مركزه - إلى الرحيل إلى أوربة تاركاً أحد القساوسة لينوب عنه⁽³⁾ . و هكذا تركت أنطاكية دون أمير و بطريرك مما جعلها مسرحاً للصراعات بين الطوائف المختلفة في أنطاكية .

و في سنة (650هـ/1252م) بلغ بوهمند السادس الخامسة عشر من عمره ، و كان من حقه تولي حكم أنطاكية حسب قوانين الإمارة⁽⁴⁾ ، و يتخلص من وصاية أمه ، فاستغل وجود الملك لويس التاسع في يافا و رافق أمه الأميرة لوسي في زيارتها للملك⁽⁵⁾ ، و لما كان بوهمند السادس يتسم بالذكاء و

¹ - رنسيماي : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص328.

² - عطية: إمارة أنطاكية ، ص383.

³ - أناب عنه كلاً من بارثلميو الذي أصبح أسقفاً لأنطروطوس (1272-1292م) ثم كريستيان الدومنيكاني الذي قتله بيبيرس عندما فتح أنطاكية سنة 1268م. يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة) ، الاسكندرية ، 1984م ، ص306.

⁴ - عطية : إمارة أنطاكية ، ص391.

⁵ - جوانفيل: حياة القديس لويس، الموسوعة الشامية، زكار، ج35، ص192.

النشاط كما لاحظ جوانفيل نفسه ، فقد نصبه الملك لويس التاسع فارساً وسط تكريم و في احتفال مهيب⁽¹⁾ ، و ما إن حصل على لقب فارس حتى طلب من الملك لويس التاسع أن يوليه إمارة أنطاكية موضحاً له ما تعانيه من ضعف و انهيار تحت وصاية أمه لإهمالها أنطاكية وبقائها في طرابلس⁽²⁾ ، و بين للملك أن بقاءه في طرابلس مع أمه لن يعود بالنفع عليه أو على أملاكه بالنفع بل سيتطلب نفقات باهظة و ستضيع الأموال دون طائل⁽³⁾ . لقد تأثر الملك لويس التاسع برصانة الأمير الصغير وشجاعته السابقة لأوانها فأمر الأميرة الأم بأن تنفذ مطالب ابنها ، و بينما بقيت هي في طرابلس ، توجه بوهمند السادس إلى أنطاكية مزوداً بالمال و السلاح اللازم للدفاع عن المدينة ، و اعترافاً منه بفضل الملك لويس أضاف الشعار الفرنسي إلى شعار أنطاكية ، كما بدأ باستخدام أسلحة على نمط الأسلحة الفرنسية⁽⁴⁾ . و صادق البابا انوسنت الرابع (1243-1254م) على قرار الموافقة على تولي بوهمند السادس الحكم في الإمارة في سن الخامسة عشرة ، وخاصةً و أن امرأة -والدته- لا يمكنها القيام بأعباء إمارة أنطاكية و كونتية طرابلس معاً ، أو القيام بالواجبات العسكرية الخاصة بالدفاع عن أنطاكية⁽⁵⁾ . و هكذا تخلص بوهمند السادس من وصاية أمه ، و حظيت إمارة أنطاكية بأمرها ليرعى شؤونها .

لكن بعد رحيل الملك لويس التاسع نشبت حرب أهلية (حرب القديس سابا) بين صفوف الفرنج في بلاد الشام⁽⁶⁾ ، الأمر الذي أرخى بظلاله على إمارة أنطاكية و كونتية طرابلس من خلال :

- ¹ - " لم يسبق لي أن قابلت صبيّاً في مثل عقله و ذكائه " . جوانفيل: حياة القديس لويس، الموسوعة الشامية، زكار، ج35، ص192.
- ² أورد جوانفيل عن بوهمند السادس قوله: "يا سيدي ، صحيح أن لوالدتي الحق أن تبقىني تحت وصايتها أربع سنوات أخرى ،...، لا يحق لها يا سيدي أن تدع بلادي للضياع و الإهمال ، و إنني إنما أقول ذلك يا سيدي لأن مدينة أنطاكية قد خربت على يديها ن لذا ألتمس من مولاي أن يحثها على إمدادي بالمال اللازم كي أستطيع الذهاب لإنقاذ شعبي الموجود هناك و مساعدته " . جوانفيل: حياة القديس لويس، الموسوعة الشامية، زكار، ج35، ص192.
- ³ - جوانفيل: حياة القديس لويس، الموسوعة الشامية، زكار، ج35، ص192.
- ⁴ - كان شعار فرنسا في ذلك الوقت هو العلم الخاص بدير القديس دنيس St.Denis و لونه أحمر ، وهو مشقوق من جانبه الطليق ليبدو كألسنة النار عندما يرفرف . كما توجد قطع نقدية ضربها بوهمند السادس من الذهب والفضة عليها شعار الملك الفرنسي " المسيح يقهر، المسيح يحكم، المسيح يهيمن" . يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام ، ص309.
- ⁵ - رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص329.
- ⁶ - في سنة 1250م ، قتل أحد البنادقة تاجراً من أبناء جنوا و نشب قتال في شوارع عكا ، و عندما رحل لويس التاسع إلى أوربة اندلعت الاضطرابات بين البنادقة والجنوبيين لاختلافهم على ملكية دير القديس ساباس القديم - في أعلى تل مونتجوا في عكا - و ناصر الداوية و التيوتون البنادقة بينما ناصرت الاسبتارية الجنوبيين و هكذا انقسم الفرنج في بلاد الشام . رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج 3 ، ص 333-334 . عطية : إمارة أنطاكية ، ص396-398.

- في (محرم، 656هـ/ شباط، 1258م) وصلت الملكة بليزانس مع ابنها الملك هيو الثاني - في محاولة لتأكيد سلطتها- ⁽¹⁾ إلى أخيها بوهمند السادس في طرابلس الذي صحبها إلى عكا، وطلب بوهمند السادس من المحكمة العليا للمملكة أن تقر مطالب ملك قبرص الذي يعتبر الوريث التالي بعد كونراد ، بالإعتراف به موضع للسلطة الملكية و بأمه حارسة ووصية ، لكن طلبه قوبل بالرفض من الجنوبية وحلفائهم من الاسبتارية و فيليب أمير مونتفرت . ذلك أن بوهمند قد تم استدعاؤه بواسطة مقدم الداوية و كونت يافا - وكلاهما من مؤيدي البنادقة - ، لذلك كان ذلك كافياً لتمسك الجنوبية و الاسبتارية بحق كونراد الثالث في حكم المملكة . عاد بوهمند مع أخته إلى طرابلس بعد أن فازت بالوصاية على المملكة ، ولكنه كان غاضباً من موقف الاسبتارية و الجنوبية فأرسل إلى نائب أخته جون - حاكم أرسوف- بمعاملة المتمردين معاملة لا هودة فيها ، فوضع خزانته تحت تصرف حاكم أرسوف و أمده بثمانمائة جندي فرنسي لدعم موقفه ضد الجنوبية و حلفائهم.⁽²⁾

و من أهم مظاهر التمزق التي أصابت الصليبيين كنتيجة لانغماسهم في هذه الحرب الأهلية ، هو الخلاف الذي حدث بين بوهمند السادس و بين أتباعه حكام جبيل (أسرة إمبرياكو) الذي كان من الطبيعي أن يقفوا في صف الجنوبية وفاءً لأصلهم الجنوبي ⁽³⁾، مما دفع هنري - حاكم جبيل - إلى التشاجر مع سيده بوهمند السادس - أمير أنطاكية و طرابلس- و تحدى منعه بأن أرسل الجنود لمساعدة الجنوبية في حربهم ضد البنادقة في عكا ⁽⁴⁾، وفي سنة (650هـ/1252م) أعلن هنري استقلاله عن بوهمند السادس بمساعدة الجنوبية ⁽⁵⁾، فلم يكن بوهمند يستطيع الذهاب إلى طرابلس دون الحصول على إذن من مقدم الداوية . كذلك قام برتراند ، زعيم الفرع الأصغر من عائلة إمبرياكو ،

¹ - مات هنري الأول ملك قبرص سنة 1243م ، و لأن هيو الثاني ابنه كان رضيعاً فقد طالبت الملكة بليزانس بالوصاية على قبرص و الوصاية الاسمية على القدس ، و أبدت المحاكم العليا في قبرص ذلك لكن بارونات أوتريميه اشترطوا وجودها شخصياً قبل الاعتراف بها . رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص329 .

² - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص335 . عطية : إمارة أنطاكية ، ص398-399.

³ - وصل إلى يافا على متن سفينتين حربيين بضعة أفراد من جنوا على رأسهم " وليم امبرياكو " (Guillaume Embrico) و أخوه بريموس (Primus) ، و انضموا إلى ريموند كونت تولوز . سقطت جبيل بيد الفرنج في سنة 1109م ، و أخذها ريموند كونت تولوز بمساعدة الجنوبية . فتنازل كونت طرابلس عن إقطاع جبيل لمدينة جنوا التي تنازلت عنه بدورها لأسرة امبرياكو كإقطاعية وراثية مقابل آتاة سنوية . رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج2، ص96 . تقديم : فوده، عز الدين : تاريخ التجارة ، ج1، ص174، 150.

⁴ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص334.

⁵ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص338 . عطية : إمارة أنطاكية ، ص402.

بمهاجمة بوهمند السادس في طرابلس نفسها ، كما استغلت أسرة إمبرياكو توتر العلاقات بين بوهمند و بارونات طرابلس ⁽¹⁾ و كان من بينهم جون حاكم البترون ⁽²⁾ . وفي سنة (656هـ / 1258م) زحف البارونات على طرابلس حيث يقيم بوهمند السادس و حاصروا المدينة ، و خرج إليهم بوهمند و لكنه هُزم و جُرح في كتفه بواسطة برتراند نفسه ، و أُجبر على البقاء محاصراً في طرابلس إلى أن ساعده الداوية ، و سعى بوهمند إلى الانتقام ، فتم اغتيال برتراند أثناء زيارته لبعض القرى التابعة له ، و ارتعب المتمرّدون ضد بوهمند و انسحبوا إلى جبيل ، و بقي هنري حاكم جبيل على استقلاله عن سلطة بوهمند بمساعدة الجنوبية ، و تراجع جون حاكم البترون إلى عكا . إلا أن العداء لم ينتهِ بين بوهمند السادس و أسرة إمبرياكو إلا بانتهاء الأسرتين معاً ⁽³⁾ .

وهكذا شغل كل حكام الصليبيين في بلاد الشام بالصراع بين الجنوبية والبنادقة ، الذي أشاع الفرقة بين صفوفهم في الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى التوحد ، لوصول الخطر المغولي من الشمال ، في الوقت الذي كانت فيه قوة المماليك في مصر تتنامى ، ولم تكن إمارة أنطاكية بمعزل عن التأثير بهذا الصراع . فقد ترك بوهمند كل الفرقة الفرنسية في عكا ، وبذل الأموال لدعم البنادقة ، ولدعم حقوق ملك قبرص - ابن أخته - في المملكة الصليبية في وقت كانت فيه إمارة أنطاكية بأمس الحاجة إليه .

علاقة أنطاكية مع الأيوبيين :

تميزت إمارة أنطاكية منذ قيامها ، بافتقارها إلى الحدود الآمنة المستقرة ، فقد نشأت في وسط محيط معادٍ لها ، ممثل في مجموعتين متميزتين هما :

الأولى - الإمبراطورية البيزنطية ، وما كانت تشكله من خطر عليها من خلال القواعد البيزنطية المتناثرة في آسيا الصغرى و إقليم قيليقية و الأماكن التي كانت تابعة للإمبراطورية في بلاد الشام ورغبتها باستعادة حكم أنطاكية بعد أن استولى عليها السلاجقة ومن ثم الفرنجة . إلا أن هذا الخطر زال عندما جنح الصليبيون بحملتهم الرابعة إلى القسطنطينية ، معقل الأباطرة الرومان ، فأطاحوا بها سنة (600هـ / 1204م) ⁽⁴⁾ ملحقين بها الضرر و الدمار الشامل ، ومع أن الإمبراطورية البيزنطية

¹ - كانت الأميرة لوسي - والدة بوهمند السادس - ، عندما خلعت من الوصاية ، قد تمكنت من إبقاء الكثير من المقربين إليها من الرومان في مناصب هامة في الكونتية ، مما أثار حفيظة البارونات الوطنيين . رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص238.

² - و هو زوج ابنة برتراند ابن عم هنري - حاكم جبيل - ، و هو من أبناء العمومة الثانية لبوهمند السادس . رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص338.

³ - رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص339. عطية : إمارة أنطاكية ، ص402-403.

⁴ - ابن الأثير : الكامل، ج10، ص288-289 . ابن العبري: تاريخ الزمان، ص241.

عادت للوجود سنة (660هـ/1261م)¹، غير أنها بقيت شبحاً هزياً، ولم تتمكن من الاعتماد على نفسها في الدفاع عن وجودها

الثانية- هي القوى الإسلامية التي يمكن توزيعها جغرافياً على النحو الآتي :

أ- القوى الإسلامية في بلاد الشام ، المتمثلة في إمارتي حلب، ودمشق ، وكان لإمارة حلب أهمية خاصة بالنسبة لأنطاكية الصليبية ، وتعود هذه الأهمية إلى الموقع الذي تتمتع به حلب ، إذ تعد نقطة اتصال أساسية بين الشام من ناحية ، وكل من آسيا الصغرى ، و الجزيرة الفراتية ، و شمال العراق من ناحية أخرى . و مما يزيد أهمية العلاقة بين حلب و أنطاكية الصليبية أن إمارة أنطاكية قبل سقوطها بيد الصليبيين كانت تابعة للسلاجقة ، ممثلة في أميرها ياغي سيان الذي عينه السلطان ملكشاه .

ب-القوى الإسلامية في آسيا الصغرى و اشتملت على سلطنة سلاجقة الروم التي كانت تسيطر على وسط وجنوب آسيا الصغرى ، وتتحكم في الممرات المهمة المؤدية إلى أنطاكية .
اتسم تاريخ العلاقات السياسية بين إمارة أنطاكية الصليبية وجيرانها المسلمين خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع هجري بسمتين : الأولى وهي عدم حدوث صراع بين الطرفين و الثانية هي الصراعات المستمرة مع الأرمن .

وليس معنى ذلك أن الحديث سينقطع عن علاقات أنطاكية والمسلمين ، بل إن الصراع بين بوهمند الرابع والأرمن كان من الأسباب التي قربت بين الأول ومسلمي حلب لمدة ليست بالقصيرة.
إن تغير استراتيجية الحروب الصليبية في القرن 13م/7هـ عما كانت عليه في السابق⁽²⁾ واليأس من وصول النجيدات من أوروبا دفع أمير أنطاكية بوهمند الرابع للبحث عن حليف يسانده ضد مطامع الأرمن في بلاده ولم يجد سوى الملك الظاهر في حلب ليقوم بهذا الدور .
في الحقيقة كانت كل الظروف في شمال الشام تحتم وقوع الصدام بين بوهمند الرابع وليو الأول الأرمني . وكان لدى كل منهما ما يجعله يرى الآخر عدوه اللدود .

¹ - بينز، نورمان: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب د.حسين مؤنس، ط1، القاهرة، 1950، ص71 .

² - كانت الأهداف الفكرية والعسكرية للحملة الصليبية الأولى تتركز في الوصول إلى بيت المقدس وأخذها من المسلمين ، لكن في الحملة الصليبية الثالثة كانت عكا هي الهدف العسكري لأهميتها كميناء تجاري ، فأصبحت القدس بالنسبة للحملات في القرن (7هـ/13م) هدفاً اصطلاحياً فقط أما الحملة الصليبية الرابعة فبدلاً من التوجه إلى مصر انخرقت إلى القسطنطينية واستولت عليها ، فكان على الصليبيين في بلاد الشام الانتظار حتى تبعث أوروبا بحملة أخرى إلى الشرق ، واستغرق ذلك ما يقارب خمسة عشر عاماً. ابن واصل: مفرج الكروب، ج2، ص269. الكاتب، عماد الدين : البستان الجامع، ص439.

فبالنسبة لبوهمند لم ينسَ أن ليو قام بالاستيلاء على حصن بغراس سنة (587هـ/1191م) وأصبح يطل على مشارف أنطاكية . كم أنه بحصوله على لقب ملك بتأييد من الامبراطور هنري السادس الألماني سنة 593هـ/1197م أصبح نداً للأمراء اللاتين في شمال الشام ولم ينسَ بوهمند الرابع مطامع ليو في أنطاكية ومطالبه بها حين أسر والده (بوهمند الثالث) بمساعدة سبيلا في سنة (589هـ/1193م) ⁽¹⁾ . ولو اقتصر الخلاف على كونه بين بوهمند وليو لكان من الممكن حسمه بمعركة أو تصالح يتلوه تنازل معين من أحد الطرفين للآخر كما كان يحدث من قبل بين بوهمند الثالث وروبين شقيق ليو ⁽²⁾ . إلا أن هذا الخلاف اجتذب الكثير من أصحاب المصالح في شمال الشام ، أخذ بعضهم جانب بوهمند الرابع ، بينما ساند البعض الآخر ليو الثاني مما أدى إلى تصاعد المشكلة واستحواذها على اهتمام الصليبيين والأرمن والبابوية وحتى المسلمين ، الأمر الذي جعل وضع حد لهذا الخلاف يستغرق أكثر من خمسة عشر عاماً . و تتبع تطورات هذا الخلاف يلقي الضوء على طبيعة العلاقات السياسية بين إمارة أنطاكية وجيرانها المسلمين خلال هذه المدة ، الأمر الذي يحتاج إلى التعرض إليه بشيء من التفصيل .

عندما تولى "بوهمند الرابع" السلطة في (579هـ/1201م) كان يؤيده قومون أنطاكية الذي كان من الطبيعي أن يقف أعضاؤه من اللاتين ضد أطماع الأرمن من جهتهم ⁽³⁾ . ثم كان هناك فرسان الداوية الذين استولى ليو على قلعة بغراس أهم أملاكهم في شمال الشام ⁽⁴⁾ ، ثم جماعة الاسبتارية ⁽⁵⁾ و أخيراً

¹ - في سنة (587هـ/1191م) استولى ليو على حصن بغراس مما أثار مخاوف بوهمند حيث كان حصن بغراس يحمي مدخل الإمارة الشمالي ، أما ليو فقد قرر الانتقام من بوهمند لعدم ضمه إلى الصلح مع صلاح الدين الأيوبي سنة (589هـ/1193م) من جهة ولأسر بوهمند الثالث شقيق ليو (روبين الثالث) من جهة ثانية ، لذلك حاك له مكيدة بمشاركة سبيلا - زوجة بوهمند الثالث - بعد أن وعدها بمساعدة ابنها وليم على تولي حكم أنطاكية دون ريموند وبوهمند الرابع أبناء زوجها بوهمند الثالث من زوجته الأولى . وفي سنة 589هـ/1193م اقترح ليو لقاءً لحل مشكلة حصن بغراس ، وبالفعل أتى بوهمند الثالث وزوجته وابنها ليو فاعتقل بوهمند الثالث والجزء الأكبر من حاشيته . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج1، ق2، ص403-404. ابن واصل: مفرج الكروب ، ج2، ص269. الكاتب، عماد الدين : البستان الجامع ، ص445، 439-446. زكار : الموسوعة الشامية ، ج8، ذيل تاريخ وليم الصوري، ص468. ج35 ، التاريخ المعزو للقائد سمباط، ص300-301.

² - قبض بوهمند الثالث على روبين صاحب قلبيقية ، و أوثقه بالسلاسل ، و لم يفرج عنه حتى افتداه الأرمن بثلاثين ألف دينار مع المصيصية و أذنة . ابن العبري : روايات ابن العبري، زكار ، الموسوعة الشامية ، ج5، ص418-419.

³ - عطية : إمارة أنطاكية ، ص243.

⁴ - عطية : إمارة أنطاكية ، ص237.

⁵ - منح بوهمند للاسبتارية ملكية حصن مرقية بالقرب من حصن المرقب نظير خدمات تؤديها الجماعة له . عطية : إمارة أنطاكية ، ص242-243 .

عرف بوهمند الرابع كيف يستفيد من تأييد الملك الظاهر - صاحب حلب - الذي لم يتخل عنه لمدة تقرب من خمسة عشر عاماً . و يتساءل المؤرخ الفرنسي " كلود كاهن" ما إذا كان بوهمند يدفع للظاهر ثمناً لحمايته وتأييده لأنطاكية ضد الأرمن . ويصل كاهن إلى أن أحداً لم يستطع التأكد من ذلك (1) . إلا أنه من الممكن الرد على هذا التساؤل بالتمعن في ظروف شمال الشام في ذلك الوقت فلقد كان من الواضح للجميع مدى طموح ليو الأرميني منذ استولى على قلعة بغراس في (586هـ/1190م) ، وأصبح يشكل خطراً على المسلمين و لاتين أنطاكية على السواء ، وكان من الطبيعي أن يهدف الظاهر إلى أن يظل الملك الأرميني بعيداً عن أنطاكية ، وإلا ازداد خطره على حلب باستيلائه على إمارة أنطاكية الصليبية .

وكان من الطبيعي أيضاً أن يرفع الظاهر مصالح الأمير بوهمند الذي كان في إمكانه أن يسبب الاضطراب ويثير المتاعب من طرابلس لأي من الأمراء المسلمين في حمص و دمشق إذا ما انقلب أحدهم ضد الظاهر ، و بالنسبة لبوهمند فيكفيه أنه في إمكان الظاهر أن يرد خطر الأرمن ، وبذلك كان التعاون المشترك بين الظاهر و بوهمند الرابع ضرورة أمنتها ظروف كليهما و مصالحهما المشتركة ، ولم يكن الأمر يحتاج إلى أن يدفع بوهمند للظاهر ثمن تحالفه معه كما يتساءل كاهن ، وفي الحقيقة فقد عرض كاهن أغلب هذه الحقائق إلا أنه لم يقدم الاستنتاج الأخير ، ربما لاصراره على الوقوف على دليل مادي يؤكد أو ينفي ما إذا كان هناك ثمناً تقاضاه صاحب حلب من أمير أنطاكية ليكون سنده ضد الأرمن ، و يبدو أن المؤرخ الفرنسي قد نظر في تحليله لهذا الموقف ، بين ملك حلب و أمير أنطاكية ، إلى رد فعل الملك الظاهر ، فقط عند ظهور الخطر الأرمني ضد أنطاكية . لذا لم يرَ كلود كاهن في الأمر سوى نجدة الظاهر لبوهمند ، ففي سنة (601هـ/1204م) هاجم ملك الأرمن " ابن لاون" صاحب أنطاكية فسير الملك الظاهر عسكرياً من حلب لنجدة بوهمند الرابع ، وكذلك عندما هاجم " ابن لاون " أنطاكية و خرب رستاقها(2) ظل الملك الظاهر يمد أهل أنطاكية بالغلل حتى قويت على الرغم من اتفاق الملك الظاهر مع ابن لاون على أن يقف على الحياد في مهاجمته لأنطاكية (3) .

و بالتالي حدد كاهن العلاقة بحاجة اللاتين في أنطاكية إلى نجدة مسلمي حلب ، ولم يرَ أن كليهما

1 - Cahen: La Syrie du Nord, p.593.

2 - رستاق : لفظ فارسي معناه : قرية دخل العربية في العصر الإسلامي ليصبح بمعنى الموضع المشتمل على مزارع وقرى كثيرة بلفظ أحياناً : رزداق . الخطيب : معجم الألقاب والمصطلحات التاريخية ، ص 210.

3 - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص 446.

بحاجة الآخر ، ودليلنا على ذلك أنه لم يحدث بين أنطاكية و حلب ما يعكر صفو العلاقات بينهما سوى احتكاك بسيط بين رعايا حلب من قبائل التركمان و أتباع بوهمند في إقليم العمق⁽¹⁾ لم ينتج عنه شيء بالمرّة ، وانتهى الأمر بمصالحة بين الطرفين و ذلك في نهاية سنة (595هـ/1198م)⁽²⁾ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فعند عودة بوهمند الثالث إلى أنطاكية بعد أن قابل قادة الحملة الألمانية التي استولت على بيروت في سنة (593هـ/1197م) ولم يستطع أن ينال منهم أية مساعدة ، فقد وصل بحراً إلى قبالة حصن المرقب ، ذلك في الوقت الذي توقع فيه الظاهر أن يأتي بوهمند الثالث بمساعدة الألمان للاستيلاء على اللاذقية و جبلة بناء على ما أعلمه به رسل الملك العادل ، فأمر بهدم حصني جبلة واللاذقية⁽³⁾. لكن بوهمند الثالث بعد أن تيقن من عدم مساعدة الألمان له ، رجع عن محاولة الاستيلاء على هذين الحصنين - لتوحيد أنطاكية وطرابلس - فتوجه إلى ميناء السويدية ومنه إلى أنطاكية مباشرة ، إلا أنه توقف قبالة حصن المرقب " وطلب غرس الدين وابن طمان⁽⁴⁾ فوصلا إليه و كلماه إلى جانب البحر فأشار عليهما بأن لا تهدم اللاذقية ، وأخبرهما أن الفرنج فتحوا صيدا وبيروت ، وعادوا إلى صور ، فسيروا وأعلموا السلطان وهو بريحا⁽⁵⁾ فأمر ببناء ما استهدم منها"⁽⁶⁾ ومن هذا النص يُفهم أن بوهمند الثالث قد سعى لمقابلة نواب الظاهر ، وأفادهما ببعض المعلومات عن الصليبيين الألمان وطمأنهم على أنه لا ينوي أخذ اللاذقية وجبلة ، ويبدو أنه قد تم الاتفاق بينه وبين نواب الظاهر على التحالف ، وربما لأن بوهمند الثالث قد يأس من الصليبيين في جنوب الشام ، ومن المعلوم أن بوهمند الرابع أبقى على اتفاقيات أبيه مع كل الطوائف حتى المسلمين ، وربما وجد أنه من الأفضل له أن يستمر في اتفاق أبيه مع الصليبيين ، ويؤكد ذلك أن الظاهر نفسه قد طلب من أمير أنطاكية أن يمدّه بعشرة آلاف رجل من مشاته لمساعدته في الهجوم على ليو سنة

1 - العمق : كورة بنواحي حلب في الشام . الحموي : معجم البلدان ، ج4، ص156.

2 - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص437.

3 - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص436.

4 - غرس الدين قلج النوري كان من أمراء الملك الظاهر ، وكان صلاح الدين قد منحه قلاع الشجر ، ويكاس ، و شقيف دركوش ، ومات غرس الدين سنة 594هـ/1197م ، وحسام الدين عثمان بن طمان أحد أمراء الظاهر في حلب . ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص81. ابن العديم : زبدة الحلب ، ص436.

5 - ريحا : أريحا في سورية: وتقع شرقي جسر الشغور وجنوب إدلب . ابن العديم : زبدة الحلب ، ص609. حاشية (3).

6 - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص609.

(602هـ/1206م)⁽¹⁾، وبذلك يمكن أن نقرر بأن تأييد الملك الظاهر لبوهمند الرابع في صراع الأخير ضد ليو الثاني الأرمني لم يكن إلا تنفيذاً لاتفاقيات تعاون مشترك بينهما، ولم تكن المساعدة من طرف واحد فقط (من الظاهر صاحب حلب) نظير مبلغ من المال .

ارتبط الصراع من أجل أنطاكية بمختلف الصراعات التي كانت تمرق المنطقة وقتها . فلم يتمتع بوهمند الرابع بتأييد الداوية و قومون أنطاكية فقط بل أيضاً بتأييد الملك الظاهر و سلاجقة قونية بينما تمتع "ليون الثاني" بتأييد بطريرك أنطاكية و الاسبتارية بالإضافة لتأييد الملك العادل⁽²⁾.

ففي ربيع سنة (1207م/603هـ) أغار الاسبتارية من حصن الأكراد⁽³⁾ على إقليم حمص و حاصروا المدينة نفسها، فاستجد صاحبها المجاهد أسد الدين شيركوه بالظاهر غازي صاحب حلب الذي أرسل إليه قوة منعت عنه الاسبتارية⁽⁴⁾.

إلا أن اعتداءات الاسبتارية على حمص كانت قد أثارت الملك العادل الذي لم يكن قد نسي بعد اعتداءات القبارصة على السفن الاسلامية ، فخرج العادل من مصر⁽⁵⁾ و وصلت إليه الإمدادات من حلب وحمص وحماة وبلبك والجزيرة حتى بلغت قواه عشرة آلاف فارس عسكر بهم على بحيرة قدس⁽⁶⁾ ، وفي (أيار ، 1207م/شوال ، 603هـ) هاجم حصن الأكراد واشتد في قتاله واستولى على برج أعزاز بالقرب منه⁽⁷⁾ ، وأسر منه خمسمئة رجل . ثم توجه إلى طرابلس و استولى على حصن القليعات⁽⁸⁾ ثم نازل طرابلس نفسها و حاصرها " و ضيق على أهلها أشد تضيق " ، فبعث بوهمند

¹ - من بين المؤرخين المسلمين والصليبيين انفرد ابن واصل بذكر طلب الظاهر لجند أنطاكية . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص170-171.

² - أعلن البابا أنوسنت الثالث ذلك في خطابه إلى ملك فرنسا في سنة (601هـ/1205م) ، مع أن الملك العادل لم يدلّ بدلوه في مشكلة أنطاكية قبل سنة (604هـ/1208م) ، وإن كان كذلك فإنه يدل على بعد نظر . عطية : إمارة أنطاكية ، ص296 .

³ - حصن الأكراد : هو حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب ، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان ، وهو بين بعلبك وحمص . الحموي: معجم البلدان ، م2، ص264.

⁴ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص173.

⁵ - ابن العبري: تاريخ الزمان، ص247.

⁶ - بحيرة قَسْ : هي بحيرة قرب حمص ، وهي بين حمص وجبل لبنان، تنصب إليها مياه تلك الجبال ثم تخرج منها فتصير نهراً هو العاصي. الحموي : معجم البلدان ، م1، ص352. ابن العديم :زبدة الحلب، ص448.

⁷ - أعزاز : بلدة بين حمص والساحل . الحموي : ياقوت البلدان ، م1، ص222. ذكر ابن نظيف أنها طاحونة أعزاز . ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص53. ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص173.

⁸ - حصن القليعات : حصن يقع شمالي طرابلس بالقرب من الساحل . ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص53.

الرابع " يخضع له ، ويبحث له مالا و هدايا ، وثلاثمائة أسير ، ورغب في الصلح فصالحه " و ذلك في (30 ذي الحجة ، 603هـ / 27 تموز ، 1207م)⁽¹⁾

و لم يباعد بين الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - و بوهمند الرابع - أمير أنطاكية - سوى تعدي بوهمند دون تفكير على أتباع ملك حلب من الحشيشية الذين كانت لهم القيمة نفسها التي كان يتمتع بها بوهمند كحليف ربما يفيد الظاهر في مواجهة طموح أي من أفراد أسرته في بلاد الشام أو مصر و لو عن طريق الاغتيال ، و دون المشاركة العسكرية .

ففي سنة (610هـ/1213م) اغتال الحشيشية ريموند⁽²⁾ الابن الأكبر لبوهمند الرابع في كاتدرائية أنطربوس⁽³⁾ و أراد بوهمند الرابع أن يثار لهذه الجريمة ، و استغل فرصة هجوم الاسبتارية على حمص وحماة بمساعدة الصليبيين من عكا وقبرص وقيليقية في (جمادى الآخر ، 611هـ / تشرين الأول ، 1214م)⁽⁴⁾ ، وهاجم بوهمند الرابع أملاك الحشيشية و حصن الخوابي⁽⁵⁾ ، وحاصره حصاراً شديداً ، فطلب الحشيشية مساعدة الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - ، الذي أرسل إليهم بمائتين من المشاة وفرقة من الفرسان ، ليدخلوا إلى الحصن و يمنعوا الفرنج من الاستيلاء عليه⁽⁶⁾ . ثم أمر الظاهر بخروج فرقة أخرى من حلب بقيادة سيف الدين بن علم الدين ليشغلوا الفرنج من ناحية اللاذقية ، و بذلك يجعل الفرنج يغيرون من اتجاهاهم . إلا أن الفرنج عندما علموا بهذه التحركات نصبوا كميناً للمشاة والفرسان الذين كانوا يحرسونها ، واسروا وقتلوا أول من وصل منهم ، وأخذوا ثلاثين آخرين و

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص173.

² - أنجب بوهمند الرابع من زوجته الأولى بليزانس ابنة هيو حاكم جبيل أربعة أبناء مات ثلاثة و عاش الرابع و هو بوهمند الذي سيخلفه في حكم أنطاكية ، و كان ريموند أكبر الأربعة ، وعينه بوهمند الرابع وريثاً له قبل ان يغتاله الحشيشية . ثم تزوج بوهمند الرابع من ميليسند لوزينان ابنة هيو الأول ملك قبرص وانجب منها ابنتان . عطية : إمارة أنطاكية ، ص299.

³ - شك بوهمند الرابع في أن الاسبتارية هم الذين دفعوا الحشيشية لقتل ابنه ، وكان الحشيشية يدفعون الجزية للاسبتارية . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص224. ابن العديم : زبدة الحلب ، ص452. عطية : إمارة أنطاكية ، ص292.

أنطربوس (طرطوس) : بلد من سواحل بحر الشام ، و هي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية و أول أعمال حمص ، و قال أبو الفاسم الدمشقي : من أعمال طرابلس المطلة على البحر ، لها برجان حصينان كالقلعتين . الحموي : معجم البلدان ، م1، ص270.

⁴ - رجع الفرنج عن حمص وحماة بعد تدخل الملك الظاهر و اكتفوا "من الملك المنصور بشيء حمله إليهم " ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص223. ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، م5، ج1، ص153.

لم يكن من الممكن أن يشارك الأرمن في هذا المشروع ، وإن كان قد شهد مقدم الاسبتارية حصار بوهمند الرابع للخوابي . عطية : إمارة أنطاكية ، ص302.

و بالطبع لم يشارك القبارصة في هذا المشروع بصفة رسمية و لا بد لنهم كانوا بعض المرتزقة القبارصة .

⁵ - الخوابي : قلعة على بعد 15 ميلاً شمالي طرابلس و جنوبي أنطربوس بطريق البحر . القلقشندي: صبح الأعشى ، ج4، ص146.

⁶ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص224.

ذلك في (11 رجب، 611هـ / 16 تشرين الثاني، 1214م)⁽¹⁾ فخرج المعظم ابن الملك العادل من دمشق بعسكره ، ودخل اراضي طرابلس ، ونهب كل ضياعها ، فرحل الفرنج عن الخوابي⁽²⁾ خاصة بعد أن أرسل الظاهر غازي نجدة أخرى إلى حصن الخوابي ، استطاعت أن تدخل الحصن في وقت غارة المعظم ، و بعث الظاهر إلى الفرنج يعلمهم أنه لا يمكنهم من الاسماعيلية فرحلوا إلى أنطاكية⁽³⁾ وأطلقوا الأسرى الذين أسروهم من عسكر الظاهر ، و لم يبقَ أمام بوهمند إلا أن يعتذر إلى الظاهر⁽⁴⁾ ، إلا أن الجفاء حل محل الود بين الظاهر غازي وحليفه بوهمند الرابع ، و خاصةً مع انتشار شائعات بحملة صليبية جديدة أسفرت عن لم شمل المسلمين ، و بدأ الظاهر يتوعد لعمه العادل .

أما في عهد ريموند رويين ، فلم يروِ المؤرخون أنه قد قام بأي عمل ضد المسلمين ، بالرغم من أن الفرصة قد توفرت له بما حل من خلافات بين المسلمين في حلب بعد وفاة الملك الظاهر غازي (الثلاثاء 20 جمادى الآخر، 613هـ / 4 تشرين الأول، 1216م) ، كما أنه لم يستغل انشغال الحلبين في التصدي لأطماع سلاجقة الروم في حلب في العام التالي و لانشغال المسلمين في مصر وبلاد الشام بالتصدي للصليبيين من بواذر الحملة الصليبية الخامسة ، و يبدو أن حادثة سن ريموند عندما اعتلى عرش أنطاكية⁽⁵⁾ لم تؤهله لأن يحل محل أمرائها المتقدمين .

بعد وفاة الملك الظاهر وعمه العادل ، انتهت المصلحة بين حلب و أنطاكية لزوال التوتر في العلاقات بين الأيوبيين ، و لم يعد هناك حاجة للملك العزيز في حلب لمساندة أنطاكية التي باتت تشكل خطراً على حلب في حال استولت على كليكية ، لذلك نجد شهاب الدين طغرل يساند الأرمن في سنة (622هـ/1225م) ضد بوهمند الرابع و يهاجم حصن بغراس⁽⁶⁾ و نتج عن تدخل الحلبين في الصراع بين بوهمند و الأرمن ، و مهاجمة الحلبين لأملاك الداوية في بغراس ، أن ظلت العلاقات

¹ - يذكر كل من ابن واصل و ابن الفرات على العكس من ابن العديم ، الذي كان أكثر دقة وتفصيلاً في سرد احداث هذه الواقعة ، ان الظاهر خرج بنفسه لنجدة الحصن .ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3،ص224.ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، تح : محمد حسن الشماخ ،م5،ج1 ،ص154 .ابن العديم : زبدة الحلب ،ص452.

² - ابن العديم :زبدة الحلب ،ص452.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ،ص452.

⁴ - ابن واصل: مفرج الكروب،ج3،ص224.ابن الفرات :تاريخ الدول والملوك،م5،ج1،ص154.رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص184.

⁵ - ولد ريموند في سنة 1199م ، و كان في السابعة عشرة من عمره عندما اعتلى عرش أنطاكية .عطية : إمارة أنطاكية ،ص302.

⁶ - انظر الفصل الرابع ، مبحث العلاقات الأرمنية الأيوبية.

متوترة بين الداوية والتركمان في إقليم العمق شمالي أنطاكية، و نتج عن ذلك اعتداءات متبادلة بين الطرفين في سنة (624هـ/1227م)⁽¹⁾.

إن استمرار الصراع بين بوهمند الرابع و بين الأرمن حوالي عشرين سنة ، جعله ينشغل عن المسلمين طوال تلك المدة ، بل و يتحالف معهم إلى جانب سلاجقة الروم ، ضد الأرمن ، دون أن يتفرغ لتحقيق أية مكاسب على حساب المسلمين ، أو حتى يسترد لإمارته ما كان قد ضاع من أملاكها على أيدي صلاح الدين بعد حطين ، و كل ذلك جعل مدة حكم بوهمند الرابع تتسم بالهدوء النسبي في علاقاته مع المسلمين ، و لم يكن الصراع ضد الأرمن فقط هو السبب وراء هذا الهدوء ، بل كانت هناك عوامل أجبرت كلاً من المسلمين و الصليبيين بصفة عامة على تجنب القيام بأعمال عسكرية أحدهما ضد الآخر ، و انتهاج الصليبيون سياسة سلمية تجاه المسلمين بعضها:

- الحروب الداخلية بين خلفاء صلاح الدين الأيوبي على تقاسم مناطق النفوذ.
- اضطراب أحوال الصليبيين في الشرق الأدنى عامة ، سواء في قبرص أو بلاد الشام ، و الانحلال الداخلي.
- إخفاق الحملات الصليبية في تحقيق أمن و استقرار الإمارات الصليبية.
- انتظار الفرنج في بلاد الشام للحظة التي يتأهب فيها الغرب الأوربي لنجدتهم .
- فقر المناطق التي يحتلها الصليبيون في بلاد الشام و حاجتهم إلى المكاسب التجارية التي تتحكم فيها الجاليات الإيطالية .

تحالف بوهمند الخامس مع الاستبارية ضد المسلمين في بعين :

كانت العلاقة بين إمارة أنطاكية و جيرانها المسلمين رهناً بالظروف الخارجية ، و ليس كما تفرضه سياسة أمرائها ، فإن ظروف بوهمند الخامس لم تكن تسمح له بأن يضع سياسة خارجية لإمارة أنطاكية لضعفه من جهة و ضعف موارده الإقتصادية من جهة ثانية . و لما كانت الهدنة بين الملك الكامل و فريدريك الثاني في فلسطين قد أجبرت جماعات الفرسان الرهبان - و هم القوة الصليبية التي كان

¹ - أسر التركمان المقيمون بأطراف حلب أحد فرسان الداوية بأنطاكية و قتلوه ، فهاجم الداوية قبائل التركمان في إقليم العمق ، و قتلوا منهم و أسروا الكثيرين . فأرسل شهاب الدين طغرل أتابك حلب إلى الداوية بأنطاكية يتهدهم بقصد بلادهم ، و قتل عسكر حلب فارسين من الداوية الذين اضطروا إلى رد أسرى التركمان و أذعنوا للصالح ، و قد انفرد ابن الأثير بذكر هذه الواقعة دون المؤرخين المسلمين و الصليبيين . ابن الأثير : الكامل، م10، ص475.

بمقدورها القيام بأعمال عسكرية لانتعاش مواردها⁽¹⁾ - على التخلي عن مشروعاتهم العسكرية ضد المسلمين في فلسطين . فقد وجدت جماعة الاسبتارية والداوية في أملاك بوهمند في أنطاكية وطرابلس قاعدة عسكرية ضد المسلمين المجاورين . فبعد تولي بوهمند الخامس الحكم في أنطاكية ، اضطر إلى المساهمة في حملة قامت بها جماعة الاسبتارية - من حصن الأكراد- ضد أمير حماة المظفر تقي الدين الثاني في (631هـ/1234م)⁽²⁾، و ذلك لإجباره على الاستمرار بدفع الجزية التي كانت الجماعة تجبئها من حماة⁽³⁾. فأرسل أخاه هنري مع فرق من عكا و قبرص⁽⁴⁾ لمساندة الاسبتارية ، وشكلت هذه الحملة أكبر عرض صليبي للقوة في المشرق السوري يمكن تأمينه في هذا الوقت ، و قد اجتاح الصليبيون أراضي حماه و نهبوا دون أن يتحداهم أحد، و لم يكفوا عن أعمالهم العدوانية ضد أملاك المظفر إلا بوصول الملك الكامل من مصر على رأس جيش كبير⁽⁵⁾ ، فتوسط الكامل لإنهاء الخلاف بين المظفر و الاسبتارية ، و قنع المظفر بدفع الجزية إلى الاسبتارية و استمرت الهدنة المجددة حتى سنة (635هـ / 1237 م)⁽⁶⁾ .

وإن هذه الحادثة دلت على مدى الإمكانات البشرية العسكرية الرهبانية⁽⁷⁾ في ذلك الوقت ، و التي لم تتوفر للأمرأ الصليبيين في بلاد الشام ، كما أنها ألقت الضوء على سياسة بني أيوب تجاه الفرنج في بلاد الشام . فعلى الرغم من القوة العسكرية الكبيرة التي كانت لدى الكامل و التي تتفوق على القوة

¹ - كانت البابوية و حكام غرب أوربة يبعثون الهيات و المساعدات للجماعات العسكرية الدينية في بلاد الشام بشكل منتظم منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي . Cahen, La Syrie du Nord, p.660.

² - عطية : إمارة أنطاكية الصليبية و المسلمون ، ص348.

³ - كندي، هيوغ: القلاع الصليبية، زكار: الموسوعة الشامية، ج52، ص217.

⁴ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص258. كندي، هيوغ: القلاع الصليبية، زكار: الموسوعة الشامية، ج52، ص217.

⁵ - كان الملك الكامل متوجهاً مع كل أمراء بني أيوب في مصر والشام إلى إقليم الجزيرة لمحاربة علاء الدين كيقباز - سلطان سلاجقة الروم - فقد تجمع تحت لواء الملك الكامل " أكثر من ستة عشر ملكاً " .

⁶ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص258. ابن العديم : زبدة الحلب، ص490. كندي، هيوغ: القلاع الصليبية، زكار: الموسوعة الشامية، ج52، ص218.

⁷ - جمع جويرين "Guerin" مقدم الاسبتارية (1230-1236م) 500 فارس و 2,700 من المشاة من كل اسبتارية الحصن ، و الداوية بقيادة مقدمهم وولتر أوف بريين، و من مملكة بيت المقدس ثمانون فارساً بقيادة بيير دي أفالون - ابن أخت الكندسطل مونتبليارد- ، و مائة فارس من قبرص بقيادة جون أوف إيبيلين - صاحب بيروت- ، و ثلاثون فارس من أنطاكية ، ، و من الملاحظ أن معظمهم من الاسبتارية مما يدل على أنه لم يعد بإمكان الأمراء الصليبيين أن يبلغوا ما بلغته الجماعات الدينية العسكرية من قوة بدءاً من القرن السابع هجري / الثالث عشر الميلادي . كندي، هيوغ: القلاع الصليبية، زكار: الموسوعة الشامية، ج52، ص217. عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص346-347 .

Cahen, La Syrie du Nord, p.660.

العسكرية للاستراتيجية وحلفائهم ، فإن الكامل فضل التفرغ لمحاربة السلاجقة على مساندة المظفر ضد الاستراتيجية لذا أقنعه بدفع الجزية ،و يمكن إرجاع موقف الكامل للأسباب التالية:

- لأن الكامل محمد بن العادل استولت عليه الرغبة بالتفرغ لقتال أخوانه في الشام و أفراد بيته مما أدى إلى غياب الأيوبيون عن استغلال الحروب الفرنجية الداخلية بعد عودة فريدريك الثاني إلى إيطاليا.
- لأنه لمس ضآلة الخطر الصليبي مقارنة بالخطر السلجوقي من جهة ، و لأن الجزية عن بعين لا تستحق ضياع خلاط و غيرها من أملاك الأيوبيين في إقليم الجزيرة من جهة ثانية .⁽¹⁾
- كان الأمراء المسلمون جميعاً مدركين للمزايا التجارية للموانئ البحرية الفرنجية القريبة من حدودهم ، لذلك كرهوا المجازفة بتغيير مسار التجارة الضخمة بين الشرق و الغرب ، و كان الكامل خاصة حريصاً على تهيئة الإزدهار المادي لرعاياه لربما لينسيهم تنازله عن القدس ،و علاقاته الحسنة مع فريدريك الثاني.

و على الرغم من مساعدة بوهمند الخامس للاستراتيجية في حماة ، فإنه لم يكن يجازف بحسن العلاقة بين أنطاكية وحلب التي استمرت خلال مدة حكم بوهمند الرابع - أمير أنطاكية - و الملك الظاهر غازي - ملك حلب - ، و ذلك لضعف موارد أنطاكية مما لم يسمح له بالدخول في صراع ضد جيرانه المسلمين من جهة ، و لأنه نفسه لم يكن يتميز بقوة الشخصية كأمر صليبي ، و قنع بالبقاء في طرابلس ، و لم يحاول استغلال اضطراب أحوال المسلمين في بلاد الشام و استمرار النزاعات بين أبناء البيت الأيوبي . لذلك دخل كوسيط بينهم و بين الداوية الذين استغلوا وفاة الملك العزيز في حلب في (ربيع الأول، 634هـ/ تشرين الثاني، 1236م) لمهاجمة التركمان في إقليم العمق⁽²⁾، لاعتقاد الداوية أن حلب لن تدافع عن التركمان لسوء علاقتهم بها⁽³⁾ . فخرج المعظم تورانشاه على رأس قوات حلب و حاصر حصن بغراس و أوشك على أخذه ، لولا أن سارع بوهمند الخامس بالتوسط لدى الحلبيين، وأقنعهم بالعدول عن حصار حصن بغراس ، و عقد هدنة مع الداوية ، وافق المعظم تورانشاه على طلب بوهمند الخامس :

- لحسن العلاقات بين بوهمند الخامس و بين حلب .

¹ - عاشور : الحركة الصليبية ، ج2، ص1025. عطية : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون ، ص349 .

² - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص258.

³ - في سنة (634هـ/1237م) أغارت جموع التركمان بقيادة أمير قنغر و نهبوا ضياعاً متعددة في أكثر من مرة ، فخرج إليهم عسكر حلب " فكسر ذلك العسكر و نهب " . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج5، ص131. ابن العديم : زبدة الحلب ، ص490 .

- لاضطراب العلاقات بين حلب و الملك الكامل .
 - خوف الحلبيين من استعانة الداوية بمن لا يحرص على حسن العلاقات مع حلب من الصليبيين في مدة قد ييخل الملك الكامل على حلب بالمساعدة.
 - لم يتابع المسلمون انتصاراتهم ، إذ أنهم تلقوا وعداً بمبالغ وفيرة من المال لافتداء أسرى الفرنجة.⁽¹⁾ و يمكن القول هنا أن بوهمند الخامس رغم ضعف شخصيته و نزوحه للسلم إلا أنه لم تكن تنقصه الحنكة و الخبرة السياسية ، فرغم خذلان الداوية له في أرمينية و تخليهم عنه ⁽²⁾ إلا أنه سارع للتوسط بينهم وبين الحلبيين لعدة أسباب منها:
 - إن وجود الداوية في حصن بغراس أكثر أمناً لأنطاكية مما لو كان بيد المسلمين أو الأرمن.
 - حرص أمير أنطاكية على الظهور بمظهر المحافظ على حسن علاقاته مع حلب ، فهو لم يتدخل عسكرياً في هذا النزاع و إنما توسط لحل الخلاف بين الداوية وحلب .
 - الحفاظ على هدوء حدود إمارة أنطاكية و خصوصاً بعد استبعاد فريدريك الثاني أملاك بوهمند من اتفاقيته مع الكامل .
- و يبرز حرص بوهمند الخامس على مسالمة المسلمين المجاورين لأملكه التي استبعدتها اتفاقية فريدريك الثاني والكامل محمد ، والتي سعى بوهمند إلى ألا يكون لها أي تأثير على إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس اللتين يتولى حكمهما ، عندما رفض طلب البابا جريجوري التاسع في (ذي الحجة 634هـ/حزيران، 1237م) بالسعي لإطلاق أسرى الداوية و تبادلهم مع أسرى المسلمين على أن يدفع هو - البابا جريجوري - فدية البعض منهم.
- استاء وليم دي مونتفيرات "Guillaume de Montferrate" - قائد الداوية في أنطاكية - من عقد بوهمند الخامس الهدنة مع مسلمي حلب و أعلن أنه سيخرق الهدنة ضارباً برغبات بوهمند عرض الحائط ⁽³⁾، وفي سنة (634هـ/1237م) زحف وليم دي مونتفيرات " Guillaume de Montferrate" - قائد الداوية في أنطاكية - لمحاصرة حصن درب ساك بمساعدة جي حاكم جبيل الذي بدأت علاقاته بسيدة بوهمند الخامس تسوء و خرق الهدنة مع الحلبيين . إلا أن عسكر حلب

¹ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص258.

² - انظر الفصل الرابع ، مبحث العلاقة مع أنطاكية.

³ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص258.

تمكن من هزيمة الداوية هزيمة كبيرة و قتل مقدمهم و أسر عدد منهم . أفقدت هذه الهزيمة الداوية شجاعتهم فلم يقوموا بأي أعمال عدوانية ضد المسلمين في حلب لسنوات طويلة تالية⁽¹⁾.

لم يشأ بوهمند الخامس في هذه المرة أن يتدخل لصالح الداوية ، الذين خرخوا الهدنة التي كان له الفضل في عقدها مع المسلمين.

إن اتخاذ بوهمند الخامس سياسة سلمية تجاه جيرانه المسلمين في أنطاكية يمكن رده لعدة أسباب منها :

1- خلال حقبة حكم بوهمند الخامس لم يكن هناك حاكم مسلم كصلاح الدين يوحد كلمة المسلمين و يشكل تهديد لأملاك الصليبيين بشكل عام و صليبيي أنطاكية بشكل خاص .

2- لم يكن هناك صراع دائم بينه و بين الاسبتارية والأرمن و حتى البابوية وكنيسة أنطاكية لتعرقل جهوده الصليبية .

3- لم يكن ثمة صراع بينه و بين أتباعه ، ولم تكن هناك حرب أهلية بين الصليبيين في بيت المقدس لتشدده إليها .

لم يغير بوهمند السادس من سياسة أبيه تجاه المسلمين شيئاً، لوقوع حلب تحت حماية المغول ، و لتورطه في الخلافات بين القوى الصليبية في بلاد الشام ، ومن حسن حظه أن جيرانه من المسلمين في حلب قد انشغلوا في الخلافات التي نشبت بين الناصر صاحب حلب و دمشق من جهة والمماليك الذين استولوا على مصر من جهة ثانية . و يبدو أن قبائل التركمان الرحل هم من تولوا مهمة مجابهة الصليبيين في شمال الشام عوضاً عن الأيوبيين الذين انشغلوا بخلافاتهم الداخلية و خلافاتهم مع المماليك .

ب- العلاقة مع المغول :

أرسل بيجو القائد المغولي في سنة (642هـ/1244م) إلى بوهمند الخامس يأمره بالخضوع و القيام بالآتي :

1- تدمير كل استحكامات مدنه و قلاعه .

2- أن يرسل بوهمند الخامس إلى الخان كل الايرادات- ذهباً و فضة- التي يحصل عليها من إمارته .

3- أن يرسل إلى منغوليا ثلاثة آلاف عذراء.

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص491. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص133. أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص159. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص258.

إلا أن بوهمند رفض هذه المطالب ، و قرر تحدي المغول و توقع مهاجمة المغول له .⁽¹⁾
حاول هيثوم الأول - ملك أرمينية - إقامة حلف مسيحي كبير لمساعدة المغول ، لقي هذا الحلف قبولاً
عند بوهمند السادس - أمير أنطاكية - فأعلن موافقته غير أن الفرنج بسائر جهات آسيا نفروا منه ⁽²⁾
.

بعد سقوط حلب (658هـ/1260م) بيد المغول و هرب الناصر يوسف من دمشق ، و وصول التتار
إلى حارم أضخوا على حدود إمارة أنطاكية . فانتشر الخوف من المغول و لم يكن بنو أيوب وحدهم
الذي دفعهم الفرع من المغول إلى الخضوع لهم أو التخلي عن بلادهم . فقد شعر الصليبيون بالخوف
نفسه ، و لما كان الخطر المغولي قد وصل إلى حلب ، فإن أول من شعر بهذا الخطر من الفرنج هم
أهل أنطاكية ، فسارع أعضاء قومون أنطاكية و قدموا فروض الولاء والطاعة إلى المغول بعد أن
تولاهم الفرع عندما رأوا جحافل التتار تجتاح حدود أنطاكية مدمرة المناطق الريفية - بالرغم من حاجة
التتار الدائمة إلى الكلاء- و استولت على بلاطنس و حصن صهيون ، و سبق بذلك أهل أنطاكية
أميرهم في الخضوع للمغول الذي حاز قدراً من الغنائم التي نهبها المغول من حلب ⁽³⁾. و قد تصور
الأنطاكيون أن النتيجة الوحيدة لخضوعهم للتتار هي دفع الجزية ، إلا أن الأحداث أثبتت غير ذلك ،
فقد خضعت أنطاكية للإهانة الدينية ، فقد كان يوثيميوس "Euthymius" بطريرك أنطاكية للروم
الأرثوذكس ، الذي طرده بوهمند من المدينة و قطعه من الكنيسة البطريرك اللاتيني أوبيزو من قبل ،
قد وصل إلى هولكو و أعلن خضوعه له ، فما كان من الأخير إلا أن قرر إعادة البطريرك
الأرثوذكسي إلى منصبه في أنطاكية⁽⁴⁾ .

و في الحقيقة لم يكن بوهمند في حالة تسمح له بمقاومة الغزو المغولي ، فحذا حذو رعاياه في أنطاكية
و أعلن خضوعه للتتار بكل ممتلكاته في أنطاكية و طرابلس ، وعلى الرغم من ضمانات الأمن التي
طلبها بوهمند السادس ، فإن المغول استمروا في الاعتداء على أملاك أنطاكية ، و ذبح رعايا بوهمند
و نهب ممتلكاته ، فما كان من الأخير إلا أن استغل دعوة صهره هيثوم بالتوجه إلى هولكو بنفسه ، و
ذهب بوهمند إلى القائد المغولي و ألقى بنفسه تحت قدميه و أعلن خضوعه له .

¹ - عطية : إمارة انطاكية ، ص377.

² - العريني : المغول ، ص200.

³ - العريني : المغول ، ص245.

- الصياد : المغول في التاريخ ، ص250.

⁴ - العريني : المغول ، ص245.

لقد كان على بوهمند أن يدفع ثمن السلام الذي منحه إياه المغول ، فبعد أن سجد أمام هولاكو مثل العبيد ، ووافق على إعادة البطريك الأرثوذكسي إلى منصبه في بطريركية أنطاكية ، مضحياً بوحدة الكنيسة اللاتينية في الشرق ، و بالطبع لم تكن مصالح الكنيسة تهم بوهمند ، الذي حرص مثل أسلافه من أمراء أنطاكية - بدءاً من بوهمند الثالث- على مصالحه الشخصية دون النظر إلى الصالح الصليبي العام .و تلقى بوهمند من المغول في المقابل ثمن خضوعه لهم . فقد سلم له المغول كل أملاكه في وادي نهر العاصي و التي كانت بحوزة المسلمين مثل دركوش و كفر دويين و كفر بايمس و كشفهان التي بقيت في حوزته حتى سقوط أنطاكية في أيدي المماليك سنة 666هـ/1268م⁽¹⁾ ، كما استولى بوهمند في الوقت نفسه على اللاذقية⁽²⁾ لأهميتها في ربط أملاكه في أنطاكية و طرابلس إلى جانب كونها ميناء أنطاكية الرئيسي ، وكذلك استولى على جبلة⁽³⁾ . و هكذا استغل بوهمند الفوضى التي اثارها الغزو المغولي في أملاك المسلمين ، و استطاع ربط كونتية طرابلس بإمارة أنطاكية بعد انفصال دام ثلاثة أرباع القرن .

كان على بوهمند بعد ذلك أن يشارك المغول في دخول دمشق⁽⁴⁾ ، و تم دخول المدينة دون مقاومة أهلها في (ربيع الأول ، 658م/ آذار، 1260م)⁽⁵⁾ ، و حصل المسيحيون على حق الاحتفال علانية بسيادة عقيدتهم، فأمر بوهمند الذي رافق كتبغا و هيثوم بأن يحول مسجد دمشق إلى كنيسة⁽⁶⁾ ، كما أن بوهمند ساعد المغول في الاستيلاء على بعلبك و كان ينوي أن يطلبها من كتبغا لنفسه⁽⁷⁾ ، ولقد

¹ - يذكر ابن عبد الظاهر أن استيلاء بوهمند على هذه الأماكن قد حدث عندما أخذ المغول حلب ،ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ،تح. عبد العزيز الخويطر ، الرياض ، ط1976، ص1، ص324.الصياد : المغول في التاريخ ،ص295.

² - يذكر كلود كاهن أن استيلاء بوهمند على اللاذقية كان بمساعدة الداوية و الاسبتارية دون أن يقدم ما يثبت ذلك ، و في الحقيقة ليس هناك ما يؤكد اشتراك الجماعتين مع بوهمند في أخذ اللاذقية ، وقد ذكر بيبيرس في خطابه لبوهمند السابع سنة 673هـ/1285م يلومه على أن والده (بوهمند السادس) قد استولى على اللاذقية دون وجه حق ، ومن المرجح أن بوهمند السادس قد استغل الفوضى التي سببها الغزو المغولي بين صفوف المسلمين و سارع بالاستيلاء على اللاذقية . العريني : المغول ، ص245. ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص299-300.

Cahen : La Surie du Nord, p.706

³ - إن الداوية والاسبتارية قاما بمساعدة بوهمند السادس في استرداد جبلة من المسلمين ، و تقاسمت الجماعتان المدينة بينهما .ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ،ص330.

⁴ - الهمذاني ، رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج2، ص1، ص307-308.

⁵ - ابن العميد : تاريخ الأيوبيين، ص174.

⁶ - ابن كثير : البداية والنهاية ، ج13، ص219.

⁷ - المقرئزي : السلوك ، ج3، ص204. ابن تغري بردي : المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي ،تح. نبيل محمد عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1985م، ج3، ص515.

كان من الطبيعي أن يستعين هولاكو برأي بوهمند عند غزو دمشق ،بعد أن استفاد هو و هيثوم الأول من الاستيلاء على حلب ، و في سنة (659هـ / 1260م)، دخل كتبغا إلى دمشق على رأس الجيش المغولي ، و بصحبته ملك أرمينية الصغرى ، و أمير أنطاكية (1).

على الرغم من أن بوهمند بتحالفه وخضوعه للمغول تمكن من استعادة أملاكه و ربط إمارة أنطاكية و كونتية طرابلس ، إلا أن هذا لا يعني أن تحالفه مع المغول قد كان إيجابياً تماماً حيث تم حرمان بوهمند و قطعه من الكنيسة لموالاته المغول (2)، و أرسل بارونات أنطاكية رسالة إلى شارل كونت أنجو - شقيق لويس التاسع - يصفون فيها الأخطار السياسية و الأدبية لزحف المغول ، و يطلبون منه المساعدة (3) ، كما أن الفرنج في عكا أنكروا الصداقة بين بوهمند السادس و التتار ، فليس استرداد اللاذقية من الأهمية عندهم مقارنة بالإهانة التي لحقت بالكنيسة اللاتينية (4)، بالإضافة إلى أن تحالف بوهمند مع المغول جعله هدف الانتقام الإسلامي ، و هكذا على الرغم من علاقات أنطاكية الجيدة مع المغول و الأرمن فقد كسبت العديد من العداوات مما جعلها تدفع ثمن خضوعها للمغول .

ج- العلاقة مع القوى الصليبية الأخرى :

إن علاقة بوهمند الرابع مع القوى الصليبية الموجودة في الشرق ، و الحملات الصليبية اتسمت باتباع مصالحه الشخصية و المنفعة بعيداً عن أهداف الفرنجة التي حملتها الحملة الصليبية الأولى التي جاءت بآل بوهمند إلى أنطاكية .

لذلك نجده يسارع لمساعدة الداوية في (617هـ / 1220م) ، عندما أغار الملك المعظم عيسى صاحب دمشق على مملكة بيت المقدس ، و تقدم إلى عثليت (5) معقل الداوية الذين عادوا من دمياط للدفاع

¹ - العريني : المغول ،ص246-247.

² - في(16 رجب ،661هـ / 26 أيار ،1263م) ، أصدر البابا أوربان الرابع قرار الحرمان ضد بوهمند السادس لخضوعه للمغول و إحلاله بطريكاً أرثوذكسياً في كرسي بطريركية أنطاكية محل البطريك اللاتيني الكاثوليكي ، وبعث البابا بذلك في خطاب إلى بولس أسقف طرابلس .العريني : المغول ،ص245.عطية : إمارة أنطاكية،ص437-438.

³ - ومن المرجح أن البارونات وقعوا تحت تأثير البنادقة ، الذين تربطهم علاقات تجارية وثيقة مع مصر .العريني ،ص245.

⁴ - عدّ اللاتين التتار إنما نزعو إلى محاباة الروم على حساب اللاتين ، و الدليل على ذلك ما خص التتار به البطريك ايثيموس من العطف ، فأضحى مقبولاً عندهم و عند البلاط البيزنطي فهو الذي صحب ماريا ابنة الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس ، إلى تبريز . لعقد قرانها من ابغا بن هولاكو في سنة 1265م. العريني : المغول ، حاشية 1،ص246.

⁵ - عثليت، قصر الحجيج (Castel Pellegrino): قلعة متداعية ، و بلدة تقع فوق شبه جزيرة صغيرة ، على بُعد نحو عشرة أميال جنوب ميناء حيفا ، شيدها غوتيه دافين (Gauteir d'Avesnes) بمساعدة عدد من الحجاج و عدد من طائفتي الداوية و التيوتون ، لتحل محل قلعة الداوية القديمة (التي تبعد نحو ميل عنها) ، كما أن أساسات الأسوار لهذه القلعة تعود إلى مستوطنة فينيقية قديمة صغيرة . ظلت القلعة

عن أملاكهم ، فأسرع بوهمند الرابع بإرسال النجدات إليهم ، الأمر الذي مكنهم من الصمود أمام حصار المعظم لهم ، و دفعه إلى الرجوع عنهم⁽¹⁾.

في حين أنه لم يتحرك لصد هجمات الملك المعظم على أملاك الداوية في (محرم ، 617هـ/آذار ، 1220م) ، عندما استولى على قيسارية⁽²⁾ ، و دمرها ، ثم قام بتدمير صافيتا ، و كانت أقوى الحصون التي يمتلكها الداوية⁽³⁾ .

و هنا يبرز تساؤل تحدد الإجابة عليه طبيعة موقف بوهمند الرابع . لماذا قام بوهمند بمساعدة الداوية ؟

لما لم تكن الحملة الصليبية الخامسة على مصر تخدم مصالح بوهمند الرابع فإنه لم يشترك فيها منذ البداية . إلا أن الأمر قد اختلف بعد أن أصبح بوهمند الرابع حاكماً لأنطاكية ، و في الحقيقة لم تأت مساعدته للداوية عن رغبة تلقائية في مساعدتهم نتيجة لحماسة صليبية اعترت بوهمند ، و لكنها كانت فرصة توفرت لبوهمند كي ينال رضا المندوب البابوي بيلاغوس ومن ثم يحصل على اعتراف البابوية به كأمر لأنطاكية . وكانت مساعدة بوهمند للداوية بناءً على طلب المندوب البابوي نفسه كما يذكر أوليفر مؤرخ الحملة الصليبية نفسه⁽⁴⁾. فإذا كان بوهمند الرابع أول من لبي نداء بيلاغوس ، فمن المؤكد أنه سينال عفو .

فقد كان بيلاغوس قد أصدر قرار الحرمان ضد بوهمند حين أقصى ريموند عن عرش أنطاكية⁽⁵⁾، وهو القرار الذي جعلته مشاغله في دمياط ، أو مساعدة بوهمند الداوية في عثليت يتناساه ، و لأن حرمان بوهمند الرابع يزيده عناداً ، و ربما يدفعه للقيام بعمل يضر بالصليبيين بصفة عامة . لذلك كتب البابا هونوريوس الثالث إلى بيلاغوس في (16 جمادى الأولى، 618هـ/ 9 تموز 1221م) و هو

حتى مدة كبيرة من أوائل القرن التاسع عشر مصدراً لمواد البناء من أجل دفاعات عكا، و كانت النتيجة أن أزيلت القلعة كلها تقريباً. فينر ،فولفغانغ مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص92-93.

¹ - فينر : القلاع أيام الحروب الصليبية، ص 103، 93. عطية : إمارة أنطاكية، ص 314.

² - قيسارية (CAESAREA): كانت مرفأ هام من مرفأ فلسطين في العصور القديمة و العصور الوسطى ، و هي تقع في خليج طبيعي بين حيفا و يافا، و لقد ظل الموقع مهجوراً منذ نهاية القرون الوسطى ، و كانت متصلة من جهة الجنوب بقلعة قديمة ، و من جهة البر يحميها سور قوي. فينر ،فولفغانغ مولر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص103.

³ - أوليفر: الاستيلاء على دمياط ، زكار : الموسوعة الشامية، ج33، ص76. رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص210.

⁴ - طلب بيلاجوس المساعدة من ملكة قبرص أليس "Alice" ارملة هيول وزينان ، و كذلك من سادة سورية ، فلي نداءه كل من بوهمند و القابضة و سادة جبيل و حنا ابلين صاحب بيروت . أوف بادريورن، أولفر: الاستيلاء على دمياط، زكار، الموسوعة الشامية، ج33، ص86.

⁵ - أوف بادريورن، أولفر: الاستيلاء على دمياط، زكار، الموسوعة الشامية، ج33، ص69-70.

بمصر ينصحه بأن يتعامل مع بوهمند الرابع بحذر ، فإن ضياع أنطاكية ، كما قال البابا" سيكون أكثر خسارة للعالم المسيحي من ضياع أكثر من دمياط واحدة "(1) . و هنا يظهر البابا هونوريوس الثالث أكثر حرصاً على أنطاكية من كل الصليبيين في بلاد الشام ، و قد زادت أهميتها بعد أن فشلت الحملة الصليبية الخامسة كأحدث استراتيجية صليبية ضد المسلمين .

و لو لم يكن البابا انوسنت الثالث قد فضل خضوع الكنيسة الأرمنية لكنيسة روما على أمن واستقرار إمارة أنطاكية الصليبية ، لما بلغت أنطاكية هذه الدرجة من الضعف بسبب كثرة الحروب ، وطول الصراع بين بوهمند الرابع و ليون الثاني - ملك الأرمن - ، و لتوفر الوقت لبوهمند للعمل على تقوية إمارته والتوسع على حساب جيرانه المسلمين مستغلاً انشغال خلفاء صلاح الدين بنزاعاتهم من جهة و التصدي للحملة الصليبية من جهة ثانية . أو على الأقل كان ساهم في الحملات الصليبية بشكل أكبر ولم يتخذ موقفاً سلبياً تجاهها ، و هو المعروف بنشاطه وفطنته السياسية لثقافته وحسن إدراكه(2). لكن إدراك البابا هونوريوس الثالث لهذه الوقائع جاء متأخراً، فبوهمند ابن الكنيسة العاق كما يصفه رنسيما(3) لم ينسَ تحالف الاسبتارية مع خصمه ريموند على عرش أنطاكية ، فانتزع قلعة أنطاكية من الاسبتارية ، كما حرمهم من الوعد بمنحهم جبلة التي عرضها عليهم ريموند - روبيين إذا نجحوا في الاستيلاء عليها، و ترك الحق في هذا الوعد للداوية ، و من ثم برز خطر اندلاع حرب مفتوحة بين الأنظمة الدينية العسكرية لم تنتهِ إلا بعد تدخل بيلاغوس (النائب البابوي) الذي حكم بأن تكون جبلة مناصفة بين الجماعتين (4)، غير أن بوهمند لم يرفض فقط إعادة الاعتراف بحق الاسبتارية في أنطاكية، و إنما ضم ممتلكاتهم هناك بالرغم من تهديد بيلاغوس بطرده من الكنيسة و تنفيذ حكم الطرد ، و هكذا تعقدت الأمور مرة أخرى بين بوهمند الرابع و البابوية و لم يعد بوسعه التدخل بشكل فعال في قيليقية لكي ينقذ ابنه من أسر الأرمن لذلك التجأ إلى مساعدة المسلمين(5) .

¹ - Regesta Honorii Papae, Vol.1, no3495, p.568 راجع أيضاً ملحق رقم (2) .

² - يضعه فيليب دي نوفار ، الذي عرفه جيداً و أعجب بعلمه و حدة ذهنه ، بين كبار المشرعين الفرنج في سورية . زكار: الموسوعة الشامية، ج34، ص29.

³ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص220.

⁴ - صدر قرار بيلاغوس في تشرين الأول 1221م ، و لم يلبث أن شب النزاع مرة أخرى بين الجماعتين حول جبلة في عام 1233م ، ثم لم يلبث أن دب النزاع بين الاسبتارية و الداوية في عام 1233م في عهد بوهمند الخامس . رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص220.

⁵ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص221.

و بذلك يمكن الأخذ بأن مساهمة بوهمند الضئيلة في أحداث الحملة الصليبية الخامسة ، التي تميزت عن غيرها من الحملات بأن الصوت المرتفع فيها هو صوت البابوية ، و النائب البابوي كان هو القائد الفعلي للحملة ، جاءت في الوقت الذي أحس فيه بوهمند بأنها ستخدم مصالحه الخاصة ، و يطابق موقفه هذا موقف والده بوهمند الثالث من كل الحملات الصليبية التي عاصرها خلال مدة حكمه لأنطاكية .

في الربع الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري ، تحكمت في تاريخ بلاد الشام ظروف كانت خارجية تماماً ، و تمثلت تلك الظروف في ظهور الخوارزمية من جانب ، و سياسة الامبراطور فريدريك الثاني تجاه كل من البابوية و المسلمين من جانب آخر . و أصبح سرد تاريخ إمارة أنطاكية الصليبية أمراً ثانوياً بالنسبة لمؤرخي هذه المدة صليبيين كانوا أم مسلمين ، وكان على حكام إمارة أنطاكية أن يساهموا في تطور هذه الظروف حتى و لو خارج حدود إمارتهم ، حتى يقف المتتبع لتاريخ الحروب الصليبية على ذكر لأحوال إمارتهم .

و لعل المهم هنا هو موقف بوهمند الرابع من الحملة السادسة ككل ، و ما صاحبها من أحداث ، و أثر ذلك على العلاقات السياسية بين إمارة أنطاكية و جيرانها المسلمين . ففي البداية كان بوهمند موالياً لفريدريك تماماً ، و في سنة (624هـ/1227م) ، حقق توماس أكوينو "Thomas Aquino" مندوب فردريك - الذي لم يكن قد حرم من الكنيسة بعد - ⁽¹⁾ قدراً من الاتفاق و المصالحة بين بوهمند و الاسبتارية ⁽²⁾ . إلى جانب أنه ليس هناك ما يثير مخاوف بوهمند الرابع من الامبراطور فقد كان بوهمند يخضع للامبراطور اللاتيني بالقسطنطينية ، على عكس حكام قبرص الذين قامت مملكتهم تحت سيادة الامبراطورية الألمانية ⁽³⁾ . وعند إعلان وصول فردريك إلى جزيرة قبرص أبحرت الملكة أليس ملكة بيت المقدس و الوصية على ابنها الملك الطفل هنري الأول في قبرص بصحبة بوهمند

¹ - وعد فردريك بأن يشارك في الحملة الصليبية في سنة 1215م ، و لكنه أرجأ ذلك أكثر من مرة ، و في سنة 1225م ، و بعد أن تزوج من ايزابيل دي بربين ابنة الملك جون ، و الوراثة لعرش القدس من خلال أمها جدد وعده بأن يخرج إلى الشرق في 1227م ، و لكنه أصيب بمرض الملاريا و بعث ببعض أسطوله إلى الشرق فأصدر البابا جريجوري التاسع قراراً بحرمانه لعدم ثقته فيه ، و لكنه خرج بحملته في 1228م رغم قرار البابا .دي نوفار ، فيليب: حروب فردريك الثاني ضد الإيبيلين في سورية و قبرص ، زكار : الموسوعة الشامية، ج34، ص32-36.

² - انفرد ابن نظيف الحموي بذكر هذه الواقعة و غيرها من الوقائع التي تخص الفرنج في بلاد الشام دون المصادر الصليبية التي اهتمت بما حدث في مملكة بيت المقدس بتفصيل أكثر مما ذكرت به أحداث أنطاكية وطرابلس ، لذا نلحظ وجود بعض التفاصيل الخاصة بالفرنج في شمال الشام تظهر في كتب المؤرخين المسلمين . ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص150.

³ - كان فردريك يعد قبرص بمثابة إقطاعية إمبراطورية ، بحكم أن الملك عموري كان قد تلقى لقبه الملكي من هنري السادس في سنة 1197م ، و كان قد اعترف بالتبعية للإمبراطورية . زكار : الموسوعة الشامية ، ج34، ص38.

الرابع من طرابلس متوجهين إلى قبرص⁽¹⁾، و سعى بوهمند الرابع إلى كسب رضا الامبراطور فريديك بمنحه عدة امتيازات لجماعة الفرسان التيوتون ، كما أنه جلب تعزيزاً أولياً للإمبراطور في قبرص ، كحليف و ليس كتابع⁽²⁾ . لم يكد يصل بوهمند الرابع إلى قبرص ، حتى اكتشف أن فريديك لم يكن ينظر للأمور نظرتة إليها ، فقد استطاع أن يحصل لنفسه على الوصاية على القدس و سيداً على قبرص⁽³⁾، و كذلك طلب من بوهمند أن يؤدي له يمين الولاء و التبعية عن أتباعه في أنطاكية و طرابلس ، و لما وجد بوهمند الرابع أن فريديك محروم من الكنيسة ومحروم من المدد أيضاً ، ادعى المرض و هرب إلى الشام حيث وصل إلى حصن نيفين قبل أن يجبره الامبراطور على الخضوع له⁽⁴⁾ . و ربما انشغل الامبراطور في فرض سيادته على قبرص ، و في مفاوضاته مع الكامل⁽⁵⁾ لذلك لم يتخذ قراراً بشأن بوهمند الرابع الذي نراه في عكا بصحبة الامبراطور في (جمادى الآخر ، 627هـ/ نيسان ، 1229م) قبل عودته إلى بلاده⁽⁶⁾ . و لأن حملة فريديك لم يتخللها أي عمل عسكري ضد المسلمين ، فلم تكن هناك حاجة لأن يساهم فيها بوهمند الرابع أكثر مما قدمه من مساعدة و هو في قبرص ، ولكن اتفاقية يافا بين الامبراطور فريديك و الملك الكامل كانت مفاجئة ، فقد شملت أملاك الصليبيين في فلسطين فقط دون شمال الشام ، أي أن إمارة أنطاكية و كونتية طرابلس ، وهي أملاك بوهمند لم تدخل ضمن الهدنة بين الطرفين⁽⁷⁾، و يرى المؤرخ كلود كاهن أن السبب في عدم دخول أملاك بوهمند ضمن الاتفاقية هو عدم خضوعه للإمبراطور الألماني و هروبه من قبرص دون أن يقسم يمين الولاء ، و ربما كان انشغال كلود كاهن بمعالجة الأمور الشرق الأدنى ككل في هذه المدة سبباً في عدم تفرغه الكامل لمعالجة موقف الامبراطور من بوهمند .

¹ - في قبرص كان الوصي الرسمي على الملك الطفل هنري الأول هو أمه أليس القدسية ، و كانت المحكمة العليا قد عينت فيليب دي ايبيلين ليتولى إدارة المملكة لصالح الملكة أليس لكنه استأثر بالسلطة دونها، فلجأت أليس إلى طرابلس و تزوجت بوهمند الخامس .رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص228. دي نوفار، فيليب: حروب فريديك الثاني ضد الإيبيلين في سورية و قبرص، زكار : الموسوعة الشامية، ج34، ص39.

² - قدم بوهمند الرابع للامبراطور خدمة 60 فراساً و كثيراً من المقاتلين الأخف تسليحاً من الفرسان Sergeants. كما قدم جي سيد جبيل 30 ألف دينار إسلامي . عطية: إمارة أنطاكية الصليبية، ص330.

³ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص230.

⁴ - يذكر فيليب نوفار أن بوهمند ادعى المرض و البكم و صاح بشدة : " آه آه آه ... و ما إن وصل إلى نيفين حتى شفي " . زكار: الموسوعة الشامية ، ج34، ص90-91.

⁵ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص232-234.

⁶ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص230.

⁷ - عاشور ، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، ج2، ص259. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص234.

إن موقف الامبراطور من بوهمند الرابع لا يقل غرابة عن موقف بوهمند نفسه من فريديريك الذي ذهب إلى عكا لزيارة الإمبراطور بعد إعلان اتفاقية يافا . و لتوضيح موقف كل من بوهمند الرابع و الامبراطور كل منهما تجاه الآخر لا بد من الرجوع إلى نص اتفاقية يافا . ففي نص الاتفاقية الذي ورد في كل المصادر الإسلامية لا نجد أي ذكر لأمالك بوهمند ، و ربما يوحي ذلك بأن أملكه قد دخلت في الهدنة التي عقدت بشكل عام دون تحديد أملك معينة للفرنج في بلاد الشام و بذلك تنطبق عليها الهدنة . أما النص الصليبي ، فإن آخر فقراته تبين لنا نية الامبراطور المسبقة على استبعاد أملك بوهمند من الاتفاقية أي أنه من الناحية العملية فإن أملكه كانت منطقة مسموح فيها بالأعمال العسكرية للمسلمين ، و إذا كان الأمر كذلك ، فلا بد و أن يعتبره بوهمند عقاباً له من الامبراطور على عدم خضوعه له ، و مع ذلك نراه يزور الامبراطور ، و يشهد على إحدى الوثائق التي حررها الأخير في عكا قبيل رحيله عن بلاد الشام . و هنا تبدو غرابة موقف بوهمند الذي كان من المفروض أن ينأى جانباً عن فريديريك الذي لم يضع في اعتباره كقائد صليبي حماية أملك الصليبيين في شمال الشام ، و من المؤكد أن بوهمند قد أدرك أن أملكه كان ولا بد أن يستبعدا الامبراطور من اتقاقه مع المسلمين حتى و لو كان بوهمند قد خضع له . فقد استبعد الامبراطور من اتقايقته مع الكامل ، إلى جانب أنطاكية و طرابلس ، أملك الداوية و الاسبتارية في انطربوس و أملك الاسبتارية ⁽¹⁾ ، و لوجود هذه الأملك كلها في نطاق أملك بوهمند نفسها فإن أي هجوم إسلامي تسمح به الاتفاقية على هذه الأملك الخاصة بجماعتي الداوية و الاسبتارية لا يخرج عن كونه هجوماً على أملك بوهمند نفسها . و لذلك لم يجد بوهمند بداً من الظهور بمظهر اللامبالي أمام فريديريك حتى لا يصيبه منه أكثر مما أصابه ، و هكذا كان وجود أملك الداوية و الاسبتارية في حدود أملك بوهمند سبباً آخر كي يستبعد فريديريك أنطاكية و طرابلس من اتقاقه مع الملك الكامل. أما عن منح بوهمند عدة امتيازات للتبوتون قبل توقيع الاتفاقية فقد جاء ذلك في كانون الثاني و حزيران من سنة 1228م ، أي قبل أن يغادر فريديريك أوربة متوجهاً إلى الشرق ، و ربما كان ذلك مقدمة من بوهمند لشراء رضا الامبراطور ⁽²⁾ ، و لما لم يجدي ذلك نفعاً اضطر بوهمند الرابع للذهاب إلى عكا حتى لا يفوته اجتماع البارونات

¹ - ورد في اتفاقية يافا: تترك طرابلس و أنطاكية و قلاع : صافيتا ، و المرقب، و الكرك (قلاع كانت عائدة للداوية و الاسبتارية) كما هي ، كما هي ، حسبما كانت (أي غير مشمولة بالمعاهدة)، و ينبغي على الإمبراطور أن يمنع أي من رعاياه : من سوريين و آخرين ، من مساعدة أصحاب هذه المناطق ضد السلطان. نوفار: حروب فريديريك الثاني ضد الإيبيلين في سورية و قبرص، زكار: الموسوعة الشامية ج34، ص46.

² - عطية : إمارة أنطاكية الصليبية و المسلمون، ص 333.

مع الإمبراطور ، ليعرف ما يسفر عنه هذا الاجتماع من جهة ، و لكي يبدي تأييده ولو سراً للداوية و الاستبارية ضد فريديريك من جهة ثانية ، الأمر الذي من شأنه أن يقرب بينه وبين الكنيسة و بارونات المملكة الذين ربما يحتاج لمساعدتهم بعد أن قرر فريديريك عدم مدّه بالمساعدة من قبل نوابه الذين تركهم في عكا بعد عودته إلى أوربة ⁽¹⁾ ، وربما كانت عدم موافقة بوهمند الرابع على اتفاقية الامبراطور مع الملك الكامل يمنحه بعض الهدوء من جانب المسلمين في دمشق المعارضين - بزعامة الناصر داود - لنفس الاتفاقية . و مهما يكن من أمر ، فقد انتهت حملة فريديريك الثاني الصليبية ، وقد حققت الهدف المرسوم لها ، والذي فشلت فيه الحملات السابقة في تحقيقه . إلا أن سياسة الامبراطور قد زرعت بذور الحرب الأهلية بين الفرنج في بلاد الشام ⁽²⁾، كما أن دبلوماسيته مع المسلمين كوسيلة بديلة عن الحرب لم تكن ترضي جماعتي الداوية و الاستبارية اللتين رأتا أن السلم مع المسلمين فيه تحديد لنشاطاتهما العسكرية في المنطقة ، و كادت أن تتحقق أهدافهما بأن استبعدت أملاكهما من اتفاقية فريديريك والكامل الأمر الذي عرض أملاك بوهمند الرابع في أنطاكية و طرابلس لكثير من الاضطراب و الخطر فور رحيل الامبراطور ، و لاجدال بأن بوهمند في سن لا تسمح له بالقيام بعمليات عسكرية خاصة مشاركة منه للاستبارية و الداوية حتى لا يظهر و كأنه حليف لهما في الوقت الذي كانت فيه هاتين الجماعتين من المناوئين لريتشارد فيلنغر نائب الامبراطور فريديريك متعاونين مع الابليين في عكا ⁽³⁾ . و اكتفى بوهمند ، مستغلاً فطنته السياسية بالاستفادة من الخلافات و الصراعات بين الابليين و حلفائهم من جهة ، و بين مندوب فريديريك من جهة أخرى ، في الوقت الذي حرص على أن يظهر بمظهر المحايد بين الطرفين في صراعهما ⁽⁴⁾ . و بالفعل فقد تمت

¹ - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص238-239.

² - لم يؤيد الامبراطور سوى التيوتون و البيزاوية بينما كان على رأس المعارضين بارونات المملكة تحت قيادة ابليين و الاستبارية و الداوية .

رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص240، 231، 236.

³ - في 23 تموز 1230م تصالح فريديريك الثاني مع البابا جريجوري التاسع بمقتضى معاهدة سان جرمانو و رفع البطريرك الحرمان عن مملكة بيت المقدس و أخذ فريديريك أذنًا من البابا بإرسال جيش إلى الشام لحماية المملكة الصليبية . فبعث ريتشارد فيلنغر كمندوب امبراطوري بصحبة ثلاثين سفينة ، و لما رأى ريتشارد أن حنا ابليين قد تحصن في قبرص توجه بالاسطول إلى بيروت وحاصرها ، ثم استولى على صيدا وصور ، ثم توجه إلى عكا حيث قبله البارونات مندوباً عن الامبراطور ، فصادر ريتشارد أملاك أسرة ابليين الأمر الذي دفع البارونات لتشكيل قومون يتصدى لسلطة المندوب الامبراطوري. رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص242.

⁴ - سعى الابليون إلى ضم بوهمند الرابع إلى جانبهم ضد فلانجيري - نائب الامبراطور فريديريك - ، و لتحقيق ذلك سعوا للمصالحة التي تمت بين بوهمند والاستبارية ، كما وافق بوهمند على طلاق ابنه بوهمند الخامس من أليس ملكة بيت المقدس لأنهما كانا أقارب من الدرجة الرابعة و هو ما تحرمه الكنيسة في ذلك الوقت و كان اعترض عليه البابا هونوريوس الثالث، و عرض حنا ابليين أن يتزوج هنري - أصغر أبناء بوهمند - من ايزابيلا شقيقة هنري الأول ملك قبرص ، الأمر الذي يجعل أمير أنطاكية يتولى في النهاية عرش قبرص . إلا أن بوهمند انتظر حتى يرى

المصالحة أخيراً بين بوهمند و الاسبتارية والكنيسة ، و شهدت السنوات الأخيرة من حكمه نهاية الخلاف - الذي استمر طوال مدة حكمه - بين الطرفين ، ففي (28 ذي الحجة، 628هـ / 26 تشرين الأول، 1231م) صادق جيرولد أوف لوزان "Gerold of Lausanne" بطريرك بيت المقدس (1225-1239م) على الصلح بين بوهمند والاسبتارية ، و اعترفت البابوية للمرة الأولى ببوهمند كأمر لأنطاكية ، و تنازل الاسبتارية عن كل الامتيازات التي منحها إياهم ريموند روبين ، و اعترفوا لبوهمند الرابع بكل حقوقه الإقطاعية ⁽¹⁾ . و في (28 جمادى الآخر، 630هـ / 10 نيسان، 1233م) ، صادق البابا جريجوري التاسع على اتفاقية بوهمند مع الجماعة ، و رفع قرار الحرمان الصادر ضده ⁽²⁾ . و مات بوهمند قبل أن تصل موافقة البابا على منحه لقب أمير أنطاكية ⁽³⁾ ، الأمر الذي لم يستطع تحقيقه طوال عهده فيها ، و الذي كان سبباً في أن يستمر الصراع بينه و بين الأرمن حوالي عشرين سنة ، و أصبحت الحرب بين بوهمند الرابع و الأرمن هي شغل الصليبيين الشاغل . طالما أنه ليس هناك أمل في وصول حملة صليبية جديدة ، و استمر بوهمند على سياسة سلفه بوهمند الثالث بالنسبة للحملات الصليبية ، فإن لم تكن هذه الحملات ستحقق له أهدافه الخاصة ، فهي - وحتى ماستحققه لمملكة بيت المقدس - ليست ذات أهمية بالنسبة له ، و لولا مشاركته خارج حدود إمارته - في سياسات الصليبيين و المسلمين في آسيا الصغرى و فلسطين ومصر ، لكان من الصعب أن نجد ذكر لإمارة أنطاكية في كتب المؤرخين في تلك المدة .

ما تسفر عنه المفاوضات بين الابليين و نائب الامبراطور ، وعبثاً راح حنا ابلين يعطي بوهمند الوعود باقطاع في قبرص إذا ما بعث بمساعدة برية وبحرية له لصد نفوذ نواب الامبراطور في الجزيرة ، و بدا بوهمند بادية الأمر ودوداً ، لكن سرعان ما انتصر فلانجيري على الابليين في موقعة قرية ايمبرت بالقرب من صور سنة 1232م، فأبدى بوهمند فتوراً تجاه بارونات المملكة ، وقدم المؤرخ فيليب أوف نوفار الاقطاع لبوهمند الذي وعده به حنا ابلين من قبل و تم زواج ابنه من ايزابيلا القبرصية . إلا ان بوهمند كان يفضل سيادة الامبراطور البعيدة عنه على سلطة الابليين القريبة جداً ، و بدا أكثر اتفاقاً مع فلانجيري و منح شقيقه لوثر اقطاعاً في أنطاكية إلا أنه صم أذنيه عن استغاثة فلانجيري به حين هزمه الابليون في قبرص التي استعاد هنري الأول نفوذه فيها ، وظهر بوهمند كمحايد بين الطرفين . رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص 244-245.

¹ - لم يحتفظ الاسبتارية إلا بحقهم في مدينة جبلة و بكسراثيل Chateau de La Vicille كما منح بوهمند الاسبتارية باسم أبنائه بوهمند الخامس وهنري دخلاً سنوياً مقداره 360 ديناراً من كونتية طرابلس و دخلاً قدره 873 ديناراً من إمارة أنطاكية و ذلك في 27 تشرين الأول 1232م. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص 256-257.

² - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص 256.

³ - مات بوهمند قبل (جمادى الآخر، 630هـ / آذار، 1233م) ، فأخر ما نجده من أعمال قام بها هو منحتيه للاسبتارية في (10 محرم، 630هـ / 27 تشرين الأول، 1232م) بينما نجد ابنه وخلفه بوهمند الخامس يوثق - كأمر أنطاكية و كونتاً لطرابلس - منحتين للبيزاوية يؤكد فيهما ما منحهم إياه من ريموند بواتيه و بوهمند الثالث أمراء أنطاكية من امتيازات و ذلك في (جمادى الآخر، 630هـ / آذار، 1233م). عطية : إمارة أنطاكية ، ص 380.

بعد تولي بوهمند الخامس السلطة في أنطاكية تعاون مع الداوية والاسبتارية لضمان التعاون المشترك في أوقات الأزمات فقط، فساعد الاسبتارية في الحصول على جزيتهم من حماة⁽¹⁾، كما أنه أيضاً قدم المساعدة لجماعة الداوية في حملتهم ضد أملاك هيثوم الأول - ملك أرمينية-⁽²⁾، لكنه بنفس الوقت كان معارضاً شديداً لهم لأنهم كانوا على جانب كبير من قلة الحذر⁽³⁾ و لحرصه على علاقات جيدة مع جيرانه المسلمين .

لم تساهم إمارة أنطاكية بشكل ملموس في الصراع الصليبي الإسلامي منذ عام 634هـ / 1237م ، و سار أمير أنطاكية على نهج أبيه و جده فلم تكن تهمة أية مشاريع صليبية سواء ضد مسلمي مصر أو الشام مالم تعود على إمارة أنطاكية و كونتية طرابلس بالفائدة ، و لذلك كان دوره ضئيلاً للغاية في هذه المشاريع . لكنه بنفس الوقت رغم ضالة دوره لم يكن يريد أن يظهر بمظهر المتخاذل تجاه المشروع الصليبي العام ، ففي سنة 642هـ / 1244م أرسل بأبناء عمه جون و وليم سيدي البترون⁽⁴⁾، و جون كندسطل طرابلس مع قوة صغيرة للمساهمة في التحالف الصليبي مع أمراء الشام الأيوبيين ضد الخوارزمية والصالح أيوب⁽⁵⁾ ، وكما هُزم فرنج فلسطين كانت الخسائر فادحة بالنسبة لفرسان انطاكية ، فقد قُتل في المعركة ابنا عم بوهمند الخامس و كند سطل طرابلس وقع في الأسر . و جاءت معركة

¹ - انظر مبحث العلاقة مع الأيوبيين .

² - ورد في الفصل الرابع .

³ - إذ أن الاسبتارية استتاروا الكامل حتى أغار على قلعة الكرك عندما كان يهاجم دمشق سنة 1228م ، و في سنة 1229م شنوا غارة مضادة على بارين ، و في 1230م شاركوا فرسان المعبد في طرطوس في شن هجوم على حماة حيث وقعوا في كمين وهزموا هزيمة منكرة ، وفي العام التالي انقضت الجماعات العسكرية الدينية فجأة على جبلة ، و لم يحتفظوا بها إلا لأسابيع قليلة . وفي نهاية الأمر عقدت هدنة لمدة عامين في ربيع 1231م . رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص258.

⁴ - كان جون ووليم أبناء حاكم البترون الابن الأصغر لبوهمند الثالث و عم بوهمند الخامس ، و قد تولى والدهما حكم البترون بزواجه من ابنة بليانو البيزاوي الذي تزوج وريثة الإقطاع أيام ريموند كونت طرابلس . عطية : إمارة أنطاكية الصليبية و المسلمون ، ص366-367.

⁵ - ذكرت حولية سالمبين أن بوهمند أمد الفرنج بثلاثمائة فارس و كذلك ملك قبرص و مات الجميع أثناء المعركة ، إلا أنه من الصعب الأخذ بذلك ، لأن موارد بوهمند الخامس لم تكن تسمح له بذلك ، كما أن مؤرخي الصليبيين المعاصرين مثل كاتب تاريخ هرقل و مخطوط روتلان لم يذكر من رجال بوهمند سوى ابني عمه و كندسطله ، و بالطبع فهؤلاء كانوا أتباعه في كونتية طرابلس و ليس في أنطاكية ، و يؤيد ذلك ما جاء في حولية مالروس الاسكتلندية من أن فرنج المملكة الصليبية حاولوا عبثاً الاستيلاء ببوهمند وملك قبرص ضد الخوارزمية حتى قبل استيلائهم على بيت المقدس ، و لكن بوهمند لم يكلف نفسه حتى بالرد على استغاثة الفرنج . بينما اعتذر ملك قبرص خوفاً من التتار ، و لنا أن نقبل تلك الرواية لاعتماد وصول التقارير من المملكة الصليبية إلى انكلترة عن أحوال الفرنج في تلك المدة . عطية : إمارة أنطاكية ، ص388.

غزة نقطة فاصلة في تاريخ الإمارات الصليبية في بلاد الشام بعد الخسارة البشرية التي تكبدوها و لم يتمكنوا من تعويضها أبداً في وقت كانوا فيه بأمس الحاجة إلى من يدافع عنهم و خصوصاً الفرسان . في سنة (641هـ/1243م) استقبل بوهمند الخامس في طرابلس لوثر "Lothair" شقيق ريتشارد فلينغر الذي طرده بارونات المملكة من صور ، حيث قدم له مساعدة بسيطة ، و زوجه من ابنة أحد أثرياء أنطاكية⁽¹⁾ .

- العلاقة بين أنطاكية و لويس التاسع :

إن الحملة الصليبية السابعة كانت مختلفة عن كل الحملات الصليبية التي تقدمت عليها بعدة أمور ، فقد تولى قيادتها و مسؤوليتها الملك الفرنسي لويس التاسع وحده ، و اتخذت طابعاً فرنسياً بحتاً . و أهم الاختلافات أنه بعد اخفاق الحملة في الاستيلاء على مصر و على العكس من كل الصليبيين المتقدمين - ماعدا قادة الحملة الصليبية الأولى - الذين اضطروا للعودة إلى أوربة بمجرد انتهاء حملاتهم ، فإن الملك لويس قرر البقاء في الشرق، و بقي في بلاد الشرق أربع سنوات (648-652هـ/1250-1254م) ومن أهم الأعمال التي قدمها لإمارة أنطاكية و كان لها أثر كبير في تاريخ هذه الإمارة الصليبية بعد أن وصلت لحافة الانهيار :

- إرساله الإمدادات العسكرية إلى بوهمند الخامس من قبرص .
- تخلص بوهمند السادس من وصاية أمه و توليته إمارة انطاكية .
- سعى الملك الفرنسي لإنهاء الخلاف بين بوهمند الخامس و هيثوم الأول - ملك الأرمن - ، فحين وصلتته رسل بوهمند وهيثوم و هو في قبرص قبل حملته على مصر ، توسط الملك لعقد الصلح بين الأمير الصليبي و الملك الأرمني ، و تحسنت العلاقات بين الطرفين ، وكان أول من جنى ثمار هذه المصالحة هو الأمير بوهمند السادس الذي عمل بمجرد عودته إلى أنطاكية على التقارب مع الملك الأرمني هيثوم الأول⁽²⁾.

¹ - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص 271.

² - انظر الفصل الرابع ، مبحث العلاقة مع أنطاكية .

- الفصل الرابع : مملكة أرمينية الصغرى .
- تمهيد : أصل الأرمن - أرمينية العظمى - موقعها - تاريخها
- المبحث الأول : حكام أرمينية الصغرى .
- أ- عهد ليون الثاني .
- ب- عهد هيثوم الأول .
- المبحث الثاني : العلاقات الخارجية لدولة أرمينية الصغرى .
- أ- العلاقة مع إمارة أنطاكية .
- ب- العلاقة الأرمنية مع حلب الأيوبية .
- ت- العلاقة مع البابوية والغرب الأوربي .
- ث- العلاقة مع المغول .

الفصل الرابع : مملكة أرمينية الصغرى .

- مملكة أرمينية الصغرى :

تمهيد : أ- أصل الأرمن :

منذ قرون بعيدة انطلقت من قلب آسيا الوسطى ، مجموعات متلاحقة من القبائل ذات الأصل الآري ، عُرِفَتْ عرقياً باسم الشعوب الهندو أوروبية التي انقسمت إلى مجموعتين هندو أوروبية (أوروبية) وهندو أوروبية (آسيوية) ⁽¹⁾ ، ولقد اختلف المؤرخون حول أصل الأرمن و تسمية أرمينية ، لكن علماء السلالات عقب دراسات دقيقة ومفصلة قاموا بتصنيف الأرمن كشعب ضمن هذه المجموعات الهندو أوروبية . لكن يبقى السؤال إلى أي من هاتين المجموعتين ينتمي الأرمن ؟

يذكر المؤرخ موسيس الخورني أن الأرمن هم من الشعوب الهندو أوروبية (الآسيوية) ، ويجعل الأرمن من نسل " هاييك " ⁽²⁾ ، الذي تمرد على الملك البابلي بيل (Bel) عقب دمار برج بابل ، فخرج بعشيرته الأرمينية التي عدت 300 رجل وامرأة من بابل في العراق و اتجه شمالاً نحو إقليم آرات ،

¹ - الشعوب الهندو أوروبية (آسيوية) استوطنت في قارة آسيا و الهندو أوروبية (أوروبية) استوطنت و استقرت في أوربة . المدور ، مروان : الأرمن عبر التاريخ ، ص 95.

² - يذكر موسيس الخوريني أن سفينة نوح قد استقرت على قمة جبل آرات في أرمينيا و منها بدأت الخليقة من جديد بعد الطوفان ، و حينما كثر أبناء نوح و ضاق بهم المكان راحوا ينتقلون من مكان لآخر و أحد هؤلاء كان هاييك أبو الأرمن (Hayk) بن طوركومبوس بن كاميروس بن يافث بن نوح . خوريناتسي، موسيس: تاريخ الأرمن ، نقله عن الأرمينية نزار خليلي، ط1، 1999م، ص26-27. المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ص 98.

وبنى مدينة هايكا عمار في سنة (2107 ق.م)، وحينما علم الملك بيل نبأ تمر هاييك أرسل إليه ليعود عن عصيانه ، لكن هاييك رفض و التقى الطرفان في معركة طويلة بالقرب من بحيرة فان (بحر بانوس) انتهت بانتصار هاييك ، وما لبث الإقليم (الذي انتشر فيه أبناء هاييك و أحفاده و عشيرته) ، أن سُمي وادي الأرمن (Hayots Dzor) وسُميت هذه الأمة هايكين أو هاي⁽¹⁾، و سمي الأرمن بهذا الاسم نسبة لآرام⁽²⁾. في الواقع تعتبر رواية موسيس الخوريني من الوجهة العلمية أقرب للأسطورة ، كما تدخل في صلب التقاليد الشعبية الأرمنية.

أما النظريات الحديثة في أصل الأرمن وتشكل الأمة الأرمنية ، فإنها تُجمع أن الأرمن هم من الشعوب الهندو أوروبية "أوروبية" التي استقرت في البلقان ، وأن تشكل الأمة الأرمنية بدأ في القرن الثامن قبل الميلاد بعد مغادرتهم فريجيا متوجهين شرقاً نحو الفرات ، و قد بدأ بالتحديد منذ وصولهم إلى الأراضي المحصورة بين نهر هاليس (Halys) من جهة ، ونهري الفرات و دجلة (Tigris) من جهة أخرى⁽³⁾،و التي شكلت فيما بعد الأراضي الجبلية الشمالية المرتفعة من أرمينية "أرمينية العليا"⁽⁴⁾.

وبعد أن بسط الأرمن نفوذهم في الشمال ، بدأت بعض عشائرتهم بالانحدار إلى السهول في الجنوب ، و غربي بحيرة وسهل وان (Van)⁽⁵⁾، وازداد عددهم بشكل ملحوظ مما أدى لتسمية سكان هذه المنطقة باسم آخر هو آرميه (Arme) أو أرميني (Armini). وبعد أن سيطر الأرمن على هذه المنطقة في الشمال و الجنوب ، ألفوا بلداً موحداً عُرف باسم : هايستان .أما بالنسبة لاسم أرمينية ، فإن الجورجيون ، الذين تجاور بلادهم أراضي هذا الشعب الجديد ، قد استخدموا الاسم (Somkhei) و

¹ - خوريناتسي ، موسيس : تاريخ الأرمن ،ص39-42. خانجي : مختصر تواريخ الأرمن ،ص23-26 . المدور: الأرمن عبر التاريخ ،ص98-99.

² - بعد وفاة هايكوس تولى بعده شؤون الحكم ابنه أرميناك سنة 2026ق.م ، و خلفه العديد من الأبناء إلى أن تسلم الحكم آرام سنة 1027ق.م و هو من وصل إلى كبادوكيا و بنى مدينة ماجاك التي سميت فيما بعد قيسارية كبادوكيا ، و أمر سكان تلك البلاد أن يتكلموا اللغة الأرمنية و، كما أمر بحرق كل التواريخ القديمة كيلا يذكر أحد قبله و لانتشار صيته و شجاعته سمي شعبه بالأرمن و بلاده أرمينيا .خانجي : مختصر تاريخ الأرمن ،ص26-30. المدور :الأرمن عبر التاريخ ،ص100-101.

³ - كانت هذه المنطقة تؤلف المقاطعة الشرقية من الامبراطورية الحثية المعروفة باسم هاياسا وتمكن الأرمن من فرض نفوذهم على سكان هذه المنطقة ، وبعد سقوط الامبراطورية الحثية آلت مقاطعتها الشرقية إلى سكانها الجدد (الأرمن) .المدور، مروان: الأرمن عبر التاريخ ،ص107-108.

⁴ - أرمينيا العليا و تقع في أرمينيا الكبرى في آخر الجانب الغربي . خانجي :مختصر تواريخ الأرمن ،ص12.

⁵ - كانت تسكن هذه المنطقة قبائل من أصل حوري عرفت باسم (Shubria)، و بعد أن أخضع الأرمن هذه القبائل شكلوا اتحاد سمي أرميني - شوبريا .المدور، مروان: الأرمن عبر التاريخ ،ص108.استارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية،ص52.

هو بدوره تحول باللغات الإغريقية و اللاتينية إلى أرمينية ⁽¹⁾.و كانت التسمية التاريخية الأولى للأرمن في سنة 550ق.م ⁽²⁾ ، ثم وجد اسم أرمينية في النقوش المحفورة على صخرة بيهستون ⁽³⁾ التي تركها الإمبراطور الإيراني داريوس الأول عام 521ق.م و التي تشير إلى بلاد الأرمن أنها أرمينية ⁽⁴⁾. Armina.

ب- أرمينية العظمى :

- **موقعها:** تقع أرمينية في أوسط البقاع وأكثرها ارتفاعاً من المنطقة الجبلية الواقعة في غربي آسيا، وهي بلاد جبلية مترامية الأطراف. تمتد بشكل منخفض بالتدرج من الغرب إلى الجنوب ، وتخترقها عدة سلاسل جبلية عالية ⁽⁵⁾.

وقد اختلفَ في حدودها الحقيقية ، نظراً لما طرأ عليها من تقلباتٍ وحروبٍ ، فنجدها عند ياقوت الحموي ((.... وحدها من برذغة⁽⁶⁾ إلى باب الأبواب⁽⁷⁾ ، ومن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم ، وجبل القبقق و صاحب السرير)). وفي دائرة المعارف ((إن مساحتها تختلف من ألف إلى ألف و خمسمائة ميل، و كانت تمتد نحو جبال قوقاس ، وتتصل بها من الجهة الشمالية، وإلى بحر قزوين أو قريباً منه

1 - المدور، مروان : الأرمن عبر التاريخ، ص109.

2 - اسمى المؤرخ الإغريقي هيكاتايوس الملتي الشعب الأرمني ب أرمينوي Arminoi أو Armenoi. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص109.

3 - صخرة بيهستون : تنسب هذه الصخرة إلى الموقع الذي وجدت فيه ، و هي قرية بيهستون بغربي إيران و شرقي كرمنشاه . إذ يوجد بالقرب منها صخرة جبلية عليها نقوش بعدة لغات الفارسية و البابلية الجديدة و العيلامية و نقل هذه الرموز السير هنري رولنسون سنة 1835م حيث تمكن المؤرخون من دراسة تاريخ أرمينيا و بلاد ما بين النهرين على حد سواء . المدور، مروان : الأرمن عبر التاريخ، ص109-110.

4 - المدور : الأرمن عبر التاريخ، ص109.العبد الغني ، عبد الرحمن محمد : أرمينيا و علاقاتها السياسية ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت ، 1989، ج1، ص18.

5 - البستاني، بطرس: دائرة المعارف، دار المعرفة ، بيروت ،لبنان، مادة أرمينية، ج3، ص231.

6 - برذغة: بلد في أقصى أذربيجان و هو معرب عن برده دار و معناها بالفارسية موضع السبي و كان أول من أنشأ عمارتها الملك الفارسي قيباذ.

7 - باب الأبواب: و هي مدينة من مدن أرمينيا على بحر الخزر و هي أكبر من أردبيل في أذربيجان و لها سور طويل و متين بناها أنشروان.

الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج1، ص360.

إلى الجهة الشرقية داخلاً فيها حسب رأي البعض بحيرة أورمية الحديثة من جهة الجنوب الشرقي، وقسم من قبوقية من جهة الجنوب الغربي و الغرب (1)).

هكذا يمكن تحديد الإطار الجغرافي لأرمينية العظمى بالحدود التالية: من الشرق كردستان و أذربيجان ، ومن الغرب آسيا الصغرى، من الجنوب الجزيرة (بلاد ما بين النهرين) أما من الشمال فتحددها ايميريتيا و كرجستان (2).

ولقد اعتاد القدماء أن يفرقوا بين أرمينية الكبرى و أرمينية الصغرى (3) نظراً لاتساعها. فأرمينية الكبرى هي تلك البلاد التي سكنها يافث بن نوح و يحدّها من الشرق بحر الكسب (بحر قزوين) و أرض الفرس ومن الغرب أرمينية الصغرى ومن الشمال كردستان و أرض الكرج (جورجيا) ومن الجنوب أرض السريان . أما أرمينية الصغرى فهي التي ملكها آرام (4) وأخضعها تحت حكمه بقوته (5) وسميت باسمه (6) وهي خارج أرمينية الكبرى ، ويحدّها من الشرق أرمينية الكبرى ومن الغرب كبادوكيا ومن الجنوب البحر المتوسط ومن الشمال البنطس (7) .

- جغرافيتها:

-
- 1 - البستاني، بطرس: دائرة المعارف، دار المعرفة ، بيروت ،لبنان، مادة أرمينية، ج3، ص231. السيد، أديب: أرمينيا في التاريخ العربي، ص27. مجموعة باحثين: الأرمن في دائرة المعارف الإسلامية، مطبعة الشعب، القاهرة، 1969م، ص33-34.
 - 2 - خانجي ، انطون : مختصر تواريخ الأرمن ، القدس ، 1868م ، ص8. استارجيان : تاريخ الأمة الأرمينية، ص44.
 - 3 - أرمينيا الكبرى وهي التي تمتد من أعلى الفرات غرباً حتى ملتقى نهري الكور Kur والرس Araxes، قبل مصبهما في بحر قزوين شرقاً ، و من دجلة و جزيرة ابن عمر جنوباً ، و حتى تفليس على نهر الكور شمالاً . أما أرمينيا الصغرى فقد كان يُطلق على البلاد الأرمينية الواقعة غرب الفرات . العبد الغني ، عبد الرحمن محمد : أرمينيا و علاقاتها السياسية ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت ، 1989م ، ص17.
 - 4 - آرام بن هارمايوس بن كيغام بن أماسيوس بن أرماببيوس بن أرمانك بن هاكيوس بن طوركومبيوس بن كاميروس بن يافث بن نوح .خانجي : مختصر تواريخ الأرمن ، ص8-9.
 - 5 - خانجي : مختصر تواريخ الأرمن ، ص9
 - 6 - يذكر المؤرخ موسى الخوريني أن الأرمن من أبناء يافث بن نوح ، " هاييك " أبو الأرمن الذي تمرد على الملك البابلي " بيل" بعد دمار برج بابل ، فخرج بعشيرته الأرمينية " 300 رجل و امرأة " من بابل في العراق شمالاً إلى اقليم أرارات حتى بلغ مرتفعاً أسماه هارك و بنى فيه قرية صغيرة هايكاعمار سنة 2107 ق.م ، و هزم بيل و أنشأ أمته التي سُميت " هايكين " وسموا بلادهم " هايستان " أي بلاد هاييك . خانجي :مختصر تواريخ الأرمن ، ص22-23. المدور، مروان : الأرمن عبر التاريخ ، ص98-100.
 - 7 - البنطس : هو الاسم اليوناني لمنطقة تاريخية (مملكة البنطس) تقع على الساحل الجنوبي للبحر الأسود تم تأسيسها من قبل مترادات الأول في سنة 291 ق.م . ويكيبيديا

إن أرمينية كما عرفها المؤرخون والجغرافيون العرب ، تعد قسماً ، من هضبة آسيا الغربية العظمى وهي أعلاها سطحاً ، إذ يبلغ ارتفاع العديد من هضابها سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وتمتد بعد ذلك منخفضة من الغرب وفي اتجاه الجنوب

وهذا الإقليم المعروف بأرمينية يتكون من وحدة جغرافية ذات طبيعة خاصة تبلغ مساحته 300 كيلومتر مربع ، ويتألف من سلاسل جبال متوازية تمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي وتقع بين هذه السلاسل هضاب متعددة غنية بالمراعي يتراوح ارتفاعها ما بين 800 متر و 2000 متر فوق سطح البحر ، وتتميز هذه الجبال بأنها مخروطية الشكل ، وبعضها فوهات براكين خامدة ، و أعلى جبالها " جبل أرارات" الذي يبلغ ارتفاعه 5160م و معناه جبل النار ، و في رواية أن سفينة نوح استقرت على قمته ⁽¹⁾، وبسبب التكوين الجيولوجي لجبال أرمينية البركاني ، فإن صخور أرمينية تختزن مختلف المعادن.

وتعد أرمينية إقليماً غنياً بالأنهار ، ففيها عشرات الأنهار التي تتدفق من سفوح الجبال وتحفر دروبها عبر السهول ، ففيها ينبع نهر الفرات و دجلة ، وبالإضافة إلى هذين النهرين هناك نهر الرس ⁽²⁾ (أركسيس) و نهر الكر ⁽³⁾ (كيروس).

وفي أرمينية بحيرتان كبيرتان هما بحيرة وان (VAN) وبحيرة سيفان (SEVAN) ، كلاهما تصلح لسير السفن فيهما ويبلغ ارتفاع بحيرة سيفان عن سطح البحر 2000م ، وأخرى ثالثة هي أرميه (URMIA) والعديد من البحيرات الصغيرة القليلة الأهمية ⁽⁴⁾.

وبهذه التشكيلات الطبيعية كانت أرمينية تعد القلعة الداخلية للشرق الأوسط في الأزمنة الغابرة كما شغلت أرمينية دوراً اقتصادياً هاماً بسبب :

- تنوع الموارد الزراعية والرعية والمعدنية والحيوانية ، فقامت في أرمينية صناعات متنوعة كالنسيج والأسلحة والصوف وغير ذلك .

¹ - استاريجان : تاريخ الأمة الأرمنية ، ص 44-45 . مختصر تاريخ الأرمن ، ص 11. المدور: الأرمن عبر التاريخ ، ص 70-71. العبد الغني ، عبد الرحمن محمد : أرمينيا و علاقاتها السياسية، ص 19-20.

² - نهر الرس: ينبع نهر الرس من جبال بنكول داغ في غرب أرمينيا ، يتجه شرقاً مع نهر الكرّ ، ويصب في بحر الخزر بعد أن يكون قد قطع مسافة 550 ميلاً. خطاب ، محمود: أرمينيا و الروم، دار قتيبة، دمشق، ط4، 1990، ص 14-15.

³ - نهر الكرّ: ينبع من جرجان (في جورجيا الحالية) من الجهة الغربية لمدينة تفليس، يتجه شرقاً ويلتقي مع نهر الرس بعد أن يقطع مسافة 940 كم . خطاب ، محمود: أرمينيا والروم ، ص 15-17. العبد الغني: أرمينيا وعلاقاتها السياسية ، ص 20. المدور: الأرمن عبر التاريخ ، ص 72-73.

⁴ - العبد الغني: أرمينيا و علاقاتها السياسية، ص 20. المدور: الأرمن عبر التاريخ ، ص 73-74. استاريجان: تاريخ الأمة الأرمنية ، ص 45.

- كان لأرمينية نشاط تجاري واسع ، فالطرق التجارية تمر عبرها من البحر الأسود إلى بحر قزوين والجزيرة وإيران ، لهذا كانت معبر التجارة بين الشرق والغرب .

ونظراً لوضعها الجغرافي و كونها نقطة عبور هامة بين الشرق والغرب كانت ملتقى طرق الأمم الغازية و هذه الغزوات سببت لها انتكاسات أضرت بمصالحها، فكانت ميداناً لصراع الرومان والبارثيين في التاريخ القديم و من بعدهم البيزنطيين و الفرس ، فالعرب و البيزنطيين ، في العصر الوسيط .مما أدى إلى انقسام الأرمن إلى كيانات سياسية صغيرة، كثيراً ما تنازعت فيما بينها بتحريض من جيرانها ، فاندلعت الحروب الأهلية وضاعت ثرواتها بين أطماع جيرانها .

- **تاريخها:** إن الدعوة إلى المسيحية نشطت في أرمينية منذ نهاية القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الميلادي ⁽¹⁾، ويرجع أمر تحول أرمينية إلى المسيحية إلى الجهود التي قام بها القديس جريجوري ⁽²⁾المنير الملقب برسول أرمينية (240-322م) . إلا أن تحول أرمينية إلى المسيحية رسمياً حدث في سنة 301م ⁽³⁾.

من سوء حظ أرمينية أن أحاط بها جيران أقوياء ، طمعوا بالاستيلاء على أراضيها . ففي الشرق وجدت مملكة البارثيين في فارس ، وفي الغرب الإمبراطورية الرومانية ⁽⁴⁾ ، إذ أعقب البارثيين، الفرس الساسانيين في المشرق الذين كونوا إمبراطورية كبيرة ،وأعقب الرومان البيزنطيون ، وكانت كل من هاتين القوتين تقف بالمرصاد للآخرى ، وتتنظر نظرة ربيبة و شك إلى أرمينية ، طمعاً فيها وخوفاً من استيلاء الطرف الآخر عليها. ⁽⁵⁾

¹ - إن التبشير بالسيد المسيح و الإنجيل في بلاد آرات ، بدأ أولاً على يد اثنين من تلامذة المسيح و هما برثلماوس الذي دخل من كبادوكيا و بشر في الأجزاء الغربية ، و ثاوس الذي دخلها من سورية و بلاد مابين النهرين و بشر في الأقسام الجنوبية . المدور :الأرمن عبر التاريخ ،ص274.

² - جريجوري (Gregory) هو ابن Anak قاتل خسرو ملك أرمينيا - والد درطاد الثالث - ، هرب مع مربيته إلى كبادوكيا فراراً من الموت الذي أصاب عائلته ، و تولى تربيته شقيق مربيته ، و كان مسيحياً ، على مبادئ الدين الجديد. المدور : الأرمن عبر التاريخ ،ص275.

³ - المدور : الأرمن عبر التاريخ ،ص275-277. العبد الغني: أرمينيا و علاقاتها السياسية،ص30.

⁴ - كانت أرمينيا بين السنوات (1-66 م) عرضة لاضطرابات سياسية متشابكة ، سببتها سياسة الامبراطور الروماني اغسطس "الناعمة" التي سار عليها أيضاً ، خلفاؤه من بعده من الأباطرة الرومان و انتهت إلى خلق حزب موالي لهم بين الأرمن أنفسهم ، في الوقت الذي كانت فيه أرمينيا تنعم أيضاً بحزب آخر معارض و موالي للبارثيين، انتهى هذا الصراع أخيراً بين بارثيا و روما بشأن أرمينيا إلى توقيع الطرفين معاهدة رهانديا سنة 66م ، و التي اعترفت بموجبها هاتان الإمبراطوريتان بالسيادة القومية للأرمن على أن تقوم بارثيا بتعيين الملك على عرش أرمينيا ، مقابل مباركة روما لهذا التعيين . المدور : الأرمن عبر التاريخ ،ص 161-167. العبد الغني ، عبد الرحمن محمد : أرمينيا و علاقاتها السياسية،ص26

⁵ - العبد الغني: أرمينيا و علاقاتها السياسية،ص27. انظر الخريطة رقم 4.

لم يكن بوسع أرمينية مقاومة القوتين الكبيرتين المتاحمتين لحدودها، وإن هذا الموقع الذي كانت تتمتع به أرمينية كدولة حاضرة بين كيانيين سياسيين كبيرين كان له أكبر الأثر على تطور تاريخها السياسي، وعلى سيادة أوضاع اقتصادية واجتماعية معينة فيها، " فأرمينية لم تُهزم هزيمة كاملة، ولكنها لم تعرف أيضاً الاستقلال الكامل ⁽¹⁾. منذ توقيع بيزنطة و الساسانيين على معاهدة السلام سنة 387م ⁽²⁾، ضاع استقلال الدولة الأرمينية عملياً، ويستنتج هنا أن أهمية أرمينية الاقتصادية دفعت بالدول الكبرى آنذاك للاعتداء عليها و سلبها حريتها، فالتاريخ يعيد نفسه، فما زال الأقوياء يملكون من الطمع و الجشع ما يتيح لهم استخدام قوتهم للسيطرة على مقدرات البلدان التي حباها الله تلك الثروات، وأصحاب النفوس الجشعة لا يخلو منها زمان و لا مكان.

أما بعد الفتح العربي للجزيرة و منطقة أذربيجان الفارسية انطلقت الجيوش العربية الظافرة لفتح أرمينية عن طريق الجنوب أي من الجزيرة ⁽³⁾ نظراً لأهمية موقعها الاستراتيجي حيث تقع على حدود الإمبراطورية البيزنطية و متاخمة للدولة الإسلامية. لذلك تعطي أرمينية للعرب عمقاً إقليمياً، و درعاً واقياً للروم الذين يناصبوهم العداء و خاصة بعد موقعتي اليرموك و القادسية، و تسهل عليهم قطع أوصال الإمبراطورية البيزنطية تمهيداً لفتح بلاد الروم ⁽⁴⁾.

قسم العرب المسلمون أرمينية إلى أربعة أقسام، شملت أرمينية الأولى كل من السيسجان، و أرات، و أرمينية الثانية جزران ⁽⁵⁾، في حين شكلت كل من كورة البسفرجان ⁽⁶⁾ و دبيل ⁽⁷⁾ و بغروند أرمينية الثالثة، لتتشكل أرمينية الرابعة من شمشاط ⁽⁸⁾ و قالقلا ⁽⁹⁾ و خلط و أرجيش ⁽¹⁾ و باجنيس ⁽²⁾.

¹ - العبد الغني: أرمينيا و علاقاتها السياسية، ص 27.

² - بموجب معاهدة سنة 387م بين الدولتان البيزنطية و الساسانية تم تقسيم أرمينيا إلى دولتين، أحدهما تتبع بيزنطة (دولة أرمينيا البيزنطية) و الثانية لحق بالإمبراطورية الساسانية (دولة أرمينيا الفارسية) التي حصلت على القسم الأكبر من أرمينيا، وهي كل المقاطعات التي تقع شرقي الخط من أرضروم في الشمال إلى مارتيروبوليس في الجنوب و تم تقسيم أرمينيا من جديد بينهما سنة 591م. المدور: الأرمن عبر التاريخ، ص 183، 186. انظر الخريطة رقم 5.

³ - الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم و الملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، لبنان، ط 2002، ج 4، ص 102.

⁴ - اسكندر، فايز نجيب: الفتوحات الإسلامية لأرمينيا، القاهرة، 1983م، ج 1، ص 27. العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، 1982م، ص 136.

⁵ - جزران: إحدى مدن أرمينيا، قاعدتها تفليس. الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 145.

⁶ - بسفرجان: مدينة من مدن أرمينيا قرب أران عاصمتها لانشوى، بناها كسرى أنوشروان. الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 549.

⁷ - دبيل: إحدى مدن أرمينيا قرب أران. الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 500.

⁸ - شمشاط: من مدن أرمينيا على نهر الفرات. الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 411.

⁹ - قالقلا: من مدن أرمينيا، قرب خلط، سميت باسم ملكتها المدعوة قالي، الت بنت المدينة و سميتها قالي و قاله، فعرها العرب بقالقلا. الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 339.

بدأ الفتح الإسلامي لأرمينية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (17هـ-638م) ، حيث تم فتح معظم أراضي أرمينية في العهد الراشدي و ظلت أرمينية تدفع الجزية طيلة عهد عثمان بن عفان ، وذلك مقابل حمايتها من الروم، و كان ينظر إليها على أنها محمية عربية ، إلا أن التطورات التي شهدتها البلاد العربية في أعقاب مقتل الخليفة عثمان ، كان لها بالغ الأثر على الأوضاع في أرمينية ، وعلى سياستها الداخلية و الخارجية (3).

دفع اضطراب الأحوال في الدولة الإسلامية إلى سحب القوات العربية المرابطة في أرمينية ، وذلك للحاجة إليها في الحرب بين الإمام علي بن أبي طالب الخليفة الراشدي الرابع، ومعاوية بن سفيان والي الشام ، مما شجع الإمبراطورية البيزنطية لإعادة نفوذها ، و اضطر معاوية لعقد صلح معها سنة 29هـ/649م ، التزم فيه بدفع إتاوة للبيزنطيين (4) .

استمر الوضع على ما هو عليه حتى استقرت الأمور في الدولة العربية ، وفاز معاوية بن أبي سفيان بحكمها ، عندها قرر إصلاح أوضاع دولته على الحدود الشمالية ، فوجه الجيوش إلى أرمينية عام 41هـ/661م (5).

خلال الحكم الأموي شهدت العلاقات العربية الأرمنية تغيرات و تقلبات كثيرة ،فقد صالح معاوية بن أبي سفيان البيزنطيين، وسحب القوات العربية من أرمينية ، لكن عندما استقرت الأمور عادت تلك القوات إلى أرمينية . بعد عهد يزيد بن معاوية بقي الحال متأرجحاً بين حرب و صلح حتى سنة 73هـ/692م، عندما انتصر عبد الملك بن مروان على خصومه في المدينة (ثورة عبد الله بن الزبير)، فولى عبد الملك بن مروان أخاه محمد بن مروان الجزيرة و أرمينية ،فغزا فيها و أثخن في العدو و سبى و غلب على البلاد ونتيجة الحرب بين عبد الملك و البيزنطيين ومعركة سولوسيرايا (6) بأرمينية ، و انتصار عبد الملك عادت أرمينية من جديد إلى الحكم العربي.

¹ - أرجيش : سميت قديماً أرسيسا ، تقع على الساحل الشمالي الشرقي لبحيرة وان. البستاني، فؤاد أفرام: دائرة معارف البستاني، بيروت، لبنان، 1971م، ج9، ص75.

² - البلاذري، أحمد بن يحيى: البلدان و فتوحها و أحكامها، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر ،بيروت، لبنان، 1992م ، ج1 ، ص299 .

³ - حنا، سعيد الحاج : العلاقات الإسلامية الأرمنية منذ الفتح حتى اليوم، مركز الدراسات الأرمنية ، بيروت ، ص73.

⁴ - العريني : الدولة البيزنطية، ص143.

⁵ - شاكر، مصطفى: الدليل في التاريخ العربي الإسلامي ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت، 1987م، ص139.

⁶ - معركة سولوسيرايا: معركة شهيرة دارت رحاها ما بين الدولة الأموية و الإمبراطورية البيزنطية و كان من أهم أسبابها قيام جستينان الثاني إمبراطور بيزنطة بنقل القبارصة إلى الأقاليم الأرمنية مما أثار حفيظة الخليفة عبد الملك بن مروان، و جرت المعركة سنة 73هـ/692م، و بانضمام القوات الصقلية إلى المسلمين حل بالبيزنطيين هزيمة نكراء ، و كان من أهم نتائج هذه المعركة أن عادت أرمينيا إلى الحكم العربي. العريني: الدولة البيزنطية، ص160.

كان من الطبيعي أن تتسم العلاقات الأرمنية العربية بالتأرجح و ذلك لأن الأرمن نظروا إلى العرب على أنهم محتلين و ليسوا فاتحين كما يعد العرب أنفسهم ، وذلك لأنهم يختلفون معهم بالعقيدة و المبادئ.

لم يؤثر انتصار الثورة العباسية و سقوط الدولة الأموية ،وانتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد ، وتغير سياسة الدولة الإسلامية ، على اهتمام المسلمين بأرمنية ، وذلك بسبب متاخمة الأراضي العراقية من الجهة الشمالية(إقليم الجزيرة) للأراضي الأرمنية.

يمكن القول أن العرب خلال حكمهم لأرمنية في المرحلة العباسية مروا بعهود قاتمة كان سببها أولئك الولاة الجاهلين بطبيعة بلاد أرمنية و شعبها الأرمني ، و لكن بالرغم من ذلك أظهر الخلفاء العرب كافة تفهماً واضحاً في التعامل مع أرمنية و شعبها ، ولبوا حاجاتهم بأذلين في سبيل ذلك قصارى جهدهم ، و خاصة العمل على سيادة العدل بينهم وهو أمر لا يمكن أن ينكر مهما كانت حقيقة الأحوال التي سادت في أرمنية خلال الحكم العربي لها، والجدير ذكره أن العرب لم يعاملوا الأرمن بطريقة الإمبراطورية البيزنطية ، وخاصة من النواحي العقائدية و الثقافية⁽¹⁾.

مما أتاح للأرمن تنفس الصعداء و عاشوا حياة كريمة في ظل بعض الولاة العباسيين، و هذا لا يعني أن كل ولاة العباسيين على أرمنية كانوا يتصفون بهذه الرحمة و العدالة فقد ولي على أرمنية ولاة قساة أمثال "عبد العلي بن أحمد بن يزيد السلمي"، الذي سار بأرمنية مسيرة سيئة ، مما دفع أبناء أرمنية إلى الثورة عليه ، فما كان منه إلا قمع الثورة بالحديد والنار، وهذا ما يفسر اتصال بعض الزعماء الأرمن الموالين لبيزنطة بالإمبراطور البيزنطي محرضين له على غزو أرمنية و طرد العرب المسلمين منها .

ج- أرمنية الكبرى :

بدأ استقلال أرمنية سنة (245هـ/859م) ⁽²⁾ عندما قام الخليفة العباسي المتوكل (232-247/847-861م) بتعيين الأمير آشوت البقرادوني (Ashot Bagratuni) أميراً على أرمنية وسميت أرمنية الكبرى تمييزاً عن أرمنية الصغرى التي نشأت بعد زوالها في إقليم كيليكيا جنوب الأناضول (آسيا الصغرى على سواحل البحر المتوسط)

¹ - عبد الغني: أرمنية و علاقاتها السياسية بكل من البيزنطيين و المسلمين ،ص104-105.

² - خانجي :مختصر تواريخ الأرمن ،ص171. استاريجيان :تاريخ الأمة الأرمنية ،ص170.

و في عهد المستعين بالله(248-252هـ/862-866م) تم تعيين آشوط أميراً على أمراء أرمينية وجورجيا و بلاد القوقاز مما أدى إلى علو مكانته ، ولقد كانت الدولة العباسية بحاجة إلى درع قوي يحميها من اعتداءات البيزنطيين عليها ، لذلك في سنة (885م) وافق الخليفة العباسي على تعيين آشوط ملكاً على أرمينية و أرسل له التاج الملكي ، فأيد الامبراطور البيزنطي هذه الخطوة وأرسل الهدايا إلى آشوط مهناً. استمر حكم الأسرة الباقرادونية لأرمينية خلال الفترة (272-464هـ/885-1071م)⁽¹⁾. بعد وفاة الملك كاكيك الأول (379-411هـ/989-1020م) ، بدأ التفسخ يسود الدولة الأرمينية. ذلك أن النزاع المرير بين ولديه انتهى إلى تقسيم الدولة و أملاكها ⁽²⁾، وهي التي كانت ومنذ سنة(302هـ/ 914م) موزعة إلى مملكة الفاسبوركان ، ثم في سنة (351هـ/962م) إلى مملكة قارص (Kars)، وهكذا كان لغياب اليد الحازمة التي يمكنها أن تدير شؤون الدولة بحزم وتوحد إماراتها من جهة ، وكذلك غياب روح الوحدة والتآلف بين مختلف الممالك والإمارات ضمن أرمينية والذي ساهمت به الطبيعة الجغرافية وزادت في عزلة إماراتها عن بعضها من جهة ثانية . دور كبير وهام في زوال مملكة أرمينية الكبرى أمام أطماع الامبراطورية البيزنطية بالحقاق أرمينية بها ، وهجمات السلاجقة .

وهكذا قامت الدولة البيزنطية في السنوات (356-357هـ/966-967م) بالحقاق إمارة تارون (Taron) بها ، كما أقامت القوات البيزنطية ، التي كانت تحت القيادة العسكرية المباشرة للإمبراطور ، مركزاً قوياً لنفسها جنوبي غربي أرمينية . الأمر الذي ساعدها على ضم دولة الملك دافيد (مقاطعة دايك Dayk) إلى نفوذها ، بحيث شملت هذه الأملاك ، كلاً من مقاطعة اباهونيك Apahunik ، ومدينة ماناذكرد Manazikert جنوباً.

وفي سنة (411-412هـ/1021-1022م) تنازل ملك الفاسبوركان سنكيريم (Senck`erim) تحت ضغط الهجوم السلجوقي ، عن مملكته للإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني Basil II و اخذ بدلاً عنها ولاية سيواس⁽³⁾ هكذا أصبحت جميع المقاطعات الغربية و الشمالية لأرمينية تشكل جزءاً من

¹ - استاريجان : تاريخ الأمة الأرمينية ،ص171. المدور: الأرمن عبر التاريخ ،ص209.

² - خلف كاكيك الأول (Kagik I) بعد وفاته ولدين هما سميپات الثالث (ولي العهد) ، و آشوط الرابع . فنشب بينهما نزاع حول السلطة مما أدى لتقسيم المملكة بينهما فتولى سميپات الثالث العاصمة آني و ضواحيها ، أما آشوط فقد أعلن سلطته على بقية أجزاء المملكة. المدور: الأرمن عبر التاريخ ،ص218-219. استاريجان: تاريخ الأمة الأرمينية،ص192-193. خانجي: مختصر تاريخ الأرمن ،ص193-194.

³ - استاريجان : تاريخ الأمة الأرمينية،ص193-194. المدور : الأرمن عبر التاريخ، ص 219-220. خانجي: مختصر تواريخ الأرمن ،ص194-196.

الامبراطورية البيزنطية . ثم قام الملك سمباط الثالث - حاكم آني و نواحيها - بتسمية باسيل الثاني وريثاً له ⁽¹⁾، وعلى الرغم من مقاومة سكان آني و حكامها للإمبراطور البيزنطي . إلا أن القوات البيزنطية تمكنت من احتلالها ، كما سيطرت على الدولة الأرمنية بكاملها⁽²⁾.

جرت هذه الأحداث كلها و السلاجقة على أبواب أرمينية منذ سنة (413هـ/1022م) ، ويبدو أن الإمبراطورية البيزنطية أغفلت خطر هذا الغزو و اعتبرته فرصة مناسبة لضم أرمينية ، و لكن سنة (440هـ/1048م) جاءت بأفكار مغايرة لنوايا للبيزنطيين ، إذ دخل الغزو السلجوقي أرمينية بعد أن عاد البيزنطيون لبلادهم و تركوا أرمينية لسكانها ، فسقطت العاصمة آني بيد السلاجقة سنة (457هـ/1064م)⁽³⁾، وكذلك قارص ⁽⁴⁾، و لم تأت سنة (464هـ/1071م) ⁽⁵⁾ إلا وأصبحت أرمينية البيزنطية بكاملها تحت حكم السلاجقة عقب الكارثة التي حلت بالبيزنطيين أنفسهم في معركة منازلرد ⁽⁶⁾.

د- أرمينية الصغرى :

- **موقعها:** قامت مملكة أرمينية الصغرى في المنطقة المعروفة بإقليم "كيليكيا" الذي تحده من الشرق جبال الأمانوس، ومن جهتي الشمال والغرب جبال طوروس، ومن جهة الجنوب البحر المتوسط. وتبلغ مساحتها 40000 كم² بطول 400 كم² من الشرق إلى الغرب بعرض 100 كلم من الشمال إلى الجنوب ⁽⁷⁾. وقد سميت بأرمينية الصغرى تمييزاً لها عن أرمينية الأم (أرمينية الكبرى)

- جغرافيتها:

¹ - يذكر استراتيجان أنه في سنة (412هـ/1021م) عصى الكرج على قيصر الروم بدعم من سمباط الثالث الذي أرسل لهم المدد أيضاً ، لكن الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني تحرك نحو الشرق و هزم الكرج و اضطرهم لعقد صلح ، و ما إن هزموا حتى قرر سمباط الثالث - مدفوعاً بخوفه من الإمبراطور البيزنطي - أن يبيع العاصمة آني و ضواحيها ليؤمن من غضب الإمبراطور و يؤمن راحته . استراتيجان : تاريخ الأمة الأرمنية ، ص 194.

² - المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ص 220. استراتيجان : تاريخ الأمة الأرمنية ، ص 194-198.

³ - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج 1، ص 119.

⁴ - أما أمير مدينة قارص (قرس) الذي كان آخر حكام أرمينيا المستقلين فقد سرّه أن يسلم أراضيهِ للإمبراطورية في مقابل بعض الضياع في جبال طوروس و رافقته أعداد كبيرة من الأرمن إلى موطنه الجديد. رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج 1، ص 120.

⁵ - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج 1، ص 120.

⁶ - المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ص 220-221. استراتيجان : تاريخ الأمة الأرمنية ، ص 199. رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج 1، ص 121-122.

⁷ - استراتيجان ، تاريخ الأمة الأرمنية، الموصل، 1951، ص. 203.

- المدور ، مروان : الأرمن عبر التاريخ، بيروت، 1982، ص. 223.

تتكون كيليكيا من جزأين هما كيليكيا الجبلية و كيليكيا السهلية ، و لكن معظمها جبال شاهقة إذ تشغل جبال طوروس ثلثي سطحها متصلة في شمالها و غربها بجبال الأمانوس ، كما يربطها بغربي الأناضول ممر كولك بوغازي ، و من أنهارها سيحون و جيحون اللذان يستمدان مياههما من جبال طوروس و يصبان في البحر المتوسط ، و تحتوي أراضيها على معادن كثيرة كالفضة و الذهب و الحديد و الرصاص و الكروم و الكبريت ، و لأرضها قوة انبات هائلة فتنمو فيها الغلال و القطن و الكروم و الفستق و البرنقال و قصب السكر و غير ذلك (1).

وقد أطلق المؤرخون العرب المسلمون على هذا الإقليم عدة تسميات منها "الدرب" لوقوعها على الطريق الذي يصل بين مدينة طرسوس القيليقية الواقعة على ساحل البحر المتوسط وبلاد الروم عبر جبال طوروس (2).

كما سميت بـ "منطقة الثغور الشامية" (3) لوقوعها على أطراف بلاد الشام من جهة الإمبراطورية البيزنطية المحاذية لها من جهة أخرى وكانت مقراً للقوات الإسلامية لصد الغارات والهجمات البيزنطية . وسميت بـ " بلاد ابن لاون"، نسبة إلى ملكهم ليفون حيث أطلق المؤرخون العرب المسلمون لقب ابن لاون على ملوك الأرمن جميعاً؛ كذلك أطلقوا عليها تسمية "بلاد سيس" (4) نسبة إلى عاصمتهم سيس التي تعد من أكبر المدن الأرمنية و"بلاد التكفور" (5) ، حيث أطلقت المصادر العربية لقب

¹ - استراتيجيان : تاريخ الأمة الأرمنية ، ص204.المطور: الأرمن عبر التاريخ، ص223-224.

² - الحموي، معجم البلدان، م 2، ص 447. شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله: التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، 1952، ص. 56.

³ - المصيصة و أذنة و طرسوس و هي أمهات الثغور ، أما المَصِيصَة فإنها تشتمل على مدينتين، بينهما نهر جيحون . المصيصة و بناها الخليفة أبو جعفر المنصور على غربيه ، و بنى المأمون على شرقيه كفر تتا ، و لهذا كانت تسمى بغداد الصغيرة ،أما أذنة فهي مدينة قديمة بناها الروم ، جددت عمارتها في الدولة العباسية بعد أن كانت خراباً ، وهي مدينة حصينة على نهر سيحون ، و طرسوس فهي مدينة قديمة من بناء الروم ، و كانت تسمى قديماً أيارسين و يذكر ابن الشحنة أن اسمها بارسين ، ثم سميت طرسوس ، خربت عند فتح أنطاكية و بناها الرشيد سنة 170هـ و يشقها نهر البَرْدان . لم تزل المصيصة و طرسوس و أذنة بيد المسلمين حتى ملكها نقفور سنة 354هـ ثم انتقلت من أيدي الروم إلى الأرمن . ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص143، 146-150، 148-153.

⁴ - سيس: ويقال لها سيسه، وهي مدينة قريبة من عين زربة. وهي مستقر الأرمن. تقع بين حلب وبلاد الروم. ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص167. ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق محمد بن اليان، بيروت، 1909، ص188. الحموي، معجم البلدان، م 4، ص177.

⁵ - تكفور: لفظ أرمني معناه الملك المتوج. كان يطلق على ملوك الدولة البيزنطية. المقرئزي، أحمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1975، ج 1، ق 2، ص. 551).

التكفور على كل من يعتلي عرش أرمينية الصغرى (1) مثلما لقب الامبراطور البيزنطي بالأشكري وملك الحبشة بالنجاشي (2) .

وعلى الرغم من تعدد التسميات، فإن المقصود منها جميعاً كيليكيا الأرمينية، وأشهر مدنها وفق ما ذكره ابن الشحنة ((.... و بلاد الأرمن الكبار خمسة وهي آياس (3) و سيس و أذنة و طرسوس . ومملكة الأرمن صغيرة مسيرة أربعة أيام... بالتقريب. وبها قلاع كثيرة أكثر من مائتي قلعة ، و هي تسمى بلاد الجوف)) (4). و قد توسعت مساحة كيليكيا الأرمينية حسب قوة الحكام ، فقد جاء وقت كانت فيه تضم أهم أجزاء مملكة حلب و قسماً من قونية و سيواس و خربوط و ولاية أضنة بأجمعها ومرعش ، وكانت أهم مدنها طرسوس ، ومرسين ، وآياس ، المصيصة (5) .

- تكوّن المملكة :

لم يكن الأرمن حديثي العهد بكيليكيا ، و في الواقع ، يعود عهدهم بها إلى ديكران الثاني (Tigranes II) (6) ، فبعد ضمه أرمينية الصغرى إلى مملكته ، جاءها مواطنوه من موظفين ، وتجار ، ورجال جيش ، و استوطنوها ، في الوقت الذي عاد فيه بعضهم الآخر إلى أرمينية. ثم جرت إليها هجرة أرمينية أخرى في عصر الأسرة الأرشاغونية سكنت جبال طوروس ومعاقلا الطبيعية (7). وفي نهاية القرن العاشر الميلادي كان عدد الأرمن في كيليكيا كبيراً إلى الحد الذي مكنهم من المساهمة في تعيين أسقف لمدينة طرسوس ، وآخر لمدينة أنطاكية (8). ولكن الهجرة الكبرى إليها كانت خلال غزوات البيزنطيين و السلاجقة وبعد انتهاء حكم الباقرادونيان .

¹ - الحموي، معجم البلدان، م 2، ص 97. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، بيروت، 1987، ج 8، ص. 30.

² - سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، 1977، ص. 239.

³ - آياس : و هو حصن على شاطئ البحر المتوسط ، في يد الأرمن و سمي نسبة ل " آياس بن يواون بن يافث بن نوح " و يسمى الآن آياز و هو فرضة من سيس. ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص164.

⁴ - ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص187.

⁵ - استاريجيان، تاريخ الأمة الأرمينية ، ص. 203. المدور: الأرمن عبر التاريخ ، ص. 223.

⁶ - ديكران الثاني : يعتبر أعظم ملك الأرمن قاطبةً ، فعندما تولى ديكران الثاني عرش أرمينيا (94ق.م) كانت بلاده موزعة بين مملكة صوفين (Sophene) التي تحكمها أسرة أرمينية صغيرة ، و مملكة أرمينيا الصغرى (Lasser Armenia) التي استولى عليها مهرطاد ملك البونت و أرمينيا الكبرى التي يحكمها هو . بعد زواج ديكران من كيلوباترا ابنة مهرطاد دخل أرمينيا الصغرى و ضمها لمملكته . المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ص149-150.

⁷ - استاريجيان : تاريخ الأمة الأرمينية ، ص204. المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ص222.

⁸ - المدور : الأرمن عبر التاريخ ، ص223.

في القرن الحادي عشر كانت كيليكيا تابعة للنفوذ البيزنطي⁽¹⁾، و لم يكن عدد الأرمن فيها بأقل من عدد الروم، و في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وعقب ضياع استقلال أرمينية، وصلت هجرات أرمينية جديدة و بأعداد كبيرة، وظهر في ذلك الوقت بعض الأمراء الأرمن الذين سيطروا على كافة البلدان و أقاموا فيها قلاع و استحکامات لحماية أنفسهم. فكان بعضهم تابع للروم⁽²⁾ وبعضهم مستقل⁽³⁾، ومن أبرز هؤلاء المستقلين أوشين⁽⁴⁾ و روبين الأول (Ruben I)⁽⁵⁾. ما لبثت الإمارة الأرمينية التي أسسها روبين الأول سنة (473هـ/1080م)، أن تحولت بعد قرن ونيف إلى مملكة كانت الوطن البديل للأرمن.

كان للأرمن منذ العصر البيزنطي في كيليكيا مراكز حربية هامة كطرسوس⁽⁶⁾ والفرات الشمالي، وإلى جانب ذلك فقد أسس الاكليروس الأرمني الأديرة والمعاهد العلمية والدينية، وهكذا فإنه بينما كانت دولة باقرادونيان تحتضر كانت دولة أرمينية تنشأ في سلسلة جبال طوروس و آمانوس.

- تاريخها :

يعد روبين الأول (473-489 هـ / 1080-1095م) هو مؤسس الأسرة الأرمينية التي حكمت كيليكيا تحت اسمه على مدى القرون الثلاث التالية، وقد استطاع بمن انضم إليه أن يؤسس مملكة مستقلة في كيليكيا. اتخذ روبين مقراً له قلعة صغيرة (بادنزيرت) شمال غرب سيس⁽⁷⁾. وبذلك وضع نواة

¹ - كانت كيليكيا في ذلك الوقت تحكمها الامبراطورية البيزنطية منذ سنة (354هـ/964م) عندما اجتاحتها نفقور و نقلها من الحكم العربي ووضعها تحت نفوذ دولته. ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج1، ص2، ص148. المدور : الأرمن عبر التاريخ، ص223.

² - يذكر - Pasdermajian " أنه منذ أواسط القرن الحادي عشر قدمت جموع من الأرمن استقرت تحت زعامة نبلائهم في إقليم طوروس. ولم تلبث هذه الجموع أن دخلت دائرة السياسة البيزنطية الخاصة بشأن المضايق الموصلة إلى كيليكية - بوصفها إحدى الأقاليم التي كانت أكثر تعرضاً للخطر من ناحية هجمات المسلمين - بالعناصر المحاربة القادرة على الدفاع عن المضايق " Pasdermajian : Historie de L' Armenie , p. 198.

³ - استارجيان : تاريخ الأمة الأرمينية، ص204.

⁴ - أوشين (ابن هيثوم) سيطر على الجبال الواقعة غرب بوابات كيليكيا، و اتخذ حصن لامبرون المنيع المنيع القائم أعلى الجبل القائم أعلى الجبل و الذي يطل على طرسوس و سهل كيليكيا مقراً لقيادته، و تمكن من الحفاظ على علاقة مقبولة مع القسطنطينية، و في سنة 1097م استغل انشغال السلاجقة بتقدم الصليبيين و استولى على جزء من أذنة. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص313.

⁵ - روبين الأول (1080-1095م) هو من أقارب الملك كاجيك الثاني (Gagik II) آخر ملوك باقرادونيان، و قد انتقل إلى كيليكيا في جملة من هاجر إليها. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ص137. المدور : الأرمن عبر التاريخ، ص223. استارجيان : تاريخ الأمة الأرمينية، ص204.

⁶ - اسم قلعة لامبرون بالتركية نامرون، على بعد 40كم من طرسوس إلى الشمال الغربي منها. زكار : الموسوعة الشامية، ج35، ص352.

⁷ - يذكر استارجيان أن روبين الأول اتخذ قرية كوروموزول الجبلية المحصنة قرب مدينة هاجن قاعدة لأعماله. استارجيان : تاريخ الأمة الأرمينية، ص205. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ص313.

مملكة أرمنية جديدة⁽¹⁾ . لم يلتزم روبيين هذا الحماية من الإمبراطورية البيزنطية وإنما ظهر دائماً في صورة تفوق بقية البارونات الأرمن حتى مات وترك خلفه ابنه قسطنطين الأول (489-494 هـ/ 1095-1100 م) وكان لا بد له من توسيع رقعة الدولة الناشئة أولاً ، ومن ثم تعميمها إذا أراد لها أن تستمر ، لذلك احتل العديد من المدن و القلاع أهمها فاهكة (Vahka)⁽²⁾ ، وكان لاحتلالها أهمية كبيرة بموقعها المطل على أحد دروب التجارة الرئيسية في المنطقة ، فأمنت له مورداً مالياً منتظماً من الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع المارة منه ، وكذلك كانت مركزاً حربيّاً هاماً ووسعت حدود إمارته الناشئة⁽³⁾ . وفي سنة (492هـ/1098م)، وبوصول الحملة الصليبية الأولى إلى كيليكيا وجد قسطنطين الفرصة سانحة للتحالف معهم ضد البيزنطيين⁽⁴⁾ ، و فعلاً تحقق له ذلك و مُنح قسطنطين الأول لقب بارون⁽⁵⁾ ، وبذلك بدأ عهد البارونية (الإمارة) ، ولقد شغلت الحركة الصليبية دوراً كبيراً في نشوئها بصفتها مملكة تقف على قدم المساواة مع الإمارات والممالك الصليبية في الشرق .

تعاقب على إمارة أرمنية الصغرى العديد من الأمراء الذين عمدوا إلى توسيع حدود مملكتهم ، لكن في عهد الأمير ليون الأول (517-532هـ/1123-1137م) تمكنت الإمبراطورية البيزنطية من ضم هذه الإمارة إليها خلال المدة (532-549هـ/ 1137-1145م) عانى فيها الأرمن من أسوأ أنواع الاضطهاد و الإيذاء إلى أن تمكن الأمير طوروس الثاني ابن ليون الأول من استعادة إمارته سنة

¹ - Jacques de morgan : op. cit , p.p. 166, 303 .

وهو يذكر أن رومان اعتمد في الوصول إلى هدفه على أحد الأرمن ، كان يسمى (باسيل) وكان ذو شجاعة كبيرة وفكر ثاقب وكان يعرف استراتيجيات وخدع الحرب ، ولما كان ينقض فجأة على عدوه ، سمي باسيل اللص (Basile Voleur) .

² - فاهكة : من مدن أرمنيا قاعدتها ملطية ، شغلت دوراً سياسياً وعسكرياً في العصور الوسطى ، و كانت عاصمة الأمراء الرومانيين بين عامي (488-578هـ/1095-1182م) . زيدان (محمد عمر) : دور الأرمن في الحروب الصليبية و الغزوات المغولية (488-777هـ/1095-1375م)، رسالة ماجستير، إشراف د. وفاء جوني، 2006-2007م، ص54.

³ - المدور (مروان) : الأرمن عبر التاريخ ، ص225، استراتيجيان : تاريخ الأمة الأرمنية، ص209. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص313.

⁴ - بسبب عداوة أسرته للبيزنطيين الذين اغتالوا كاجيك الثاني آخر حكام الأسرة الباقراونية من جهة ، و بسبب محاولة بيزنطة استرجاع قلعة فاهكة من قسطنطين و تأديبه من جهة ثانية . رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج1، ص314. المدور (مروان) : الأرمن عبر التاريخ ، ص225.

⁵ - بوصول الحملة الصليبية الأولى إلى كيليكيا ، و هي في طريقها لبيت المقدس ، ساعدها الأرمن بتأمين المأوى والطعام لجنودها ، كما جرت مصاهرة بين قسطنطين و أمير الرُّها أروفا (Urfa) المسمى الكونت جوسلين دي كورتيناوي الذي تزوج من اردا ابنة قسطنطين الأول . المدور (مروان) : الأرمن عبر التاريخ ، ص225. استراتيجيان : تاريخ الأمة الأرمنية، ص207.

(549هـ/1145م) بمساعدة أخيه ستيفان ، وخاله جوسلين أمير الرها ⁽¹⁾. لقد سُميت إمارة أرمينية مملكة بعهد الملك ليون الثاني (583-616هـ/1186-1219م) وهذا سيتم ذكره لاحقاً.

وأصبحت هذه المملكة أحد الخصوم للدولة العربية الإسلامية، مما جعلها وسيلة بيد القوى الصليبية والمغولية. فكان دورها فعالاً في هذا الجانب، ولا سيما في أثناء حكم الأسرة الأيوبية، من خلال إقامة الأحلاف سواء كان ذلك مع الإمارات الصليبية، أو مع الدولة المغولية وبيزنطة و أوربا، لتحقيق أغراضها، وضمان بقائها . يهدف الفصل إلى تسليط الضوء على الدور الذي شغله الأرمن ضد الدولة العربية الإسلامية، كما يعالج الموقف الأيوبي وكيفية التصدي للمحاولات التآمرية لمملكة أرمينية الصغرى.

تمكن الأرمن من السيطرة على كليكية ، وأقاموا فيها دويلة ، شغلت دوراً هاماً في حياة أنطاكية الصليبية وعلاقاتها مع المسلمين ولا سيما حلب ، وقد حازت هذه الدويلة على اهتمام الدراسات الحديثة ولا سيما الإسرائيلية ، نظراً لوجه التشابه بينهما . فكلتاها قامتا في وسط غير صديق من جميع الجوانب ، فسكان كليكية العرب كانوا ضد الأرمن الذين تسلطوا عليهم ، ولم تكن علاقة هذه الدولة جيدة لا مع البيزنطيين ، ولا مع الصليبيين ولا مع المسلمين، لكن استطاع بعض الحكام الأرمن شغل دور هام من خلال استغلال التوازنات بشكل بارع ، ويظل من أهم جوانب تاريخ دولة أرمينية الصغرى علاقاتها مع أنطاكية ثم تحالفها فيما بعد مع المغول ، لدى قدومهم للسيطرة على بلاد الشام . ⁽²⁾

¹ - المدور(مروان) : الأرمن عبر التاريخ ،ص228-229. استاريجيان: تاريخ الأمة الأرمنية،ص210-211.

² - زكار ، الموسوعة الشامية ، ج35، ص275-276..

- المبحث الأول : حكام أرمينية الصغرى .

أ- عهد ليون الثاني Leo II (582-616هـ/1186-1219م):

حاصر روبين الثاني (570-581هـ/1174-1185م)-أمير الأسرة الروبينية- قلعة لامبرون (الهيثومية) بذريعة طلاق امرأة من روبينيان من أحد أمراء لامبرون⁽¹⁾، مما اضطر أمير القلعة إلى طلب مساعدة أمير أنطاكية بوهمند الثالث الذي كان يعد نفسه نائباً للسلطة البيزنطية في أرمينية، فاستدعى روبين الثاني إلى أنطاكية (581هـ/1185م) بحجة بحث الطرق الممكنة لإزالة سوء التفاهم بينه و بين الهيثوميين ، إلا أن بوهمند الثالث قام باعتقاله .و لما علم ليون الثاني بهذه المكيدة حاصر قلعة لامبرون و أجبر أميرها على التوسط لدى أمير أنطاكية لإطلاق سراح روبين مقابل 30,000 قرش ذهبي فدية لأخيه روبين .و عندما استعاد روبين حريته تنازل عن العرش لأخيه ليون الثاني⁽²⁾.

كانت الظروف التي تولى فيها ليون الثاني الإمارة الأرمينية مناسبة له من جميع النواحي ، حيث:

- تقلص إمارة أنطاكية بعد الهجمات التي تعرضت لها من جانب صلاح الدين الأيوبي .
 - الصراع على عرش بيزنطة بعد وفاة الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين (1180م/576هـ) و تولى اسحاق انجيلوس(581-592هـ/1185-1195م) العرش هناك⁽³⁾.
 - أما في قونية فقد ترتب على طول المدة التي تولى فيها قلع أرسلان الحكم و ما قام به من تقسيم دولته بين أبنائه و أخيه ، تفجر الصراع حول الحكم أثناء حياته وبعد وفاته .
- لذلك حرص ليون الثاني على استغلال هذه الظروف لصالحه ، حيث قام بعدة أمور منها :

¹ - بعد وفاة مانويل كومنين في (576هـ/1180م) ، اعتقل روبين الثاني القائد البيزنطي اسحق كومنين ، لكن بسبب تدخل بوهمند الثالث تمكن اسحق من الهرب إلى قبرص ، و استقل بها عن بيزنطة ، و لم تصل فديته إلى الأرمن ، لذلك حاصر روبين الثاني أملاك الهيثوميين في كيليكيا و التابعين لبيزنطة. عطية (حسين محمد): إمارة أنطاكية، ص204.

² - المدور(مروان) : الأرمن عبر التاريخ، ص230-231. استارجيان: تاريخ الأمة الأرمنية، ص216. عطية (محمد حسين) : إمارة أنطاكية، ص204. أما عند سمباط فقد ورد أنه لم يطلق سراح روبين الثاني إلا بعد أن تنازل عن ساروانديكار، وتل حمدون ، وشكر ، وبوفاة روبين الثاني انتقلت الإمارة لأخيه ليون . زكار : الموسوعة الشامية ، ج35، ص291-292.

³ - بعد وفاة مانويل كومنين تولت زوجته ماريا (أخت بوهمند الثالث) الحكم كوصية على الطفل ألكسيس الثاني (1183-1190م) حتى استطاع اندرونيقوس كومنين (ابن عم مانويل) من الاستيلاء على العرش سنة 1183م، و بعد ثورة البيزنطيين ضد اندرونيقوس نتيجة لاحتلال نورمان صقلية لمدينة سالونيك في آب 1185م ، تولى اسحق انجيلوس عرش بيزنطة و بذلك انتهى عهد أسرة كومنين في الامبراطورية البيزنطية .رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج2، ص413. عطية: إمارة أنطاكية، ص204-205. الشيخ ، محمد محمد مرسى: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية ، مكتبة الاسكندرية ، 1994، ص375-381.

- ربط أسرة روبينيان بسائر الملوك و الأمراء المسيحيين بعلاقات المصاهرة و الزواج ، من تقوية علاقاته مع حكام قبرص ، وتحقيق تحالف ودي معهم ، ومع حاكم القدس ، و أيضاً الفرسان التيتويون (الألمان) ، بغرض الدفاع عن بلاده ، و تأمين حمايتها من هجمات جيرانها الأقوياء⁽¹⁾.
- منح الجنوبية و البنادقة العديد من الامتيازات التجارية لكي يحولوا تجارتهم إلى ميناء آياس أو لاجازو "Lajazzo" الميناء الأرمني⁽²⁾.
- كما عمل على كبح جماح أمرائه بإدخال الإقطاع الغربي و منحهم ألقاباً شكلية أكثر منها إقطاعيات فعلية⁽³⁾.
- عمل على استرضاء البابوية بالتحويل الشكلي إلى الكاثوليكية للوصول إلى التاج الملكي⁽⁴⁾. و سعى ليون الثاني منذ توليه الإمارة الأرمنية إلى الحصول على التاج سواء من البابوية أو الامبراطورية ، وكاد هذا الأمر أن يتحقق عندما اقترب الامبراطور فريديك بربروسا (Friedrich Barbarossa) (1152-1190م) من الأراضي الأرمنية في (جمادى الأولى، 586هـ/تموز، 1190م)⁽⁵⁾ ، و لكن وفاته كانت صدمة للأمير الأرمني و شعبه وتبددت آماله في الحصول على التاج⁽⁶⁾، ولكنه لم ييأس و أرسل إلى الإمبراطور هنري السادس في (590هـ/1194م) طالباً منه أن يمنحه التاج على أن يكون تابعاً إقطاعياً له . و لاقت هذه الفكرة القبول لدى الامبراطور الذي كان يحلم آنذاك بتنفيذ مشاريع ضخمة ، و أرسل له تاجاً مع سفارة على رأسها

¹ - زكار : الموسوعة الشامية ، سمباط ، ج35، ص301 . المدور، مروان: الأرمن عبر التاريخ ، ص232. استراتيجيان: تاريخ الأمة الأرمنية، ص218.

² - في آذار 1201م منح ليون الثاني مواطني جنوا إعفاء من الرسوم الجمركية ، والمكوس، وسائر الضرائب في كل أنحاء ولاياته، بالإضافة إلى عقارات وأراضي لبناء المخازن و المحاكم في سيس ، و في المصيصة ، و طرسوس . أما البنادقة فقد حصلوا على نفس امتيازات الجنوبيين و لكن أضيق منها نطاقاً بكثير (اقتصرت العقارات على المصيصة فقط) . ف.هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ت. أحمد رضا محمد رضا، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، 1991م ، ج2، ص17، 19. المدور، مروان : الأرمن عبر التاريخ، ص233.

³ - زكار : الموسوعة الشامية ، التاريخ المعزو إلى سمباط الأرمني ، ج35، ص298.

⁴ - كان الرأي القانوني لدى الفرنج آنذاك يرى أن التاج لا يمنحه سوى الإمبراطور أو البابا . رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص130.

⁵ - المقرزي : السلوك ، ج1، ص217. زكار: الموسوعة الشامية ، سمباط ، ج35، ص298.

⁶ - اختلفت روايات المؤرخين حول موت فريديك فيرى بعضهم أن ملابسه الحربية ثلث عليه عندما نزل مياه النهر دون خلعه فغرق و مات . بينما يرى البعض الآخر أن برودة المياه سببت لجسده المرهق مرضاً فمات بعده ، و يرى آخرون أن التيار الشديد جرفه و جواده فمات . و يبدو أن الرأي الأول هو الأقرب إلى الحقيقة ، بحيث يمكن الأخذ باندفاع الإمبراطور المجهد بسبب عبور الأمانوس إلى المياه لينعش جسده دون خلع الملابس الحربية الثقيلة و يطلق المؤرخون اللاتين على هذا النهر اسم ساليق . ابن شداد : النوادر السلطانية ، مؤسسة الهمداوي ، القاهرة، ص84-85. رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص47-48.

مستشاره كونراد أوف هيلد شهائم "Conrod of Hildesheim" و المندوب البابوي كونراد "رئيس أساقفة مينز" "Conrad of Mainz" و في (26 صفر، 596هـ / 8 كانون الثاني، 1199م) تم تتويج ليون الثاني في حفل حضره جميع قادة و أمراء المملكة الجديدة . في ذلك الوقت .⁽¹⁾ وكان يوماً مشهوداً للأرمن الذين رأوا في ذلك إحياء لمملكة أرمينية القديمة ، وكان هذا التتويج استكمالاً لاندماج الإمارة الروبينية في عالم فرنج الشرق ، لكن دواعي الشك كانت تدور حول ما إذا كانت سياسة ليون الثاني في صالح الأرمن ككل ، إذ أنها فصلت أبناء أرمينية الكبرى القديمة التي هي أصل الأرمن عن اخوانهم الجنوبيين في كليكية.

بعد مهاجمة السلاجقة لبلاد الأرمن سنة (605هـ / 1208م)⁽²⁾ قام ليون الثاني - ملك أرمينية- في سنة (606هـ / 1210م) بشكر الاسبتارية على مساعدته في صد هجوم السلاجقة⁽³⁾ و منحهم حصن سلوقية⁽⁴⁾ و الحصن الجديد (Norport= Castel novum) ، و كماديس "Camardias"⁽⁵⁾ ، ولكي يكمل ليو تكوين تخم للاسبتارية غربي قيليقية بينه وبين أملاك سلاجقة الروم ، فقد استغل فرصة موت " غياث الدين كيخسرو " ، و ارتباك خلفه " عز الدين كيكاس" ⁽⁶⁾، و حاول الاستيلاء على قرمان "Karaman" التي وعد بها الاسبتارية أيضاً⁽⁷⁾. إلى جانب ذلك ، فقد جعل ريموند -

¹ - المدور ، مروان : الأرمن عبر التاريخ، ص231. استراتيجيان: تاريخ الأمة الأرمنية، ص220-221.

² - ورد تفصيل هذه الحادثة في مبحث العلاقات الأرمنية الأيوبية.

³ - فولغانغ مولر - فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص107.

⁴ - التسمية القديمة Seleukeia : قلعة و بلدة ريفية صغيرة في جنوبي تركيا ، على بعد نحو عشرة أميال تقريباً من نهر غوك - سو (Gok-Su) في الشعب الخارجية لجبال طوروس ، و كان لها دور هام في حروب الثغور بين العرب و البيزنطيين . فولغانغ مولر - فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص107. و اسمها الحموي سليقية وهي مدينة وكورة ببلاد الروم ، وربما سموها سلوقية ، وهي من ناحية الشام بعد طرسوس يتولاها عامل الدروب . الحموي: معجم البلدان ، م3، ص242-243. وابن شداد يقول سلوقية و بناها سلوقس . ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص360.

⁵ - يقع الحصن الجديد و كماديس شمالي سلوقية على نهر ساليق و هما قلعتان تتبعان مدينة سلوقية ، كما أضاف ليو إلى هذه المنحة حق الاسبتارية في شن الحرب أو عقد اتفاقيات السلام مع السلاجقة في قرمان دون الرجوع إليه . كما منحهم حرية خرق الهدن المعقودة بينه وبين المسلمين طالما يتطلب صالح الاسبتارية ذلك إلى جانب أن الأسلاب التي يأخذونها من غاراتهم على المسلمين تكون لهم دون أن يطلب ليو منها شيئاً. Cartulair, Vol .2, p.118. C.F; J. Riley. Smith, The Knights of St. John, p.132.

⁶ - المقرئزي: السلوك ، ج1، ص292. ابن العبري: روايات ابن العبري ، زكار: الموسوعة الشامية ، ج5، ص466.

Hethoum de Gorigos, p.482. C.F; Cahen, Pre-Othman Turkey, pp.119-120.

⁷ - قرمان هو الاسم التركي لها و الاسم اليوناني هو لاراندا (Laranda) وهي تقع في الجنوب الغربي من هرقلية . Rohricht, Regesta, no.843, p.225; Delaville Le Roux, Les Hospitalliers, p.433; Cartulair, Vol .2 p.118. C.F

روبين (عندما بلغ سن الرشد) يؤكد للاستبائية منحة جبلة مضيافاً إليها حصن بكسرايل (1) (2). و إذا كان ليون الثاني قد ضمن بتلك الامتيازات مساندة الاستبائية له في موقفه من مشكلة أنطاكية ، فإنه لم يلبث أن اتخذ عدة اجراءات أضعفت مركزه تماماً (3).

بعد أن تمكن ليون الثاني من تسليم إمارة أنطاكية لريموند روبين ، استغل أمير قونية " كيكاسوس " انشغاله بانتصاره في أنطاكية واستولى على قلاع في الغرب وعبر طوروس (4) .

توفي ليون الثاني سنة 616هـ/1219م بعد أن عين ابنته الصغرى ايزابل (5) وريثة له تحت وصاية آدم حاكم بغراس السالف (6)، لكن الحكم في أرمنية كان له العديد من الطامعين ، فالملك جون أوف بريين (7)، الذي تزوج ستيفاني (ابنة ليون الثاني) سنة 614هـ/1210م (8)، وجد بوفاة ليون الثاني فرصة سانحة للمطالبة بالعرش لنفسه باسم زوجته بسبب خلفه مع بيلاغوس النائب البابوي ، فحضر نفسه و قام بالسفر إلى أرمنية ليتولى الحكم فيها لكن آماله تبددت إذ لم يستقبله بارونات أرمنية و حدث بالوقت نفسه أن توفيت الملكة ، مع الابن الصغير للملك (9)، و بموتهما حول البابا تأييد الكنيسة إلى ريموند - روبين الذي هرب من أنطاكية بعد أن استولى عليها بوهمند الرابع ، فتوجه إلى دمياط يطلب المساعدة من بيلاغوس (10) . ثم أغار ريموند- روبين على كليكية ، و استولى على طرسوس و أذنة و بدأ في حصار المصيصة عندما داهمته قوات قسطنطين رئيس الأسرة الهيثومية المناصرة لبيزنطة في أرمنية ، الذي استبدله بارونات كليكية للوصاية على ايزابل ابنة ليون الثاني بدلاً

¹ Rohricht, Regesta, no.843, p.225; Delaville Le Rouir, Les Hospitalliers, p. 433; Cartulair, Vol .2, p.122. -

C.F

² - حصن بكسرايل : حصن مقابل جبلة في الجبل . الحموي : معجم البلدان ، م1، ص475.

³ - سيرد تفصيل ذلك في مبحث علاقات أرمنيا مع البابا

⁴ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص 185.

⁵ - كانت ايزابل ابنة ليون الثاني ، من زوجته الثانية سيبلا ابنة عموري دي لوزغان ملك قبرص. زكار : الموسوعة الشامية ، ج33، ص396.

⁶ - أولفر : الاستيلاء على دمياط ، زكار : الموسوعة الشامية ، ج33، ص81.

⁷ - جون أوف بريين ، ملك القدس (1210-1225)، و امبراطور القسطنطينية (1228-1237)، و قد تسلم تاج القدس عندما تزوج من ماري دي مونتفرت في سنة 1210، و فقده عندما تزوجت ابنته ايزابل فريديك الثاني ، و لقد كان قائداً عسكرياً فهو الذي قاد الحملة ضد دمياط . زكار : الموسوعة الشامية، ج33، ص357.

⁸ - ابن واصل: مفرج الكروب، ج3، ص222. عطية : إمارة أنطاكية الصليبية، ص292.

⁹ - أولفر : الاستيلاء على دمياط ، زكار : الموسوعة الشامية ، ج33، ص80-81. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص210.

¹⁰ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص 219. زكار : الموسوعة الشامية ، سمباط ، ج35، ص 320. يذكر ابن العبري ان ريموند بقي مع الجيش الصليبي في مصر حتى موت ليون الثاني . ابن العبري : تاريخ الزمان، ص262.

من آدم الذي اغتاله الحشيشية⁽¹⁾ بتحريض من الاسبتارية المؤيدين لريموند - روبين ، و قبل وصول نجدة الاسبتارية من دمياط ⁽²⁾، كان ريموند و أمه آليس أسرى لدى قسطنطين حيث مات ريموند بعد مدة وجيزة ⁽³⁾ ، وبرحيله باتت ايزابل آمنة على العرش الأرمني ، وكذلك الأمر مع بوهمند الرابع أمير طرابلس وأنطاكية .

حكم فيليب بن بوهمند الرابع :

كان تقلب الموقف السياسي في كليكيا خطيراً بسبب مجاورتها لكيقباز أقوى حكام سلاجقة الروم ⁽⁴⁾ ، الذي استولى في سنة (618هـ/1221م) على جبال طوروس الغربية ، و اتخذ من ساحل آلايا عاصمته الشتوية ، و كان يمثل تهديداً للحدود الأرمنية كلها، و انتقلت كل المناطق التي كان ليون الثاني و ريموند قد استوليا عليها عشية سقوط أسرة كومنين إلى أيدي السلاجقة ⁽⁵⁾ . كل ذلك جعل بارونات كليكيا يشعرون بضرورة التحالف مع أنطاكية ، ولما كان العداء المشترك لريموند و البابوية قد قارب بين بارونات كليكيا و بوهمند الرابع ، فقد عرض الأرمن على بوهمند الرابع أن يتزوج ابنه فيليب من ايزابل ، و كان فيليب هو الشخص المناسب ، تماماً لمثل هذه الزيجة . فإلى جانب أن مساعدات الفرنج يمكن أن تكون ذات نفع فإن هذا الزوج - البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً- زوجاً جاهزاً للأميرة الصغيرة ، وليس هناك أي احتمال لضم أنطاكية إلى كليكيا أو العكس لوجود شقيقين أكبر من فيليب في أنطاكية⁽⁶⁾ . و لما اشترط الأرمن أن يحترم فيليب الطقوس الدينية الأرمنية و أن يتبع تعاليم الكنيسة الجورجية ، فلم يكن من الصعب على بوهمند الرابع الذي كان قد أدخل بطريكاً يونانياً إلى كنيسة أنطاكية ، أن يوافق على ذلك ، و تم الزواج في سيبس في (جمادى الأول، 619هـ/ حزيران، 1222م)⁽⁷⁾ ، و افتتح فيليب عهده بأن ذهب تحت قيادة أبيه لصد هجوم سلجوقي على كليكيا حيث تمكن بوهمند الرابع من هزيمة السلاجقة والاستيلاء على حصن سيبليا Siblia ، و كان

¹ - كان قسطنطين هو كاثوليك الأرمن و هو ابن باسيل خال ليون الثاني . ابن العبري: تاريخ الزمان، ص262.

² - كانت تربط علاقات حسنة بين الاسبتارية وريموند روبين إذ عهد إليهم برعاية قلعة أنطاكية . رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص220.

³ - أفرج قسطنطين عن آليس Alice أم ريموند الأنطاكية بتوسط البابا هونوريوس الثالث و ماتت سنة 1231م . رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص220. عطية: إمارة أنطاكية الصليبية، ص

⁴ - Cahen, La Syrie du Nord, p.632.

⁵ - Cahen, Pre Ottoman Turkey, p.124-125. ابن العبري: تاريخ الزمان ، ص267 . أولفر: الاستيلاء على دمياط، زكار: الموسوعة الشامية ، ج33، ص114. رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص220.

⁶ - رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص221.

⁷ - زكار : الموسوعة الشامية ، صمباط ، ج35، ص323. أولفر: الاستيلاء على دمياط، زكار: الموسوعة الشامية ، ج33، ص116.

قائماً عند الحدود بين أرمينية و تركيا ، و يبدو أن بوهمند الرابع قد استغنى عن تحالفه مع السلاجقة⁽¹⁾ ، إلا أن فيليب قد أضاع المجد الذي بدأ فيه عهده كملك لكليكية الأرمينية. فأحاط نفسه بحاشية فرنجية ، و أساء معاملة أتباعه من الأرمن⁽²⁾. و لاشك أن بوهمند الرابع أيضاً كان يريد أن يحصل على بعض المكاسب لإمارته الفقيرة من ثروة ابنه الجديدة⁽³⁾. و أصبح من الصعب قيام التكافل الفرنجي الأرميني ، فاستغل قسطنطين - الراغب بالاستيلاء على الحكم في أرمينية - السخط الذي أثاره نبأ إرسال فيليب التاج و العرش الملكيين لكليكية إلى أنطاكية ، و جمع أعوانه في نهاية (621هـ/1224م)، و اعتقلوا فيليب أثناء ترحاله إلى أنطاكية ، و سجنوه في سيس ، و رفض قسطنطين طلب بوهمند الرابع بإعادة ابنه إلى منصبه ، و بقي فيليب في حبسه في القلعة العالية Partzpert⁽⁴⁾ إلى أن أمر قسطنطين بقتله و دس السم له⁽⁵⁾، و هنا تطورت مشكلة أنطاكية مرة أخرى و لم يكن أمام الخصمين إلا الاستجداد بالمسلمين في آسيا الصغرى ، و في حلب⁽⁶⁾.

ب- عهد هيثوم الأول : تمكن قسطنطين من أن يسيطر على الأمور في كليكية، فزوج ابنه هيثوم بإيزابل أرملة فيليب الأنطاكي بعد أن سلمها له الاستبارية الذين لجأت لهم في حصن سلوقية⁽⁷⁾ ، و صار هيثوم ملكاً على كليكية سنة (623هـ/1226م)⁽⁸⁾ ، و اعترف قسطنطين بتبعيته للبابوية في روما و للإمبراطور الألماني فريدريك الثاني و تصالح مع كيقيباذ⁽⁹⁾.

¹ - ابن الأثير : الكامل ، ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص 267 ، أولفر : الاستيلاء على دمياط، زكار : الموسوعة الشامية ، ج3، ص116.

² - بعدما صار فيليب ملكاً ، أظهر عداوته للأمرء الأرمن وتمادى في تصرفاته الرعناء وبلغ به الأمر أن قام بجمع أملاك الملك ليون وأمواله مع أموال ورثته وأستولى عليها ثم شرع بنقلها إلى أنطاكية شيئاً فشيئاً . زكار : الموسوعة الشامية ، سمباط ، ج35، ص323.

³ - ؛ Cahen , La Syrie du Nord, p.633

⁴ - وهي قلعة على جبل مرتفع على بعد مسيرة يومين من سيس من جهة الجنوب . Michel Le Kirakos, p.428; Vartan, p.442; Syrien, p.407; Samuel d'Ani, p.460.

⁵ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص 221.

⁶ - انظر مبحث العلاقة الأرمينية الأيوبية .

⁷ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص 221. زكار : الموسوعة الشامية ، سمباط ، ج35، ص324.

⁸ - رفضت إيزابل الاقتران بهيثوم الأول و لجأت إلى الاستبارية الذين باعوا الحصن إلى قسطنطين حتى لا يظهروا كأنهم سلموا إليه الأميرة التي استجارت بهم ، و يكونوا بذلك جاحدين لفضل والدها عليهم . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص263. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص221.

⁹ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص221.

ب- العلاقة الأرمنية مع حلب الأيوبية .

شكلت العلاقات بين الأرمن والدولة الأيوبية جزءاً من التاريخ السياسي للأرمن ، واتخذت هذه العلاقات طابع الحرب بين الطرفين في بعض مددها، إلا أنه في الحقبة التي قضاها صلاح الدين في حكم بني أيوب لم يكن هناك أحداث تذكر للعلاقات مع الأرمن إلا أموراً بسيطة وذلك لانشغال صلاح الدين معظم وقته في محاربة الفرنجة من أجل تحرير بيت المقدس.

في سنة (576هـ/ 1180م) كان صلاح الدين الأيوبي في الجزيرة وهاجم بلاد ابن لاون ⁽¹⁾ الأرمني (روبين الثاني 1175-1187م) ، الذي أسر جماعة من التركمان، كان قد استمالهم للرعي في أراضيه، ثم غدر بهم، فأوغل السلطان في أراضي الأرمن، وتمكن من احتلال قلعة المناقير، فاستولى على موجوداتها، وأمر بهدمها، وإحراقها، فخاف ابن لاون ، وخضع ، وذل، ودخل تحت طاعة السلطان، وأطلق ما بيده من الأسرى⁽²⁾ لكن ما إن انشغل السلطان صلاح الدين بحصار الفرنج لعكا، وسحب حاميته من قلعة بغراس ⁽³⁾، حتى سارع الأمير الأرمني ليون الثاني سنة (587هـ/ 1191م)، واحتلها⁽⁴⁾ . فأصبحت بغراس مجال نزاع بين الأرمن وطائفة الداوية ، الذين طالبوا بها، لأنها كانت لهم قبل أن يحررها صلاح الدين الأيوبي.⁽⁵⁾

¹ - ابن لاون : هو لافون بن اصطفانه بن لاون (ابن واصل: مفرج الكروب، م2، ص319) الذي كان أول ملوك أرمينيا الصغرى، وهو ليون الأول، وتحريفاً لاسم ليون أطلق العرب المسلمون أسماء ،ابن لاون، وليفون،(عاشور، سعيد: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص239).

² - ابن واصل: مفرج الكروب، م2، ص98. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط1 ، 2002م، ج3، ص37. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص90. المقرئ: السلوك ، ج1، ص183. ابن شداد: النوادر السلطانية و المحاسن اليوسفية، ص207.

³ - بغراس BAGRAS (بايراس) : قلعة و قرية صغيرة في لواء الاسكندرون تقع بين الشعاب الشرقية للسلسلة الجبلية التي تكون قيزيل ضاي و الأمانوس ، و كانت تشكل مفتاح الطريق الواصل بين أنطاكية - الإسكندرون - كليكية . شيدها البيزنطيون في القرن العاشر . فولغانغ مولر - فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص58.

⁴ - في سنة 587هـ/ 1191م دمر صلاح الدين قلعة بغراس بعد أن استولى عليها من فرسان المعبد ، وما أن انصرف رجال صلاح الدين حتى جاء ليون الثاني واعد احتلال الموقع وبناء الحصون . رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص 127-128. زكار: الموسوعة الشامية، ذيل وليم الصوري، م8، ص358.

⁵ - زكار: الموسوعة الشامية، ذيل وليم الصوري، م8، ص359.

وفي سنة (589هـ / 1193م) طلب صلاح الدين من ليون ملك أرمينية إعادة قيليقية إلى المسلمين والتخلي عنها ، لكن ليون رفض طلب السلطان صلاح الدين ، فجهز الأخير حملة عسكرية إلى قيليقية ، لكن المنية وافته قبل إتمام مشروعه.(1)

في عهد الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - اتسمت علاقات الأيوبيين وأرمينية بالعداء و ذلك لموالة الظاهر غازي للأمير بوهمند الرابع - أمير أنطاكية - وفي صيف (601هـ / 1205م) وبعد أن أعاد " ليون الثاني " - ملك أرمينية - بناء قلعة قديمة في الممر الواقع شمالي حصن درب ساك لتهديد المسلمين منه (2) قام بالهجوم على التركمان النازلين بإقليم العمق " فأخذ منهم عالماً لا يحصى ، واستاق نعمهم ومواشيهم، وسار إلى درب ساك ، فحرق ريضها ، وعاد إلى بلاده " (3)، كوسيلة للضغط على الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - ، ولحملة على التخلي عن بوهمند الرابع - أمير أنطاكية - ، ولتحييده من الصراع حول أنطاكية ، عرض ليون الثاني على الظاهر أن يرد إليه ما أخذه من إقليم العمق على أن " يخلي بينه وبين أنطاكية " (4) . وأظهر صاحب حلب قبوله لعرض ليون الثاني الذي جاء لحصار أنطاكية التي عانت من هذا الحصار ووقع فيها الغلاء ، إلا أن الظاهر غازي استمر في إمدادها بالمؤن حتى قويت (5). وربما يثير تصرف الظاهر تساؤلاً لماذا ترك ليون الثاني منذ البداية يهدد أنطاكية دون التصدي له ، بينما اكتفى بإمداد اللاتين فيها بالمؤن ؟

و الرد على هذا التساؤل يكمن في ان الظاهر غازي الذي استشعر - دون أن يتأكد - اخلاص بوهمند الرابع لمواثيقه معه ، واشترأكه مع الاسبتارية في الاعتداء على جبلة واللاذقية في سنة (601هـ / 1204م) (6)، أراد أن يشعر بوهمند الرابع بحاجته لمساعدة مسلمي حلب التي مازالت ضرورية للحفاظ على إمارته من السقوط في أيدي الأرمن ، ليبقى بوهمند الرابع على ولائه لتحالفه مع الظاهر غازي صاحب حلب ، فحتى هذه اللحظة كان الظاهر غازي نفسه يحتاج لبوهمند الرابع ، فهو من جهة لم يكن يطمئن لمشاعر عمه العادل نحوه ، ومن جهة أخرى لم تكن لديه الامكانيات التي

1 - زكار : الموسوعة الشامية ، سمباط ، ج35، ص301.

2 - ابن العديم ، ص446.

3 - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص170.

4 - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص446.

5 - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص446.

6 - يذكر المقرئ أنه في سنة (601هـ / 1204م) أغار فرنج طرابلس على جبلة واللاذقية ، و قتلوا عدة مسلمين ، و غنموا و سبوا شيئاً كثيراً. المقرئ : السلوك ، ج1، ص277. ابن الفرات : ج5، ص1، ج1، ص30-31.

يستطيع أن يصد بها هجوم الأرمن على أنطاكية ، وفي الوقت نفسه يحتفظ بجزء من قواته في حلب دفاعاً عنها ضد أي هجوم من العادل عليها في محاولته أخذها لنفسه ، الأمر الذي كان يخشاه الظاهر غازي دائماً ، لذا تجده يطلب نجدة بوهمند الرابع على الأرمن بعد قليل . كما نلمس عدم خروجه بنفسه لمساعدة العادل ضد الفرنج في العام التالي .⁽¹⁾

إلا أن تصرف الظاهر أثار حفيظة ليون الثاني الذي وجد أن ملك حلب قد أضعاف عليه فرصة الاستيلاء على أنطاكية مرتين .⁽²⁾ وفي يوم الميلاد (جمادى الأولى ، 602هـ / كانون الأول ، 1205م) ، هاجم ليون الثاني المسلمين في حصن درب ساك ، وصدّه المسلمون بعد قتال شرس بين الطرفين ، فاجتاح ليون السهل المجاور للحصن ثم تراجع بقواته إلى دروب جبل اللكام مستدرجاً خلفه قوة من المسلمين الذين هلكوا بسبب عاصفة ثلجية⁽³⁾ ، فبعث الظاهر بالتعزيزات بقيادة ميمون القصري⁽⁴⁾ إلى حارم ، وبعث بقوة أخرى بقيادة سيف الدين بن علم الدين إلى تيزين⁽⁵⁾ ، بينما كان ابن طمان يدافع عن درب ساك ، واستمرت المناوشات بين الأرمن في بغراس والمسلمين في درب ساك إلى أن خرج الظاهر غازي بنفسه في (شعبان ، 602هـ / نيسان ، 1206م)⁽⁶⁾ . إلى حارم ثم إلى جسر الحديد ، حيث طلب من أنطاكية عشرة آلاف من المشاة الفرنج ليهاجموا ليون الثاني من جهة الجنوب بينما يهاجمه هو من جهة الشرق⁽⁷⁾ ، كما بعث الظاهر إلى عمه العادل يطلب المساعدة ، واستطاع أن يصد هجوم الأرمن عند مرج دابق بعد وصول فرقة أنطاكية⁽⁸⁾ . ولما تحول الظاهر و الأنطاكيون إلى الهجوم ، ولما كان ليون الثاني يخشى المجازفة بالتعرض لغزو إسلامي فرنجي في

¹ - أثارت اعتداءات الاسبتارية من حصن الأكراد و حصارهم لحمص الملك العادل الذي لم يكن قد نسي استيلاء القبارصة على عدة سفن للمسلمين و أسر من فيها ، وعدم قدرة حنا ابلين الوصي على المملكة الصليبية على السيطرة على الفرنج ، فخرج العادل من مصر ووصلت إليه الامدادات من حلب فلم يخرج الظاهر بنفسه و اكتفى بإرسال فرقة من قواته كالتزام إقطاعي عسكري يقدمه مقابل إقطاعه كما هو متبع في النظام الإقطاعي الأيوبي. ابن الأثير: الكامل .ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص173.

² - كانت المرة الأولى في سنة (600هـ/1203م) انظر العلاقة بين الأرمن و الغرب الأوربي.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، 446-447.

⁴ - ميمون القصري : أمير كبير من مماليك الناصر صلاح الدين يُنسب إلى قصر الخلفاء الفاطميين في مصر . ابن الأثير: الكامل ، 10م، ص320، ابن العديم : زبدة الحلب ، ص447.

⁵ - تيزين؛ مدينة صغيرة قديمة كانت في أيدي المسلمين إلى أن استولت الفرنج على أنطاكية : ابن شداد الأعلاق الخطيرة ج1، ق2، ص423.

⁶ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص447.ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص170.

⁷ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص171.

⁸ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص447. انظر خريطة رقم (4)

كيليكيا ، فقد طلب الصلح من الظاهر " على أن يهدم الحصن الذي بناه في مواجهة درب ساك ، وأن يرد جميع ما أخذه في الغرة ، ويرد جميع أسارى المسلمين الذين في يده ، وأن لا يعرض لأنطاكية وقرر الصلح إلى ثماني سنين" وذلك في (محرم ، 603 هـ / آب ، 1206م) ⁽¹⁾.

وهكذا تحول الصراع بين بوهمند الرابع وليون الثاني الأرمني حول أنطاكية من خلافات بين المسيحيين بعضهم البعض إلى حرب بين ملك حلب وملك أرمينية.

إلا أن ليون - ملك أرمينية - لم يكن أمامه للاستيلاء على أنطاكية إلا الاستمرار باعتدائه على إقليم أنطاكية ، لذلك قام بغارة على سهل أنطاكية منتزعاً أشجار الفاكهة ، وذابحاً السكان ، وناهباً كل الإقليم ⁽²⁾ . و يبدو أن غارة ليو الثاني كانت مفاجئة لبوهمند الرابع والظاهر غازي ، فاكتفى الأخير بإرسال بعض من قواته ⁽³⁾ بقيادة سيف الدين بن علم الدين إلى السلطان السلجوقي " كيخسرو بن قلج أرسلان" الذي توجه إلى بلاد ليون الثاني - ملك الأرمن - فاستولى على حصن برتوس "Pertous"⁽⁴⁾ بالأمان ، وهاجموا قلاعاً أخرى ⁽⁵⁾ الأمر الذي دفع ليون الثاني إلى الدخول في اتفاقية مشروطة ، وافق فيها ليون الثاني على :

- رد حصن بغراس إلى الداوية .
 - وأن لا يتعرض لأنطاكية ، وأن لا يتعرض لبلاد الملك الظاهر ⁽⁶⁾ .
 - وأطلق الأسرى المسلمين الذين كانوا في بلاده .
- و بالرغم من ذكر هذه الوقائع بوضوح ، إلا أن المصادر العربية لم تذكر شيئاً عن إغارة ليون الثاني على أنطاكية ، وقد وضع المؤرخ كلود كاهن غارة ليون الثاني عام 1208م (جمادى الآخر 604هـ -

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص447. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص171. زكار : الموسوعة الشامية ، أبو شامة الذيل على الروضتين ، ج20، ص102. ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج1، ص2، ص406.

² - نقل كاهن هذه الرواية عن ابن أبي طي و ابن شداد . سورية الشمالية ص614

³ - اكتفى الظاهر بإرسال نجدة إلى كيخسرو دون الخروج بنفسه ، و ذلك لخوفه من عمه الملك العادل في دمشق و ابن عمه الملك الأشرف الذي نزل في حلب وهو في طريقه إلى حران .ابن العديم :زبدة الحلب، ص448. ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص183-184.

⁴ - حصن برتوس ويسميه ابن واصل حصن بغرقوس وابن العديم حصن برنوس. ابن واصل مفرج الكروب، ج3، ص187. ابن العديم : زبدة الحلب ، ص448.

ويقول د. سهيل زكار في تحقيق كتاب زبدة الحلب : لعلها تصحيف عريسوس ، أي أفسوس (زبدة الحلب ، ابن العديم ، ج2، ص629) .

⁵ - لم يحدد ابن العديم وابن واصل هذه القلاع . ابن واصل مفرج الكروب ، ج3، ص187. ابن العديم : زبدة الحلب ، ص448.

⁶ - انفرد ابن العديم بذكر تفاصيل الاتفاقية بينما لم يذكرها غيره من المؤرخين . ابن العديم : زبدة الحلب ، ص448.

جمادى الآخر 605هـ) وعام 1209 (جمادى الآخر 605-606هـ)، بينما وضع حملة كيخسرو في (ربيع 1209م / رمضان - شوال 605هـ). وفي كلتا الحالتين ، فقد افتقرت روايته إلى الصحة .
أما عن غارة ليون الثاني ، فلا بد و أنها وقعت في عام (1208م/605هـ) ولم تتكرر في العام التالي له .

- فليس من المقبول أن ينتظر الملك الظاهر أن يغير ليون الثاني على أنطاكية دون أن يتحرك إلا عند تكرار هذا الهجوم لا سيما أن الظاهر غازي كان يهيمه وجود بوهمند الرابع حاكماً لأنطاكية .
 - إلى جانب ذلك فإن المصادر العربية التي يستشهد بها كاهن في ذكره لغارة السلاجقة و الحلبيين على بلاد الأرمن تضع هذه الغارة ضمن أحداث سنة (605هـ/1208م).
 - إن سنة (605هـ) تواكب جزءاً من سنة 1209م، كما أن "ابن واصل" يذكر بأن عودة المسلمين عن بلاد الأرمن لم تحدث إلا عندما " وقع الثلج" ⁽¹⁾ ويؤكد أن الحملة انتهت في شتاء سنة (605هـ/1208م) لأن شتاء 1209م يقع في منتصف سنة 606هـ .
- ومن هذا كله يُستنتج أن ليون الثاني - ملك الأرمن - قد أغار على أنطاكية في خريف سنة (1208م/605هـ) ، و أن حملة السلاجقة و الحلبيين كانت في شتاء العام نفسه .
- و إذا كان سلاجقة الروم قد بدأوا يدلون بدلهم في الصراع بين الأرمن و أنطاكية ، فإن الملك العادل نفسه بدأ كذلك يتدخل في هذا الصراع ، وكل منهم يسعى لصالحه الخاص ، فالسلاجقة كانت لهم مصالحهم الخاصة المتمثلة ب :

- 1- الحد من قوة ليون الثاني - ملك الأرمن - جارهم المشاكس .
- 2- استعادة غياث الدين كيخسرو المال الذي أودعه عند ابن لاون - ملك الأرمن - لما كان غياث الدين كيخسرو هارباً من أخيه " ركن الدين " سنة (597هـ/1200م)، فرده ليون الثاني - ملك الأرمن - له عند هذه الهدنة.⁽²⁾

أما الملك العادل فكان يرى أن خطر ليون الثاني في شمال الشام يشغل الظاهر غازي عن مناوئته ، لذا سارع الملك العادل الذي راسله ليون الثاني والتجأ إليه ، إلى إرسال تعليماته إلى كل من كيخسرو والملك الظاهر لعقد الصلح مع ليون الثاني ⁽³⁾ . مما يدل على عدم وجود تنسيق بين الممالك الأيوبية

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص187.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص448.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص448.

في علاقاتها السياسية تجاه مملكة أرمينية ، كما يدل على تحرك سياسي واسع لملك الأرمن ، ومعرفته الجيدة بالعلاقات بين الممالك الأيوبية ، مما مكنه من اللعب على حبال الخلافات بينها أكثر من مرة .

وهكذا أصبح الصراع بين أرمينية وأنطاكية (ليون الثاني و بوهمند الرابع) لفرض السيطرة على أنطاكية مجالاً لكل القوى الموجودة في بلاد الشام ، و فرصة للجميع لتحقيق المصالح الذاتية كما تتضح معالم حلف غير معلن تجمعت أطرافه وفقاً لمصالحها ، بغض النظر عن الانتماءات والعقائد ، فنجد الملك الظاهر غازي في صف واحد مع بوهمند الرابع أمير أنطاكية و كومون أنطاكية ومعه طائفة الداوية ، و كيخسرو سلطان سلاجقة الروم ، يقابلهم السلطان العادل في صف واحد مع ليون الثاني ملك أرمينية و بطريك أنطاكية اللاتيني ومعه طائفة الإسميتارية .⁽¹⁾

أما كلود كاهن⁽²⁾ فيرى أن تصرف الملك العادل لم يكن انحيازاً إلى صف ليون الثاني - ملك أرمينية- ، فالحملة التي شنّها الملك العادل على أراضي طرابلس لم تكن سوى حملة ضد الاسبتارية (ورد تفصيل الحملة في مبحث علاقات أنطاكية مع الأيوبيين) حلفاء ليو نفسه ، وليس أدل على ذلك أكثر من تدابير الملك الأرمني الذي وجد أن سلوك الملك العادل تجاهه يشوبه بعض التحفظ . وإن كان الملك العادل يميل لمساعدته فإن نجده له ليست قريبة منه بدرجة كافية .

وفي النهاية فإن التحالف مع ملك مسلم مهما طال أمده ، فإنه بالنسبة لحاكم مسيحي غير مأمون إلى النهاية ، و الجميع كان يتوقع قدوم حملة صليبية من غرب أوربة في أي لحظة .

كل ذلك جعل من اتفاقية ليون الثاني مع كيخسرو حبراً على ورق ، كما دفع ليون الثاني إلى البحث عن حلفاء آخرين يكون لهم أثر فعال أكثر من الاعتماد على مساعدة الملك العادل .

يتحدث الكاتب الفرنجي المجهول لذيل تاريخ وليم الصوري عن العلاقة بين حلب ومملكة الأرمن من خلال الصراع حول أنطاكية ، فيقول ((أرسل الكونت من داخل أنطاكية إلى سلطان حلب يطلب المساعدة ضد الأرمن ، وكان سلطان حلب لا يحب ملك أرمينية ، ووافق ذلك ملك أنطاكية ، الذي بإمكانه المقاومة ضد ملك أرمينية ، وأن يحول بينه وبين السيطرة على أنطاكية ، ودامت الحروب سبع سنوات ، ثم سلمت أنطاكية إلى ملك أرمينية عن طريق الخيانة))،⁽³⁾

¹ - Lang : Armenia cradle of civilization , p .200 .

² - Cahen, La Syrie Du Nord,p.614.

³ - زكار: ذيل تاريخ وليم الصوري ، الموسوعة الشامية ، م 484/8 .

و في سنة 612هـ / 1215م تمكن ابن لاون ملك الأرمن من السيطرة على أنطاكية ⁽¹⁾ التي كانت هدفه منذ تولى الحكم في قيليقية ، فقبل المصاهرة بينه وبين بوهمند الثالث كخطوة أولى لتحقيق هذا الهدف ، وكان عليه بعد ذلك أن يواجه منافسة بوهمند الرابع حول أنطاكية ، لذلك اتبع الخطوات التالية :

- استمال الاسبتارية المنافسين للداوية حلفاء بوهمند ، وتمكن من الاستيلاء على أنطاكية بمساعدة الاسبتارية ⁽²⁾ .
 - تصالح مع البابوية في الوقت الذي عصى فيه بوهمند الرابع فامتازت سياسته بحسن التوقيت .
 - استمال جماعة التيوتون الحديثة العهد بالمنطقة بعد أن نال تأييد الإمبراطور الألماني نفسه .
 - اشترى تأييد برجوازية أنطاكية و سكانها وبطيريكها اللاتيني .
 - حيد الداوية بعد أن لوح لهم بالأمل في رد بغراس ، أهم حصونهم ، إليهم ، ووفى بوعده لهم .
 - استغل فرصة التباعد بين الملك الظاهر وبوهمند الرابع .
- بعد استيلاء ابن لاون ملك الأرمن على أنطاكية ، وكعربون صداقة وبداية لعلاقات أفضل بينه و بين الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - " أطلق جماعة من الأسرى المسلمين فيها ، وحملهم إلى حلب ، ووقع الصلح بينه وبين الملك الظاهر " ، ⁽³⁾ وكتب ابن لاون إلى الملك الظاهر : " إنه فتح أنطاكية باسمه ، وإنه أطلق أسرى المسلمين ، وسيرهم إلى حلب " ⁽⁴⁾ .
- عاد ابن لاون إلى بلاده ، وقبل أن يغادر ابن لاون أنطاكية نصب فيها " ابن أخته روبان بن ريمند الكبير " ⁽⁵⁾ . لأن عزالدين كيكافوس سلطان سلاجقة الروم انتهز انشغال ليون الثاني في أنطاكية و هاجم أملاكه في قيليقية بالاتفاق مع الملك الظاهر غازي ، وفتح إحدى قلاعها المنيعه ، وهي قلعة لؤلؤ ⁽⁶⁾ .

¹ - زكار: ذيل الروضتين ، أبو شامة ، الموسوعة الشامية ، 174/20 .

² - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، 408/2/1 .

³ - ابن واصل : مفرج الكروب ، 233/3 .

⁴ - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، 408/2/1 .

⁵ - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، 406/ 2/1 ، - بقيت أنطاكية بيد روبان حتى قصدها السلطان الظاهر بيبرس ، وفتحها عام 666هـ (ابن

شداد ، الأعلاق الخطيرة ، 408/2/1) .

⁶ - ابن واصل : مفرج الكروب ، 233/3 .

ويبدو أن صلح الظاهر صاحب حلب مع مملكة الأرمن لم يعجب كيكافوس ، ففي سنة (613 هـ / 1216م) ، ضغط كيكافوس على الظاهر ، وألح عليه للهجوم على الأرمن ، وكانت خطته أن يهاجم كيكافوس من جهة مرعش ، ويهجم الظاهر من جهة درب ساك ، فيحصرا ابن لاون وجيشه بين فكي كماشة ، وبالوقت نفسه ، يهاجم بوهمند الرابع أنطاكية ، تدعّمه قوات دمشق وحمص وحماء⁽¹⁾ . (نظرياً ، إنها خطة محكمة وفاعلة بالتأكيد ، حيث يحصر ابن لاون في المرتفعات ، ولا يمكنه الخروج بجيشه من الدريندات)⁽²⁾ لإنقاذ أنطاكية ، التي يهاجمها صاحبها السالف بوهمند بقوات دمشق وحمص وحماء ، ولكن عملياً يبقى الاتفاق ناقصاً لحاجته لموافقة العادل سلطان الأيوبية ، وهو صاحب القرار في دمشق ، والتأثير الكبير في حمص وحماء ، وربما كان يأمل كيكافوس أن يتكفل الظاهر بتأمين موافقة عمه العادل .وبالفعل فقد أعجبت الخطة الملك الظاهر ، الذي لم يكن له استراتيجية ثابتة في التعامل مع الأرمن ، أو مع أنطاكية ، وكان همه تأمين طريق تجارة حلب البحري مع أنطاكية ، لكن ، بدون انتهاج خطة دائمة وثابتة للتعامل معها ، فلم يلتزم - بشكل كامل - لا مع أمراء أنطاكية ، ولا مع مملكة أرمينية ، ولا مع مملكة سلاجقة الروم ، إنما كان يتبع تكتيكاً سياسياً أنياً ، لا يدل على بعد نظر ، وهذا غير مستغرب على الظاهر ، فقد كانت هذه سياسته في الشام ، وضمن البيت الأيوبي . وأخذ الملك الظاهر بالاستعداد العسكري للحملة ، وأرسل إلى عمه السلطان العادل يطلب منه الدعم لإتمام الخطة ، لكن العادل أرسل إليه يهجن رأيه ، ويطلب منه ألا يجتمع بكيكافوس أصلاً ، وشرح له الورطة التي يمكن أن يوقع نفسه فيها ، ويمكن تسويق موقف الملك العادل بأنه كان يرى أن خطر مملكة الأرمن يشغل بال الظاهر غازي عن المطالبة بالسلطنة ، فتدخل لمصلحة الأرمن ، وألح على الظاهر بعقد الصلح معهم .فأصابته الظاهر الحيرة بين أن ينكل بوعده لكيكافوس وبين مخالفة عمه⁽³⁾ . الذي كان الظاهر يسعى للحصول منه على اعتراف بابنه العزيز (ابن الظاهر) خلفاً له في حكم حلب .لذلك رجع الظاهر عن اتفائه مع كيكافوس بناءً على نصيحة عمه العادل و تعلل بهجوم نصرة الدين صاحب مرعش السلجوقي على إقليم البلاط ليخرق اتفائه مع كيكافوس الذي اجتاحت السهل الكيليكلي كله ، و أباد القوة التي أرسلها ليون الثاني ، وأسر الكثير من

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، 233/3 .

² - الدريندات : جمع دريند ، وهي الممرات الوعرة في جبال طوروس .ألتونجي ،محمد: التيارات الأدبية ،ص 633.

³ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3،ص234 .ابن العديم : زبدة الحلب ص 453.

الأرمن على رأسهم قسطنطين عم ليون الثاني ، وكند اسطبل⁽¹⁾ المملكة وآدم حاكم حصن بغراس السالف .⁽²⁾

ومرة أخرى يثبت ابن لاون مقدرته السياسية ، ويثبت أنه أكثر اطلاعاً على ما يجري ضمن البيت الأيوبي ، فقد توجه - هذه المرة - برسالته إلى الملك الظاهر ، ويبدو أنه كان يدرك أن موقف الملك العادل مناسب له ، فركز على الملك الظاهر ، وأوصل إليه رسالة فيها كل ما يريده الظاهر ، و كأنه كان يعرف تماماً ما يريده الظاهر ، فقد بدأ رسالته بالتذلل والخضوع ، وهو ما كان يناسب شخصية الظاهر ، التي تملك طموحاً كبيراً مستمداً من إرث والده العظيم ، ولا يملك مقومات شخصية والده لتحقيق طموحاته ، فكلمات ابن لاون المستعطفة المتذللة التي أجاد انتقاءها ، حيث يقول : ((إني مملوك السلطان ، وغرس دولته ، وقد دخلت عليه دخول العرب ، وأطلب منه إنفاذي من هذه الورطة ، وأكون مملوكه ما عشت))⁽³⁾ . لا بد أن هذه الكلمات فعلت فعلها في نفس الظاهر . ثم ينتقل ابن لاون في رسالته إلى تعداد خدماته السالفة للظاهر ، ويذكره بها استعطافاً ، كي لا يرد الجميل بالمكره ، فيقول ((وقد حفظت بلاد السلطان غير مرة ، وخدمته ، ومنها : أن السلطان لما حاصر دمشق المرة الأولى ، وبقيت البلاد شاغرة من العساكر ما شغلت قلبه ، ولا آذيت بلده ، بل ساعدته ، وعاونته بمالي ورجالي ، وكذلك لما حاصر دمشق المرة الثانية ، وقد بذلت لي الأموال كلها لأشغل قلبه ، ويفتر عن الحصار ، فلم أفعل))⁽⁴⁾ . وبالطبع يشير ابن لاون إلى أشياء لم يفعلها ، ولم يذكر ما قام بفعله ضد مملكة حلب ، من احتلاله لبغراس وهجومه المتكرر على أراضي العمق ، وضربه لقوات حلب التي كانت مع ميمون القصري .

ويلفت النظر في الرسالة تلميح ابن لاون إلى عرض الملك العادل أثناء حصار الظاهر لدمشق ، وهو إشارة إلى ذلك ممكن أن يتكرر ، وأنه قد يحالف العادل على الظاهر في قادمات الأيام . ويتابع ابن لاون في رسالته إلى الظاهر ، فيقارن بين خدمات برنس أنطاكية للظاهر وخدماته هو ، واعداً أن مصالح الظاهر في أنطاكية ستكون مؤمنة أكثر ، وأن أميرها سيكون في خدمته ، فيقول : ((

¹ - الكند اسطبل : اسم وظيفة أطلق في البداية على أمير الأخور ومعناها مجموعة من الجند ، ثم أطلقت على أمير الجيوش . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص 448 .

² - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج 3 ، ص 234-236 . ابن العديم : زبدة الحلب ، .

- عطية : إمارة أنطاكية الصليبية ، ص 300 .

³ - ابن واصل : مفرج الكروب ، 3 / 234 .

⁴ - ابن واصل : مفرج الكروب ، 3 / 235 .

وإن كان الإبرنس قد خدم السلطان ، من خدمته ، وسوف يبصر السلطان خدمتي ، وملازمتي بابه الشريف ، وقد أوصيت ابن أختي الذي نصبته بأنطاكية بملازمة خدمته ((⁽¹⁾ . لقد اجتمع على الظاهر تأثير رسالة ابن لاون مع تحذير عمه الملك العادل من القيام بالحملة ، لكنه بقي متردداً ، فقد وعد كيكافوس ، وهو جار قوي وخطر ، ولا تسهل معاداته . وجاء الفرج للظاهر من حادثة بسيطة على الحدود مع مملكة السلاجقة ، كان من الممكن أن لا يلتفت إليها في غير هذه الظروف ، فقد أغارت قوة من عسكر سلاجقة الروم على منطقة البلاط التابعة لحلب ، قاصدين تجمعاً للأرمن فيها ، لأنهم ساعدوا ابن لاون في غارته على بلاد سلاجقة الروم ، ونهبها ، فلما بلغ الخبر إلى مسامع الظاهر ، انتهزها فرصة ، وقال لرسول كيقباز الذي يستحثه لسرعة الحركة : " العجيب أنكم تطلبون منا المعاونة ، وتخربون بلادنا " ⁽²⁾ ، ولم تجد تسويغات رسول كيقباز ، ونجا ابن لاون من هجوم كان من الممكن أن يسبب له أذىً كبيراً ، ولا سيما بعد إبرامه تحالفاً مع إمبراطور نيقية البيزنطي ثيودور لاسكارس ، مما اضطر كيخسرو - الذي أصبح معزولاً - للتحالف مع لاتين القسطنطينية ⁽³⁾ .

و في سنة (622هـ / 1225م) استنجد بوهمند الرابع بسلاجقة الروم لإنقاذ ابنه الأمير فيليب من أسر الأرمن ، فبدأ علاء الدين كيقباز - سلطان سلاجقة الروم - بغزو كيليكية معتدياً على كل سكان السهل ، و استولى على أربعة حصون ، على الرغم من حصول قسطنطين على مساعدة الاسبتارية و التيوتون ⁽⁴⁾ . فأرسل قسطنطين إلى بوهمند الرابع كي يأتي لأخذ ابنه من قلعة العمودين ، و عندما وصل الأخير إلى تل حمدون أبلغه الرسل بأنه لا جدوى من ذلك فقد أمر قسطنطين بدس السم لفيليب - ابن بوهمند - الذي مات بعد ذلك بقليل ⁽⁵⁾ .

جمع بوهمند ما استطاع من قواته للذهاب إلى كيليكية و تخريبها ، ومع أن الداوية لم يساعدوا بوهمند الرابع إلا أنهم لم يعترضوه أثناء مروره بممرات جبال الأمانوس التي يتحكمون فيها ، و لم يجد من يلوذ به سوى الحلبيين الذين لم يعد يعينهم الدفاع عن بوهمند بعد وفاة الملك الظاهر والعادل ،

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، 235/3 .

² - ابن واصل : مفرج الكروب ، 235/3 .

³ - زبيدة عطا : الترك في العصور الوسطى ، 118 .

⁴ - كان الاسبتارية كما ذكر سباط يمدون قسطنطين بأربعمئة فارس كل عام لمساعدته ضد السلاجقة ، و في سنة 1228م أصبح قسطنطين اخاً من أخوة الاسبتارية كما أنه أيد فريدريك الثاني في نزاعه ضد بارونات مملكة بيت المقدس كصديق للفرسان التيوتون . عطية : إمارة أنطاكية الصليبية، ص321.

⁵ - ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص263.

وانتهاء التوتر في العلاقات بينهما ، ولم تعد هناك حاجة بالملك العزيز أو بالوصي عليه - الأشرف موسى - للدفاع عن بوهمند الذي أصبح يشكل خطراً على حلب إذا ما استولى على قيليقية . كما استتجد قسطنطين بالأتابك شهاب الدين طغريل أتابك حلب القائم بالوصاية على ابن الظاهر ، الذي بدوره أرسل فرقة من جيش حلب هاجمت حصن بغراس ، و بينما لم يستطع بوهمند عمل شيء ، " و لم يحصل على غرضه "(1) عاد إلى أنطاكية . وهكذا فبدون مساعدة جماعات الفرسان الرهبان لم تكن قوات أنطاكية وحدها تكفي للقيام بأعمال عسكرية كبيرة.

ويبدو أن سياسة حلب تجاه الأرمن وإمارة أنطاكية ، كانت - غالباً - تسعى لتحقيق عدم تفوق أي منهما على الأخرى ، فالتوازن بينهما هو مصلحة لمملكة حلب ، و يُستنتج بأن دولة الأرمن في قيليقية قد قامت مستغلة الأوضاع المضطربة للمنطقة ، وكان سر نجاحهم هو فتحهم ميناء آياس (2) على المتوسط ، الذي شكل بديلاً لموانئ الساحل الشامي ، التي أغلقت الحروب مع الفرنجة معظمها . ونلاحظ أن الأرمن وقفوا بكل قواهم - في أول الأمر - مع الفرنجة في الجزيرة والرها ، يدفعهم عداؤهم ديني ضد السلاجقة الأتراك ، وقاتلوا مع جيوش الفرنجة ، وشاركت قواتهم في الحملة الثالثة على عكا ، لكن ، بتراجع القوة الفرنجية - ولا سيما بعد تحرير الرها - انقلب كثير من الأرمن على الفرنجة . لقد ارتبطت مملكة الأرمن بعلاقة متناقضة مع الممالك الأيوبية ، ولا سيما جارتها حلب ، فغالباً ما كان يسود العداء المستحكم بينهما ، وعندما كان الأرمن يتتمرون ويهاجمون أطراف مملكة حلب سرعان ما كانت توجه نحوهم حملة عسكرية ، فيعودون للخضوع والتذلل .

أما العلاقات بين الأرمن وأنطاكية فقد ظلت متوترة حتى وصول لويس التاسع إلى بلاد الشام (3) ، وفي الحقيقة ، فإن الأرمن لم يبادروا أبداً بالهجوم على بوهمند الخامس . فقد كانت سياسة قسطنطين أكثر تحفظاً من سياسة ليون الثاني ، وأقل انغماساً في شؤون اللاتين ، وذلك بسبب الخطر السلجوقي المترص بالحدود الأرمنية ، مما دفع الأرمن للالتزام الحذر دائماً. هذا بالنسبة للأرمن أما بوهمند الخامس - أمير أنطاكية - فإنه لم يغفر للأرمن إعدامهم لأخيه فيليب و توليهم عرش أرمينية على حسابه ، لذلك قدم بوهمند الخامس المساعدة لجماعة الداوية في حملتهم ضد هيتوم الأول - ملك أرمينية - انتقاماً من الأرمن الذين اكتسبوا أيضاً حقد الداوية لعدة أسباب منها :

¹ - يعطينا ابن الأثير الرواية بشكل أكمل ، ولكنه من ناحية الترتيب الزمني غامض ، و من الصعب التوفيق بينه و بين ابن العبري في سرد التفاصيل . ابن الأثير : الكامل ، ج10، ص469 . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص263.

² - آياس حصن على شاطئ البحر سمي نسبة لـ (آياس بن ياون بن يافت بن نوح) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج1، ق2، ص164.

³ - عطية : إمارة أنطاكية الصليبية، ص368-369.

- لما كان هيتوم الأول - ملك أرمنية - تابعاً اسماً للإمبراطورية الألمانية ، فقد مال إلى دعم جماعة التيوتون الألمانية بمنحها عدة أملاك في قيليقية⁽¹⁾ لإرضاء الإمبراطورية من جهة ، و لتكون الجماعة بمثابة درع واقٍ له ، لا سيما أن الجبهة الشرقية لمملكته كانت قد تقلصت بسبب نجاح السلاجقة في توجيه الضربات المتتالية للأرمن فيها⁽²⁾.

- اعتقال قسطنطين - والد هيتوم الأول - اعتقل بعض أعضاء جماعة الداوية و أمر بإحراقهم أحياء و شق البعض الآخر منهم⁽³⁾.

وهكذا اجتمعت أحقاد بوهمند الخامس و الداوية ضد الأرمن وقرروا القيام بحملة مشتركة ضدهم⁽⁴⁾، إلا أن الداوية سرعان ما تخلوا عن بوهمند الخامس بعد عقدتهم صلحاً منفرداً مع قسطنطين⁽⁵⁾. مما يدل على أن الصليبيين أصبح كل منهم يعمل لصالحه دون النظر للصالح العام ، و ضاعت وحدة الهدف التي تميزت بها سياستهم حين قدموا للشرق الإسلامي أول مرة .

كان الفضل في أن يحل الوئام بين الأرمن وصليبي أنطاكية للملك لويس التاسع الذي كانت له المبادرة في قيام علاقة جديدة ودية ، توثقت بزواج بوهمند السادس من سيبيل ابنة هيتوم في (أيلول 1254م/ شعبان، 656هـ)⁽⁶⁾ وأصبح بوهمند السادس بدرجة ما تابعاً لهيتوم ، ووافق الأرمن على

¹ - في (11 جمادى الأول ، 633هـ / 22 كانون الثاني ، 1236م) منح هيتوم الأول التيوتون مدينة الهارونية التي تتمتع بأهمية خاصة من ناحية الموقع ، و ذلك لأنها تتحكم بالطريق إلى مرعش و ملطية خلال جبال الأمانوس الشمالية ، وهي الطرق المؤدية إلى كيليكية من جهة الشرق ، كما منح هيتوم الأول التيوتون أيضاً كل الأراضي المحيطة بالهارونية و مزارعها و مافيها من كنائس وقلاع صغيرة إلى جانب حقهم في جباية المكوس من قاطني المنطقة من الأرمن كما أعلن هيتوم نفسه " أماً لفرسان التيوتون".حسن ، حسين عبد الوهاب : تاريخ جماعة التيوتون في الأراضي المقدسة ، ص219-220. انظر خريطة رقم (2) .

أما الهارونية : هي مدينة صغيرة قرب مرعش بالثغور الشامية في طرف جبل اللكام ، استحدثها هارون الرشيد و سميت باسمه . الحموي: معجم البلدان ، ج5، ص388. ابن شداد : الأعلام الخطيرة ج1-ص158.

² - تعرضت هذه الجبهة لهزات متلاحقة أدت إلى سقوط عدد من القلاع فيها ، منها قلاع لولون Loulon و لازادا Lauzada. حسن ، حسين عبد الوهاب : تاريخ جماعة التيوتون في الأراضي المقدسة ، ص220.

³ - عطية : إمارة أنطاكية الصليبية، ص351.

⁴ - خرج بوهمند الخامس في هذه الحملة بقواته بينما قاد الداوية مقدمهم أرمند دي بريجور ، و زحف الحليفان على طرسوس .

⁵ - منحهم قسطنطين حصن التينات الواقع شمالي اسكندرونة بين بياس والمصيصة. ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج1، ص2، ص165 الحموي : معجم البلدان ، م2، ص68.

⁶ - رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص329.

تحمل نصيب من مسؤوليتهم في حماية أنطاكية لاسيما بعد هذه المصاهرة التي شكلت بداية تحالف أنطاكي أرمني راح يقوى على مر الأيام⁽¹⁾.

كما أن التحالف الوثيق بين بلاطي أنطاكية وسيس ، و تكوين كتلة فرنجية - أرمنية على خليج اسكندرونة كان من أخطر العقبات التي واجهت المسلمين ، و كان من الأعمال التي قام بها لويس التاسع و دام أثرها لسنوات طويلة .

ت- العلاقة مع البابوية والغرب الأوربي :

كان محور العلاقات بين الأرمن والبابا هو تحقيق مطامع الأرمن في أنطاكية ، بعد أن اعتلى بوهمند الرابع عرش إمارة أنطاكية رأى " ليون الثاني " أن الانتظار معناه أن خصمه سيتمكن من تعزيز مركزه ، فأسرع على رأس قواته وعسكر أمام أسوار أنطاكية الشمالية ، ولما لم يجد أنه في مقدوره عمل شيء عاد إلى قيليقية بعد أن أرسل خطاب إلى البابا انوسنت الثالث في سنة (598هـ/1201م) يزعم فيه أنه اعتقل رسل بوهمند الذين أرسلهم لطلب نجدة الملك الظاهر - صاحب حلب- وأيضاً بركن الدين سليمان - سلطان السلاجقة - مما اضطره (ليون الثاني) للانسحاب كي لا يقع صراع بين المسيحيين.

ومن الواضح أن ليو أراد أن يثير البابا ضد بوهمند الرابع لتحالف الأخير مع المسلمين وفي الحقيقة لم يكن الظاهر قد أمد بوهمند الرابع بأية مساعدة في هذه المناسبة لانشغاله مع أخيه الأفضل في خلافتهما مع الملك العادل حول دمشق في ذلك الوقت⁽²⁾.

كما أرسل الملك "ليون الثاني" رسالة ثانية إلى البابا يشكر فيها البابا على راية القديس بطرس وعبر فيها عن ابتهاجه بقرب وصول مندوبي البابا الذين سيقدم لهم " ليون الثاني" أسراه من رسل بوهمند الرابع إلى " ركن الدين سليمان " ، ويطلب من البابا:

- الاسراع بإرسال النجدات من الغرب لقتال المسلمين المنشغلين بخلافاتهم .
- أن لايقع أحد على قرار الحرمان لبوهمند الرابع إلا البابا بنفسه .
- طيلساناً⁽³⁾ لجريجوري السادس كاثوليك الأرمن .

¹ - سمباط : التاريخ المعزو ، تحقيق زكار : الموسوعة الشامية ج35، ص325.

² - لم تذكر المصادر الإسلامية هذه الواقعة ، كما لم تذكرها المصادر الأرمنية وكل ما ورد عنها جاء في تاريخ هرقل و خطاب ليون إلى

البابا انوسنت الثالث . Innoucent III, Regesta: P.L, vol:214, col.1003. Eracles, p.313.

³ - طيلسان : لفظ فارسي أصله تالسان معرب: جمعه طيالس و طيالسة . ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف ويحيط بالبدن خالٍ من الصنعة كالتفصيل والخياطة ، من ألبسة العلماء . الخطيب: معجم الألقاب والمصطلحات التاريخية ، ص312.

ورد البابا عليه مستجيباً لكل طلباته ولم يتطرق إلى مشكلة ابن لاون مع الداوية حول حصن بغراس⁽¹⁾، مما دفع "ليون الثاني" إلى الاطمئنان أن مشكلته مع إمارة أنطاكية ستحل قريباً لصالحه من رد البابا على رسالتيه السابقتين وبدا أن ذلك ممكناً بوصول المندوب البابوي الكاردينال "سوفريد دي سان براسيدس" "Soffred de St. Praxedis" الذي اجتمع مع بوهمند الرابع في (17 جمادى الأولى 599هـ / 2 شباط، 1203م) و أصدر قراراً بالحرمان ضد بوهمند الرابع⁽²⁾.

في سنة (599هـ/1203م)، قدم إلى عكا أسطول فلمنكي بقيادة جان دي نسل (Jean De Nesle)، وبعده بفترة قصيرة وصل أسطول آخر قادم من البندقية يحمل فرساناً من فرنسا بقيادة رينارد الثاني دي دامبير (Renard De Dampierre) و ستيفن دي بيرش (Stephen De Perche)، ولما كانت هذه القوات مجتمعة قليلة العدد⁽³⁾ فقد رفض عموري دي لوزينان ملك بيت المقدس⁽⁴⁾ أن ينصاع إلى رغبات قادتها و أن يجازف بخرق الهدنة مع العادل وأن يسارع بقتال المسلمين، فكان "ليون الثاني" هو الأوفر حظاً بوصول جان دي نسل و قواته إلى أرمينية بحراً حيث انضموا إليه في صراعه ضد أنطاكية⁽⁵⁾.

تشجع "ليون الثاني" في (13 ربيع الآخر، 600هـ / 24 كانون الأول، 1203م) وقام بمحاولة لدخول أنطاكية مستغلاً غياب بوهمند الرابع في طرابلس، وبمساعدة قوات جان دي نسل الفرنسي تمكنت قوة من الأرمن من دخول المدينة من بوابة القديس جورج، وربما بمعاونة البطريك بطرس أنجوليم الذي طلب منه "ليون الثاني" أن يستميل أعضاء القومون إلى جانبه، إلا أن فرسان الداوية وبرجوازية أنطاكية من اللاتين ظلوا على عدااء شديد تجاه ملك الأرمن، وتحصنوا بالقلعة، ثم خرجوا فجأة

Innocent III, Regesta: P.L., vol:214, cols.1007,1009,1012,1013. - 1

Soffred de St. Praxedis(Letter of Sofred to Innocent III), in P.L, vol,214,p.(LI - 2
ff,Rohrich,Regest,suppl;no.789 C.p.51.

. Viliehardouin, pp.57-58 - 3

يحدد رنسيمان موعد قدوم هذه القوات إلى سورية بنهاية عام 1202م/ بدايات عام 599هـ . Runciman: A History of the Crusades, vol.3.p101.

4 - مات هنري دي شامبانيا ملك بيت المقدس السابق سنة (594هـ/1197م) تاركاً زوجته إيزابيلا وريثة المملكة التي تزوجت سنة (595هـ/1198م) من عموري ملك قبرص بفضل مساعي كونراد رئيس أساقفة ماينز الألماني الذي هدف إلى إخضاع مملكة بيت المقدس أيضاً للامبراطور الألماني لخضوع عموري للأخير بقبوله لقب ملك قبرص من الامبراطور في (594هـ/1197م). وتم تتويج عموري فور

زواجه من إيزابيلا وحكم حتى (602هـ/1205م). G.Hill:A History of Cyprus,vol.2,pp58.

Eracles:257;Sanuuto,p.203. - 5

وتمكنوا من طرد الفرقة الأرمنية من المدينة بينما وجه رجال القومون نداء إلى الملك الظاهر - صاحب حلب - على جناح طائر⁽¹⁾، ووصل المدد الحلبي إلى نهر العاصي بينما عسكر الظاهر بالقرب من حارم ، فاضطر ليو إلى العودة إلى بلاده⁽²⁾ .

بعد ذلك مباشرة وصل إلى قيليقية قادماً من القسطنطينية بطرس كابوانودي مان مارسلو (Pierre Capuano De St. Marcello) - البمعوث البابوي- يصحبه الأسقف المؤرخ سيكارد دي كريمونا (Sicard De Cremona) لحل الخلاف بين أنطاكية وأرمينية و لكن المبعوث البابوي الجديد كان يفتقر إلى بعد النظر وحسن التصرف ، فقد فشل في إخضاع طرفي النزاع لقراراته وزادت الأمور تعقيداً للأسباب التالية:

- قام " ليون الثاني " بنهب أملاك الداوية في صخرة رسل " Roche de Riössol " و صخرة وليم " Roche de Guillaume" في قيليقية ونهب قطعان الماشية الخاصة بالداوية وحقلها في المنطقة .⁽³⁾

- لم يوافق على إعادة ماسبق إلى الداوية إلا إذا قبلوا أن يقتصر نشاطهم على المجالات الدينية فقط.
 - طلب " ليون الثاني " أن تعتبر مشكلة بغراس ومشكلة أنطاكية قضية واحدة⁽⁴⁾.
 - تصرف المبعوث البابوي الجديد برعونة عندما دعا إلى عقد اجتماع في أنطاكية ولم يدعُ إليه جاثليق⁽⁵⁾ الأرمن كما وعده من قبل .
- وعندما رفض " ليون الثاني " تعويض الداوية عن خسائرهم في قيليقية أوقع عليه المبعوث البابوي وعلى مملكته بقرار الحرمان⁽⁶⁾.

¹ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص405، ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص154-155. Eracles, p.257.

² - يستشهد كلود كاهن بابن واصل في ذكر هذه الواقعة ، إلا أن كاهن يضعها في (4 ربيع الأول / 11 تشرين الثاني) من نفس السنة ، ويضعها ابن العديم خطأ ضمن أحداث سنة (601هـ/1204م). ابن العديم : زبدة الحلب ، ص446.

³ - تقع قلعتا صخرة رسل و صخرة وليم بالقرب من " طريق الفرنج" جنوبي أرسوس .
و أرسوس هي بلدة صغيرة يميز بها نهاية جبال الأمانوس على شاطئ البحر بين الاسكندرونة ورأس الخنزير شمالي ميناء السويدية . ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج1، ق2، ص162

و طريق الفرنج هو الطريق الذي يبدأ شمالي رأس الخنزير إلى الاسكندرونة ، وكان هذا الطريق تحت سيطرة الداوية حتى سقوط أنطاكية في (666هـ/1268م). عطية ، حسين محمد : إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمين ، ط1989، م1، دار المعرفة الجامعية ، ص265.

⁴ - Innocent III, Regesta, in P.L, vol .215, cols.204,689-690.

⁵ - جاثليق : لقب رئيس ملة النصارى في الدولة الإسلامية و كان ينتخب من قبل أتباع ملته وباختيارهم ، وله زي خاص ومتميز يعرف به .
الخطيب : معجم الألقاب والمصطلحات التاريخية ، ص117.

⁶ - Sofrod De Praxides, Letter of Sofrod to Pope Innocent III, in P.L, vol.214, col, CL VIII.

ولم يستطع بطرس كابوانو ان يقوم بشيء سوى اسداء النصح - بناءً على نصيحة كل من بطريك أنطاكية والمؤرخ سيكارد - لكل من بوهمند وليو بعدم نشوء حرب ليس لها مبرر ، ورحل إلى عكا في (ذي القعدة ، 600هـ / حزيران ، 1204م)⁽¹⁾. وكان هذا الاخفاق ضاراً بالشام كلها⁽²⁾. ولذا استجاب الصليبيون في عكا لطلب ماري أوف فلاندرز زوجة بلدوين أول أباطرة القسطنطينية اللاتين والتي حضرت إلى عكا في ذلك الوقت ، فبدأت المفاوضات من جديد على أن يتولى سوفريد المسؤولية هذه المرة ، ولأن " ليون الثاني" كان يثق به أكثر من ثقته ببطرس كابوانو فقد وافق " ليون الثاني" على عقد هدنة مدتها أربعين يوماً وإعادة صخرة رسل إلى الداوية ، بينما رفض بوهمند الرابع ذلك ، كما رفض السماح لمبعوث " ليون الثاني" بالمرور عبر أراضيها إلى عكا .

وهنا مال سوفريد إلى جانب " ليون الثاني" ⁽³⁾ بينما بقي بطرس كابوانو في صف بوهمند الرابع ، ولانقسام مبعوثي البابا لم يكن من الممكن تحقيق أي اتفاق حول مشكلة أنطاكية ، ورحل المبعوثان إلى القسطنطينية في (صفر ، 601هـ / تشرين الأول ، 1204م)⁽⁴⁾، وكتب ليو والكاثوليك جان إلى البابا يثنيان على سوفريد ويشكون من بطرس ، ويطلبان من البابا أن يجبر الداوية على الاقتداء بالاستبارية في موقفهم المحايد من المشكلة⁽⁵⁾. وفي الواقع كانت الأزمة قد خرجت من هذه المفاوضات الطويلة أكثر تعقيداً عن ذي قبل و أيضاً أكثر تعميماً . فقد ارتبط الصراع من أجل أنطاكية بمختلف الصراعات التي كانت تمزق الشرق الأدنى وقتها.

في سنة (606هـ / 1209م) كان البابا قد ملّ مشكلة أرمنية وأنطاكية برمتها و عهد إلى بطريك بيت المقدس بالتوصل إلى عقد هدنة بين ليون الثاني و بوهمند الرابع⁽⁶⁾ . كما كتب إلى ليون الثاني - ملك أرمنية- في (جمادى الأولى ، 607هـ / تشرين الثاني ، 1210م) يخبره أنه طلب من بوهمند الرابع

¹ - Sofrod De Praxides, Letter of Sofrod to Pope Innocent III, in P.L., vol.214, col, CL IX.

² - Claud Cahen, La Syrie du Nord, p.605.

³ - بعث سوفريد بالمؤرخ سيكارد إلى كل من بوهمند الرابع وليون الثاني ، و اضطر قسطنطين دي كاما ردياس " Constantin de Camardias" ابن عم ليون الثاني و مبعوثه إلى الذهاب إلى عكا بحراً كما أرسل بوهمند الرابع جيوفري " Geoffroy" أسقف طرابلس نيابة عنه ، ورفض سوفريد تلبية طلب المبعوث الأرمني بإصدار قرار الحرمان ضد بوهمند الرابع الذي لم يأت مبعوثه بأعدار مقبولة لعدم حضوره أو بدفاع جدي عن حقوقه ، وأعلن سوفريد ميله إلى جانب " ليون الثاني" إلا أن معارضة كبير أساقفة قيسارية و المؤرخ سيكارد جعلت من حرمان بوهمند أمراً مستحيلاً . بينما رفع قرار الحرمان السابق ضد " ليون الثاني" . Innocent III , Regesta, in P.L., vol,215, col.509

⁴ - Innocent III , Regesta, in P.L., vol .214, col, CL IX

⁵ - Innocent III , Regesta, in P.L., vol,215, col.699

⁶ - Innocent III , Regesta, in P.L., vol,216, col.18-19.

أن يضع قلعة أنطاكية في عهدة الداوية و الاسبتارية و بطريك أنطاكية اللاتيني الجديد " بطرس دي لوسيديو " - Pierre de Locidio - الذي لا يمكن الشك في حيادته كونه حديث العهد في منصبه⁽¹⁾. و رفض بوهمند الرابع تنفيذ تعليمات البابا⁽²⁾ ، وأصبح موقف ليو أفضل من ذي قبل، كما قام ليو بالرد على البابا بإيفاد ثلاثة مبعوثين إلى روما أخبروا البابا أن ليو لم يستطع قتال المسلمين طالما أن عدم حل المشكلة يترك على حدوده مصدر خطر دائم ، فبعث البابا بالأسقف سيكارد مرة أخرى إلى الشرق لحل هذه المشكلة وكان ذلك في (606هـ/1210م)، إلا أن الأخير لم يستطع عمل أي شيء⁽³⁾. و أضعاف ليو على نفسه الفرصة في أن يحوز على رضا كنيسة روما في الوقت الذي فقد فيه بوهمند ، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك فعندما حاول بطريك بيت المقدس أن يحل مشكلة بغراس أصر ليو على حل مشكلة أنطاكية أولاً ، و رفض المثول أمام البطريك . ثم تجاوز حدوده و استولى على طريق الفرنج المسمى "Port Bonnel"⁽⁴⁾ التابع للداوية وكل أملاكهم تقريباً في قيليقية و سهل أنطاكية ، وهاجم فرقة من قواتهم كانت تحمل المؤن لحصن صخرة وليم الذي لم يكن قد اخذه منهم بعد ، وقتل الأرمن أحد فرسان الداوية ، و جرح مقدم الجماعة وليم أوف شارتر " William of Charter" نفسه و كثير من أعضاء الجماعة وذلك في (منتصف 607هـ/ بداية 1211م) ، و بذلك تحول قرار الحرمان ضد ليون الثاني - ملك الأرمن - الذي كان حتى الآن يتخذ شكلاً نظرياً ، إلى أمر واقع عندما أرسل البابا إلى أساقفة سورية و قبرص ينشر قرار الحرمان و أن يصبح نافذ المفعول ، كما أرسل إلى الملك جان دي برين " Jean de Brienne " في (محرم ، 608هـ/ تموز 1211م) لمساعدة الداوية في حملة ضد ليو لاستعادة حقوقهم في قيليقية⁽⁵⁾ .

¹ - لجأ مجلس اساقفة أنطاكية إلى قلعة القصير الخاصة بكنيسة أنطاكية حتى عين البابا في 1209م بطرس أسقف دير لوسيديو بطريكاً لأنطاكية (1209-1217م). رنسيما: تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ص184 .

² - الفصل الثالث.

³ - كانت رسالة ليو إلى البابا في آب 1210م بينما كانت رسالة سيكارد في أيلول من نفس السنة .

Innocent III , Regesta, in P.L, vol,216, cols.310-311.

⁴ - عن موقع الطريق انظر ما سبق في هذا الفصل .

⁵ - جان دي بريين هو أحد اتباع فيليب ملك فرنسا ، رشح فيليب للزواج من ماريا وريثة مملكة بيت المقدس وكان عمره وقتذاك قد ناهز الستين عاماً و توج ملكاً في تشرين الأول 1210م ، وكانت رسالة البابا موحدة للجميع .

Eracles,p.317 ,CF, also ; Innocent III, Regesta, in P.L, Vol.216, cols. 430-432.

و إذا كان ليون الثاني قد فقد عطف البابوية ، فإنه سعى إلى الحصول على تأييد حكام مسيحيين آخرين . فراح يوثق عرى الصداقة بينه و بين أباطرة نيقية البيزنطيين⁽¹⁾ بعد أن وطدها مع ملك قبرص من قبل⁽²⁾ . ثم سعى إلى تجديد اتفاقه القديم مع الامبراطورية الألمانية التي لم يبقَ عاقلها على وفاقه مع البابوية⁽³⁾ ، ولجعل ذلك الاتفاق محل التنفيذ ، فقد تقرب ليون الثاني بشكل كبير ، أكثر مما تقرب منه بوهمند الرابع ، من ممثلي هذه الامبراطورية في الشرق ، وهم جماعة الفرسان التيوتون⁽⁴⁾ ، و إن أول إشارة عن العلاقة بين هذه الجماعة وليون الثاني وردت في وثيقة ترجع إلى (4 تموز، 1209م/ 28 ذي القعدة، 605هـ)⁽⁵⁾ . فقد أرسل الملك الأرمني أحد أخوة هذه الجماعة كمنسوب

¹ - حاول ليون الثاني أن يعقد زواجاً سياسياً بينه و بين أسرة لاسكاريس في نيقية المر الذي فشل بسبب المعارضة الدينية من قبل رجال الدين الأرمن. Cahen: La Syrie du Nord, pp. 617-618.

² - في سنة 1210م تزوج ليون الثاني من سيبيل "Sibyl" الأخت غير الشقيقة لملك قبرص هيو الأول لوزينان لأبيه عموري الثاني و ايزابيلا ملكة بيت المقدس السابقة . و كان ليون الثاني في ذلك الوقت في الستين من عمره و لما كانت سيبيل في الثانية عشرة ، و أنجب منها ليون الثاني ابنة في سنة 1215م تدعى أورمانيان "Ormanian" كما دعم ليون الثاني هذه الرابطة الأسرية باتمام زواج ريموند الروبين بالأخت الثانية هيلواس "Heloise" لملك قبرص في سنة 1211م . Sempad, p. 643; Hethoum de Gorgos, p. 482; Hill: The History of Cyprus, Vol.2, p. 76, n.2 .

³ - نجح أوتو الرابع في أن يعتلي عرش الإمبراطورية الألمانية و اقضاء فيليب السوابي شقيق الإمبراطور السابق هنري السادس و ذلك في سنة 1209م بعد اغتيال فيليب في سنة 1208م . توج البابا انوسنت الثالث أوتو امبراطوراً (1208-1218م) في سنة 1209م . و في سنة 1210م ذهب سفراء ليو بعد مقابلتهم البابا إلى أوتو الذي أرسل معهم تاجاً إلى ليون الثاني في سنة 1211م وضعه ليو على رأس ريموند روبين و أعلنه وريثاً له . بعد ذلك أرسل أوتو تاجاً آخر مع ويلبراند أوف نبرج إلى ليون . Wilbrand of oldenberg , Peregrinotores , p. 179; Hill: The History of Cyprus, Vol.2, p. 76, n.2 .

⁴ - ترجع نشأة جماعة الفرسان التيوتون أو فرسان القديسة ماري الألمان إلى عام 1118م ، حيث أقام الحجاج الألمان في عهد الملك بلدوين الأول مستشفى صغير وكنيسة ومضيقة ألمانية لرعاية الحجاج الألمان عند ذهابهم إلى القدس ، ويقع هذا المستشفى في الجنوب الشرقي من القدس على مقربة من منطقة الداوية ، حيث كان أحد الشوارع الجانبية المؤدية من باب صهيون إلى معبد سليمان ، و في سنة 1143م أصدر البابا كلستين الثاني مرسوم أخضع بموجبه المستشفى الألماني للاسبتارية إلا أن سقوط القدس بيد صلاح الدين الأيوبي وضع نهاية لهذه المستشفى سنة 1178م . ثم تأسس مستشفى ميداني أمام عكا في سنة 586/1190هـ ، و تحول هذا المستشفى إلى جمعية تقوم على رعاية المرضى والفقراء و أطلق عليه " مستشفى القديسة مريم للتيوتون" و انتقل إلى عكا بعد استيلاء الصليبيين عليها في 1191م/587هـ ، و تمكن هنري السادس (1190-1197/586-593هـ) من الحصول على موافقة البابا كلمنت الثالث (1187-1191م) على إنشاء هذه المؤسسة في سنة 1191م/587هـ ، و في آذار، 1198م/ربيع آخر، 594هـ تم تحويل المستشفى الألماني إلى جماعة عسكرية متخذة قواعد الداوية فيما يتعلق بالنواحي العسكرية ، على جانب نظم الاسبتارية فيما يتعلق بالنواحي الخيرية ، وفي سنة 1199م/595هـ اعترف بها البابا انوسنت الثالث كجماعة صليبية مقاتلة ، و كان أول من تولى منصب مقدم للجماعة هو هنريش فالپوت "Henirich walpot" . حسين، حسن عبد الوهاب : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، دار المعرفة الجامعية ، 1989م، ص64-65، 74، 98-99، 118-119، 124. رنسيان : تاريخ الحملات الصليبية ، ج3، ص184.

⁵ - حسين، حسن عبد الوهاب : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة ، ص 144.

عنه إلى البابا انوسنت الثالث لشرح موقفه من المشكلة الأنطاكية التي منحها ليون الثاني كثيراً من الامتيازات في قيليقية ⁽¹⁾ أكثر مما منحهم إياه بوهمند في أملاكه ⁽²⁾ . و لما شعر ليون الثاني بأنه ازداد قوة بذلك ، لم يقم وزناً لتوبيخات البابا ، وفي سنة (608هـ/1211م) ، قام فرسان الداوية بحملة ضد ليو لاسترداد حصن بغراس بمساعدة فرقة من أنطاكية و خمسين فارساً بعث بهم الملك " جان دي برين " لتنفيذاً لتعليمات البابا ⁽³⁾ ، و حاصر الداوية حصن بغراس، و لما شعر ليون الثاني بعزمهم على أخذ الحصن، عرض عليهم الصلح ، و وعده بأن يسلمه إليهم، و لم يف بوعده ⁽⁴⁾ ، و بدأ ليون الثاني باضطهاد رجال الدين اللاتين في قيليقية ، لتطبيقهم قرار الحرمان الصادر ضده ⁽⁵⁾ ، و بعد كل هذه الأعمال التي أظهرت تمرد ليون الثاني تماماً، و في نهاية 1212م/ منتصف 609هـ فاجأ الجميع بسياسة مغايرة ، فكتب إلى البابا يطلب منه إجبار بوهمند الرابع على الدخول في مفاوضات جديدة مع ريموند روبين ⁽⁶⁾ ، و يعلمه بأنه:

- رد إلى الداوية كل ما كان استولى عليه من أملاكهم في قيليقية و خليج اسكندرونة .
- اتفق مع الداوية على أن يرد إليهم حصن بغراس بعد أن يستولي على أنطاكية .

¹ - منذ عام 1198م ، و للتقرب من الامبراطور هنري السادس ظل ليون الثاني يمنح التيوتون عدة امتيازات في كيليكية ، و قد أشار الرحالة فيلبراند أوف أولد نبرج عندما زار أرمينيا في أواخر سنة 1211م/ و أواخر عام 1212م/608هـ إلى بعض هذه القرى وهي كومبدفورت Combedfort الواقعة جنوب أدنة ، وعندما مر بها فيلبراند أشار إلى أنه كان بها منزلاً و استراحة جميلة لمستشفى الألمان " Ubi domus et mansion bona hospitalis Alemannorum " اما القرية الأخرى فهي هايون "Heion" . حسين، حسن عبد الوهاب : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، ص 134.

² - في سنة 1209م/606هـ منح بوهمند الرابع امتياز للجماعة الألمانية في إقطاعية طرابلس ، حيث أعطى له قطعة من الأرض تقع أسفل برج المدينة الواقع في السور الرئيسي لطرابلس . و اشترط على الأخوة عدم قيامهم ببناء أية مبانٍ في هذه الأرض الممنوحة لهم ، حتى لا تعرقل عملية الدفاع في حال تعرضها للهجوم من جانب الأعداء ، كما منح لهم ثلاثة أبراج في نفس السور ، حددها بانها تقع في المنطقة الممتدة ما بين سلازم هذا البرج الرئيسي المذكور حتى أرض الداوية. حسين، حسن عبد الوهاب : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، ص 133.

³ - Eracles, p417.

⁴ - Eracles, p.137.

⁵ - مات أسقف طرسوس اللاتيني في سنة (1212م/609هـ) الذي طالما عارض سياسة ليون الثاني ، فاستولى الأخير على أملاك الكنائس اللاتينية و أعطاها لليونانيين ، و استقبل في كيليكية سمعان الثاني بطريرك أنطاكية اليوناني ، الذي نجح بطرس الثاني في حمله على مغادرتها ، و لم يبقَ في كيليكية بل توجه إلى نيقية و مات هناك . B. Hamilton, The Cahen; La Syrie du Nord , p.619 ; Latin Church, p.221.

⁶ - Innocent III, Regesta, in P.L, Vol.216, Col,747.

فأوقف انوسنت الثالث قرار الحرمان الذي صدر ضد ليون الثاني في (آذار، 1213م/ شوال، 609هـ)⁽¹⁾ .

أقام هيثوم الأول تحالفات كثيرة مع الفرنج بما أجراه من مصاهرات⁽²⁾

ث - العلاقة مع المغول :

أدرك هيثوم الأول - ملك الأرمن - أن المغول هم الأمة التي ستلعب دوراً بارزاً في تغيير الخارطة السياسية للعالم في هذه المرحلة ، و أن التحالف معهم هو السبيل الوحيد لتفادي الضغط عليه سواء من المسلمين أو الصليبيين ، كما انتابه الخوف من المغول عندما رآهم يخضعون سلاجقة الروم في سنة (641هـ/ 1243م)، و تأكد من وصول الخطر المغولي إلى بلاده ، فسارع بإيفاد شقيقه الكندسطل سمباط⁽³⁾ في (646هـ/ 1247م) إلى بلاط كيوك خان يعرض عليه خضوعه وولائه⁽⁴⁾ ، و نظراً لميل كيوك للمسيحية⁽⁵⁾ فقد استقبل سمباط بحفاوة و تقدير و رجع سمباط يحمل تقليداً من الخان الكبير يكفل سلامة ممتلكات هيثوم و وحدتها و وعد كيوك الأرمن بالمساعدة باسترداد ما انتزعه منهم السلاجقة من حصون ، و لكن وفاة كيوك (نيسان ، 1248م)⁽⁶⁾ أوقفت كل إجراء مباشر⁽⁷⁾.

¹ - جاء ذلك في رسالة البابا إلى بطريرك بيت المقدس في 22/15 آذار سنة 1213م. Rohricht, Regesta, no.863,p. 232. وجاءت هذه الرسالة بدون تاريخ في سجلات البابا انوسنت الثالث. Innocent III, Regesta, in P.L, Vol.216,Cols792-793..

² - إذ تزوجت أخته ستيفاني من هنري ملك قبرص ، وتزوجت اخته ماري من يوحنا ابلين كونت يافا ، كما أن بناته تزوجن من أمراء اللاتين ، فتزوجت سبيل من بوهمند السادس أمير انطاكية ، بينما كانت ايفيميا من نصيب يولييان ، كونت صيدا ، وتزوجت ماري من جاي ابلين ابن بلدوين صنجيل قبرص . اما ابنته ريتا فتزوجها أرمني ، كان يتولى أمر حصن سارونتيكار .العربي: المغول ، حاشية 1 ، ص 198.

³ - الكند سطل (سمباط) : اسم وظيفة أطلق في البداية على أمير الأخور و معناه مجموعة الجند ، ثم أطلقت على أمير الجيوش . ابن العربي : تاريخ مختصر الدول

⁴ - توجه سمباط إلى منغوليا سنة 646هـ/ 1247م ، و عاد إلى أرمينيا سنة 648هـ/ 1250م .ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ، ص 224 . العربي : المغول ، ص 189 .الصياد ، فؤاد عبد المعطي :المغول في التاريخ ، ص 197.

⁵ - كانت توراكيينا خاتون - والدة كيوك - تدين بالمسيحية ، لهذا عهدت إلى الأمير قداق، المسيحي بالإشراف على تربية ابنها كيوك منذ الصغر ، فلما اعتلى عرش المغول قرب إليه جينقاي الذي كان يعمل مستشاراً و وزيراً لأبيه ، و كان من قبيلة كرايت ، يدين أيضاً بالمسيحية و لم يكتفِ كيوك بهذا ، بل قلده منصب الوزارة ، فكان لهذين الرجلين تأثير كبير على الخان المغولي ، إذ صار يعطف عطفاً شديداً على رعاياه من المسيحيين من أمثال الأرمن والكرج والروس .ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ، ص 225. الصاوي ، الصاوي محمد : هولكو الأمير السفاح ، ص 146.الصياد ، فؤاد عبد المعطي :المغول في التاريخ ، ص 198-199.

⁶ - العربي ، ص 193.

⁷ - ابن العربي : تاريخ مختصر الدول ، ص 225.العربي : المغول ، ص 199، 191.الصياد : المغول في التاريخ ص 214.رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج 3، ص 349.

إن ما يثير الاستغراب و التساؤل هو حفاوة استقبال كيوك خان لسمباط و كذلك رده على سفارة سمباد ، إذ من غير المعقول أن يكون ميله للمسيحية هو السبب ، فقد رد على سفارة البابا ردًا مخيباً للآمال ⁽¹⁾، لكن يبدو أن الخان كانت له غايات أخرى من حسن معاملته لسفارة هيثوم - ملك الأرمن - .

لقد كان كيوك خان على يقين بأهمية أرمينية من جهات مختلفة فهي تصله بأوربة في حال أخفق بالانتصار على العرب ، كما و أنها تساعد للتخلص من البيزنطيين إذا لزم الأمر ، ومن ناحية أخرى تقدم سنداً قوياً له في حروبه ضد العرب . بالإضافة لكل ذلك ، من الممكن أنه رغب في الحصول على حليف ذي خبرة كبيرة في المنطقة ففي البداية يكون مرشداً له و ناصحاً حتى يحقق أحلامه و فيما بعد يصبح هو الهدف فيتخلص منه ليحقق سيطرته على العالم .

إن سفارة سمباد إلى البلاط المغولي ملأت المسيحيين بأمل كاذب في استمالة المغول الذين ضمنوا لهيثوم سلامة ووحدة بلاده ، و مما يؤكد ذلك رسالة سمباط إلى صهره هنري الأول - ملك قبرص - ⁽²⁾.

و لما علم هيثوم أن عرش المغول قد آل إلى خان قوي آخر هو منكو قان ⁽³⁾ (1251-1259م) راوده الأمل في اجتذاب المغول إلى صفه لتحقيق أحلامه ، فأسرع بنفسه إلى قراقورم ⁽⁴⁾ - و

¹ - في سنة (643هـ / 1245م) أرسل البابا انوسنت الرابع سفارة إلى المغول يدعوهم لاعتناق المسيحية ، برئاسة الراهب " يوحنا ديل كارين" ، لكن كيوك عندما قرأ رسالة البابا التي يطلب فيها أن يعتنق المسيحية ، كتب إلى البابا يطلب منه أن يعترف بسيادته العليا ، و أن يأتي إليه مع سائر أمراء الغرب ليلحفوا له بيمين التبعية ، و أرفق تقريراً مفصلاً أن المغول ما خرجوا إلا للغزو و الفتح . الصياد : المغول في التاريخ ، ص 199-200. العريني : المغول ، ص 189-190. رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج 3، ص 311.

² - كانت الرسالة التي بعث بها سمباط إلى زوج شقيقته هنري الأول ملك قبرص سنة (646هـ / 1248م) و التي كتبها في مدينة سمرقند و هو في طريقه إلى قراقورم تشير إلى أهمية النساطرة (المسيحيين) في بلاط المغول و إمبراطوريتهم ، إذ عاشوا في حماية الخان ، وحظوا منه بالتشريف ، و جعل لهم الامتيازات و أعلن حمايته لهم من كل من يحاول إلحاق الأذى بهم. الأمر الذي زاد من تفاؤل الأوربيين و أملهم في دخول المغول إلى حظيرة كنيسة روما . العريني : المغول ، ص 191. رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج 3، ص 312.

William of Nangis, Vie de Saint Louis, In R.H.G.F, Vol. XX, pp.361-363. Hayton: La Flor de Estoires, p.163

³ - قان : هو عند المغول و أهل الصين ، ملك الملوك . دخل العربية في فترة المزج الثقافي بين العرب و العناصر الأخرى ، فأصبح خاقان (جمعة خواقين) ، و هو لفظ تركي - فارسي ، استخدمه الملوك و السلاطين المسلمون الذين حكموا إيران و خراسان و تركستان ، و أخذه عنهم سلاطين بني عثمان و أطلقوه على أنفسهم للدلالة على سيديتهم على العنصر العربي و العجمي . الخطيب ، مصطفى عبد القادر : معجم الألقاب و المصطلحات التاريخية ، ص 157.

⁴ - قراقورم : تقع في منغوليا الحالية و كانت سابقاً عاصمة إمبراطورية المغول التي تمتد من شرق شبه جزيرة كوريا إلى حدود أوربة الغربية و شرق المنطقة العربية . بناها جنكيز خان و زينها بتحف و تماثيل من البلدان التي غزاها و أشهرها اللوحات الفارسية و في عهد قوبلاي خان نقلت العاصمة إلى الصين.

يعتبر هيثوم الأول أول ملك يقدم من تلقاء نفسه إلى قراقورم - و لهذا نال مرتبة سامية عند منكوقان ، فأقام له حفل استقبال رسمي في (22 رجب ، 652هـ / 13 أيلول ، 1254م) ، ومنحه وثيقة تكفل السلامة لشخصه و ممتلكاته ، و جرت معاملته على أنه كبير مستشاري الخان المسيحيين في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا ، و وعده منكوقان بأن يعفي الكنائس و الأديرة المسيحية من الضرائب . لم تكن الفكرة المسيطرة على هيثوم قاصرة على المحافظة على مملكته و تحقيق الحماية للمسيحيين الخاضعين لسلطان المغول ، بل شملت أيضاً الحرص على الحصول على مساعدة الخان لاستعادة بيت المقدس من المسلمين ، والقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين ، فكلف الخان أخاه "هولاكو خان" بغزو بغداد ، و تعهد بأن يعيد بيت المقدس إلى المسيحيين إذا ما تعاونوا مع المغول تعاوناً كاملاً⁽¹⁾. و في (رمضان ، 652هـ ، أول تشرين الثاني ، 1254م) عاد هيثوم إلى بلاده محملاً بالهدايا ، و مبتهجاً بما أحرزه من نجاح ، و لكن على ما يبدو فإن هيثوم تجاوز الحدود بتفاؤله ، فمن المؤكد أن المغول سعوا لإزالة الخلافة الإسلامية ليس لأجل المسيحيين بل لكثرة رعاياها المسلمين مما يحتم على التتار السيطرة على أهم نظام ديني في العالم الإسلامي هذا من جهة ، و من جهة ثانية فإن المغول لن يسمحوا بإقامة مملكة مسيحية مستقلة ، فإن عادت بيت المقدس للمسيحيين فلا يجري ذلك إلا بعد خضوعها للمغول ، كما إن هيثوم قد توجه لمقابلة منكوقان كتابع يملأه الخوف و ليس كحليف و ند ، بل لتلافي الخطر المغولي بخضوعه التام للتتار و ليس تحالفه معهم .

ظل هيثوم الأول مخلصاً لما تم التفاهم عليه مع المغول ، فنجح بضم صهره بوهمند السادس - أمير أنطاكية - إلى التحالف المغولي -الأرمني ، وتردد كثيراً على بلاط الإيلخانات ، و بذل المساعدة العسكرية كلما دعت الحاجة إليها ، و حارب العساكر الأرمن ، جنباً إلى جنب ، مع العساكر المغول في آسيا الصغرى ، و الشام ، وما أحرزه المغول من انتصارات لم يهيبه لهيثوم أيسترد فحسب ما انتزعه السلاجقة في قونية من حصون ، بل يستعيد أيضاً ممتلكات كانت تابعة لكواسيل ، فضلاً عما حصل عليه فيما بعد من بلاد بعد إغارة المغول على بلاد الشام⁽²⁾ .

¹ - الصياد : المغول في التاريخ ، ص214-215. العريني: المغول ، ص198-199. رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج3، ص349، 351. زكار : الموسوعة الشامية ، سمباط ، ج35 ، ص325.

2 - العريني: المغول ، ص200.

إن رسالة منكو قاآن لأخيه هولاكو بعد تسلمه إدارة حكومة فارس سنة 1251م ، بالتخلص من إمارة الاسماعيلية في مازندران و الخلافة العباسية في بغداد فضلاً عن فتح الشام ، كان لصالح الأمراء المسيحيين ، أمثال بوهمند السادس – أمير أنطاكية – و هيثوم الأول – ملك أرمينية- ، اللذين بفضل قبولهما السيادة المغولية ، جعلاً من التتار حماة وحلفاء لهم (1).

إن حملة التتار على بلاد الشام تمت وفق خطة تقررت في اجتماع انعقد بين هولاكو و هيثوم الأول ملك قيليقية ، حيث طلب هولاكو من حليفه أن تتحاز القوات الأرمينية إلى المغول ، عند الرُّها ، و يشير المؤرخ الأرمني هايتون، إلى أنه حينما غزا هولاكو الجزيرة ، قدم عليه جاتليق الأرمن و منحه البركات ، فكان هذه الحملة اتخذت صفة حملة صليبية أرمينية مغولية ، إذ أن هيثوم باتصاله مع المغول إنما يتحدث باسمه و باسم صهره بوهمند السادس أمير أنطاكية (2).

ذهب هيثوم الأول – ملك الأرمن – لملاقاة هولاكو وهو في مدينة الرُّها يستعد لدخول الشام ، و نصحه بالبدء بالاستيلاء على حلب التي يسيطر صاحبها الناصر يوسف على كل سورية ، و هي عاصمته الأصلية التي سيؤدي سقوطها إلى فتح بقية المدن الإسلامية في بلاد الشام ، و بعدها يمكن استعادة الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين ، و عرض هيثوم على هولاكو مساعدته و مساعدة قواته التي بلغت 12 ألف رجل (3)، و يبدو أن هولاكو قد اقتنع بفكرة هيثوم و سرّ لمساعدة الأرمن له ، فبادر بالمسير إلى بلاد الشام و بدأ في حصار حلب في (9 صفر، 658هـ/ 18 كانون الثاني، 1260م)، و بعد حصار دام أسبوعاً ، تمكن المغول والأرمن من اقتحام المدينة التي رفض معظم بن صلاح الدين أن يسلمها لهم دون قتال (4) ، و كما حدث في كل المدن الإسلامية التي فتحها المغول من قبل ، فقد قاموا بنهب المدينة ، و قام الأرمن بمهمة ذبح سكان حلب بينما قام ملكهم هيثوم بإشعال النيران في مسجد حلب بنفسه (5)، و تم احترام كل الكنائس المسيحية في حلب و المعبد اليهودي ، بينما قام المغول و الأرمن باجتياح أماكن العبادة الإسلامية وحرقتها . فأعطى هولاكو

1 - الصياد : المغول في التاريخ ، ص 216. العريني: المغول ، ص 207

2 - العريني : المغول ، ص 242. الصياد : المغول في التاريخ ، ص 291-292.

3 - Hayton: La Flor de Estiores, p.170- 3

4 - زكار : الموسوعة الشامية ، سمباط، ج 35، ص 331. الهمذاني : جامع التواريخ ، ص 306.

5 - الهمذاني : جامع التواريخ ، ص 306.

Hayton: La Flor de Estiores, pp.170-171.

لملك الأرمن - هيثوم الأول - جزءاً من الغنائم ، و أعاد إليه الأقاليم و القصور التي قد استولى عليها مسلمو حلب⁽¹⁾.

وعلى هذا النحو استفاد الأرمن من تحالفهم مع المغول ، و أحرز هيثوم الأول أيضاً انتصارات على قلج أرسلان الرابع سنة 1259م ، و على التركمان النازلين على الأطراف الغربية لقيليقية سنة 1263م ، غير أنه كان لزاماً على الأرمن أن يتعرضوا للنتائج السيئة لهذا التحالف و لاسيما حين حلت الهزيمة بالمغول في وقعة عين جالوت سنة 1260م ، فتخلوا عن البلاد التي استولوا عليها في الشام ، و أهمها حلب ودمشق ، بعد أن تعرض الأرمن لهجمات ببيرس.

¹ - الصياد : المغول في التاريخ ، ص 295.

الفصل الخامس : الأوضاع السياسية في الموصل بين سنة (600-658 هـ / 1203-1260 م)

- تمهيد :

- المبحث الأول : حكم الأتابكة الزنكيين (600-619 هـ / 1203-1220م):

أ- حكم نور الدين أرسلان شاه بن مسعود .

ب- عز الدين مسعود الثاني بن أرسلان شاه.

ت- نور الدين أرسلان شاه الثاني .

ث- ناصر الدين أرسلان شاه .

- المبحث الثاني : حكم بنو لؤلؤ (619-658 هـ / 1220-1260 م):

أ- الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله.

- المبحث الثالث : المغول وبدر الدين لؤلؤ .

أ- الملك الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ (657-660 هـ / 1258-1261م):

- المبحث الرابع : العلاقات الخارجية لإمارة الموصل .

أ- علاقات الموصل مع الأيوبيين وباقي القوى في المنطقة.

ب- العلاقة مع الخلافة العباسية في بغداد .

1- في عهد الأتابكة :

2- في عهد بدر الدين لؤلؤ :

الفصل الخامس : الأوضاع السياسية في الموصل بين سنة (600-658 هـ / 1203-1260 م)

تمهيد :

تعتبر الإدارة الأتابكية للموصل من أطول الإدارات التي حكمت الموصل ، فقد استمرت ما يناهز قرن ونصف القرن من سنة (521-660هـ / 1127-1262م) وهنا لا بد من سرد تاريخي لتاريخ هذه الإدارة وصولاً إلى الحقبة المدرجة بالبحث .

المبحث الأول : حكم الأتابكة الزنكيين (600-619 هـ / 1203-1220م):

لم تتمكن السلطنة السلجوقية من الإبقاء على تلاحمها مدة طويلة من الزمن ، فقد انفرط عقد الأسرة الحاكمة غداة وفاة ملكشاه سنة (485هـ / 1092م) وأفضى النزاع بين المطالبين بالعرش ، والوفيات المبكرة بين أمراء السلاجقة ، ومجيء سلاطين قصر والتطلع إلى توزيع الإقطاعات إلى تجزئة السلطنة ، كما عجل في نهايتها تعيين الأتابكة أوصياء على أبناء السلطان القصر ووكلاء على إقطاعاتهم ، فرغب هؤلاء - وهو أمر طبيعي - في الحل محل الأمراء السلاجقة ، فظهرت نتيجة ذلك العديد من الأتابكيات الوراثية ، قُدر لبعضها أن يعيش فترة طويلة ، وكان من أشهر هذه الأتابكيات هي : الموصل وحلب ودمشق وفارس واذريجان وغيرها .ولكن أشهرها وأطولها عمراً هي أتابكية الموصل .

يعود تأسيس أتابكية الموصل إلى عماد الدين زنكي الذي ولاه السلطان السلجوقي محمود الموصل سنة (521 هـ / 1127م) وسلمه ولده الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ليكون أتابكاً له - أي أباً مريباً- وفقاً للتقاليد السلجوقية السائدة آنذاك، ومنذ ذلك الوقت سمي زنكي أتابكاً وأصبح ولد السلطان محمود تحت إشرافه المباشر .⁽¹⁾

كان والد زنكي آق سنقر الحاجب من أمراء ملكشاه⁽²⁾ ولدوره البارز في السلطنة تولى ولاية حلب سنة (479هـ / 1103م) فأحسن السيرة في أهلها وجعلهم يحبونه⁽¹⁾. وبعد وفاة السلطان ملكشاه بدأت

¹ -البنداري، الفتح علي بن محمد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ، ط 2 ، بيروت 1978م، ص 187. ابن كثير: البداية والنهاية ، ج12، ص 196.

² - كان قسم الدولة آق سنقر الحاجب مملوكاً للسلطان العادل عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، رياه مع ولده السلطان جلال الدولة ملكشاه واستمر بصحبته حتى كبر ، وأفضت السلطنة إليه فجعله من أعيان دولته وأكابر أمرائه وأخص أوليائه واعتمد عليه في أموره كلها ، وعلت مرتبته ومنزلته إلى أن لقب " قسيم الدولة " . ابن واصل : مفرج الكروب، ج1، ص11.

النزاعات بين أولاده وأخوته على السلطنة ، فطمع تاج الدولة تنتش بن آلب أرسلان - صاحب دمشق وما جاورها من بلاد الشام - بملك أخيه وسار إلى حلب ، فصالحه قسيم الدولة آق سنقر - صاحب حلب- وخطب له في حلب لعلمه أن لا طاقة له بمواجهة تاج الدولة تنتش بسبب اختلاف أولاد ملكشاه فيما بينهم وصغر سنهم . لكن لما انتظمت الأمور لصالح السلطان ركن الدين بركيارق بن ملكشاه وازدادت قوته تخطى آق سنقر عن تاج الدولة وانضم إلى بركيارق⁽²⁾.

وفي سنة (487هـ/1094م) استولى تاج الدولة تنتش على حلب وقتل قسيم الدولة آق سنقر⁽³⁾. وبعد مقتله أصبح ابنه زنكي تحت رعاية بركيارق ويقيم في حلب مع أمراء أبيه⁽⁴⁾. وعندما عُيِّن الأمير قوام الدولة أبو سعيد كربوقا والياً على الموصل سنة (489هـ/1096م) أحضر زنكي عنده مع أمرائه وأقطعهم إقطاعات كبيرة⁽⁵⁾. وظل زنكي ملازماً لوالي الموصل حتى وفاة الأخير سنة (495هـ/1101م)⁽⁶⁾.

في سنة (516هـ/1122م) أقطع " آق سنقر البرسقي " والي الموصل الأتابك " عماد الدين زنكي " واسط و ولاء شحنة البصرة و ذلك لمساهمة في الحرب ضد ديبس بن صدقة الأسدي⁽⁷⁾ الذي هاجم بغداد وحاول استباحتها⁽⁸⁾.

¹ - ابن الأثير : الباهر في الدولة الأتابكية ، تحقيق: عبد القادر أحمد طلمات، القاهرة 1963، ص6. زكار: الموسوعة الشامية، ج14، ص117. ابن واصل :مفرج الكروب، ج1، ص19. ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج19، ص414. ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص130. ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، تحقيق أمدرور، بيروت 1908م، ص119، 120.

² - ابن الأثير : الكامل ، ج8، ص487-489. زكار : الموسوعة الشامية ، ج14، ص123. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج1، ص22-25. ابن الوردي: تنمة المختصر ، ج2، ص6. أبو شامة: الروضتين، ج1، ص72. ابن كثير : البداية والنهاية، ج12، ص144.

³ - ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ، ص 30، 29. ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج8، ص494-495. ابن الأثير : الباهر، عن زكار: الموسوعة الشامية ، ج14، ص127. ابن خلكان : وفيات الأعيان ، عن زكار : الموسوعة الشامية ، ج21، ص16. ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج19، ص456. ابن الوردي: تنمة المختصر ، ج2، ص6.

⁴ - ابن الأثير : الباهر ، ص 15. ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج19، ص458.

⁵ - ابن الأثير: الكامل ، ج9، ص4. زكار : الموسوعة الشامية ، ج14، ص127. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص9. ابن واصل :مفرج الكروب ، ج1، ص28.

⁶ - زكار: الموسوعة الشامية ، ج14، ص128. ابن الأثير: الكامل ، ج9، ص54. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص13. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج1، ص28.

⁷ - أبو الأغر ديبس بن سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن منصور بن ديبس بن علي بن مزيد الأسدي الناصري الملقب نور الدولة ملك العرب - صاحب الحلة- زكار : الموسوعة الشامية ، الباهر لابن الأثير، ج14، ص164. ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج21، ص27.

⁸ - ابن الأثير : الباهر ، ص 16 وما بعدها و ص 24. ابن واصل : مفرج الكروب، ج1، ص30. ابن الوردي : تنمة المختصر، ج2، ص31. زكار: الموسوعة الشامية، ج14، ص137-138.

وبعد إقالة البرسقي من شحنية العراق واقتصاره على ولاية الموصل فقط ، ذهب زنكي إلى اصفهان لخدمة السلاطين السلاجقة فبرز هناك أميراً قوياً حازماً ، عاد بعدها إلى البصرة والياً عليها . ثم احتاجه السلطان السلجوقي محمود في صراعه مع الخليفة المسترشد سنة (519هـ / 1125م) الذي حاول التخلص من نير التحكم السلجوقي فحاصر السلطان بغداد وعاونه زنكي بجلب زوارق كثيرة للحصار وقوة كبيرة من الجيش ، وهذا دفع الخليفة إلى الموافقة على الصلح مع السلطان .⁽¹⁾ وقد كافأ السلطان زنكي على خدماته ،

فولاه سنة (521هـ / 1127م) "شحنة"⁽²⁾ بغداد والعراق إضافةً إلى ما بيده من الإقطاع⁽³⁾، ولكنه لم يقض فيها أربعة أشهر حتى أصبح والياً على الموصل .

كانت ظروف توليته الموصل غريبة ففي سنة (520هـ / 1126م) اغتال الإسماعيلية والي الموصل "آق سنقر البرسقي" في جامعها⁽⁴⁾، وتولى الموصل بعده ابنه "عز الدين مسعود" إلا أنه توفي في الرحبة⁽⁵⁾ سنة (521هـ / 1227م)⁽⁶⁾، فأصبح أخوه مرشحاً لولاية المدينة ووصيه جاولي - مملوك تركي من ممالك البرسقي - الذي استأثر بالحكم وأسرع بمراسلة السلطان محمود⁽⁷⁾ طالباً منه إقرار ابن البرسقي على الموصل رعاية لحق والده وخدماته للسلاجقة ، إلا أن الوفد الذي أرسله جاولي كان يرى أن المرشح صغير السن لا يصلح للولاية ، وإن الولاية بحاجة إلى شخص قادر على إدارتها ومواجهة الصعوبات التي تحيط بهذه الولاية ذات الموقع الخطير والهام لقربها من إمارة الرها الصليبية

¹ - ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك و الأمم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر اباد الدكن ، الهند 1359هـ، ج9، ص 252-259. ابن الأثير : الباهر ، ص28-31. زكار: الموسوعة الشامية ، ج14، ص145. ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص196.

² - الشحنة : لفظ تركي - فارسي معناه رئيس الشرطة (العسس)، في العصر السلجوقي وضع لكل مدينة طائفة من المحاربين ، مهمتهم حراسة البلد ويعرفون بـ (شحنكية) يرأسهم الشحنة. الخطيب ، مصطفى عبد الكريم : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ، ط1، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1996م، ص 269-270.

³ - زكار: الموسوعة الشامية، ج14، ص146. ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص31. ابن الأثير : الكامل، م9، ص241. ابن الوردي : تنمة المختصر، ج2، ص33.

⁴ - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة، ج3، ص165. ابن الأثير : الكامل : م9، ص236. ابن الأثير : الباهر، زكار: الموسوعة الشامية ، ج14، ص146. ابن واصل: مفرج الكروب ، ج1، ص31. ابن الوردي : تنمة المختصر، ج2، ص33. ابن خلكان : وفيات الأعيان، زكار: الموسوعة الشامية ، ج21، ص17. أبو شامة: الروضتين، ج1، ص80. ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص195.

⁵ - الرحبة: وهي بين الرقة وبغداد ، على شاطئ الفرات أسفل قرقيسيا. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص34.

⁶ - ابن الأثير : الكامل، م9، ص242. زكار: الموسوعة الشامية، ج14، ص147. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص33. ابن واصل: مفرج الكروب ، ج1، ص31. ابن خلكان : وفيات الأعيان، زكار: الموسوعة الشامية ، ج21، ص18. ابن شداد : الأعلاق الخطيرة، ج3، ص166. أبو شامة: الروضتين، ج1، ص81.

⁷ - السلطان مغيث الدين محمود بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكايل بن سلجوق. زكار : الموسوعة الشامية ، ج14، ص159.

، لهذا عندما ألتقى الوفد بالسلطان أوصى بولاية زنكي على الموصل فاستجاب السلطان لطلب الوفد .
(1)

وبذلك أصدر السلطان محمود منشوراً بتولية زنكي الموصل والجزيرة وما يفتتحه من بلاد الشام . (2) و
ضم إليه ولده الملك آلب أرسلان والمعروف بالخفاجي وجعله أتابكاً له (كما سلف) ولهذا سمي زنكي
أتابكاً و إمارته أتابكية الموصل . (3)

تسلم زنكي الموصل من الأمير جاولي سنة (521هـ / 1127م) وأقطعه الرحبة وأعمالها (4). وشرع
زنكي بإخضاع الأقاليم التابعة للموصل وتقرير حكمها و اختار لذلك رجالاً أكفاء يثق بهم . حيث ضم
ما أمكنه من البلاد الجزرية والشامية ، وخاصة على حساب الإمارات والمدن المستقلة المجاورة له في
ديار بكر (5)، فقد أدرك أنه لا يستطيع أن يطمئن في زحفه على بلاد الشام ومجابهة القوى الصليبية
فيها إلا إذا أخضع هذه الإمارات الصغيرة حتى لا تتعرض مؤخرة جيشه لخطر الهجوم عليها ، فبدأ
بالجزيرة فاستولى على جزيرة ابن عمر (6) وانتزعها من ممالك البرسقي . (7) ثم استولى على نصيبين
ثم إربل (8) بعد ذلك . كذلك استولى على الخابور وسنجار وحران وأخيراً دخل حلب ورتب أمورها سنة (522هـ / 1128م) (9). وبذلك حقق الارتباط بين الموصل وشمال بلاد الشام مكوناً بذلك جبهة قوية .

¹ - ابن الأثير : الكامل ، م9، ص242-243. ابن الأثير : الباهر ، ص34-35. ابن واصل: مفرج الكروب ، ج1، ص32-33. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص33. أبو شامة: الروضتين، ج1، ص83. ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص198.

² - ابن الأثير : الكامل ، م9، ص247 .

³ - ابن الأثير : الباهر، ص35. أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ، القاهرة 1288هـ ، ج1، ص30. ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص33.

⁴ - ابن الأثير : الكامل ، م9، ص243. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج1، ص34. ابن الوردي: تنمة المختصر ، ج2، ص33. ابن شداد : الأعلاق الخطيرة، ج3، ق1، ص167. أبو شامة: الروضتين، ج1، ص83.

⁵ - ديار بكر : هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وحدّها ما غرّب من دجلة إلى بلاد الجبل المطلّ على نصيبين إلى دجلة ، ومنه حصن كيفا و آمد و ميّافارقين . الحموي : معجم البلدان، م2، ص494.

⁶ - جزيرة ابن عمر : هي بلدة فوق الموصل ، بينهما ثلاثة أيام ، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات . الحموي : معجم البلدان ، م2، ص138.

⁷ - ابن الأثير : الباهر ، ص36. - أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ج1، ص77. ابن شداد : الأعلاق الخطيرة، ج3، ق1، ص167.

⁸ - إربل : قلعة حصينة ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع ولقعتها خندق عميق وهي بين الزابيين تعد من أعمال الموصل . الحموي: معجم البلدان ، م1، ص186.

⁹ - ابن شداد : الأعلاق الخطيرة، ج3، ق1، ص133. ابن الأثير : الكامل، ج9، ص246. زكار : الموسوعة الشامية ، الباهر لابن الأثير، ج14، ص152-154. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص34. ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص34-40. ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص199.

كما وسع زنكي ممتلكاته باتجاه الشمال وخاصة في السيطرة على القلاع الكردية التي كانت تشكل خطراً على إمارته فأستولى على قلاع الأكراد الحميدية وكذلك على قلاع الأكراد الهكارية .⁽¹⁾ وكانت أكبر إنجازاته العسكرية هي القضاء على إمارة الرها الصليبية سنة (539هـ/1144م)⁽²⁾. ونظراً لأهمية دمشق فقد حاول زنكي ضمها إلى ممتلكاته حتى يحقق توحيد بلاد الشام تحت سيطرته ، إلا أن أهلها وحكامها قاوموا محاولاته هذه .

كانت نهاية زنكي سنة (451هـ/1146م) وهو يحاصر قلعة جعبر . إذ وثب عليه نفر من مماليكه وقتلوه غيلة وكان نائماً في خيمته وهربوا إلى قلعة جعبر .⁽³⁾ بعد مقتل عماد الدين زنكي انقسمت إمارته إلى قسمين : الأول : قاعدته الموصل تولاه ابنه الأكبر سيف الدين غازي (541-544هـ/1146-1149م) .

- الثاني : قاعدته حلب فتولاه نور الدين محمود (541-569هـ/1146-1174م) . وبذلك انفصلت عرى الوحدة بين الولاياتين والتي كانت مركز قوة الأب المؤسس .⁽⁴⁾ استمر التعاون بين الأخويين خلال مدة حكم سيف الدين غازي القصيرة ، وكان هذا الأتابك حازماً وقادراً على الحكم كأبيه ، فقد كان كريماً سخياً مع جنده ، وهذا ما جعلهم يتعلقون به ، وقد ساهم إلى جانب أخيه في محاربة الصليبيين لكنه مات إثر مرض عضال سنة (544هـ/1149م) .⁽⁵⁾ جاء بعده إلى الحكم أخيه " قطب الدين مودود بن عماد الدين " (544-565هـ/1149-1169م)⁽¹⁾، و كان " نور الدين محمود " يرى نفسه الأحق بولاية الموصل من أخيه "قطب الدين مودود" فهاجم

¹ - ابن الأثير : الكامل ، م9، ص247-275. زكار: الموسوعة الشامية، الباهر لابن الأثير، ج14، ص166. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص39.

² - زكار: الموسوعة الشامية، الباهر لابن الأثير، ج14، ص187-188. ابن واصل : مفرج الكروب، ج1، ص93-94. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص45.

³ - ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص 284-285. ابن الأثير : الكامل ، م9، ص339. ابن واصل: مفرج الكروب ، ج1، ص99. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص46. زكار: الموسوعة الشامية، الباهر لابن الأثير، ج14، ص197. وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج21، ص30-31.

⁴ - ابن الأثير : الكامل ، م9، ص341. زكار : الموسوعة الشامية، الباهر لابن الأثير، ج14، ص199. وفيات الأعيان لابن خلكان، ج21، ص92.

⁵ - ابن الأثير : الباهر ، ص86-93. ابن الأثير : الكامل ، م9، ص359. سعيد الديوه جي - تأريخ الموصل ، الموصل 1982م، ج1، ص 286 . ابن واصل: مفرج الكروب ، ج1، ص116. ابن الوردي: تنمة المختصر ، ج2، ص48. ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج3، ق1، ص168.

سنجار وحاول الاستيلاء عليها وبعد حصار طويل اتفق الطرفان على أن يحتفظ قطب الدين بسنجان شريطة أن يتنازل لأخيه نور الدين عن حمص والرحبة . (2)

وبذلك أبعد قطب الدين خطر أخيه عن الموصل لأن سنجان قريبة من حاضرة ولايته والاستيلاء عليها تهديد مباشر لمدينة الموصل ، ورحل نور الدين إلى الشام بعد أن أخذ كل ما كان بسنجان من الأموال والذخائر التي أودعها زنكي في قلعتها . حتى أن ابن الأثير يقول : " خزائن بيت أتابك جميعها في سنجان " (3) ، ويبدو أن نور الدين أراد من مهاجمته لسنجان الأموال أكثر من أي شيء آخر لينفق منها على حروبه مع الصليبيين . ويصف ابن الأثير ما أخذه نور الدين من أموال قائلاً: " وعاد إلى حلب ومعه خزائن سنجان على ستمائة جمل ما خلا البغال وما فرقه على أولاد الملوك والأمراء وستة وتسعين بغلاً محملة ذهباً " . (4)

وبذلك عاد اللواتم بين الأخويين وتعاونوا في التصدي للصليبيين .

عندما مرض " قطب الدين مودود " أراد أن يعهد بالحكم من بعده إلى ابنه الأكبر " عماد الدين " ولكن المدبر لشؤون الدولة " فخر الدين عبد المسيح " اتفق مع خاتون (ابنة حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي زوجة قطب الدين) أن يكون الأمر لابنها " سيف الدين غازي " بعد أبيه للأسباب التالية:

- خوف "فخر الدين " من عماد الدين وعدائه للملك العادل نور الدين . (5)
- ضعف " سيف الدين غازي " مما سمح لفخر الدين بإدارة شؤون الحكم في الموصل ولم يبقَ لسيف الدين إلا الاسم . (6)

لما تم الأمر لسيف الدين غازي الثاني (565-576 هـ / 1169-1180م) استبد "فخر الدين عبد المسيح" بأمور الموصل ، فلم يرضِ هذا الأمر الكثير من أمراء الموصل الذين كاتبوا نور الدين

1 - ابن الأثير: الكامل، م9، ص359-360. ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص117. زكار: الموسوعة الشامية، الباهر لابن الأثير، ج14، ص221.

2 - ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص118-120. ابن الأثير: الكامل، م9، ص360-361. زكار: الموسوعة الشامية، الباهر لابن الأثير، ج14، ص222-224. ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج3، ق1، ص169-171.

3 - ابن الأثير : الباهر ، ص98.

4 - ابن الأثير : الباهر ، ص98.

5 - كان عماد الدين زنكي بن مودود قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين وخدمه وتزوج ابنته من جهة ، وكان " نور الدين " يبغض " فخر الدين " لظلم كان فيه و يذمه ، ويلوم أخاه قطب الدين على توليته أمور الموصل من جهة ثانية ، فخاف أن يتصرف " عماد الدين " بأمر عمه " نور الدين " فيعزله ويبعده . زكار: الموسوعة الشامية ، ج14، ص288-289. ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص190-191. ابن الأثير: الكامل ، م10، ص24-25. ابن شداد: الأعلام الخطيرة ، ج3 ، ق1 ، ص172.

6 - زكار : الموسوعة الشامية ، الباهر لابن الأثير، ج14، ص289.

يعلمونه بما حصل ويحثونه على التوجه إليهم لتخليصهم من فخر الدين ، وفي مستهل المحرم من سنة (566هـ / 1170م) توجه نور الدين إلى الموصل واستولى على البلاد التي في طريقه وتسلم سنجار وأعطاهما إلى عماد الدين ابن أخيه مودود.⁽¹⁾ وبذلك تشكلت أتابكية سنجار التي استمرت حتى سنة (617هـ / 1220م) .

حاصر "نور الدين الموصل دون قتال ، فأرسل إليه " فخر الدين" يطلب الصلح والدخول في طاعته وإبقاء الموصل على "سيف الدين غازي" ويطلب لنفسه الأمان والإقطاع ، فأجابه "نور الدين إلى ذلك شرط أن يعود معه إلى الشام ويذكر ابن الأثير عن نور الدين قوله: "...إني لم آت لأخذ الملك من أولادي ، إنما جئت لأخلص الناس منك، وأتولى أنا تربية أولادي"⁽²⁾

واستقرت القاعدة على ذلك، فأبقى " سيف الدين غازي" على الموصل و ولى " سعد الدين كمشتكين" نائباً عنه في القلعة (دزدار القلعة)⁽³⁾ وأمر سيف الدين أن لا ينفرد عنه بقليل أو كثير من الأمور وأقطع نصيبين والخابور لأمرأء عسكره .⁽⁴⁾

وكان مقام " نور الدين " في الموصل أربعة وعشرين يوماً، وعندما عاد استصحب معه " فخر الدين عبد المسيح" ، فسمّاه عبد الله ، وأقطعه إقطاعاً كبيراً.⁽⁵⁾ وبذلك أصبحت أتابكية الموصل تابعة لنور الدين ، فضلاً عن انكماش رقعتها الجغرافية بسبب اقتطاع بعض ولاياتها في الجزيرة .

وقبيل وفاة نور الدين سنة (569هـ/1173م) استدعى أمرأء الموصل والجزيرة للقدوم بجيوشهم إلى الشام لحفظه من الفرنج حتى يتوجه إلى صلاح الدين في مصر ولكن القدر لم يمهلهم فتوفي⁽¹⁾، وكان

¹ - ابن الأثير : الباهر، ص 152-153. سعيد الديوه جي : تأريخ الموصل، ج 1، ص 293-294. ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص191-192. ابن الأثير: الكامل ،م10، ص29-30. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص78. زكار: الموسوعة الشامية، الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية لأبي شامة ،ج18، ص80. ابن كثير: البداية والنهاية، منشورات مكتبة المعارف ،بيروت، 1998، ج12، ص263. ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج3، ق1، ص176.

² - زكار: الموسوعة الشامية، الباهر في الدولة الأتابكية، ج14، ص298.

³ - دزدار: لفظ فارسي مركب من : دز بمعنى :قلعة ،و دار بمعنى مالك أو صاحب ، تطور مدلوله ليصبح في العصر العثماني لقباً يعرف به كبير ضباط القلعة وقائد حاميتها العسكرية . الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ص181.

⁴ - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص31. ابن واصل : مفرج الكروب، ج1، ص193. زكار: الموسوعة الشامية، الباهر في الدولة الأتابكية، ج14، ص297-298. ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج21، ص162-163. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص78. ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص263. أبو شامة: الروضتين ، ج2، ص80-81.

⁵ - ابن الأثير: الكامل ، م10، ص31. ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج21، ص163. أبو شامة: الروضتين ، ج2، ص80.

سيف الدين غازي على رأس جيشه عندما بلغته وفاة نور الدين ، وبدلاً من أن يقوم بالتوجه نحو حلب للاستيلاء عليها وبالتالي يتحكم ببقية أملاك نور الدين ، نراه يفضل التوجه نحو الجزيرة ليسترد ما سبق أن أخذه منه نور الدين من ولايات فيها ، فعاد إلى نصيبين واستولى عليها وأرسل نوابه إلى الخابور فاستولوا عليه، وسار هو إلى حران فحاصرها ثم أخذها واستولى على الرها ثم سروج والركة ، ولم يبق في الجزيرة خارجاً عن طاعته إلا قلعة جعبر لحصانتها ، ورأس عين لأنها كانت بيد قطب الدين صاحب ماردين - وهو ابن خال سيف الدين - فلم يتعرض له. (2)

توفي "سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي" سنة (576هـ/1180م) وكان مريضاً بالسل وكانت سيرته غير محمودة وسيء التدبير فيه شح وجبن وضعف رأي مما أضعف إمارته وقلص نفوذها ورقعتها. (3)

وبسبب سوء العلاقات بينه وبين أخيه "عماد الدين بن قطب الدين مودود" صاحب سنجار وابن عمهما الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب وكثرة محاربتهم لبعضهم أدى كل ذلك إلى تقدم صلاح الدين وتحكمه بشكل تدريجي في شؤون بلاد الشام حتى ثبت مركزه وفرض إرادته على ولايتي دمشق وحلب ، ثم أخذ ينازل الأملاك الزنكية في الجزيرة. (4)

كان سيف الدين قبيل وفاته ميالاً إلى أن يعهد بأمر ولايته إلى ابنه معز الدين سنجر شاه الذي لم يكن يتجاوز الاثني عشرة سنة من العمر لكنه خاف من تولية ابنه للأسباب التالية:

- صغر سن ابنه "معز الدين سنجرشاه" .
- كان صلاح الدين الأيوبي قد قويت شوكته وتمكن بالشام.
- امتناع أخيه " عز الدين مسعود" عن الإذعان لرغبته بتولية ابنه " معز الدين سنجر شاه" .

¹ - ابن الأثير : الكامل، م10، ص56. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص83. ابن واصل: مفرج الكروب، ج1، ص258-259. ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج21، ص203. ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص274. زكار: الموسوعة الشامية، الباهر في الدولة الأتابكية، ج14، ص304-305.

² - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص59. . زكار: الموسوعة الشامية، الباهر في الدولة الأتابكية، ج14، ص325-326. ابن واصل :مفرج الكروب، ج2، ص5-6. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص83. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص202-203.

³ - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص100. زكار: الموسوعة الشامية، الباهر في الدولة الأتابكية، ج14، ص332. ابن واصل :مفرج الكروب، ج2، ص92. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص90. أبو شامة: الروضتين، ج2، ص379-380. ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص305. ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج21، ص270، 274. سعيد الديوه جي : تأريخ الموصل، ج 1، ص 194.

⁴ - أبو شامة: الروضتين ، ج2، ص216-217. ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص288-292. ابن الأثير : الكامل ، م10، ص65-70. زكار: الموسوعة الشامية، الباهر في الدولة الأتابكية، ج14، ص327. ابن واصل :مفرج الكروب ، ج2، ص17-46. الجميلي ، رشيد : دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين ، ط 2، بيروت 1975م، ص 118 وما بعدها.

فأشار عليه كبار الأمراء بأن يجعل الملك بعده لأخيه " عز الدين مسعود" وجعل " مجاهد الدين قايماز نائبه ومدير مملكته. (1)

وقد أعطى سيف الدين قلعة عقر الحميدية إلى ابنه ناصر الدين وأعطى جزيرة ابن عمر وقلعها لولده معز الدين سنجرشاه (2) - الذي أسس أتابكية الجزيرة والتي استمرت بالوجود حتى سنة (648هـ/1250م) .

كان عز الدين مسعود (576-589هـ/ 1180-1193م) يتصف بالجرأة والإقدام مع خجل وتقلب في الرأي ، وسيطر على دولته الأمير مجاهد الدين قايماز - نائب الأتابك - وبسبب التنازع بين الأمراء و الأتابكة ، تمكن صلاح الدين الأيوبي من بسط سلطانه على بلاد الشام ، و أن يحجم قوة أتابكة الموصل فقام بمهاجمة ديار الجزيرة وسيطر على أهم مدنها وقلعها(3) ، ثم فرض الحصار على الموصل سنة (578هـ/1182م) ، إلا أن دفاع أهل الموصل عن مدينتهم أفشل الحصار وقد أدرك صلاح الدين أن الموصل لا تؤخذ بمجرد حصارها لأنها مدينة شديدة التحصين ولكن بإضعاف الولاية والسيطرة على ممتلكاتها وقلعها بصورة تدريجية عنها . (4)

أراد "عز الدين مسعود" أن يتخلص من تحكم نائبه "مجاهد الدين قايماز" لهذا ألقى القبض عليه وسجنه سنة (579هـ/ 1183م) ، وكان نواب قايماز مسيطرين على ولاية أربل و شهرزور و دقوقا وجزيرة ابن عمر وقلعة عقر الحميدية ، فلما قبض عليه امتنع نائبه في أربل وجزيرة ابن عمر وأعلنوا

¹ - ابن الأثير:الباهر،ص181. الكامل، م10،ص101. زكار: الموسوعة الشامية، الباهر في الدولة الأتابكية،ج14،ص333.ابن واصل:مفرج الكروب،ج2،ص93.ابن الوردي: تنمة المختصر،ج2،ص90.أبو شامة: الروضتين،ج2،ص380-381. ابن كثير: البداية والنهاية،ج12،ص306.ابن الجوزي: مرآة الزمان،ج21،ص275.

² - ابن الأثير : الكامل ، م10،ص101.ابن واصل: مفرج الكروب،ج2،ص93.

³ - الكامل ، م10،ص108، 112-113، 116. زكار: الموسوعة الشامية، الباهر في الدولة الأتابكية،ج14،ص336.ابن واصل: مفرج الكروب،ج2،ص117-118، 123.أبو شامة: الروضتين، ج2،ص417، 423-425. ابن كثير: البداية والنهاية،ج12،ص309.

⁴ - ابن الأثير : الكامل ، م10،ص114-115. ابن شداد ، بهاد الدين: سيرة صلاح الدين (السيرة اليوسفية) تحقيق ، جمال الدين الشيال ، القاهرة 1963م ، ص 57. . زكار: الموسوعة الشامية، الباهر في الدولة الأتابكية،ج14،ص336.ابن واصل: مفرج الكروب،ج2،ص118-122، 123.أبو شامة: الروضتين، ج2،ص417، 423-424. ابن كثير: البداية والنهاية،ج12،ص309.ابن الوردي: تنمة المختصر،ج2،ص91.

تبعيتهما لصالح الدين الأيوبي كما أرسل الخليفة الناصر لدين الله جيشاً إلى دقوقا فحاصرها وأخذها ، ولم يبق لعز الدين مسعود غير شهرزور وعقر الحميدية .⁽¹⁾

وفي سنة (581هـ/1185م) فرض صلاح الدين الأيوبي الحصار على الموصل ثم غادرها بعد شهر من الحصار إلى خلاط ثم توجه ثانية إليها ونزل في كفر زمار وأحاط جنده بالموصل ، وقد جرت مفاوضات بين الطرفين ، حيث أرسل أهل الموصل وفداً إلى صلاح الدين للتوقيع على شروط الصلح ، وتحليف صلاح الدين لمسعود ، وكان على رأس الوفد القاضي بهاء الدين بن شداد .⁽²⁾ وبعد المفاوضات استطاع وفد الموصل الحصول من صلاح الدين على جزيرة ابن عمر مقابل تسليمه بلاد شهرزور وأعمالها وولاية القرابلي وجميع ما وراء الزاب من أعمال ، ويخطاب له في جميع بلاد الموصل وتقطع خطبة السلاطين السلاجقة ، كما ضربت السكة باسمه .⁽³⁾ بهذه الصورة أصبح أتابك الموصل أحد نواب صلاح الدين وتابعاً من اتباعه ، وبذلك ضعفت أتابكية الموصل وتقلص ظلها .

وعند وفاة صلاح الدين في سنة (589هـ/1193م) بدمشق ، سادت الفوضى بلاد الشام والجزيرة نتيجة النزاعات بين أفراد البيت الأيوبي على السلطة والحكم بين أولاد صلاح الدين وعمهم الملك العادل ، فحاول عز الدين مسعود استغلال هذه الفرصة من أجل استعادة البلاد الجزرية . إلا أنه مرض وهو يحاصر نصيبين في نفس السنة فعاد إلى الموصل وتوفي فيها .⁽⁴⁾

¹ - ابن الأثير : الكامل ، م 10، ص 123-124. ابن الوردي : تنمة المختصر، ج 2، ص 93. . زكار : الموسوعة الشامية، الباهر في الدولة الأتابكية، ج 14، ص 336-337. ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 153-154. أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 481، 423-424. ابن الجوزي : مرآة الزمان، ج 21، ص 295.

² - ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص 68-70. - ابن الأثير : الكامل ، م 10، ص 131. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج 2، ص 94. ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 167-168. أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 510. ابن الجوزي : مرآة الزمان، ج 21، ص 304.

³ - ابن الأثير : الكامل ، م 10، ص 134-135. ابن الجوزي : مرآة الزمان، ج 21، ص 305. أبو شامة : الروضتين، ج 2، ص 510. ابن الوردي : تنمة المختصر، ج 2، ص 95.

⁴ - ابن الأثير : الباهر ، ص 186. ابن الوردي : تنمة المختصر، ج 2، ص 109. ابن واصل : مفرج الكروب، ج 2، ص 167-168. أبو شامة : الروضتين، ج 3، ص 447. ابن الجوزي : مرآة الزمان، ج 21، ص 304. ابن كثير : البداية والنهاية، ج 13، ص 7. ابن الجوزي : مرآة الزمان، ج 22، ص 16.

أ - حكم نور الدين أرسلان شاه بن مسعود .

تولى " نور الدين أرسلان شاه" (1) الموصل بعد وفاة أبيه عز الدين مسعود الأول في (شعبان 589هـ / آب، 1193 م) استناداً لوصية والده، وكان نائبه مجاهد الدين قايمار (2)، وكان عمره آنذاك عشرون سنة .

بدأت المشاكل تواجه "نور الدين أرسلان شاه" حتى قبل وفاة والده ، فلما اشتد مرض " عز الدين مسعود " أوصى بالملك لابنه "نور الدين أرسلان شاه" وجعل القيم بأمره " مجاهد الدين قايمار" لكن " شرف الدين " (3) - أخ عز الدين مسعود - كان له رأي آخر لأنه كبير البيت الأتابكي من جهة ، ولوجود الملك العادل في نصيبين من جهة ثانية ، فظن أن أخاه "عز الدين مسعود" سيعهد له بالملك ليرد خطر الملك العادل عن الموصل ، فجمع المؤيدين له ، و أرسل إلى أخيه " عز الدين مسعود " يهدد ويتوعد ويطالب بالملك لنفسه قائلاً: " إن ملكني أخي الموصل بعده ، وإلا ثرت في البلاد وأخذته قهراً ، فإن عجزت سيرت إلى الملك العادل " .

لكن " عزالدين مسعود" طلب من " مجاهد الدين قايمار" الإسراع في إحضار الأمراء والأعيان وأرباب المناصب لحلف اليمين لابنه " نور الدين أرسلان شاه" ، وعندما تم له ذلك تفرق من اجتمع حول " شرف الدين " ، وبعث الأخير إلى " مجاهد الدين قايمار " يعاتبه لأنه حلف الناس قبله ، وأنه إنما أراد خدمة ابن أخيه والوصاية عليه ، ثم توفي "عز الدين مسعود" وتولى ابنه " نور الدين أرسلان شاه" الموصل من بعده .

وبذلك خمدت نار الفتنة في مهدها واستقر الملك لنور الدين و والي القلعة " مجاهد الدين قايمار " . (4)

¹ - نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص22. زكار : الموسوعة الشامية ، ج22، ص363.

² - مجاهد الدين قايمار : هو عبد الله الزيني الملقب مجاهد الدين الخادم ، وكان خادماً لزين الدين أبي سعيد علي بن بكتكين والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ، وهو من أهل سجستان ، أخذ منها صغيراً ، جعله زين الدين أتابكاً لأولاده ، وفوض إليه أمور إربل ، ثم انتقل إلى الموصل لخدمة الأتابك سيف الدين غازي ، وبعد موت غازي انتقل قايمار عز الدين مسعود أخو غازي ، توفي قايمار في الموصل سنة 595هـ / 1198م . ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، ج4، ص102.

³ - شرف الدين هندو أمير أميران بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر . ووالدته الخاتون و هي ابنة حسام الدين تمرشاش بن أيلغازي -صاحب ماردين - . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ص179. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص23.

⁴ - ابن الأثير : الباهر ، 346 . الكامل:م10، ص228.0 - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج 3 ، ص 23-25 . أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص88. ابن الوردي: نثمة المختصر ، ج2، ص109.

عادت المشاكل لتتورق " نور الدين أرسلان شاه" عندما استولى نواب "عماد الدين زنكي" (1) في نصيبين سنة (594هـ/1197م) على بعض قرى الموصل المجاورة لها . (2)

فعزم " نورالدين أرسلان شاه " على قصد نصيبين ، وأخذها من عمه " عماد الدين زنكي" لرفضه إرجاع ما تم الاستيلاء عليه ، لكن الموت كان أسرع منه إذ توفي " عماد الدين زنكي" في (محرم 594، هـ / تشرين الثاني، 1197م)، وتولى الملك بعده ابنه المنصور " قطب الدين محمد" وقام بتدبير أموره مجاهد الدين يرنقش. (3) فأرسل إليه " نورالدين أرسلان شاه" باستعادة ما تم أخذه من قرى الموصل، لكنه أصر على موقف والده وأن هذه القرى تابعة لنصيبين ، وغادر "قطب الدين" سنجار إلى نصيبين لمنع "نور الدين أرسلان شاه" عنها لما بلغه تجهيز الأخير حملة عسكرية لقصد نصيبين . تمكن " نور الدين " من الاستيلاء على نصيبين وتملكها ، بينما هرب " قطب الدين محمد" من قلعتها ليلاً مع نائبه " مجاهد الدين يرنقش" إلى حرّان، (4) وراسل الملك العادل " سيف الدين أبي بكر" في دمشق لينجده على " نورالدين " ويعيد إليه نصيبين ، وبذل له الأموال الكثيرة .

اضطر " نور الدين أرسلان شاه" لمغادرة نصيبين لسير الملك العادل إلى البلاد الجزرية لنجدة "قطب الدين محمد " من جهة و لمرض ألم بعسكره ، وسبب موت الكثير منهم من جهة ثانية ، فلما فارق "نور الدين أرسلان شاه " نصيبين إلى الموصل تسلمها " قطب الدين محمد " . (5)

وجد الملك العادل الأيوبي في استنجد " قطب الدين محمد " - صاحب سنجار - به ، لما هاجمه صاحب الموصل " نور الدين أرسلان شاه" فرصة سانحة لتحقيق طموحه في ضم الموصل إلى بلاده الجزرية ، لذلك سعى إلى إحداث شرخ في العلاقة بين صاحب الموصل وصاحب سنجار و عزل الموصل عن بقية الإمارات الجزرية بهدف الاستيلاء عليها مستغلاً سوء العلاقة بينهما . فراسل الملك

¹ - عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر ، صاحب سنجار ونصيبين والرقّة والخابور . ابن الأثير : الكامل ، م10، ص250. ابن واصل: مفرج الكروب ، ج3، ص78. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص230.

² - ابن الأثير : الباهر ، ص347 . الكامل ، م10، ص250. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص112. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص230. ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص78-79 .

³ - أبو شامة : الذيل على الروضتين ، الموسوعة الشامية ، نج: سهيل زكار ، ج20، ص20. ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ص182، 135-183. ابن الأثير : الباهر، ص347. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص93. ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص78.

⁴ - حرّان : هي مدينة عظيمة مشهورة ، وهي قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرّها يوم وبين الرّقة يومان ، وهي على طريق الموصل . الحموي : معجم البلدان ، ج2، ص235.

⁵ - ابن الأثير : الباهر ، ص349. الكامل ، م10، ص251. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص254. أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص93. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص112. ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص79. ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج3، ص135.

العادل ، " قطب الدين محمد " سنة (600 هـ / 1204 م) واتفق معه بأن تكون الخطبة له في بلاده مما أدى إلى استياء " نور الدين " - صاحب الموصل - . فسار إلى نصيبين واستولى على المدينة وبينما هو محاصر للقلعة أرسل " قطب الدين محمد " إلى الملك الأشرف موسى يستجده فأجابه وسار من حرّان إلى رأس العين . (1)

من جهة ثانية اتفق الأشرف موسى مع صاحب إربل " مظفر الدين كوكبوري " (2) على مهاجمة أراضي الموصل لإجبار " نور الدين أرسلان شاه " على مغادرة نصيبين ريثما يكون الأشرف قد جمع النجد لمواجهة صاحب بالموصل ، وفعلاً بينما " نور الدين أرسلان شاه " يحاصر قلعة نصيبين بلغه خبر من الموصل بأن " مظفر الدين كوكبوري " - صاحب إربل - استغل غيابه فزحف إلى نينوى (3) ونهبها وأحرق غلاتها .

مما اضطر الأمير "نور الدين" إلى رفع الحصار عن نصيبين والعودة إلى الموصل لقصد إربل ، فلما وصل مدينة بلد (4) علم أن كوكبوري عاد إلى إربل ، وأن ما بلغه من أخبار مبالغ فيه . (5) فقصد " نور الدين أرسلان شاه " تل يعفر (6) - وهي لقطب الدين محمد - واستولى عليها ورتب أمورها وسار لمواجهة الأشرف موسى بن العادل الذي غادر نصيبين بعد أن اجتمعت عنده العساكر إلى بلد البقعا ، فالتقى مع " نور الدين أرسلان شاه " وهزمه الأشرف وأسر جماعة من أمرائه منهم المبارز سنقر الحلبي ، وولده الظهير غازي .

تابع جيش الاشرف زحفه إلى كفر زمار (7) ، ونهبوا الجهات المحيطة بها ، ودمروا مزارعها وانتقلوا بعد ذلك إلى البلاد القريبة من الموصل لنهبها . وترددت الرسل بين " نور الدين أرسلان شاه الأول " و

¹ - ابن الأثير : الكامل ، م 290/10 . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج 3 ، ص 156 . أبو الفداء : المختصر ، 105/3 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، 121/2 . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج 3 ، ص 135 . أبو الفداء : المختصر ، ج 3 ، ص 105 .

² - مظفر الدين كوكبوري: هو أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن بكثين بن محمد ، الملقب الملك المعظم مظفر الدين - صاحب إربل - . ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص 52 .

³ - نينوى : هي قرية يونس بن متى بالموصل . الحموي : معجم البلدان ، ج 5 ، ص 339 .

⁴ - بلد : هي مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل . الحموي : معجم البلدان ، ج 1 ، ص 481 .

⁵ - ابن واصل : مفرج الكروب ، 156/3 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، 242 . ابن الأثير : الكامل ، م 10 ، ص 290 .

⁶ - تل يعفر : وأصله تل أعفر لونه لكنه تغير لكثرة الاستخدام والخفة إلى تل يعفر ، وهو اسم قلعة وريض بين سنجار والموصل في وسط وادٍ فيه نهر جارٍ ، وهي على جبل منفرد حصينة محكمة ، الحموي : معجم البلدان ، ج 2 ، ص 39 .

⁷ - كفر زمار : قرية من قرى الموصل . الحموي : معجم البلدان ، ج 4 ، ص 469 .

الأشرف إلى أن تم الصلح بينهما أوائل سنة (601هـ / 1204 م) ، على أن يعيد نور الدين مدينة تل يعفر إلى ابن عمه "قطب الدين محمد" ، وتزوج الأشرف أخت "نور الدين أرسلان شاه" .⁽¹⁾

كان للهزيمة القاسية التي مُني بها "نور الدين أرسلان شاه" العديد من الأسباب منها :

1- لما أرسل "نور الدين أرسلان شاه" مملوكه "جريدك" لاستطلاع أخبار جيش الأشرف نقل إليه معلومات خاطئة وضلله ، حيث قتل من شأنهم وعددهم ، وشجعه على السير إليهم .

2- التفوق العددي لجيش الأشرف موسى الذي انضم إليه الملوك الأيوبيون وأمراء الجزيرة لنجدة صاحب سنجار.⁽²⁾

3- الإرهاق الذي أصاب عسكر الموصل نتيجة تحركاته السريعة وعدم تمكنه من الراحة قبل لقاء جيش الأشرف .

ومن أهم نتائج هذه الهزيمة تغيير "نور الدين أرسلان شاه" سياسته تجاه الأيوبيين وخصوصاً الملك العادل ، فجنح صاحب الموصل إلى السلم وتقرب من العادل في عدة مناسبات كاشتراكه مع قوات العادل سنة (603هـ / 1207م) في قتال الصليبيين في إمارة طرابلس⁽³⁾ و توثقت العلاقات بينهما بزواج ابنة نور الدين أرسلان شاه من أحد أبناء الملك العادل .

بعد أن تمت المصاهرة بين "نور الدين أرسلان شاه" - صاحب الموصل - ، والملك العادل " سيف الدين " سنة (605هـ / 1208م) ، طمع "نور الدين" بزيادة نفوذه والتوسع في الجزيرة على حساب أبناء عمومته .⁽⁴⁾

لذلك في سنة (606هـ / 1209م) ، وبناءً على نصيح بعض وزرائه أرسل "نور الدين أرسلان شاه" إلى الملك العادل ، واتفق معه على أخذ بلاد "قطب الدين محمد" - صاحب سنجار - ، و "محمود بن

¹ - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص290-291. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، 242 . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3/156-157 . ابن سباط : تاريخه ، 235 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، 122/2 . أبو شامة : الذيل على الروضتين ، تح: سهيل زكار ، ج20، ص88. المقرئزي : السلوك، ج1، ص275. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص105. المقرئزي: السلوك، ج1، ص275.

² - انضم إلى الملك الأشرف ، مظفر الدين كوكبوري -صاحب إربل- ، ولما وصل نصيبين انضم إليه الملك نجم الدين صاحب ميافارقين ، وصاحب حصن آمد وكيفا ، وصاحب جزيرة ابن عمر . ابن الأثير : الكامل ، م10، ص290 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، 242 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، 122 / 2 . أبو شامة : الذيل على الروضتين ، الموسوعة الشامية ، تح : سهيل زكار ، ج20، ص88 ويذكر ابن واصل أن من حملة النجدة التي كانت مع الملك الأشرف موسى نجدة ابن عمه الملك الظاهر - صاحب حلب - بقيادة الملك الزاهر مجير الدين داود - صاحب البيرة . ابن واصل : مفرج الكروب ، 158/3 .

³ - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص341. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص173.

⁴ - ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص191. ابن الأثير : الكامل ، م10، ص348. ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ص185-186.

سنجر شاه" - صاحب جزيرة ابن عمر - ، على أن تكون بلاد "قطب الدين" للملك العادل ، وجزيرة ابن عمر لنور الدين .

وجد الملك العادل في هذا الاتفاق فرصةً سانحةً للتوسع في بلاد الجزيرة من جهة وإضعاف الموصل من جهة ثانية لذلك أطمع الملك العادل ، " نور الدين " - صاحب الموصل - أن يعطي هذه البلاد لولده الذي تزوج ابنة " نور الدين أرسلان شاه" ، وأن يجعل مقامه في الموصل لخدمة "نور الدين " .⁽¹⁾ أرسل الملك العادل إلى البلاد يطلب العساكر ، بحجة قصد الكرج التي توالى اعتداءاتها على أملاك الملك الأوحى - صاحب خلاط⁽²⁾ و ميفارقين- ، وخرج من دمشق إلى حرّان .⁽³⁾

فلما تكاملت عنده العساكر واجتمعت ،⁽⁴⁾ استولى على نصيبين والخابور⁽⁵⁾، وكتب إلى "قطب الدين محمد" - صاحب سنجار - ليسلم إليه سنجار ويأخذ عوضاً عنها ، فعزم " قطب الدين " على تسليمها لكن مملوك أبيه "مجاهد الدين يرنقش" منعه من ذلك ، وقام بحفظ سنجار له.

فأرسل "قطب الدين محمد" ابنه إلى "مظفر الدين كوكبوري" - صاحب إربل- ليشفع له عند الملك العادل ، لما له من عظيم الأثر لدى العادل ، والمصاهرة بين العادل و"مظفر الدين" .⁽⁶⁾ لكن الملك العادل رفض شفاعته " مظفر الدين " ، لاعتقاده بعدم الحاجة إليه لأن " نور الدين أرسلان شاه" معه. مما أغضب " مظفر الدين كوكبوري" ودفعه إلى الخوف من أطماع العادل و عدم الثقة به

¹ - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص248. ابن الأثير : الكامل ،م10، ص348. ابن واصل مفرج الكروب ،ج3 ، ص 191 .

² - خلاط : هي البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار البانعة ، وهي من فتوح عياض بن غانم ، وهي قسبة أرمينية الوسطى . الحموي : معجم البلدان ،م2، ص380-381.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ،ص449. ابن واصل : مفرج الكروب ،ج3، ص190. ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص57.

⁴ - اجتمع لدى العادل : الملك المنصور - صاحب حماة - ، الملك المجاهد - صاحب حمص- ، الملك الأمجد - صاحب بعلبك - ، وعسكر من الملك الظاهر - صاحب حلب - (خمسمائة فارس) ، ولما نزل بحرّان وصل إليه الملك الأوحى - صاحب خلاط و ميفارقين- ، والملك الأشرف ، والملك الصالح - صاحب حصن كيفا و آمد- ، صاحب السويداء ، وصاحب دارا . ابن واصل : مفرج الكروب ،ج3، ص190-191. ابن الأثير : الباهر، ص355.

⁵ - الخابور : ولاية واسعة وأرض جمّة بين رأس العين والفرات من أرض الجزيرة غلب عليها اسم نهر الخابور فنسبت إليه . الحموي: معجم البلدان ،ج2، ص334.

⁶ - المصاهرة : كانت زوجة " مظفر الدين كوكبوري" هي ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص197.

إذا تم له ما أراد، فأرسل وزيره إلى " نور الدين أرسلان شاه " يبلغه استعداداته لمساندته والوقوف معه للدفاع عن سنجار .⁽¹⁾

كان الخوف قد تمكن من "نور الدين أرسلان شاه " لما رأى قوات العادل تجوب الجزيرة ، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه باستدعاء العادل لحصار سنجار ، و خشي من تنامي قوته بما سينتزع من بلاد مما يهدد أمن الموصل ويجعلها لقمةً سائغةً للملك العادل ، فأحضر " نور الدين " من يرجع إلى رأيهم واستشارهم ، فأما من كانوا يؤيدون سياسة الاتفاق مع العادل فقد لزموا الصمت ، أما من لم يكن يعلم بحقيقة اتفاق " نور الدين أرسلان شاه " مع العادل ، فقالوا له لما تبيينوا الأمر : " ما زدت على أن أذيت نفسك وابن عمك ، وقويت عدوك ، وجعلته شعارك " .⁽²⁾ وأشاروا عليه بأن يبقى على اتفاقه مع الملك العادل ، وإلا اتخذ الأخير من رجوع صاحب الموصل عن الاتفاق ذريعة لابتدئ به .

كان " نور الدين أرسلان شاه " قد جهزَّ عسكرياً مع ولده القاهر ليسيروا إلى الملك العادل لما وصل رسول "مظفر الدين كوكبوري" ، فأجابه على ما طلب بالموافقة ، وسار " مظفر الدين " واجتمع مع "نور الدين " ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل.

انتهج " نور الدين أرسلان شاه " و " مظفر الدين كوكبوري " للوقوف في وجه الملك العادل مسارين : الأول : راسلا الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - يدعوانه إلى الاتفاق على الملك العادل ، على أن يجعله السلطان ، ويخطبوا له ، ويضربوا السكة باسمه . وجد الظاهر في هذا العرض فرصة مناسبة للانتقام من عمه العادل الذي كان قد أخذ منه ضيعة (القرادى) وأقطعها لصاحب آمد من جهة ، والتوسع في البلاد الجزرية من جهة ثانية ، فأجابهما الظاهر بالموافقة على ذلك ، وأرسل " نظام الدين محمد بن الحسين " ، وأخاه الملك المؤيد " نجم الدين مسعود " ، ليأمرَا العسكر الحلبي بمغادرة جيش العادل ، والاتفاق مع الملك المنصور - صاحب حماة - ، والملك أسد الدين شيركوه - صاحب حمص والرحبة - على مخامرة الملك العادل ودس الدسائس مما أوجب فساد أحوال العادل ، متذرعاً برفض العادل لشفاعته في صاحب سنجار .

كما اتفق صاحب سنجار وصاحب إربل مع السلطان " غياث الدين كيخسرو " - صاحب بلاد الروم - ، و أخيه " مغيث الدين " - صاحب أرزن الروم - على الوقوف بوجه العادل.

¹ - ابن واصل :مفرج الكروب، ج3، ص194. ابن الأثير : الكامل ، م10، ص349. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ، ص248. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ج3، ص189.

² - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص349.

الثاني : أرسل إلى الخليفة العباسي "الناصر لدين الله" في أن يرسل رسولا في أمر الصلح ، وأن يرحل الملك العادل عن سنجار ، فبعث الخليفة بأستاذ داره "أبا نصر هبة الله بن الضحاك" والأمير "آق باش" إلى الملك العادل .

وصلت رسل الخليفة إلى الملك العادل ، وقد طال حصاره لسنجار ، وخامرت العساكر عليه ، فأجاب إلى الصلح على أن يكون له نصيبين ، والخابور ، وكل ما ملك من البلاد ، ويبقى لقطب الدين سنجار ، ورحل الملك العادل عن سنجار عائداً إلى حرّان.⁽¹⁾

أما " مظفر الدين كوكبوري" فقد عاد إلى إربل بعد أن زوج ابنتيه بولدي "نور الدين أرسلان شاه" ، وهما عزالدين مسعود و عماد الدين زنكي.⁽²⁾

لم تطل أيام نور الدين أرسلان شاه الأول بعد صلح سنة (606 هـ / 1209 م) ، إذ لم يلبث أن توفي في (شهر رجب سنة 607 هـ / شهر كانون الثاني سنة 1211 م) بعد أن حكم الموصل مدة سبعة عشر سنة وأحد عشر شهراً .⁽³⁾

كان نور الدين أرسلان شاه الأول قد عهد بالحكم من بعده لابنه القاهر عزالدين مسعود الثاني ، وتولى بدر الدين لؤلؤ تدبير شؤونه . أما ابنه الأصغر عماد الدين زنكي الثالث فقد خصه بقلعتي عقر الحميدية وشوش ، وسيره إلى العقر،⁽⁴⁾ ولاشك أن هذا كان بتدبير "بدر الدين لؤلؤ" الذي سعى إلى إضعاف الدولة الأتابكية في الموصل لكي يتسلط عليها .

بعد وفاة " نور الدين أرسلان شاه " تراجعت قوة الزنكيين في الموصل ، وتأثيرهم الفعال في العلاقات السياسية ، وذلك بفعل سببين :

- الأول : صغر سن الأمراء الذين اعتلوا سدة الحكم ، وهيمنة بدرالدين لؤلؤ على أوضاع الإمارة .

¹ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص248 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص127 . ابن العديم : زبدة الطلب ، ص249 . ابن الأثير : الكامل ، م10، ص349-350 . و الباهر ، ص356 . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3 ، ص194-197 . زكار : الموسوعة الشامية ، ج20 ، ص131 . أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص112 ، المقرئزي : السلوك ، ج1، ص289 . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ص190-191 .

² - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ص192 . ابن الأثير : الكامل ، م10، ص350 .

³ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص249 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص128 . ابن الأثير : الكامل ، م10 / 353 . زكار : الموسوعة الشامية ، ج20، ص136 . أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص113 . المقرئزي : السلوك ، ج1، ص291 . زكار : الموسوعة الشامية ، ج22، ص364 .

⁴ - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص354 . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص202 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص249 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص128 . زكار : الموسوعة الشامية ، ج22، ص364 .

- الثاني : الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة الزنكية .

والواقع أنه لم يعد هناك أي سلطة فعلية للبيت الزنكي في الموصل بعد وفاة نور الدين أرسلان شاه الأول ، إذ لم يعد لخلفائه سوى الاسم ، واستأثر بدر الدين لؤلؤ بإدارة شؤون البلاد ويتصرف وفق ما تقتضيه مصلحته ، ولم تعد الأحداث تأريخاً للدولة الزنكية بقدر ماهي تأريخ لحكم بدر الدين لؤلؤ .

2- دور بدر الدين لؤلؤ:

أ- القاهر عز الدين مسعود الثاني (607 - 615 هـ / 1211 - 1218 م):

بعد موت " نور الدين أرسلان شاه " - صاحب الموصل - انتقل الملك بعده في الموصل لولده " الملك القاهر عز الدين مسعود " ولم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره ، فقام بتدبير ملكه " بدر الدين لؤلؤ " ¹ مملوك والده .

لما توفي "نور الدين " كتم " بدر الدين لؤلؤ" خبر وفاته، وحلف الجند وأرباب الحكم لعز الدين مسعود ، وراسل الخليفة " الناصر لدين الله" يطلب التقليد له . كما كاتب ملوك الأطراف يطلب منهم تجديد العهود على ما كانوا عليه زمن أبيه ، فاستبد في البلاد ، ثم قعد للعزاء ، فجاءه التقليد من الخليفة ، ولقب " عز الدين" بالقاهر ، على أن يدبر أمره " بدر الدين لؤلؤ".

بعد أن تم هذا حجر بدر الدين على القاهر ، وأشغله بملذاته وشهوته، وأبعد عنه كل من يخشى منه ، فلم يبقَ له سوى الاسم ، فتقرّد هو في الحكم ، ولولا " مظفر الدين كوكبوري" الذي تربطه المصاهرة مع القاهر ، لدبر موته في أقرب وقت .

كان القاهر متذمراً مما هو عليه ، وقد أحاطه "بدر الدين لؤلؤ" بطبقة سوء من بطانته ، وأبناء الأتابكة عاجزون عن مساعدته لضعفهم .

يقول ابن الأثير عن القاهر : ((كان كريماً حليماً ، قليل الطمع في أموال الرعية ، كافاً عن أذى يوصله إليهم ، مقبلاً على لذاته ، ينتهبها ويبادر بها إلى الموت)) ⁽²⁾.

هذا التضيق الشديد الذي كان عليه جعله يسرف في لذاته ، ليخفف عنه ما به من حال مؤلمة - وهو ما دبره له بدر الدين - فجرده من السلطة ، وسلط عليه مغريات الحياة ، وهو في مقتبل العمر ، فكان

¹ - أبو الفضائل بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الأتابكي الرومي، الملك المسعود، كان مملوكاً أرمنياً ، بيع في الأسواق حتى حصل عليه الملك

"نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين " صاحب الموصل. ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص57.

² - ابن الأثير: الكامل ، م10، ص382.

يائساً من حياته ، يكثر من ذكر الموت الذي كان يتوقعه على يد "بدر الدين" ، كما أعد لنفسه مدفناً كان يزوره ويتذكر مصيره الأخير .

ومما يدلنا على تسلط "بدر الدين" على الدولة ما أشار به ابن الأثير عند كلامه عنه : " وهو الذي كان يتولى دولة القاهرة ، ودولة أبيه نور الدين قبله ، وقد تقدم من أخباره ما يعرف به محله ، وسيرد منها أيضاً ما يزيد الناظر بصيرة فيه " . كما أنه لم يرد في المصادر أي دور سياسي للقاهر .

بعد أن ضيق "بدر الدين لؤلؤ" على القاهر " عز الدين مسعود الثاني " سقاه سماً فمات في (أواخر ربيع الأول ، سنة 615هـ / شهر حزيران ، 1218م) ،⁽¹⁾ دام حكمه سبع سنين وتسعة أشهر لم تقع خلالها أحداث تذكر وأوصى بالحكم بعده لابنه " نور الدين أرسلان شاه الثاني " ، وكان صغيراً ، فعهد إلى " بدر الدين لؤلؤ" بالوصاية عليه والقيام بأمر دولته .

ب- نور الدين أرسلان شاه الثاني (615 - 616 هـ / 1218 - 1219 م) :

عهد القاهر بالحكم لابنه " نور الدين أرسلان شاه الثاني " وكان صبيّاً بلغ العاشرة من عمره ، وأوكل إلى "بدر الدين لؤلؤ" القيام بأمر الإمارة جميعها ، فأرسل الأخير إلى الخليفة "الناصر لدين الله " طالباً الخلع والتقليد على ماجرت عليه العادة ، كما أرسل إلى أمراء المدن المجاورة يطلب منهم الاعتراف بالملك الجديد ، وتجديد العهد لنور الدين أرسلان شاه الثاني .⁽²⁾

كان "عماد الدين زنكي الثالث" ⁽³⁾ طامعاً بحكم الموصل بعد وفاة أخيه القاهر ، بوصفه كبير البيت الأتابكي ، إلا أن "بدر الدين لؤلؤ" الذي كان يدرك أنه ليس من مصلحته أن يتولى الحكم رجل راشد وقوي يستطيع تدبير شؤون الإمارة بنفسه سعى إلى إبعاد كل شخص قوي عن حكم الموصل ليستمر في إدارة شؤون الدولة .⁽⁴⁾ لذلك وقف في وجه عماد الدين زنكي الثالث ، وعمل على إبعاده عن الموصل ليتفرد بالسلطة .

¹ - زكار : الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية ، ج20، ص 219 . الموسوعة الشامية، ج22، ص364 . ابن الأثير : الكامل ، م10، ص382 . ابن واصل : مفرج الكروب، ج3، ص261-263 . أبو الفداء : المختصر، ج3، ص118 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص254 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص134 .

² - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص382-383 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص135 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص254 . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص263 . ابن العديم : زبدة الحلب ، ج2، ص463 .

³ - عماد الدين بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر ، أعطاه والده القاهر قلعة عقر الحميدية وقلعة الشوش وولايتهما . ابن الأثير : الكامل ، م10، ص354 .

⁴ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج4، ص20 . ابن الأثير : الكامل ، م10، ص383 . رشاد ، عبد المنعم : موسوعة الموصل ، م2، ص160 .

في المقابل تحالف عماد الدين زنكي مع "مظفر الدين كوكبوري" ضد "بدر الدين لؤلؤ"، وتمكن من الاستيلاء على قلعة العمادية ⁽¹⁾ في (شهر رمضان سنة 615 هـ / شهر تشرين الثاني، 1218 م) سلمياً بعد أن أشاع بين سكانها خبر وفاة "نور الدين أرسلان شاه الثاني"، الذي كان مريضاً آنذاك، وأنه الأحق بملك أبيه وجده، وسعي بدر الدين لؤلؤ للاستيلاء على البلاد، فصدقت حامية القلعة ذلك وسلمتها إلى "عماد الدين زنكي الثالث". ⁽²⁾

عندما علم بدر الدين لؤلؤ بذلك سیر عسكرياً لحصار عماد الدين في العمادية، وكان الوقت شتاءً والبرد شديد، وراسل "مظفر الدين كوكبوري" يذكره بالعهود والصلح الذي تم بين جميع الأمراء في سنة (607 هـ / 1210 م) لكن كوكبوري أصر على معاضدة صهره عماد الدين زنكي.

تمكن عماد الدين من هزيمة العسكر المحاصرين له، لقلّة خبرتهم العسكرية، ومحاصرتهم بالتلوج، وعدم معرفتهم بمسالك المنطقة، وعجز بدر الدين لؤلؤ عن إمدادهم بالعسكر لخوفه من مهاجمة كوكبوري الموصل، فعادوا إلى الموصل مكسورين. وراسل عماد الدين زنكي أهل قلاع الهكارية ⁽³⁾ و الزوّان ⁽⁴⁾، واستدعاهم إلى طاعته فسلموا القلاع إليه فاستولى عليها وملكها. ⁽⁵⁾

أرسل بدر الدين لؤلؤ إلى الملك الأشرف موسى بن العادل يطلب منه النجدة للوقوف في وجه أطماع "عماد الدين زنكي الثالث" الذي غادر العمادية إلى العقر، واعتدى على أعمال الموصل في الصحراء بالتهب والأذى، فأجابه الأشرف موسى إلى ما طلب، لأنه وجد في هذا التحالف فرصة سانحة للوقوف بوجه "ناصر الدين محمود" ⁽⁶⁾ صاحب آمد وحصن كيفا، وصاحب ماردين ⁽¹⁾ اللذان اتفقا مع

¹ - العمادية: وهي قلعة حصينة مكيّنة عظيمة في شمالي الموصل ومن أعمالها، عمرها عماد الدين زنكي بن آق سنقر في سنة 537 هـ، وكان قبلها حصناً للأكراد فلكبره خزبوه فأعاده زنكي وسماه باسمه نسبة إليه، وكان اسم الحصن الأول آثيب. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص149.

² - ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص21. ابن الأثير: الكامل، م10، ص383. ابن العديم: زبدة الحلب، ص463. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص121.

³ - الهكارية: بلدة وناحية وقرى فوق الموصل في بلد جزيرة ابن عمر يسكنها أكراد يقال لهم الهكارية. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج5، ص408.

⁴ - زوزان: كورة صغيرة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل، وأهلها وفيها طوائف من الأكراد. الحموي: معجم البلدان، ج3، ص158.

⁵ - ابن الأثير: الكامل، م10، ص384. ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص21. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص254.

⁶ - ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرئق توفي سنة 618 هـ / 1221 م. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص142.

"مظفر الدين كوكبوري" ، وقصدا بعض بلاد الأشرف ونهبوها ، فسير الأشرف عسكرياً بقيادة أحد أقوى قادة جيشه وهو " عزالدين أيبك الأشرفي " إلى نصيبين⁽²⁾ لنجدة بدر الدين لؤلؤ متى احتاجها .⁽³⁾ عندما علم بدر الدين لؤلؤ بمغادرة عماد الدين زنكي قلعة العمادية إلى قلعة العقر أرسل فرقة عسكرية لمنعه من التوغل داخل أراضي الموصل . إلا أن قادتها هاجموا قلعة "عقر الحميدية" في (محرم 616هـ / آذار 1219م) ، وألحقوا الهزيمة بجيش عماد الدين ، الذي فرّ هارباً إلى إربل .⁽⁴⁾ وبعد مراسلات بين الأشرف والخليفة "الناصر لدين الله" لإقرار الصلح بين الأطراف المتنازعة ، تحقق الصلح وهدأت الأحوال .

و بعد إقرار الصلح بين الأطراف المتنازعة ، توفي "نور الدين أرسلان شاه الثاني " ، وكان مريضاً ، فرتّب بدر الدين لؤلؤ بعده في الحكم أخاه " ناصر الدين محمود بن القاهرة " .

– ناصر الدين محمود بن القاهرة عز الدين مسعود الثاني (616-630هـ/1219-1233م).

تولى "ناصر الدين محمود" الموصل وكان عمره ثلاث سنوات ، فتولى بدر الدين لؤلؤ الوصاية عليه ، وأرسل للخليفة يطلب له الخلع والتقليد ، كما طلب من أمراء الأطراف الاعتراف بحكمه ، وطاف به في الموصل لكسب تأييد السكان وتهدئة نفوسهم .⁽⁵⁾

ويبدو أن بدر الدين لؤلؤ بدأ يشعر بأن أهل الموصل يشكون في نواياه تجاه البيت الزنكي ، وأنهم غير مطمئنين إلى سياسته تجاه أولاد " عزالدين مسعود الثاني " ، فأراد أن يخفف من نفقتهم ، فأخرج " ناصر الدين محمود" في موكب حافل ، وسار في ركابه ، مظهراً للناس إخلاصه في إبقاء الملك بيد آل زنكي ، فطابت نفوسهم ، وسكنت ثائرتهم .⁽⁶⁾

وبعد أن هدأت الأوضاع الداخلية ، التفت بدر الدين لؤلؤ إلى الشؤون الخارجية فسارع إلى طلب نجدة الملك الأشرف موسى ، الذي سار بنفسه إلى الموصل مع عسكر حلب ، لعدة أسباب منها :

¹ – صاحب ماردین: ناصر الدین أرتق بن أبلغازی بن ألبی بن تمرشاش بن أبلغازی بن أرتق. ابن الأثیر : الكامل ، م10، ص328. ابن واصل : مفرج الکروب ، م3، ص16.

² – نصیبین: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة فراسخ. الحموي : معجم البلدان ، م5، ص288.

³ – ابن الأثیر : الكامل ، م10، ص385. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، م256 . ابن العديم : زبدة الحلب ، ص464.

⁴ – ابن الأثیر : الكامل ، م10، ص385 . ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ، ص256. ابن واصل : مفرج الکروب، ج4، ص24-25.

⁵ – ابن الأثیر: الكامل ، م10، ص386 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص256. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص121. المقريزي: السلوك، ج1، ص321. ابن واصل: مفرج الکروب، ج4، ص25. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص136.

⁶ – ابن الأثیر : الكامل ، م10، ص386.

- تجدد أطماع "عماد الدين زنكي" ومظفر الدين كوكبوري " بملك الموصل لصغر سن ناصر الدين محمود .
- إرسال "لؤلؤ" نجدة عسكرية بقيادة ابنه الأكبر إلى الملك الأشرف موسى لمواجهة الفرنج في مصر .⁽¹⁾
- هزيمة "بدر الدين لؤلؤ" و "أبيك الأشرفي" أمام عسكر إربل .
- استيلاء "زنكي" على قلعة كواشي⁽²⁾ بناءً على طلب حاميتها ، أسوةً بما فعلته حامية العمادية.
- مراسلة "مظفر الدين كوكبوري" ملوك الأطراف لاستمالتهم ،فانضم إليه "عز الدين كيكاس" صاحب بلاد الروم ، و"ناصر الدين محمود" صاحب آمد وحصن كيفا ، وصاحب ماردين " ناصر الدين أرتق" ، واتفقوا كلهم على طاعة "كيكاس" وخطبوا له في بلادهم .⁽³⁾
- استمالة "مظفر الدين كوكبوري" جماعة من أمراء الأشرف ،فانضم إليه "ابن المشطوب" ومعه جماعة من الأكراد ، وعزالدين محمد بن بدر الحميدي ، الذين فارقوا الأشرف ، ونزلوا "بدنيسر" ⁽⁴⁾ ليجتمعوا مع صاحب آمد لمنع الأشرف من العبور إلى الموصل لنجدة "لؤلؤ" .
- بعد وفاة "كيكاس" سنة (616هـ / 1220م) عاد صاحب آمد "ناصر الدين محمود" لموافقة الأشرف ، وسلم إليه الأشرف حاني⁽⁵⁾ وجبل جور⁽⁶⁾ ، وضمن له أخذ دارا وتسليمها له .⁽⁷⁾
- فلم يبقَ إلا "ابن المشطوب" الذي هرب قاصداً سنجار ، فاتفق مع صاحبها "فروخ شاه" ⁽⁸⁾ فقصدا البقعاء من أرض الموصل ونهبوا فيها عدة قرى، ثم ساروا إلى تل يعفر قاصدين الموصل .

¹ - ابن الأثير: الكامل، م10، ص386-687 . ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص257.

² - كواشي: قلعة حصينة في الجبال التي في شرقي الموصل ليس إليها طريق إلا لرجل واحد ، وكانت قديماً تسمى أردمشت ، وكواشي اسم محدث لها . الحموي: معجم البلدان، م4، ص486.

³ - ابن الأثير: الكامل، م10، ص396، 381.

⁴ - دُنيسر: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان ،ولها اسم آخر يقال لها قوج حصار . الحموي: معجم البلدان، م2، ص478.

⁵ - حاني: اسم مدينة معروفة بديار بكر فيها معدن الحديد ومنها يجلب إلى سائر البلاد . الحموي: معجم البلدان، م2، ص208.

⁶ - جبل جور: اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية ،أهلها نصارى أرمن ، وفيها وقرى . الحموي: معجم البلدان، م2، ص102.

⁷ - ابن الأثير: الكامل، م10، ص388. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص259.

⁸ - فروخ شاه: عمر بن قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود بن زنكي . ابن الأثير: الكامل، م10، ص388. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص259. ابن الوردي: نعمة المختصر، ج2، ص139. ابن شداد: الأعلام الخطيرة، ج3، ص194. إلا أن ابن العديم ذكر هنا أن قطب الدين هو صاحب سنجار لكن الأصح هو ما ذكر في المتن . ابن العديم: زبدة الحلب، ص465.

حاصر " بدر الدين لؤلؤ " ثل يعفر وتمكن من أخذها سنة (617هـ/1220م) ، وسلمها للأشرف موسى ، وأخذ " ابن المشطوب " معه إلى الموصل وسلمه للأشرف الذي سجنه في حران (في جب) إلى أن توفي في سنة (619هـ/1222م).⁽¹⁾

وصل الأشرف إلى سنجار ، فتملكها وعوض صاحبها "قروخ شاه عمر" بالركة ، وبهذا انتهى حكم الأتابكة في سنجار بعد أن دام أربع وتسعين سنة .⁽²⁾

تابع الأشرف سيره إلى الموصل وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً ، وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين بالصلح ، على أن يتم تسليم القلاع جميعها عدا العمادية تبقى بيد عماد الدين زنكي ، لكن الأشرف ظل عازماً على قصد إربل ، حتى أشار عليه "ناصر الدين محمود" صاحب حصن كيفا و آمد – كان مرتبطاً مع مظفر الدين كوكبوري بصداقة خفية- أن يعقد الصلح ويعود معززاً مكرماً. فوافق الأشرف على الصلح على أن يأخذ " عماد الدين زنكي " رهينة حتى يرد الحصون كلها .

سلمت قلعتي العقير والشوش إلى نواب الأشرف موسى لكن قلاع الهكارية و الزوزان لم يستلم منها نواب "لؤلؤ" إلا " جَلْصُورَى " ⁽³⁾ لامتناع حاميتها عن تسليمها ،لذا بقي "عماد الدين زنكي " مع الأشرف ، وتمكن من التقرب من "شهاب الدين غازي" الذي استعطف له الأشرف ، فأطلقه ورد له قلعتي "الشوش" و "العقر" ⁽⁴⁾ . ⁽⁵⁾

في سنة (618هـ / 1221م) استعاد "بدرالدين لؤلؤ" قلاع الهكارية و الزوزان (سيرد تفصيل ذلك في بحث العلاقات مع الأيوبيين).

وبعد هذا تولى " بدر الدين لؤلؤ " العمادية وجاد على الذين سلموها بعطايا أوفر مما وعدهم بها . وبلغ ذلك سائر أصحاب الحصون فسلموها له ومما يدعو إلى الاستغراب أن الجيوش الوافرة العدد لم يتيسر لها أخذ هذه الحصون إلا أن " بدر الدين لؤلؤ " تمكن من استعادتها بدهائه وحنكته دون معارضة.

¹ - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص389. ابن العديم : زبدة الحلب ، ص465. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص139. ابن كثير) الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت 774هـ) البداية والنهاية ، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي ، هجر للطباعة والنشر ، الجيزة 1998م، ط1، ج17، ص99. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص125.

² - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص388-390. ابن العديم : زبدة الحلب ، ص465. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص139، 137.

³ - جَلْصُورَى : اسم قلعة في جبال الهكارية بأرض الموصل . الحموي : معجم البلدان ، م2، ص154.

⁴ - العقير : قلعة حصينة في جبال الموصل أهلها أكراد، وهي شرقي الموصل وتعرف ب (عقر الحميدية). الحموي : معجم البلدان ، م4، ص136. مادة عقر .

⁵ - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص388-390. ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص260. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص139.

المبحث الثاني : حكم بنو لؤلؤ (619-658 هـ/1220-1260 م):

أ- الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله.

ب وفاة "ناصر الدين محمود"⁽¹⁾ ابن الملك القاهر سنة (619هـ/1222م) انتهى حكم الأتابكة الزنكيين في الموصل ، واستقل بالحكم " نائب الأتابك"⁽²⁾ " بدر الدين لؤلؤ وسمى نفسه (الملك الرحيم) .⁽³⁾ وقضى على نفوذ الأتابكة في الموصل وطمس معالم إرثهم من مدارس ودور حديث وأربطة كما غرق وقتل بعض أفراد الأسرة الأتابكية .

غادر " عماد الدين زنكي" قلعة الشوش سنة (619هـ/1220م) قاصداً صاحب أذربيجان وأران" مظفر الدين أزيك بن البهلوان " ليكون في خدمته ، فأقطعه" مظفر الدين أزيك" إقطاعاً في بلاده وانضم إليه "عماد الدين زنكي" .⁽⁴⁾

إن أسباب مغادرة "عماد الدين زنكي" لقلعه وتركها هي:

- استيلاء "بدر الدين لؤلؤ" على ملك الموصل ويذكر هنا ابن واصل : أن "بدر الدين لؤلؤ" استقل بحكم الموصل سنة (619هـ/1220م) بعد وفاة ناصر الدين محمود .⁽⁵⁾
- معاداة " بدر الدين لؤلؤ" لعماد الدين زنكي لأنه لم يرغب بوجود منافس له على حكم الموصل.
- انتماء "بدر الدين لؤلؤ" إلى الملك الأشرف الذي دافع عنه في عدة مواقع سبق ذكرها.
- بعد مغادرة "عماد الدين زنكي" إلى أذربيجان وجد "بدر الدين لؤلؤ" الفرصة سانحة لأخذ قلعة الشوش، فسار إليها وحاصرها ،عندما طال حصار القلعة ولم ينجدهم أحد سلم نواب "عماد الدين زنكي" القلعة إلى "بدر الدين لؤلؤ" ، وبذل لهم مالاً وإقطاعاً لما تسلمها ، ثم عاد إلى الموصل .⁽⁶⁾

¹ - ناصر الدين محمود أرسلان شاه بن الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني بن نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر. أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص131.

² - نائب الأتابك : (القائم مقام السلطان) منصب أنشأه زنكي بعد دخوله الموصل عام 521هـ /1127م ، وكانت له صلاحيات واسعة ، وعليه أن يدير شؤون الموصل وبقية أجزاء الإمارة نيابة عن زنكي الذي انهمك بالحروب . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج5، ص453. رشاد، عبد المنعم: موسوعة الموصل ، م2، ص180.

³ - أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص131. ابن واصل : مفرج الكروب ج4، ص114. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص144. النويري: نهاية الأرب ، ص365. ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج22، ص271 . وورد في (الذيل على الروضتين) لأبو شامة أن بدر الدين لؤلؤ استقل بالحكم في سنة 630هـ ، ابن كثير: البداية والنهاية ، ج17، ص203. ولكن الأصح هو ما ذكر في المتن.

⁴ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج4، ص115. ابن الأثير : الكامل ، م10، ص433 .

⁵ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج4، ص114. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص144. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص131.

⁶ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج4، ص115. ابن الأثير: الكامل ، م10، ص433.

عندما وقع الخلاف بين الملك المعظم - صاحب دمشق - وأخويه الملك الأشرف والملك الكامل لترحيله عن حماة سنة (620هـ / 1223م) ⁽¹⁾. اتفق الملك المعظم مع أخيه الملك المظفر "شهاب الدين" - صاحب خلاط - على عصيان الملك الأشرف ومحاربتة على أن يسير المعظم إلى أراضي الأشرف ، وأرسل إلى "مظفر الدين كوكبوري" - صاحب إربل - في سنة (621هـ / 1224م) يأمره بمهاجمة "بدر الدين لؤلؤ" - صاحب الموصل لانتمائه إلى الملك الأشرف موسى من جهة ولمنعه من قصد خلاط من جهة ثانية .

سارع "مظفر الدين كوكبوري" لموافقة المعظم على طلبه للأسباب التالية:

- كان مظفر الدين كوكبوري يعادي بدر الدين لؤلؤ ويبغضه لقلعه البيت الأتابكي واستيلائه على ملك ولدي الملك القاهر "عز الدين مسعود الثاني" وهما ابنا بنت مظفر الدين كوكبوري.
- أخذه من زوج ابنته الأخرى "عماد الدين زنكي" بلاده .
- سیر "بدر الدين لؤلؤ" أكثر عساكر الموصل إلى الملك الأشرف نجدة له على أخيه الملك المعظم .
- كان الغلاء شديداً في البلاد جميعها .
- وجد "مظفر الدين في هذه الأسباب فرصة ذهبية لاستعادة ملك أحفاده والانتقام من "بدر الدين لؤلؤ" لذلك جمع العساكر وسار إلى الموصل وحاصرها عشرة أيام لكن دون جدوى ، مما اضطره إلى العودة إلى بلاده .
- أما أسباب فشل حصار "مظفر الدين كوكبوري" للموصل فهي :
- قيام "بدر الدين لؤلؤ" بتحسين الموصل بشكل جيد ، حيث استخدم عدداً كبيراً من الجند على الأسوار ومدّهم بآلات الحرب والذخائر .
- عودة الملك المعظم إلى دمشق لأن أخاه الملك الكامل - صاحب مصر - أرسل إليه يتهدده بالاستيلاء على دمشق إن غادرها المعظم .
- لم يلتفت الملك الأشرف إلى الموصل وسار إلى خلاط واستولى عليها فلم يتحقق للملك المعظم الهدف الذي أرادته من حصار الموصل .⁽²⁾

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج4، ص128. أبو الفداء: المختصر ، ج3، ص132. ابن العديم :زبدة الحلب، ص468. زكار: الموسوعة الشامية، ج20، ص257.

² - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج4، ص139-140. أبو الفداء: المختصر ، ج3، ص134. ابن الوردي: تنمة المختصر ، ج2، ص145-146. ابن الأثير: الكامل، م10، ص441-442. ابن العديم:زبدة الحلب، ص468-469. ابن كثير : البداية والنهاية ، ج17، ص116. ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص106-107. ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج22، ص207.

عاود "مظفر الدين كوكبوري" قصد الموصل سنة (623هـ/1226م) بعد أن اتفق مع "جلال الدين" خوارزمشاه ، والملك المعظم - صاحب دمشق - ، و صاحب آمد وصاحب ماردين ، على قصد البلاد التي بيد الملك الأشرف موسى .

لكن هذه المحاولة أيضاً لم يكتب لها النجاح ، بسبب:

- عودة جلال الدين خوارزمشاه عن قصد خلاط ، لأنه علم بأن نائبه "بلاق حاجب" ببلاد "كرمان" قد عصى عليه فعاد إلى كرمان بعد أن خرب عسكره بعض بلدها . مما أدى إلى فسخ التحالف ضد الأشرف.(1)

- استنجد " بدر الدين لؤلؤ" بالملك الأشرف الذي كان في الرقة ، فسار منها إلى دنيسر ، وخرب بلد ماردين ، ثم سار الأشرف إلى دمشق طالباً للصالح وأقام عند الملك المعظم.

- يذكر ابن نظيف : أن بدر الدين لؤلؤ قد أرسل وزيره " الكمال بن مهاجر " إلى الملك الأشرف والملك المعظم وحملهم النقود والهدايا والأقمشة وغيرها ، ويبدو أن صاحب الموصل بادر إلى استرضاء المعظم أيضاً .(2)

فلم يتمكن صاحب إربل من الاستمرار في قتال الموصل ، وعاد إلى إربل بعد أن خرب بعض أعمال الموصل .(3)

يمكن القول إن " مظفر الدين كوكبوري " صاحب إربل حاول قدر استطاعته استعادة ملك أحفاده وصهره " عماد الدين زنكي" من يد " بدر الدين لؤلؤ" إلا أن محاولاته جميعاً باءت بالفشل ولم يتمكن من تحصيل نتيجة عملية على أرض الواقع ، وبوفاته (سنة 630هـ/ 1232م)⁽⁴⁾ دون أن يترك له خلفاً لحكمه زال الخطر الأكبر الذي كان يتهدد استقرار حكم " بدر الدين لؤلؤ" في الموصل . وبدأت سياسة " بدر الدين لؤلؤ " تعتمد على توسيع حدود ملكه ونفوذه في الجزيرة ففي سنة

¹ - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص462-463. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج4، ص188-189. ويذكر أبو شامة في الذيل على الروضتين أن سبب رجوع الخوارزمي عن حصار خلاط هو طلب الملك المعظم منه ذلك لما وصل إليه أخوه الملك الأشرف . زكار : الموسوعة الشامية ، ج20، ص284.

² - ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص133 .

³ - أبو الفداء: المختصر، ج3، ص136. ابن الوردي: تنمة المختصر ، ج2، ص147. ابن العديم: زبدة الحلب، 470-471. ابن كثير : البداية والنهاية، ج17، ص147. زكار : الموسوعة الشامية، ج20، ص257. ابن نظيف : التاريخ المنصوري ، ص125-127. ابن الجوزي: مرآة الزمان ، ج22، ص279.

⁴ - زكار : الموسوعة الشامية ، ج20، ص315. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص159. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص153. المقرئبي: السلوك، ج1، ص368. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص280.

(635هـ/1237م) عزم بدر الدين لؤلؤ على قصد سنجان للاستيلاء عليها بعد انقلاب الخوارزمية على الملك الصالح نجم الدين أيوب إلا أن مساعيه باءت بالفشل (سيرد ذكر ذلك في العلاقات مع الأيوبيين). تمكن "بدر الدين لؤلؤ" من الاستيلاء على سنجان سنة (637هـ/1239م) بعد أن استعاض الملك الصالح "نجم الدين أيوب" عن سنجان والرقعة وعانة⁽¹⁾ بدمشق التي كانت للملك الجواد "مظفر الدين يونس بن مودود"⁽²⁾، فسار "بدر الدين لؤلؤ" إلى سنجان وحاصرها وتمكن من الاستيلاء عليها مستغلاً الاختلاف بين الملك الصالح والملك الجواد من جهة وغياب الملك الجواد عن سنجان من جهة ثانية .⁽³⁾

- كان السبب في أخذ سنجان من الملك الجواد كما ذكر ابن شداد في الأعلاق الخطيرة :
- التجاء الملك الجواد إلى الخوارزمية والتقوي بهم فخاف "بدر الدين لؤلؤ" من أن يتفق الملك الجواد مع الخوارزمية ويقصد الموصل .
- سماح الخليفة المستنصر بالله لبدر الدين لؤلؤ بأخذ سنجان بعد أن أوحى له الأخير أن الملك الجواد عازم على اعطائها للخوارزميين فأذن له .
- اتباع الملك الجواد الحيلة ليتمكن من القضاء على "بدر الدين لؤلؤ" ، لكن الأخير علم بما يحضر له فسبق الملك الجواد إلى الغدر به.⁽⁴⁾
- اتفاق بد الدين لؤلؤ مع رئيس بسنجان يقال له "جنقر" ، وبذل له الأموال ليساعده على أخذ سنجان .
- وبقيت سنجان في يد "بدر الدين لؤلؤ" صاحب الموصل وتولاها من بعده ولده الملك الصالح "ركن الدين اسماعيل" مع الموصل .⁽¹⁾

¹ - عانة : بلد مشهور بين الرقة وهيت ويعد من أعمال الجزيرة ، وهي مشرفة على الفرات قرب حديثة النورة وبها قلعة حصينة . الحموي : معجم البلدان ، 4م، ص72.

² - الملك الجواد مظفر الدين يونس بن الملك المعظم شمس الدين مودود ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب . ابن العديم : زبدة الحلب ، ص498.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، ص499. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج5، ص253. ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص167، 169. ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص117. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج22، ص367. ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص104. أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص166.

⁴ - كانت الحيلة التي اتبعها الملك الجواد أن أبلغ "بدر الدين لؤلؤ" أن لديه بنتاً ويريد تزويجها من ابن "لؤلؤ" ، ولكن بدر الدين لؤلؤ علم أنه ليس للجواد بنتاً ورغم ذلك أجابه لما سأل وأخطب إليه وحمل له مهراً ، فقال له الجواد أنه عازم على التوجه إلى عانة ، فليأت إلى سنجان ويدخل على زوجته عندي ، فأجاب بدر الدين لؤلؤ إلى ذلك وجهز ابنه ، لكن الملك الجواد والي المدينة ووالي القلعة كانوا قد اتفقوا على القبض على لؤلؤ حالما يدخل القلعة ، أما "بدر الدين لؤلؤ" فقد اغتتم فرصة فتح باب القلعة فهجم عليها مع مجموعة من عسكره وقبضوا على واليها وملكوها . ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، ج3، ص204-205.

بعد هزيمة الخوارزمية أمام العسكر الحلي سنة (638هـ / 1240م) قصد "بدر الدين لؤلؤ" نصيبين و دارا- وكانتا بيد الخوارزميين - وفيها الملك المعظم محبوس ،فحاصرها ونصب عليها المنجنيق ، واستولى عليها و ولى فيها ، و خلص من بهما من الأسرى ومنهم الملك المعظم "توران شاه بن صلاح الدين" (2) فأخذه إلى الموصل وقدم له مراكب وثياباً وتحفاً كثيرة وبعث به إلى العسكر الحلي. (3) لكن نصيبين لم تستمر لفترة طويلة بيد " بدر الدين لؤلؤ" ففي سنة (639هـ/1241م) سار الخوارزمية قاصدين الموصل ،فأظهر لهم " بدر الدين لؤلؤ" الموافقة والمسالمة وسلم إليهم نصيبين. (4)

المبحث الثالث: المغول وبدر الدين لؤلؤ:

"بدر الدين لؤلؤ" رجل بصير بالأمر يعرف كيف يتخلص من أعدائه، ولما زحف المغول على الشرق شارك في مقاومتهم ، ودافع عن إربل سنة (617هـ/1220م) مع مظفر الدين كوكبوري ، وكان يكاتب الخليفة العباسي بأخبار المغول ، ويحذره عاقبة الأمر ويراقب تحركاتهم بحذر وتيقظ ويسعى في صدهم كلما استتجد به أحد . (5)

ومع أن خطر التتار كان واضحاً للجميع ،و يستهدف الجميع ، فإن ملوك وأمراء الجزيرة قل من انتبه منهم لهذا الخطر قبل أن يُحذق به ، ربما بسبب عدم وجود تصور شامل للصراع القادم مع التتار ،لم يتمكنوا من التعامل العسكري ،أو السياسي الصحيح معهم ، ففي سنة (631هـ /1234م) وصلت رسل التتار إلى إربل والموصل يطلبون شراء مواد تنقصهم ، فسمحوا لهم واشتروا جمالاً و أقمشة ، وأقيم لهم الراتب في الموصل ،بإذن الخليفة لهم في ذلك . (6)

¹ - ابن شداد الأعلاق الخطيرة ، ج3، ص204-206.

² - الملك المعظم فخر الدين تورانشاه بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي ،أبو الفاجر، من أمراء الأيوبيين ورابع من تلقب بالملك المعظم منهم ، لم يول السلطنة . ولد بمصر سنة (577هـ/1181م) وكان كبير البيت الأيوبي و آخر من بقي من أبناء صلاح الدين . أسره الخوارزمية بقرب الفرات ، بعد أن أئخن بالجراح ، وانهزم عسكره . ولما استولى التتار على حلب ، اعتصم بقلعتها وحماها ، ثم نزل منها بالأمان ، وتوفي على الأثر سنة (658هـ/1260م)، ودفن بدهليز داره بحلب .المقريزي : السلوك ، ج1، ص412.

³ - ابن شداد :الأعلاق الخطيرة ، ج3، ص143 ، 136. ابن واصل :مفرج الكروب ، ج5، ص294-295. ابن العديم: زبدة الحلب، ص508. ابن الوردي : تنمية المختصر، ج2، ص170-171. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص168.

⁴ - ابن واصل :مفرج الكروب، ج5، ص304-305. ابن العديم: زبدة الحلب ، ص509. المقريزي: السلوك، ج1، ص412. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ، ج3، ص136.

⁵ - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص412.

⁶ - ابن نظيف : التاريخ المنصوري، ص259.

إن التتار ، وإن دفعوا ثمن ما أخذوه ، فالأموال التي دفعوها هي - بالتأكيد - منهوبة من المسلمين والكل يعرف ذلك، والمواد التي اشتروها سيستعينون بها ، وإن كان بشكل غير مباشر ، على حرب المسلمين، وزادوا عليها في الموصل بتكريمهم وتقديم الراتب (أي المساعدات والضيافات)، فهل هي مكافأتهم على الفظائع التي ارتكبوها بحق المسلمين؟ وسيرتكبونها لاحقاً بحق من أضافهم في إربل والموصل ، وبحق الخليفة نفسه ، الذي تم كل ذلك بإذنه.

بعد وفاة الملك الأشرف موسى سنة (635هـ/1237م) ضعف موقف "بدر الدين لؤلؤ" ، ولم يبق من يعول على قوته ، فالبلاذ في ضعف وتدهور وأمرؤها في نزاع وتخاذل ، وليس فيهم من يقدر على اعانتته ، وصار يميل إلى المغول يصانهم ويداريهم . كما استمر على اتصال بالخليفة العباسي يعلمه بأمرهم بواسطة " تاج الدين أبي المعالي محمد بن الصلايا" ⁽¹⁾ ومع هذا يقدم للمغول ما يطلبونه من ذخائر وعتاد .

ففي سنة (634هـ/1236م) حاصر التتار إربل - وفيها نائب الخليفة- ونصبوا المنجنيق عليها ، وقصدوا جهة من السور فهدموا منه قطعة كبيرة ودخلوا البلد عنوة وقهراً ، فتحصن أهله ومعظم العسكر بالقلعة وقاتلوهم أشد قتال ⁽²⁾ ، أما " بدر الدين لؤلؤ" فأمدّ التتار بما يحتاجون إليه من ميرة وآلة وغيرها . ⁽³⁾ لكن التتار رحلوا راجعين إلى بلادهم لما بلغهم وصول عساكر الخليفة لنجدة إربل. وفي سنة (642هـ/1244م) عندما فرض التتار مبلغ على بعض البلاد مقابل أن يكف عنها التتار، شارك بدر الدين لؤلؤ في جبايتها إرضاءً لهم ودفعاً لشرهم ، فأرسل القاضي " زكي الدين بن محيي الدين أبي الفضل" إلى الشام يعلمهم بأن يجمعوا المال للمغول، ⁽⁴⁾ وكان لهذه الحادثة دلالات هامة منها :

- اعتراف "بدر الدين لؤلؤ" والمجاهرة بأنه من أنصار التتار على الملأ.

¹ - تاج الدين محمد بن نصر بن يحيى بن علي بن الصلايا، من رجال الدولة العباسية عقلاً و رأياً و تدبيراً ،أديب ، وشاعر، ولي أعمال إربل سنة (635هـ/1227م) ، فلما ملك المغول بغداد نزل إليهم ، وكان بينه وبين " بدر الدين لؤلؤ" صاحب الموصل ما يكون بين الملوك المتجاورين من المنافسة ، فأغرامهم بقتله سنة(656هـ/1258م) . ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ،ص97.

² - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ،ص89.العسجد المسبوك،ص478.ابن كثير :البداية والنهاية ،ج17،ص228.ابن الجوزي :مرآة الزمان ،ج22،ص340.

³ - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ،ص89.العسجد المسبوك،ص478.

⁴ - ابن الجوزي : مرآة الزمان ،ج22،ص381.المقريزي: السلوك ،ج1،ص419. ابن دقماق : نزهة الأئام ،ص155. وذكرت المصادر أن على الغني عشرة دراهم ،وعلى المتوسط الحال خمسة دراهم ،وعلى الفقير درهمان. و ذكر المقريزي على الفقير درهم واحد .

- قراءة كتاب لؤلؤ على الناس ،والمباشرة بجمع المال يدل على انعدام سيطرة الأيوبيين في الشام وإلا لماذا لم يوجه لؤلؤ الكتاب إلى الناصر يوسف الثاني - صاحب الشام ليقوم عماله بجمع المال ، كما أن المباشرة بالجمع دون اعتراض يدل على حالة الفوضى والرعب من التتار .
 - كان من جملة خطط التتار المطبقة على البلاد قبل فتحها إضعاف أهلها بنقص الأموال ، وتكون نفقات حملات التتار على تلك البلاد من أموال تلك الشعوب
- اعتمدت سياسة "بدر الدين لؤلؤ" في بداية حكمه على مداراة الأطراف جميعاً، وإيقاع الفتن بينهم ، ليشغل بعضهم ببعض . لكن مع قدوم التتار وتحالفه معهم عمد إلى تغيير سياسته ، لتوسيع منطقة حكمه ونفوذه فانخرط في الصراع العسكري للقوى المحلية في الجزيرة.
- إن محاولة الملك "الناصر الثاني يوسف" صاحب حلب لحل الخلاف بين أمراء الجزيرة ، والتدخل بينهم لفرض السلم بهدف استمالتهم لتشكيل حلف بوجه التتار ، عندما أقطع نصيبين ثلث لصاحب الموصل " بدر الدين لؤلؤ" ، وثلث لصاحب ماردين الملك السعيد" نجم الدين ايلغازي" ، وثلث للمعظم توران شاه صاحب حصن كيفا⁽¹⁾ . باءت بالفشل بسبب أطماع أمراء الجزيرة للتوسع كل على حساب الآخر ، ففي سنة (643هـ/1248م) قام صاحب ماردين باحتلال كامل نصيبين مستغلاً هجمات التتار، فاعترض " بدر الدين لؤلؤ" صاحب الموصل ، وحرك جيشه نحو نصيبين، لكن وصول الشيخ " نجم الدين الباذرائي " رسول الخليفة المستعصم سنة (645هـ/1247م) ، وسعيه للصلح ، أعاد الأمور بينهم على أساس الاتفاق القديم.
- وفي سنة (646هـ/1248م) ،انتقم "بدر الدين لؤلؤ" من صاحب ماردين ، واحتل كامل نصيبين ، فاستجد صاحب ماردين بالناصر يوسف الثاني ، فأرسل له عسكرياً من حلب بقيادة الملك المعظم واجتمع بصاحب ماردين ، فهزموا "بدر الدين لؤلؤ" وتسلموا نصيبين وولي فيها من قبل الملك الناصر الثاني يوسف ، وأقطع من ضياعها سبعين قرية لصاحب ماردين، وتسلم العسكر الحلبي دارا وخربوها بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، ثم أخذوا قرقيسيا وعادوا إلى حلب .⁽²⁾

¹ - المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوبابن الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سف الدين أبي بكر بن أيوب . أبو الفداء : المختصر، ج3، ص181.

² - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ق1، ص137-138. أبو الفداء: المختصر ، ج3، ص181. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص182.

انتهى التتار من غارات الاستطلاع في الجزيرة، ومن جمع المعلومات عن أرضها وشعبها وملوكها ، وكانوا قد فرغوا من أمر بغداد ، فوجهوا جيوشهم بنقلها صوب الجزيرة وعلى رأسهم قائد العمليات في المنطقة "هولاكو خان" .

وفي سنة (655 هـ/1257م) أمر هولاكو جيشه المرابط في بلاد الروم أن يسير عن طريق إربل - الموصل ، ويعبر جسر الموصل ويرابط في الجانب الغربي من بغداد . ليشدد عليها الحصار من كل جهة ، ولما حاصرت جيوش المغول بغداد أرسل "بدر الدين لؤلؤ" ابنه الملك الصالح إسماعيل في ألف فارس نجدةً لهولاكو ومعه هدايا وذخائر وعتاد⁽¹⁾، ولكن هذه الامدادات وصلت متأخرة ، فلم يقابله هولاكو بمقابلة حسنة ، وقال له : " إنكم انتظرتُم ريثما تقفون على من يكون المنتصر فتتبعونه ، فلو انتصر الخليفة لتبعتموه دوننا " .⁽²⁾

وأمر هولاكو الملك الصالح إسماعيل أن يحمل رؤوس الدويدار الصغير - صهر بدر الدين لؤلؤ - ، وابن الدويدار الكبير - حفيد بدر الدين لؤلؤ - وسليمان شاه - وكان من أخلص أصدقاء بدر الدين لؤلؤ - إلى الموصل ويعلقها على ظاهر سور الموصل ، ليرهب "بدر الدين لؤلؤ" وأهل الموصل .⁽³⁾ أدرك " بدر الدين لؤلؤ" أن هولاكو لازال يشك بصدقه وإخلاصه ، فانطلق بنفسه إلى جبال همذان وحمل ما في خزانته من الأموال والتحف ، وقدمها لهولاكو في سنة (656 هـ/1258م) فأحسن هولاكو قبوله لكبر سنه ورق له ، و وضع بيده في أذنيه حلقتين كانتا معه فيهما درتين ثمينتين.⁽⁴⁾

ولما عاد بدر الدين لؤلؤ من عند هولاكو ، وقد أُرعبه ما رآه من قوة جيشه وبطشه مرض وتوفي سنة (657 هـ/1258م) وعمره نحو ثمانين سنة ، خلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل ، أما ابنه علاء الدين فقد تولى سنجار وابنه سيف الدين تولى جزيرة ابن عمر .⁽⁵⁾ وقد أقر هولاكو هذه التقسيمات.

¹ - ابن الفوطي :الحوادث الجامعة ،ص 231-232 .العسجد المسبوك ،ص630.ابن كثير :البداية والنهاية ، ج 17، ص 356 .العريني : المغول ،ص217 . الصياد : المغول في التاريخ ،ص261.

² - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،ص314.

³ - ابن الفوطي :الحوادث الجامعة ،ص235. العريني : المغول ،ص223.الصياد: المغول في التاريخ ،ص262.

⁴ - ابن الفوطي :الحوادث الجامعة ،ص242.ابن الوردي : تنمة المختصر ،ج2،ص201.الصياد: المغول في التاريخ ،ص278.ابن العبري :تاريخ مختصر الدول،

⁵ - ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ،ص315.ابن الفوطي :الحوادث الجامعة ،ص242.ابن الوردي : تنمة المختصر ،ج2،ص201.أبو الفداء: المختصر ،ج3،ص198.المقريزي: السلوك ،ج1،ص510.

أ- الملك الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ (657-660هـ/1258-1261م): على الرغم من مساعدة الملك الصالح للمغول في احتلال جزيرة ابن عمر و آمد و دُنيسر ونصيبين وحرّان⁽¹⁾ . إلا أن علاقة أولاد بدر الدين لؤلؤ بالمغول بدأت تتأرجح وزادها تغيراً انتصار المماليك في معركة عين جالوت وطرد المغول من بلاد الشام .

فتطلع أولاد بدر الدين لؤلؤ للالتحاق بالشام لعلمهم يعيدون الكرة على المغول ويخلصون من شرهم فالتحق علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ- صاحب سنجار - بالملك قطز في الشام ،⁽²⁾ فولاه مدينة حلب ، أملاً أن يكون على اتصال بأخيه الملك الصالح صاحب الموصل ، ويطلعه على أخبار المغول ، ويحثه على الالتحاق به .

وفي سنة (659هـ/1260م) تبعه أخوه سيف الدين اسحاق - صاحب جزيرة ابن عمر - . أما علاء الدين فإنه أساء السيرة في حلب ، وصار يأخذ أموال الناس ، فقبضوا عليه وصادروا أمواله وسجنوه سنة (658هـ/1259م).⁽³⁾

وقد عجل في موافقة الملك الصالح وقوع إحدى رسائل أخيه إليه بيد المغول الذين كانوا يخلقون له ذنباً للتخلص منه كما أن الرأي السنة في الموصل ميلاً إلى الخروج عن طاعة المغول ، ولهذا قاوم أهل الموصل الحصار الذي فرض عليهم مقاومة ضارية استمرت اثني عشر شهراً.⁽⁴⁾

على الرغم من أن المساعدات التي تعهد بيبرس بإرسالها لم تصل إلى الموصل ، وبذلك واجهت الموصل مصيرها وحيدة بينما كانت جيوش المغول تزداد قوة وعدداً ، والذي فت في عضد أهل الموصل هو انعدام الأقوات في المدينة ، ولما رأى القائد المغولي "سندا غونوين" أن القتال لا يجدي نفعاً أخذ بمراسلة الصالح باذلاً له ولأهل المدينة الوعود بالحفاظ على حياتهم إذا استسلموا للمغول ، و يصف اليونيني عملية تسليم البلاد للمغول بقوله: ((.فجمع الصالح أهل البلد والأجناد وشاورهم فأشاروا عليه بالخروج فقال إنكم تقتلون لا محالة وأقتل بعدكم فصمموا على خروجه))⁽⁵⁾ .

¹ - الصياد : تاريخ المغول ، ص 292.

² - المقرئزي : السلوك، ج1، ص510.

³ - أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص207-209. المقرئزي : السلوك ، ج1، ص522.

⁴ . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج1، ص452. ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص244. رشيد : جامع التواريخ تاريخ المغول و الإيلخانيون

، ترجمة محمد صادق نشأت محمد موسى هنداوي ، فؤاد عبد المعطي ، الصياد ، القاهرة ، 1960م، ج2، ق1، ص327-330

⁵ - اليونيني: مرآة الزمان ، ج1، ص494-495.

خرج الصالح في سنة (660هـ / 1261م) ، فقام المغول باحتلال البلاد وقتلوا سكانها بحد السيف دون مراعاة للعهود التي قطعوها على أنفسهم ، وأسروا بعض أرباب الحرف والصنائع بحيث لم يبقَ أحد في الموصل ، فلما رحل المغول عن المدينة خرج ما يقارب من ألف شخص من بين الجبال والمغارات وتجمعوا .⁽¹⁾

أما مصير الملك الصالح إسماعيل فقد حمل إلى مراغة في أذربيجان فأمر "هولاكو" بأن يدخل جسمه في الدهن (الليث) ويربط عليه باللبد والحبال بإحكام ، ويلقوا به في شمس الصيف القانط ، حتى فاضت روحه بعد شهر من ذلك البلاء ، ثم بعثوا ابنه - علاء الملك - الذي كان في الثالثة من عمره إلى الموصل ليقيدوه نصفين على ساحل دجلة .⁽²⁾

المبحث الرابع : العلاقات الخارجية لإمارة الموصل .

أ- علاقات الموصل مع الأيوبيين وباقي القوى في المنطقة.

كان محور علاقات الزنكيين والظاهر يرتكز إلى علاقة كل منهما مع الملك العادل ، فقد كانت حلب تتحالف مع الموصل وفقاً لما تقتضي المصلحة وتبعاً لعلاقة كل منهما مع الملك العادل . فكان هدف حلب من التحالف مع الموصل هو إحداث نوع من توازن القوى مع العادل من جهة ودفعه للانشغال بحماية أملاكه في الجزيرة من جهة ثانية .

أما هدف الموصل من التحالف مع حلب فهو الحد من نفوذ العادل وتوسعه في الجزيرة . كانت العلاقة مع الموصل في بداية عهد الظاهر عدائية ، لأن الظاهر انضم للملك العادل أسوة ببقية أمراء البيت الأيوبي لاسترجاع الأملاك التي كان ينوي الزنكيون استردادها من الأيوبيين عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي (589 هـ / 1193م) ، مستغلين انشغال أمراء البيت الأيوبي بقضية وراثة ملك صلاح الدين الأيوبي

فقد قام عزالدين مسعود الأول - أمير الموصل _ (576- 589 هـ / 1189- 1193م) بالاتفاق مع الأمير الأرتقي حسام الدين يولق أرسلان بن أيلغازي - أمير ماردين، و بكتمر أمير أخلاط بالاستيلاء على الأملاك الأيوبية في الجزيرة .⁽³⁾

¹ - رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج2، ق1، ص330

² - رشيد الدين : جامع التواريخ ، ج2، ق1، ص330.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، 601 . ابن واصل : مفرج الكروب ، 3 / 17-18 . ابن الأثير : الباهر ، 185 ، الكامل : 9 / 227 .

وقد ذكر " ابن الأثير - المؤيد للأسرة الزنكية - أن عزالدين مسعود هو الذي دعا وتزعم الحلف المناهض للأيوبيين بسبب موقفه المعادي لهم .⁽¹⁾

أما "ابن واصل" فقد أورد أن أمير أخلاط هو الذي دعا إلى الحلف لأنه كان يكره صلاح الدين كثيراً .⁽²⁾

وقد شارك في جيش العادل كل الأمراء الأيوبيين في الشام ، ومن بينهم "الظاهر" ملك حلب .⁽³⁾ إلا أن الخلاف انتهى بسبب مرض عزالدين مسعود الأول وعودته إلى الموصل ، وتم الصلح بين عماد الدين زنكي - أمير سنجار - والعادل الذي حقق السيطرة على الخابور وسروج والرقعة بينما لم يحقق الطرف الآخر شيئاً.⁽⁴⁾

ثم عاد الظاهر لنجدة العادل سنة (594 هـ / 1197 م) ضد نور الدين لأنه استولى على " نصيبين" عقب وفاة عماد الدين زنكي .⁽⁵⁾

تسبب موت العزيز - صاحب مصر - في (محرم سنة 595 هـ / تشرين الثاني ، 1198م) بتغير خارطة التحالفات السياسية ، فتمثلت سياسة نور الدين تجاه الأيوبيين في هذه المرحلة بالمحافظة على علاقة طيبة مع أبناء صلاح الدين للحد من نفوذ العادل في الجزيرة من جهة ولكونهم جيرانه في حلب ومنفذ الموصل على البحر المتوسط من جهة ثانية لذلك ساند نور الدين الملك الظاهر غازي - صاحب حلب - في محاولاته للسيطرة على دمشق بمهاجمة أملاك العادل.

عندما اتفق أمراء مصر على إقامة الملك الأفضل أتابكاً للمنصور بن الملك العزيز وجد الملك الظاهر - صاحب حلب- الفرصة سانحة للسيطرة على دمشق مستغلاً انشغال الملك العادل بحصار ماردين فأرسل الظاهر لأخيه الأفضل يحثه على السير إلى دمشق للسيطرة عليها الذي بدوره أرسل يستدعي العسكر المصري المرافق للعادل في مهمته في حصار ماردين .⁽⁶⁾

¹ - ابن الأثير : الكامل : 227/9 .

² -ابن واصل : مفرج الكروب ، 16/3 .

³ - ابن واصل : مفرج الكروب ، 3/ 17- 18 . الدواداري : كنز الدرر ، 7/ 127 .

⁴ - ابن الأثير : الباهر ، 186 . ابن الأثير : الكامل : 9/ 227- 228 . ابن واصل : مفرج الكروب ، 3/ 19- 20 . ابن العديم : زبدة الحلب ، 601 . العماد : البستان الجامع ، 152 .

⁵ - ابن العديم : زبدة الحلب ، 609 . ابن واصل : مفرج الكروب ، 3/ 74- 80 .

⁶ - ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج2، ص 114 . ابن العديم : زبدة الحلب ، 438. ابن الأثير : الباهر ، ص351 . الكامل:م10،ص260.المقرئزي: السلوك ،ج1،ص257-259.أبو الفداء: المختصر،ج3،ص95.

وعمد إلى إقامة تحالف مع نور الدين أرسلان شاه الأول - صاحب الموصل - واتفق معه على مساعدة ماردين ومنع العادل وابنه الكامل محمد من السيطرة عليها واشغالهما كي لا يتمكنوا من إيجاد دمشق ويتمكن الأفضل والظاهر من الاستيلاء عليها مقابل إقطاع نور الدين حران والرها وسروج والرقّة.⁽¹⁾

فسارع نور الدين لمكاتبة أبناء عمه صاحب سنجار - قطب الدين محمد - وصاحب جزيرة ابن عمر - معز الدين سنجر شاه - يدعوهم للعمل معاً ضد الأيوبيين في الجزيرة والواقع أن هؤلاء الأمراء كانوا يخشون أن يغلبهم العادل على أمرهم ، ويتمكن من بلادهم بعدما رأوا قواته تجوب المنطقة فأجابوه لطلبه ، فتحرك الأفضل إلى دمشق وتأهب آل زنكي في الجزيرة لمساعدة الظاهر والأفضل .

سار نور الدين مع عسكره في (شعبان ، 595هـ / حزيران ، 1199 م) ، فنزل على دنيسر حيث وافته قوات صاحب سنجار وصاحب جزيرة ابن عمر واتجهوا إلى ماردين بعد مغادرة الملك العادل إلى دمشق مع بعض قواته لقطع الطريق على الأفضل ، تاركاً ابنه الكامل محمد على حصار ماردين .⁽²⁾ كان أهل ماردين قد أجهدهم الحصار و أوشكوا على التسليم ، لولا وصول القوات الزنكية ، فقويت نفوسهم ، وامتنعوا عن الدخول في الصلح . واشتبك الكامل محمد مع القوات الزنكية في رعى معركة قاسية انتهت بهزيمة الكامل ، وأسر عدد كبير من عسكره ، وانسحب بمن معه إلى ميفارقين ، ومنها إلى حرّان ، حيث استدعاه أبوه إلى دمشق .⁽³⁾

بعد فك الحصار عن ماردين سار صاحب الموصل إلى دنيسر ثم رحل عنها إلى رأس العين وفي نيته مهاجمة حرّان لانتزاعها من يد الفائز ابراهيم بن العادل ، ولكنه عاد إلى الموصل للأسباب التالية :

- يذكر ابن الأثير - مؤرخ الزنكيين - أن الملك الظاهر غازي صاحب حلب أرسل إلى نور الدين أرسلان شاه يطلب منه أن يخطب باسمه في الموصل وأعمالها ، وأن يضرب السكة باسمه ، لكن نور الدين نفر من طلب الظاهر فتوقف عن مواصلة الزحف وقرر العودة إلى الموصل في (شهر ذي

¹ - ابن العديم : زبدة الحلب ، 438 . ابن واصل : مفرج الكروب ، 3 / 102 . ابن الأثير : الكامل ، م10، ص260 . العيني : عقد الجمان ، ج1، ق2، ص231 .

² - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص231 . ابن الأثير : الباهر ، 351 . ابن الوردي : نعمة المختصر ، ج2، ص114 . ابن واصل : مفرج الكروب ، ج3، ص102 .

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، 439 . ابن الأثير : الباهر ، ص354 . الكامل ، م10، ص261 .

الحجة، 596 هـ / تشرين الأول ، 1200 م) ، وأرسل إلى كل من الظاهر والأفضل يعتذر لهما عن عودته بحجة مرضه (1) .

- لكن " ابن العديم" أشار إلى أن سبب عودة نور الدين عن مهاجمة حرّان :
- 1- هو أن الملك الظاهر - صاحب حلب- سيّر عسكرياً مقدمه " سيف الدين بن علم الدين " ليجتمعوا مع عسكر نور الدين ويحاصروا بلاد العادل في الشرق . وأقطع سيف الدين " سروج" (2) لكن اتفاقه مع نور الدين كان أن يقطعه " سروج " فلما علم نور الدين بذلك عاد إلى الموصل .
- 2- وصول الملك الكامل محمد بن العادل بمن معه من جند إلى دمشق لنصرة العادل ، والخلاف بين الأفضل والظاهر جعل كفة الأحداث ترجح لصالح الملك العادل الذي أرسل بدوره إلى " نور الدين أرسلان شاه " صاحب الموصل ، يطلب إليه الرجوع عن موافقة الظاهر غازي صاحب حلب . (3)
- وترتب على انسحاب نور الدين أن استطاع العادل الاحتفاظ بدمشق ، وتفكيك التحالف بين الأفضل والظاهر .

مما سبق يُستنتج:

- أن "نور الدين أرسلان شاه" وجد مصلحته في التحالف مع الملك العادل لأنه الأقوى و لاستقرار الأمور لصالحه من جهة ، ولعدم ثقته بعود الظاهر غازي - صاحب حلب - وخوف " أرسلان شاه" من طمع الظاهر غازي بوضع الموصل تحت سيطرته بعد دمشق من جهة ثانية لذلك أرسل صاحب الموصل إلى الظاهر غازي و الملك الأفضل يخبرهما بعودته إلى الموصل .
- أن رواية ابن الأثير نابعة من تحيزه إلى الأتابكة الزنكيين ضد الأيوبيين المغتصبين لحق الزنكيين في الشام ، وأن رواية ابن العديم هي الأقرب للواقع ، وذلك أن الظاهر لم يكن في وضع يسمح له بالتفكير بإقامة الخطبة والسكة له في الموصل لانشغاله بالسيطرة على دمشق وسعيه للحد من نفوذ العادل وقوته .

¹ - ابن الأثير : الكامل ، م10، ص261 ، الباهر ، ص355 .

² - سروج : وهي عن شمال حرّان ، إلى جسر منبج ، حسنة حصينة ، كثيرة الأشجار والمياه والفواكه والزبيب . ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3، ص101.

³ - ابن العديم : زبدة الحلب ، 438،440،442 .

لما استقل الملك العادل بملك مصر سنة (596هـ / 1199م) اتفق " نور الدين أرسلان شاه" - صاحب الموصل ، و" الظاهر غازي" صاحب حلب ، و" حسام الدين يولق" صاحب ماردين ، وغيرهما على أن يكونوا يداً واحدة متفقين على منع العادل عن قصد أحدهم .

لذلك عندما اتفق الملك الظاهر غازي والملك الأفضل على قصد دمشق كان لابد لهما من حليف في الشرق لمنع وصول الإمدادات إلى الملك العادل ، فراسلا " نور الدين أرسلان شاه" صاحب الموصل ليقصد بلاد العادل الجزرية ، الذي أجابهما بالموافقة لأنه وجد فيها فرصة سانحة للتوسع في الجزيرة على حساب الملك العادل مستغلاً انشغال الأيوبيين بخلافاتهم الداخلية ، فسار عن الموصل في(شعبان، 597هـ / أيار، 1200م) إلى رأس العين وانضم إليه ابن عمه " قطب الدين محمد " صاحب سنجار ونصيبين ، و" حسام الدين يولق" صاحب ماردين . إلا أن هذا التحالف لم يكتب له النجاح لأن نور الدين اتفق مع الملك الفائز بن العادل ، لانتشار الأمراض بين أفراد جيشه ووصول أنباء عن اختلاف الظاهر والأفضل⁽¹⁾ على ملكية دمشق واقترب الصلح بينهم وبين عمهم الملك العادل.⁽²⁾

وبعد أن استقرت مقاليد السلطة للعادل في دمشق ومصر والجزيرة واتفاقه في(سنة 598هـ / 1201م) مع الظاهر ، تم ضرب السكة باسمه في كل هذه البلاد ومن ضمنها حلب .

اتبع صاحب الموصل "نور الدين أرسلان شاه" سياسة المهادنة مع الملك العادل على مبدأ أنه لا سياسة دائمة بل مصالح دائمة ، و لذلك انضم للملك العادل عند مهاجمة ماردين في (محرم سنة 599 هـ / أيلول ، 1202 م) طمعاً بكسب بعض المغنم والأراضي والتوسع على حساب الأرائقة .

وكان العادل قد أرسل ابنه الأشرف موسى لحصار ماردين وانضم إليه عساكر الموصل وسنجان ودام الحصار فترة من الوقت دون فائدة ، فتدخل الظاهر - صاحب حلب - في الصلح بين الطرفين على الأسس التالية :

- يدفع صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار للعادل .
- تضرب السكة باسم العادل ويخطب له ببلاده .

¹ - الأفضل هو نور الدين علي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان ولي عهد مملكة أبيه ومملكته دمشق وأعمالها ، والأرض المقدسة وأعمالها ، وولد في مصر سنة 565(هـ/1169م) توفي في سميياط سنة(622هـ/1225م. أبو الفداء : المختصر ، ج3، ص135. (زكار : الموسوعة الشامية ، ج20، ص280

² - ابن الأثير : الباهر ، ص 355 . الكامل ، ص 10، ص 274 . ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ، ص 233. ابن واصل : مفرج الكروب ، ج 3، ص 126- 127 . ابن كثير : البداية والنهاية ، 13 / 34- 35 . الجميلي - رشيد : دولة الأتابكة ، ص 178 - 179 . خليل، عماد الدين : الإمارات الأرتقية ، ص 163 - 164 .

- يتعهد صاحب ماردین بإرسال العسكر إلى العادل متى طلب منه ذلك .⁽¹⁾

ويذكر ابن الأثير أن الظاهر حصل عن طريق هذه الوساطة على ضيعة " قرادی " ⁽²⁾ وعشرين ألف دينار ⁽³⁾ ، أما ابن واصل فيذكر أنه حصل على عشرة آلاف دينار إضافةً للضيعة .⁽⁴⁾

في النزاعات المتشعبة والمتكررة التي جرت بين الحكام الأيوبيين استعان بعضهم بالأتابكة الذين وجدوها فرصة لإعادة نفوذهم وسيطرتهم على ما فقدوه من نفوذ ، ولكن دون جدوى فالحروب كانت كثيرة ومتشابكة ، وليس لها نتائج نهائية ، كما أن التحالفات كانت وقتية وسريعة الزوال لتقلب أمزجة الحكام وتبدل مصالحهم ومواقفهم وذلك لعدم وجود هدف ساهم يحدهم إلى تناسي خلافاتهم الصغيرة ومصالحهم الآنية ، ولهذا عادت المنطقة إلى فوضى سياسية وعسكرية .

وبوفاة " نور الدين أرسلان شاه " لم تعد أتابكية الموصل تشكل أي خطر على ممتلكات العادل الأيوبية ، ولهذا ساد الهدوء والعلاقات الودية في فترة حكم القاهرة " عز الدين مسعود " وما تلاه من الأتابكة ، إذ استولى " بدر الدين لؤلؤ " فعلياً على حكم الموصل ودخل في طاعة الملك الأشرف موسى وأصبح تابعاً له لمواجهة حلف " مظفر الدين كوكبوري " صاحب إربل و " عماد الدين زنكي " صاحب العقر والشوش .

لكن هذا الانتماء إلى الأشرف موسى والتبعية له ، لم تق " بدر الدين لؤلؤ " من دفع ضريبة هذا التحالف ففي سنة (617هـ / 1220م) بعدما استولى " عماد الدين زنكي الثالث " على قلاع الهكارية و الزوزان ، أرسل أصحاب هذه القلاع إلى " بدر الدين لؤلؤ " ليسلموا الحصون له ، بعدما كرهوا سوء معاملة " عماد الدين زنكي " لهم ، فأرسل " بدر الدين لؤلؤ " إلى الملك الأشرف يستأذنه ، لكن الأخير لم يوافق على طلب " بدر الدين " إلا بعد أن تخلى له عن حصن الحدث المجاور لنصيبين وأماكن أخرى .⁽⁵⁾

¹ - ابن واصل : مفرج الكروب ، 139/3 . ابن الأثير : الكامل ، 259/9 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، 234 . ابن كثير :

البداية والنهاية ، 34/13 . ابن الوردي : تنمة المختصر ، 2/ 120 . المقريزي : السلوك ، 1/ 160 .

² - قرادی : في شرقي دجلة الجزيرة ومن أعمالها، وعندها رست سفينة نوح . الحموي : معجم البلدان ، 4، ص 322.

³ - ابن الأثير : الكامل ، 259/9 . ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، 234 .

⁴ - ابن واصل : مفرج الكروب ، 3/ 140 .

⁵ - ذكر ابن العبري مكان ما بين دجلة والفرات لكنه لم يحدد اسمه . ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ، ص 261.

استمرت العلاقات ودية بين "بدر الدين لؤلؤ" والأيوبيين حتى وفاة الملك الأشرف موسى سنة (635هـ/ 1237م)⁽¹⁾

بعد وفاة الملك الكامل محمد، اتفق الخوارزمية مع الملك المنصور "ناصر الدين الأرتقي" - صاحب ماردين - وخرجوا عن طاعة الملك الصالح "نجم الدين أيوب" وكان على الفرات فهرب إلى سنجار وترك خزائنه وأثقاله ، فنهبها الخوارزمية وقصدوا بلاده ونازلوا حرّان ،ولما وصل إلى سنجار ،سار إليه " بدر الدين لؤلؤ " وحاصره في (ذي القعدة ،635هـ / 1237م) فأرسل الصالح إلى لؤلؤ يسأله الصلح فقال: " لابد من حمله إلى بغداد في قفص حديد" ⁽²⁾، وكان من أسباب رفض "لؤلؤ" للصلح :

- أن بدر الدين لؤلؤ والمشاركة يكرهون مجاورة "نجم الدين أيوب" وينسبونه إلى التكبر والتجبر والظلم .
- وجد " بدر الدين" فيها فرصة سانحة لاستعادة سنجار و ما بيد الصالح من الأراضي الجزرية.
- الانتقام من الملك الصالح لشنه غارة على الموصل بمن معه من الخوارزمية ، رغم أن "بدر الدين لؤلؤ" بعث له هدية ليسترضيه إلا أنه أخذها ولم يكف عنه.⁽³⁾

لكن الملك الصالح أرسل قاضي سنجار " بدر الدين يوسف بن الحسن الزراري" إلى الخوارزمية ليصلح بينه وبينهم ، ويستدعيهم لنصرته ، ووعدهم بالوعود الجميلة .وأرسل إلى ابنه الملك المغيث" فتح الدين عمر" يأمره بموافقة الخوارزمية لنجدته في سنجار والوقوف بوجه مطامع "بدر الدين لؤلؤ" . فاتفق مع الخوارزمية وأقطعهم حرّان والرّها وغيرهما، وساروا قاصدين سنجار، فانهمز جيش الموصل وهرب " بدر الدين لؤلؤ" منهم فنهبوا أمواله و خزائنه وخيله والخيام وجميع ما كان في عسكره . ⁽⁴⁾ ثم ترددت الرسل بين الملك الصالح وبدر الدين لؤلؤ حتى تم الصلح بينهما على أن لا يتعدى أحد منهم على الآخر في البلاد التي بيده .وبالفعل في سنة (636هـ / 1238م) أرسل الملك الصالح إلى "بدر الدين لؤلؤ" فبعث إليه نجدة لتدخل معه دمشق .⁽⁵⁾

¹ -ابن واصل: مفرج الكروب، ج5، ص137-138. ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص284. ابن العديم: زبدة الحلب، ص492. زكار: الموسوعة الشامية، ج20، ص324.

² - ابن دقماق : نزهة الأنام ، ص89. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ،تح: إبراهيم الزبيق ،دار الرسالة العالمية ، دمشق ،الطبعة الأولى 2013م، ج22، ص345.

³ - ابن شداد :الأعلاق الخطيرة، ج3، ص200.

⁴ - ابن العديم: زبدة الحلب، ص496-498. ابن واصل :مفرج الكروب، ج5، ص186-189. ابن دقماق : نزهة الأنام، ص89-90. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ، ج3، ص200-201. أبو الفداء: المختصر، ج3، ص162. ابن الوردي: تنمة المختصر، ج2، ص166. المقرئزي: السلوك، ج1، ص384-385. ابن كثير :البداية والنهاية، ج17، ص238-239.

⁵ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج5، ص202-203. المقرئزي: السلوك، ج1، ص391.

كانت سياسة " بدر الدين لؤلؤ" تعتمد على الدبلوماسية واسترضاء الأطراف جميعاً، فلم يكن طامحاً لتبني الأعداء أو السعي وراء المشاكل مع الإمارات المجاورة له ،لذلك عمد إلى مراعاة الخوارزمية ومملكة حلب بنفس الوقت ، فكان مرة يهادن الخوارزمية وأخرى يساند مملكة في حربها ضد الخوارزميين . ففي سنة (638هـ / 1240م) عندما هُزم الخوارزمية أمام العسكر الحلبى الذي تبعهم إلى الجزيرة لأخذ ما بيدهم من مناطق .وجد " بدر الدين لؤلؤ" الفرصة سانحة لضم نصيبين ودارا إلى الموصل ولكنه بنفس الوقت سعى لاسترضاء الملك الناصر يوسف الثاني - صاحب حلب- ربما ليجنب الموصل هجوم العسكر الحلبى و إظهار حسن النية للملك الناصر، فقام بتحرير الأسرى الذين كانوا بيد الخوارزميين من عسكر حلب ومن بينهم الملك المعظم" فخر الدين تورانشاه" - عم الملك الناصر- الذي أجزل له " بدر الدين لؤلؤ" بالعطاء والتكريم وبعثه إلى العسكر الحلبى محملاً بالهدايا والتحف .

و عندما قصد الخوارزمية مدينة حلب سنة (640هـ/1242م) ، واجتمع معهم خلق كثير من التركمان وغيرهم ، أرسل " بدر الدين لؤلؤ" صاحب الموصل ولده الملك الصالح "ركن الدين إسماعيل " صاحب سنجار لنجدة العسكر الحلبى ومساندته بمواجهة الخوارزمية.⁽¹⁾

ومن جهة ثانية لما اتفقت الخوارزمية مع المظفر شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين ، وساروا لقصد الموصل سنة (639هـ/1241م) ، هادنهم " بدر الدين لؤلؤ" وسلمهم نصيبين .⁽²⁾ ويذكر ابن الفوطي أن بدر الدين لؤلؤ خطب لصاحب حلب الملك " الناصر يوسف الثاني " في بلاده سنة (645هـ / 1247م) تبرعاً منه .⁽³⁾

وكان هدف لؤلؤ دائماً مصلحته التوسعية في الجزيرة مستغلاً تخبط الملوك الأيوبيين بين المماليك من جهة والتتار من جهة ثانية . ولذلك عندما سار الملك الناصر الثاني - صاحب حلب والشام- لاستعادة مصر من يد المماليك ، أرسل لؤلؤ نجدة من عسكر الموصل بقيادة ابنه الملك المظفر "علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ" لمساندة " الناصر الثاني " . فلما هُزم العسكر الحلبى ورجع إلى دمشق سنة (648هـ / 1250م) وصلت رسل " بدر الدين لؤلؤ" إلى الملك الناصر الثاني ومعهم

¹ - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ،ص124.

² - ابن العديم : زبدة الحلب ،509.أبو الفداء : المختصر،ج3،ص169. المقرئ: السلوك،ج1،ص412. ابن شداد :الأعلاق الخطيرة ،ج3،ق1،ص136.

³ - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ،ص174.

هدية سنوية من خيل وقماش وآلات ، مهنياً له بالسلامة ، ومعهم كتاب إلى ابنه الملك المظفر يأمره فيه "ألا يبرح في خدمة المولى الملك الناصر الثاني ولو خاض البحر خض معه ، أو ولج النار لج معه" (1) وكان رد الملك الناصر الثاني له بإعطاء جزيرة ابن عمر لبدر الدين لؤلؤ متى انتهى من مواجهة المماليك إلا أن صاحب الموصل عندما وصله رسول صاحب حلب سارع واستولى على جزيرة ابن عمر . (2)

ث - العلاقة مع الخلافة العباسية ببغداد :

-1

في عهد الأتابكة :

كان الأتابكة كبقية الأمراء المسلمين يرتبطون بالخليفة العباسي برابطة الولاء الروحي ، فكانوا يعترفون به سلطاناً ويتوجهون إليه للحصول على تفويض بالحكم ليسبغوا على هذا الحكم شرعية أصبحت من المستلزمات الضرورية في نظر شعوبهم وخاصةً الفقهاء منهم ، فكان الأتابك عند تسلمه الحكم يحرص على الحصول على تقليد من الخليفة العباسي ، وأصبح من العادة الجارية عند وفاة الأتابك أن يقوم خلفه بمراسلة دار الخلافة للحصول على التقليد والتشريف بالحكم ، (3) ومقابل ذلك كان يذكر اسم الخليفة على السكة وفي الخطبة . كانت العلاقة بين الأتابكة والخليفة العباسي ودية ولم يسجل المؤرخون أحداثاً ذات أهمية في العلاقات بين دولة الموصل والخلافة العباسية في عهد "نور الدين أرسلان شاه الأول" باستثناء ما حصل سنة (606هـ / 1209م) حين تعرضت سنجار ، التابعة لقطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي ، لهجمات العادل الأيوبي ، فأرسل كل منهما إلى الخليفة العباسي "الناصر لدين الله" يلتمس منه التدخل في الصلح وإبقاء سنجار على وضعها السياسي ، فأرسل الخليفة وفداً إلى العادل الأيوبي ضم الأستاذار (4) "هبة الله بن المبارك" ، والأمير "آق باش" ، وأبلغاه رغبة الخليفة في إقرار الصلح مع آل زنكي ، وحقق دماء المسلمين ، فاستجاب العادل لطلب الخليفة ورحل عن سنجار . (5) وكانت استجابته لطلب الخليفة تغطية لانسحابه من حصار فاشل .

¹ - ابن شداد : الأعلام الخطيرة، ج3، ق1، ص236.

² - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج3 ، ق1، ص238-243، 240.

³ - ابن الأثير : رسائل ابن الأثير ، تح: أنيس مقدسي ، بيروت 1959م ، ص242-243.

⁴ - الأستاذار : لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير ، وصرفه ، وتمثل أوامره فيه . و الأستاذار مركبة من كلمتين فارسييتين إحداهما " استند" ومعناها الأخذ ، والثانية "دار" ومعناها الممسك ، فأدغمت الذال الأولى وهي المعجمة في الثانية وهي المهملة ، فصار استندار أو استادار .

⁵ - ابن الأثير : الكامل ، ص 196-197. سبط ابن الجوزي : ج8 ، ص 541. رشاد : موسوعة الموصل ، ص166.

اقتصرت العلاقات بين دولة الموصل في أواخر أيامها وبين الخلافة العباسية ، على منح الخليفة العباسي اعترافه بحكام الموصل ، وإرسال الخلع إليهم . ذلك أن هؤلاء كانوا لا يفقهون شيئاً من مستلزمات الحكم بسبب صغر سنهم حيث استبد الأمير "بدر الدين لؤلؤ" بإدارة شؤون الدولة .

2- في عهد بدر الدين لؤلؤ :

بعد وفاة حليف الأسرة الأتابكية " مظفر الدين كوكبوري " ، صاحب إربل في سنة (630هـ / 1232م) ، وهو جد ناصر الدين محمود لأمه ، لم يبقَ من يخشى "بدر الدين لؤلؤ" منه ، فأرسل هدايا وافرة إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله " أبو جعفر منصور " ، وعرض عليه تقليده أمر الموصل . فأرسل الخليفة سنة (631هـ / 1233م) الأمير "بدر الدين سنقر جاه الظاهري" إلى الموصل ومعه خلعة السلطنة وتقليد لبدر الدين لؤلؤ ، وأذن له أن يذكر اسمه على المنابر و ينقش على السكة .⁽¹⁾ كان "بدر الدين لؤلؤ" يتربص الفرص للتقرب إلى الخليفة العباسي ورجال دولته . فيقدم لهم الطرف والهدايا الثمينة ، ويوثق علاقته مع رجال الدولة بالمصاهرة والانتساب إلى الخليفة ورجاله في رمي البندق ، وغير ذلك مما يعزز مكانته.

ففي سنة (632هـ / 1234م) أرسل صاحب الموصل " بدر الدين لؤلؤ" رسلاً هو الأمير "أمين الدين لؤلؤ" ، ومعه تحف وهدايا كثيرة ، وطلب تزويج ابنته بمجاهد الدين بن أيبك المستنصري المعروف بالدويدار⁽²⁾ الصغير - وكان هذا من أقرب ممالك الخليفة المستنصر بالله - فأجيب طلبه ، وزفت إليه سنة (634هـ / 1236م) باحتفال مهيب . اشترك فيه رجال الدولة على اختلاف مراتبهم .⁽³⁾ كما زوج إحدى بناته بالأمير علاء الدين أبي شجاع الطبرسي المعروف بالدويدار الكبير ، وكان هذا حظياً عند الخليفة المستنصر بالله أيضاً.⁽⁴⁾

¹ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص 280. ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص 57. الغساني : العسجد المسبوك ، ص 457.

² - الدودار : هو لقب يطلق على الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير أو غيرهما ، ويتولى أمرها مع ما ينظم إلى ذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور وغير ذلك بحسب ما تقتضيه الحال وهو مركب من لفظين أحدهما عربي وهو الدواة والمراد التي يكتب فيها والثاني فارسي وهو دار ومعناها ممسك . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 462. العسجد المسبوك ، ص 590-591.

³ - ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، ص 70-71 ، 85. الغساني : العسجد المسبوك ، ص 465، 475. ابن نطف : التاريخ المنصوري ، ص 165 لكنه أورد الحدث سنة 624هـ .

⁴ الغساني : العسجد المسبوك ، ص 291.

وحمل أولاده على الانتساب إلى الخليفة ورجال دولته في رمي البندق - وهو من ألعاب الفتوة- وكان للفتوة شأن في هذا العصر . فقد جدد الخليفة الناصر لدين الله رسومها سنة (575-622هـ / 1179-1225م) ، وتفتى له الملوك والأمراء والعلماء وانتسبوا إليه في رمي البندق . وهكذا فإن بدر الدين لؤلؤ اغتتم كل فرصة ممكنة لتعزيز علاقته ومكانته في البلاط العباسي مظهراً تبعية وتعلقاً زائفاً . كل ذلك لتغطية عمالته للمغول وسيره في ركابهم و المحافظة على شرعية حكمه للموصل و سلطته ونفوذه لا غير .

الخاتمة

خلص البحث إلى نتيجة مفادها أن منطقة الجزيرة الفراتية وشمال بلاد الشام وحدة متداخلة جغرافياً وسياسياً واقتصادياً ، واستقرار أي طرف مرتبط بالطرف الآخر ، وهذا ما يفسر تأثير عدم الاستقرار السياسي الذي تشهده المنطقة حالياً و سعي القوى المتصارعة على المنطقة لفرض سيطرتها العسكرية عليها .

ومن جهة ثانية أثبت البحث فشل محاولات تتركب هذه المنطقة وحفاظها على طابعها العربي ، رغم كل ما تعرضت له من ضغوطات وحروب ، بالمقابل تم تتركب آسيا الصغرى ، ولعل هذا الأمر يوضح صورة ما يجري اليوم في شمال سورية من محاولات كبيرة لتغير التركيب الديموغرافي ، والوجود العربي فيها . لكنه كما فشل في الماضي سيفشل اليوم لتجذر العروبة حضارة وثقافة ولغة والوجود القبلي العربي فيها .

تم في هذه الدراسة الوقوف على الكثير من الحقائق أهمها : أن الدولة الأيوبية ورثت نظم الحكم وفلسفته من الزنكيين الذين ورثوه عن السلاجقة ، وأسوأ ما ورثته من تلك النظم ، أنه كان يُنظر إلى الدولة على أنها إرث يقسم بين أبناء السلطان بعد موته ، وقد أدت تلك النظرة إلى تمزق الدولة وضعفها وكان ذلك من أهم الأسباب التي أودت بحياتها في نهاية المطاف .

كما أظهرت الدراسة افتقار أبناء صلاح الدين إلى الحنكة السياسية وصفات القيادة العسكرية الفذة ، وعدم قدرتهم فرض سلطانهم على مناطق نفوذ صلاح الدين مما دفع العادل للتسلط على أملاكهم ، وهيمن على أجزاء الدولة .

كما برهنت الدراسة على فشل الإقطاع الحربي الأيوبي ، الذي دفع الأمراء الذين نالوا إقطاعات إلى السعي للاستقلال عن الدولة الأيوبية ، وتأكيد سيطرتهم المطلقة على إقطاعاتهم ، وربط الولاء للأيوبيين بحجم الإقطاع الحاصلين عليه ، وتغير ولائهم لمن يمنحهم المزيد ، الأمر الذي زاد من تدهور أمور بلاد الشام وأوصلها إلى التفكك والاضطراب .

كما أن تقسيم البلاد بهذا الشكل زاد حدة الخلافات وعمق الانقسام بين أمراء هدفهم إرضاء الذات على حساب مصلحة الأمة ، فتفاقت النزاعات والحروب بينهم .

يلاحظ من الدراسة أن القبائل العربية انكمش دورها وفقدت تأثيرها السياسي في مواجهة الصليبيين والمغول ، على عكس دورها خلال القرون الأولى (من القرن الأول إلى الخامس الهجري) ، لحساب العناصر التركية والكردية ، ولم يبق لها من المكاسب ما تدافع عنه .

كما تبين الدراسة أن الملك العادل لم يستفد من الدرس المائل أمامه ، حين اقتسم أبناء أخيه صلاح الدين المملكة وترتب على ذلك نشوب النزاع بينهم ، فعمد العادل إلى تقسيم المملكة مرة أخرى بين أولاده ، الأمر الذي أدى إلى وقوع المنافسة بينهم- مثلما حدث بين أبناء صلاح الدين- وتطورت تلك المنازعات إلى الاستعانة بقوى خارجية- إسلامية وغير إسلامية - مما عاد بأفدح الضرر على الجبهة الإسلامية إزاء الصليبيين وأدى إلى تدهور الدولة الأيوبية وتبديد مواردها. وهكذا أصبحت أطماع أبناء العادل في أملاك بعضهم البعض مدعاة للقلق والإضطراب السياسي ، في وقت كان يتحتم عليهم توحيد القوى البشرية الإسلامية وحشد الطاقات المادية لمواجهة العدوان الصليبي على بلاد الشام ومصر ، وتجهيز البلاد لمواجهة الخطر المغولي القادم من الشرق .

وتجدر الإشارة إلى أن الحروب التي اندلعت بين الأيوبيين في بلاد الشام وبينهم وبين الخوارزمية ، ثم دخول المماليك البحرية أخيراً في منازعات بلاد الشام ، كل تلك الحروب أهدرت الكثير من الطاقات البشرية والمادية للمسلمين ، والتي كان من الأفضل توفيرها لمواجهة الصليبيين والمغول .

واتضح من الدراسة أن الدولة الأيوبية أفادت من شراء المماليك وتجنيدهم في تحقيق مكاسب آنية ، غير أن المماليك هم الذين قضوا على ما تبقى من الأيوبيين في نهاية المطاف، نتيجة الضعف والوهن الذي وصلوا إليه .

كما برهنت الدراسة على فتور تيار الجهاد ضد الصليبيين بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي فتوقفت حركة الإسترداد المنظم للبلاد المغتصبة ، واقتصر دور المسلمين على الدفاع وشن الغارات المضادة رداً على الحملات والغارات الصليبية المتتالية .

أوضحت الدراسة حرص ملوك بين أيوب على الإرتباط بالخلافة العباسية في بغداد لإكساب حكمهم الصبغة الشرعية نظراً لأن الخلافة العباسية كانت تمثل - رمز وحدة المسلمين- كما أن الخلافة العباسية كانت تدخل في النزاعات القائمة بين ملوك الأيوبيين في بلاد الشام ومصر وبينهم وبين المماليك بعد قيامهم بهدف توحيد صفوف المسلمين ، ولا سيما أن الخلافة العباسية كانت أشد المتقوفين من الخطر المغولي الذي يلوح في الأفق منذ أواخر الربع الأول من القرن السابع الهجري.

وتوضح الدراسة أن سلاجقة الروم لم يمتلكوا الوعي الكافي للخطر الصليبي بل على العكس سببوا خطراً شديداً للأيوبيين زمن الحملة الصليبية الخامسة حين هاجموا شمال بلاد الشام في وقت كان يتحتم عليهم تقديم العون والمساعدة للأيوبيين لمواجهة الحملة الصليبية ، ولكن على العكس صرف سلاجقة الروم والأيوبيون جهودهم وامكاناتهم في معارك جانبية لا طائل منها.

ومن النتائج التي وصلت لها الدراسة ،أنه بعد كل ما أصاب بلاد الشام من تمزق سياسي وحروب أهلية طويلة جاء الخوارزمية بغاراتهم المدمرة وأضافوا المزيد من أسباب التدهور والإنهيار ، إذ أن الخوارزمية دأبوا على محاكاة المغول في نهب وتدمير كل المناطق التي يمرون بها، ولكن من ناحية أخرى كان لدخول الخوارزمية إلى بلاد الشام أثر بعيد في تعديل ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين ، فبعد أن تحول الموقف لصالح الصليبيين منذ حملة فردريك الثاني جاء الخوارزمية وتحالفوا مع الصالح أيوب وسحقوا الصليبيين في معركة غزة الحاسمة التي كانت إيذاناً بانتهاء بقايا الوجود الصليبي ، فهي فتحت الباب للمماليك لإقتلاع جذور الصليبي نهائياً من بلاد الشام.

وقد اتضح من الدراسة مدى الروح المتعصبة لمملكة أرمينية الصغرى لذاتهم وسعيهم الدائم إلى التحالف مع الأقوى كائناً من كان ، حيث تحالفوا مع الصليبيين ضد القوى العربية ، ولاحقاً تنطلعوا إلى التحالف مع المغول بهدف القضاء على المسلمين في بلاد الشام . بالمقابل كان لتعاون الأيوبيين في حلب مع إمارة أنطاكية أثر جيد على تحقيق المصالح المشتركة لكل طرف .

كما بينت الدراسة ، عدم وعي القوى الإسلامية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية وآسيا الصغرى للخطر المغولي ولا سيما حين أخذ المغول منذ وقت مبكر في الإغارة على العراق والجزيرة لمراقبة القوى الإسلامية في هذه المناطق ومعرفة امكاناتها وقدرتها على الدوام تمهيداً للهجوم الكبير الذي قاده هولاكو. كما لم يدرك حكام المسلمين في بلاد الشرق الأدنى مغزى سياسة المغول التي قامت على أساس الإنفراد بكل دولة إسلامية على حدى حتى يسهل القضاء عليها جميعاً، فأخضع المغول دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى سنة 641هـ/ وطوقوا بذلك العراق وبلاد الشام من الشمال والشرق ، الأمر الذي سهل من مهمة هولاكو فيما بعد. واستمر عدم وعي الأيوبيين بخطر المغول إلى أن بدأ زحف هولاكو على العراق والجزيرة وبلاد الشام ، وليس أدل على ذلك من المواقف المتناقضة للناصر يوسف الثاني إزاء المغول .

مصادر ومراجع الأطروحة.

المصادر:

- 1- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، ت 630 هـ - 1232 م): الكامل في التاريخ، تح: عبد السلام التدمري، 11 مجلداً، دار صادر، بيروت 1997م.
- 2- ابن البيطار (ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن البيطار المالكي الأندلسي، ت 646 هـ): مختصر جامع ابن البيطار لمفردات الأدوية والأغذية المعروف "بتحفة ابن البيطار"، اعتنى به: عبد الله صابر، دار ابن الهيثم، القاهرة 2006م.
- 3- ابن العبري (جمال الدين غريغوريوس بن هارون الملطي، ت 685 هـ - 1286 م): تاريخ الزمان، تعريب: إسحاق أرملة، دار المشرق، بيروت 1991م، بدون جزء.
- ابن العبري (جمال الدين غريغوريوس بن هارون الملطي، ت 685 هـ - 1286 م) تاريخ مختصر الدول، تصحيح: الاب أنطوان اليسوعي، دار الرائد اللبناني، لبنان، 1983م.
- 4- ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله، ت 660 هـ): زبدة الحلب من تاريخ حلب، تح: سامي الدهان، 3 مجلداً، ط2، دمشق 2006 م .
- 5 - ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم، ت 807 هـ - 1405 م): تاريخ الدول والملوك، المعروف بـ تاريخ ابن الفرات، تح: حسن الشماخ ، جامعة البصرة، مطبعة حداد، البصرة، 1967م
- 6- ابن الفوطي (عبد الرزاق بن أحمد البغدادي، 723 هـ): الحوادث النافعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديث، بيروت 1987م.
- 7- ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة بن أسد علي التميمي، ت 555 هـ - 1160 م) : ذيل تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دار حسّان، دمشق 1983 م .
- 8- ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف، ت 874 هـ - 1469 م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح : محمد شمس الدين، 16 مجلد، دار الكتب العلمية، بيروت 1992م.
- 9- ابن تغري بردي (أبو المحاسن جمال الدين يوسف، ت 874 هـ): المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تح : محمد أمين، مطبعة دار الكتب، مصر 1976 م.

- 10- ابن جبیر (محمد بن أحمد الكنانی، ت 614 هـ - 1217م): رحلة بن جبیر، دار صادر، بیروت 1959م.
- 12- ابن حجر (أحمد بن علي بن محمد، ت 852 هـ - 1448م): إنباء الغمر بأنباء العمر، بیروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1986م.
- 13- ابن حجر (أحمد بن علي بن محمد، ت 852 هـ - 1448م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديث، القاهرة 1966م .
- 14- ابن خلکان (أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت 681 هـ - 1282م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بیروت 1968م .
- 15- ابن دقماق (صارم الدين ابراهيم بن محمد، ت 809 هـ - 1406م): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جزءان، نشرهما فولر، مصر 1983م .
- ابن دقماق ، صارم الدين ابراهيم العلاني ت 809 هـ - 1406م): نزهة الأنام في تاريخ الاسلام ، تحقيق: سمير طباره، ط1، لمكتبة العصرية ، بیروت 1999م
- 16- ابن سباط (حمزة بن أحمد بن عمر، ت 930 هـ): تاريخ ابن سباط، تح: عمر عبد السلام التدمري، جزءان، طرابلس 1993م.
- 17- ابن شداد (بهاء الدين يوسف، ت 632 هـ - 1234م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار الفكر، بیروت، د. ت. ط .
- 18- ابن شداد الحلبي (عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم، ت 684 هـ - 1258م): الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تاريخ لبنان والأردن وفلسطين، تح: سامي الدهان، منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1992 م .
- 19- ابن طولون (محمد بن علي الصالحي الحنفي، ت 953 هـ) : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تح: محمد مصطفى زیادة ، المؤسسة المصرية للكتاب، القاهرة 1962م .
- 20- ابن طولون (محمد بن علي الصالحي الحنفي، ت 953 هـ) : إعلام الوری بمن ولی نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تح: محمد دهمان ، دار الفكر، دمشق 1984م .

- 21- ابن عبد الظاهر (محي الدين أبو الفضل عبد الله السعدي، ت 692هـ) : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح : عبد العزيز الخويطر، الرياض 1976 م.
- 24- ابن علي (شافع الكاتب العسقلاني، ت 730هـ) : الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تح : عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية ، صيدا 1998م.
- 25- ابن كثير (إسماعيل بن عمر، ت 774هـ) : البداية والنهاية، تح : عبد الله التركي، 21 مجلداً، ط2، دار عالم الكتب، الرياض 2002 م .
- 26- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم، ت 697هـ - 1298م) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تح : جمال الدين الشيال وأخرون، 5 أجزاء، دار إحياء التراث، مصر 1985 م .
- 27- أبو الفداء (المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل نور الدين علي، ت 732هـ -) : المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبي الفداء، مجلدان في ست أجزاء، دار الكتاب اللبناني، لا تاريخ.
- 28- أبو شامة (شهاب الدين بن إسماعيل المقدسي، ت 665 هـ - 1266م) : الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية و النورية، تح : إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت 1997 م .
- 29- البدرين (أبو البقاء) : نزهة الأنام في محاسن الشام ، بيروت 1980 م .
- 30- البرزالي (علم الدين القاسم بن محمد، ت 739) : المقتفي على كتاب الروضتين، تح : عمر عبد السلام التدمري، 4 مجلدات، المكتبة العصرية، صيدا 2006 م .
- 31- الجزري (شمس الدين محمد بن ابراهيم ت 739 هـ) : تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بتاريخ ابن الجزري ، تح : عمر عبد السلام التدمري، 3 مجلدات، المكتبة العصرية، صيدا 1998 م .
- 32- الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت 626هـ - 1228م) : المشترك وضعاً والمفترق صقلاً ، عالم الكتب ، بيروت 1986 م .
- 33- الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت 626هـ / 1228م) : معجم البلدان، تح : فريد الجندي، 5 مجلدات، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ .
- 34- الدمشقي (جعفر) : الإشارة إلى محاسن التجارة، بيروت 1999 م .

- 35- **الدواداري** (ركن الدين بيبيرس المنصوري الدواداري، ت 736 هـ - 1335م) : كنز الدرر وجامع الغرر، تح : بيزيد راتكة، المعهد الألماني، القاهرة 1982م .
- 36- **شيخ الربوة** (شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي) : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بيروت 1988 م .
- 37- **الصقاعي** (فضل الله النصراني، ت 726 هـ) : تالي وفيات الأعيان لأبن خلكان، 1مجلد، تح : جاكليين سوبليه، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1974 م .
- 38- **الظاهري** (عزالدين خليل بن شاهين، ت 873 هـ - 1468م) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ،صححه ؛ بولس وارييس، باريس 1894 م .
- 39- **العلموي** (عبد الباسط) : مختصر تنبيه الطالب- تح : صلاح المنجد، دمشق 1947م .
- 40- **العماد الأصفهاني** (محمد بن صفي الدين، ت 597 هـ / 1201م) : الفتح القسّي في الفتح القدسي، تح : محمود صبح، الدار القومية، القاهرة 1965م .
- 43- **الحريري** (أحمد بن علي، ت 926 هـ / 1519م) : الإعلام والتبيين في خروج الفرنجة الملاعين على ديار المسلمين، تح : سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، دمشق 1981 م .
- 41- **العمرى** (شهاب الدين أحمد بن يحيى، ت 749 هـ - 1348م) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 27 مجلدًا، تح : أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة 1985 م .
- 42- **العيني** (بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد، ت 855 هـ - 1451م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تح : محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1990م .
- 43- **الغساني**، الملك الأشرف اسماعيل بن العباس :العسجد المسبوك ، تح شاكر محمود عبد المنعم ، دار التراث الاسلامي ، بغداد 1975م.
- 44- **القرويني** (زكريا بن محمد بن محمود، ت 682 هـ - 1283م) : آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت 1970 م .
- 45- **القلقشندي** (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، ت 821 هـ) : ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، ط1، القاهرة 1906م .

- 46- **القلقشندي** (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، ت 821 هـ/1418م) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، تح : محمد شمس الدين ، 14 مجلد ، بيروت 1987 م .
- 47- **المقريزي** (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، ت 845 هـ - 1441م) : خطط القاهرة، تح : أيمن فؤاد السيد، مؤسسة الفرقان، لندن 2004 م .
- 48- **المقريزي** (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، ت 845 هـ - 1441م) : شذور العقود في ذكر النقود، تح : محمد بحر العلوم، دار الزهراء، بيروت 1988 م .
- 49- **المقريزي** (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، ت 845 هـ - 1441م) : السلوك لمعرفة دول الملوك، تح : محمد مصطفى زيادة، 12 مجلد، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة 1972م .
- 50- **المقريزي** (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي، ت 845 هـ - 1441م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف اختصاراً بالخطط المقرئية، دار التحرير، القاهرة 1962م .
- 51- **المنصوري** (ركن الدين بيبيرس المنصوري الدواداري، ت 736 هـ - 1335م) : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة محمد عطا ، شركة المدينة للطباعة والنشر ، مصر ، (د.ت)
- 52- **النويري** (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت 733 هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، تح : الباز العريني، 31 مجلداً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م .
- 53- **اليونيني** (قطب الدين موسى بن محمد، ت 726 هـ - 1325م) : ذيل مرآة الزمان ، مخطوط من مكتبة السلطان أحمد الثالث في استانبول ورقمه 4907 / 4، طبعة الهند 1960م .
- **اليونيني** (قطب الدين موسى بن محمد، ت 726 هـ - 1325م) : ذيل مرآة الزمان، تح: لي كو (ياسين الصيوني) جامعة بيل ، مايو 1994م .

.....

- المراجع العربية والمعربة :

- 1- ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط7، 1964م .
- 2- التطيلي (بنيامين بن بونه الأندلسي) :رحلة بنيامين، تر: عزرا حداد ، تح : عبدالرحمن الشيخ ، أبو ظبي ، المجمع الثقافي 2002 م .
- 3- أرسلان (شكيب) : تاريخ الدولة العثمانية، دار ابن كثير، 2001 م .
- 4- إسماعيل (البيومي) : النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الصحافة 1998م .
- 5- اسماعيل ، اكتمال: الآثار الاجتماعية والاقتصادية للحملات العسكرية المغولية على بلاد الشام (1250-1310م) رسالة دكتوراه لم تنشر ، إشراف: سهيل زكار ، دمشق 1994م.
- 6- أسامة، زيد: الصليبيين و إسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، الاسكندرية1980.
- 7- اسكندر، فايز نجيب: الفتوحات الإسلامية لأرمينيا ، القاهرة، 1983م.
- 8- أمين، محمد محمد : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة 1980م .
- 9- بدر ،مصطفى : مغول إيران بين المسيحية والإسلام، القاهرة، لا تاخ للطبع .
- 10- بردج، أنتوني: تاريخ الحروب الصليبية ، تر: أحمد غسان سبانو ، ونيل الجبرودي، دار قتيبة، ط1، دمشق 1406هـ/1985م .
- 11- برجوي ، سعيد: الحروب الصليبية في المشرق ، ط1 ، بيروت 1984.
- 12- بينز، نورمان: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب د. حسين مؤنس، ط1، القاهرة، 1950.
- 13- البستاني، بطرس: دائرة المعارف، دار المعرفة ، بيروت ،لبنان1998م.
- 14- تشارترز، فولتشراف: تاريخ الحملة إلى القدس: الموسوعة الشامية ،سهيل زكار، ج6.
- 15- جمال الدين، محمد السعيد: أخبار سلاجقة الروم ، جامعة عين شمس، (دون. ط، دون. ت).
- 16- الجنابي، طلب صبار : إمارة أنطاكية دراسة في علاقتها السياسية بالقوى الإسلامية، دار نينوى للدراسات والنشر 2013.
- 17- الجميلي ، رشيد : دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين ، ط 2، بيروت 1975م.
- 18- جميعان، ميخائيل : المؤثرات الثقافية الشرقية على الحضارة الغربية، لا مكان ولازمان .

- 19- حسن، علي إبراهيم: دراسات في تاريخ الممالك البحرية، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1948م .
- 20- حمدي، حافظ أحمد : الدولة الخوارزمية والمغول ، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية ، دار الفكر ، دون طبعة ، القاهرة ، مصر 1949م.
- 21- حمادة ،محمد ماهر: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت 1982م .
- 22- حسين، حسن عبد الوهاب : تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة، دار المعرفة الجامعية ، 1989م.
- 23- الحايك ، منذر : العصر الأيوبي قرن من الصراعات الداخلية، تقديم : سهيل زكار ، صفحات للدراسات والنشر ، ط1، دمشق 2011.
- 24- الحايك، منذر: العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية ، تقديم : سهيل زكار ، ط1، دار الأوائل للنشر والتوزيع سورية ، دمشق 2006.
- 25- الحمد ، عامرة علي : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية وإمارة أنطاكية الصليبية في عهد الامبراطور الكيسوس كومنين (1908-1118م) رسالة ماجستير ، جامعة الكويت.
- 26- حنا، سعيد الحاج : العلاقات الإسلامية الأرمنية منذ الفتح حتى اليوم، مركز الدراسات الأرمنية ، بيروت (د.ت). 1967م.
- 27- خطاب، محمود شيث ، : بلاد الجزيرة قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد 1985م.
- 28- خطاب ،محمود: أرمنيا و الروم، دار قتيبة، دمشق، ط4، 1990.
- 29- الخطيب ، مصطفى : معجم المصطلحات والألقاب التاريخية سف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على الشام ، دار النهضة ، بيروت ، 1981م.
- 30- خليل ، عماد الدين : الإمارات الأرمنية في الجزيرة والشام ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1980.
- 31- الخوند، مسعود : الموسوعة التاريخية الجغرافية ، مؤسسة هانيد، لبنان، 1998م .
- 32- خوريناتسي، موسيس: تاريخ الأرمن ، نقله عن الأرمنية نزار خليلي، ط1، 1999م.
- 33- داووني، جلانفيل: أنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير، ت. د. ألبرت بطرس، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، بيروت ، 1968.

- 34- دي نوفار، فيليب: حروب فريدريك الثاني ضد الإيبيلين في سورية و قبرص، تح: سهيل زكار : الموسوعة الشامية، ج34.
- 35- الدين، رشيد: جامع التواريخ، تاريخ المغول في إيران (تاريخ هولكو) تعريب : محمد صادق نشأت .
- 36- الدوري: عبد العزيز، تاريخ العراق في القرن الرابع الهجري ، ط2، دار المشرق بيروت 1986م.
- 37- رايس، تامارا تالبوت : السلاجقة تاريخهم وحضاراتهم. جامعة اكسفورد 1982.
- 38- الربيعي ، عبد الله بن عبد الرحمن : العلاقات السياسية بين زعماء المسلمين والصليبيين من خلال المؤرخة المنسوبة إلى القائد الأرمني سمباد ، مجلة الدارة ، العدد 3 ، 1416هـ / 1996م .
- 39- رنسيما ، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية، 3 مجلدات، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت 1969م .
- 40- زامبارو : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، تر: زكي محمد حسن بك وآخرون ، دار الرائد العربي، بيروت 1980 م .
- 41- زكار ، سهيل : فلسطين في عهد المماليك ، الموسوعة الفلسطينية ،الدراسات التاريخية ، ط1، بيروت 1990 م.
- 42- زكار ، سهيل . خربوطلي، شكران : تاريخ العصر العباسي والأندلسي السياسي والحضاري ، كتاب جامعي ، منشورات كلية الآداب ، جامعة دمشق ، 2010م.
- 43- الزين، سميح : تاريخ طرابلس، دار الأندلس، بيروت 1969 م .
- 44- زيدان، محمد عمر :دور الأرمن في الحروب الصليبية و الغزوات المغولية (488-777هـ/1095-1375م)، رسالة ماجستير، إشراف د. وفاء جوني، جامعة دمشق 2006-2007م.
- 45- زيتون ، عادل: العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق 1980م
- 46- زيتون ، عادل : تاريخ المماليك، منشورات جامعة دمشق، كلية الآداب، ط 2، 2003م.
- 47- سرور ،محمد جمال الدين :دولة بني قلاوون في مصر، مطبعة الاعتماد، القاهرة 1947م
- 48- السيد، أديب: أرمنيا في التاريخ العربي، ص27. مجموعة باحثين: الأرمن في دائرة المعارف الإسلامية، مطبعة الشعب، القاهرة، 1969م.

- 49- سليم ، صبري : الخوارزميون في الشرق الأدنى ، مكتبة الثقافة الدينية ، دون طبعة ، القاهرة 1991م.
- 50- سعيد الديوه جي - تأريخ الموصل ، ط2، مكتبة الغزالي ، الكوفة 1982م.
- 51- سوسة ، أحمد : العراق في الخرائط القديمة ، مجمع اللغة العربية ، بغداد 1379هـ.
- 52- شبولر،برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، دار حسان، دمشق 1982م
- 53- الشواف،عبد المعين: دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين ، رسالة دكتوراه ، جامعة دمشق 2008 م .
- 54- شوقي شعث وفالح بكور : حلب في كتب البلدانين العرب ،دار الرواد ،بيروت 1995م
- 55- شاکر، مصطفى: الدليل في التاريخ العربي الإسلامي ، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت، 1987م.
- 56- شاکر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون، م2، منشورات دار العلم للملايين ، ط3، بيروت 1983 م .
- 57- الشيخ ، محمد مرسى :تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية ، مكتبة الاسكندرية ،1994.
- 58- الصاوي : هولاء الأمير السفاح ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ط1، 2012م.
- 59- الصالح ، صبحي: النظم الإسلامية، منشورات الشريف الرضي، إيران 1996 م .
- 60- الصوري ،وليم : تاريخ الحروب الصليبية (ترجمة تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار) ، من الموسوعة الشامية .
- 61- الصياد، فؤاد عبد المعطي: المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ، بيروت1980م.
- 62- ضامن ،محمد: إمارة حلب في عهد السلاجقة ، منشورات دار أسامة ، دمشق، بيروت، 1990م.
- 63- طلاس ، مصطفى :المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري ، مركز الدراسات العسكرية ،ط1، دمشق1992م.
- 64- عبد المنعم . الملاح . الجمعة. وآخرون :موسوعة الموصل ،دار الكتب للطباعة والنشر ، جامعة الموصل، ط1، 1992م.

- 65- عاشور، سعيد عبد الفتاح، عصر المماليك في مصر والشام ،مكتبة الأنجلو المصرية ، ط1،مصر 1994م.
- 66- عاشور ، سعيد عبد الفتاح : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، سلسلة الألف كتاب ،(رقم 227). (د.ت)2002م.
- 67- عاشور ، سعيد عبد الفتاح: قبرص و الحروب الصليبية ، ط 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 2002.
- 68- عاشور، سعيد عبد الفتاح: نظام الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، طبعة دار المعارف، تونس 1994 م .
- 69- عبد الهادي ،محمد : العقود الدرّية، القاهرة 1934 م.
- 70- العبود ، نافع : الدولة الخوارزمية ، نشأتها ، علاقاتها مع الدول الإسلامية ، نظمها العسكرية والإدارية مطبعة الجامعة ، دون طبعة ، بغداد 1978م.
- 71- العبد الغني ، عبد الرحمن محمد : أرمينيا و علاقاتها السياسية ،ط1، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ، الكويت 1989م.
- 72- العبادي ، أحمد مختار: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ،دار النهضة العربية ، بيروت 1986م.
- 73- عطية ،حسين محمد: إمارة أنطاكية الصليبية و المسلمون، ط1 مكتبة التاريخ الوسيط، القاهرة 1989م.
- 74- العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية ،دار النهضة العربية ،بيروت ،1982م.
- 75- العسيري ، أحمد معمور : موجز التاريخ الاسلامي ، ط1، مكتبة الملك فهد للنشر ، الدمام 1996م.
- 76- علي، أحمد اسماعيل: تاريخ بلاد الشام ، مكتبة الأسد، رقم الورود13876، دمشق 2000م.
- 77- الغأمدي، محمد علي عوده : بلاد الشام قبيل الغزو المغولي ، ط2، مكتبة الطالب الجامعي ، العزيزية ، مكه المكرمة 1986م.
- 78- فرج السيد: قاهر العالم، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة1377هـ/ 1957م.
- 79- فوقاس، يوانس: رحلة يوانس فوقاس في الأراضي المقدسة، زكار: الموسوعة الشامية، ج34.

- 80- فولفغانغ مولر - فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية ، ت . محمد وليد الجلاّد ، دار الفكر ، دمشق 1984م.
- 81- ف.هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ت. أحمد رضا محمد رضا ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، مصر 1991م .
- 82- كحالة ، عمر رضا : مختصر تاريخ الدول الإسلامية ، ط2، دار الهاشمية ، دمشق 1988م.
- 83- كرد علي، محمد: غوطة دمشق ، ط 3 ، دمشق 1984 م .
- 84- كرد علي، محمد: خطط الشام، بيروت 1971 م .
- 85- الكسيوس كومنين (1908-1118م) رسالة ماجستير ، جامعة الكويت 1967م.
- 86- كندي، هيوج: القلاع الصليبية، الموسوعة الشامية ،سهيل زكار، ج52.
- 87- ألتونجي ،محمد: التيارات الأدبية.
- 88- المدور، مروان : الأرمن عبر التاريخ، بيروت، 1982م.
- 89- معلوف ، أمين : الحروب الصليبية كما رآها العرب، دار الفارابي، بيروت 1989 م .
- 90- مهنا ، أسامة : الصراع بين أفراد الأسرة الأيوبية وأثره السياسي على مصر وبلاد الشام ، رسالة دكتوراه ، إشراف اكتمال اسماعيل ، جامعة دمشق ، قسم التاريخ 2010 م.
- 91- منصور، أحمد علي: تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام على الصعيدين السياسي والاقتصادي، رسالة ماجستير، إشراف : عمار النهار ،جامعة دمشق ، 2011م.
- 92- مهدي ، شفيق: ممالك مصر والشام ؛ نقوشهم - نقودهم - مسكوكاتهم، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان 2008 م .
- 93- موير،وليم: تاريخ دولة المماليك، القاهرة 1924 م .
- 94- نسيم ، جوزيف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ط3، مطبعة الشروق ، بيروت 1981م.
- 95- النهار،عمار محمد: العصر المفترى عليه - عصر ممالك البحرية، دراسة فكرية، دار النهضة 2007 م .
- 96- هوارث، ستيفن: فرسان الهيكل ، ط1، المركز القومي للترجمة ، ت .إبراهيم محمد إبراهيم ، 2013م.

97- هيرولد ، كريستوفر: نابليون في مصر، تر: فؤاد أندراوس، دار الكتاب العربي، القاهرة 1962م .

98- الأوتاني ، أحمد : دمشق في العصر الأيوبي، ط1، دار التكوين للطباعة والنشر 2007م.

99- يوسف ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة) ، الاسكندرية 1984م.

.....

- الموسوعات والمؤتمرات والمجلات :

1- أبحاث الندوة الدولية بعيد القاهرة الألفي : 3 مجلدات، مطبعة دار الكتب، القاهرة 1971م.

2- البستاني، بطرس: دائرة معارف البستاني، دار المعرفة، بيروت 1881م .

3- "بيترو مارينياني": مجلة الحوليات ، عدد 43 ، ص 187.

4- زكار، سهيل: الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية (مدخل تاريخ الحروب الصليبية) دار الفكر، دمشق، 1416هـ-1995م.

5- العش، أبو الفرج : محافظ متحف دمشق سابقاً، بحث منشور ضمن الندوة التاريخية الألفية، القاهرة 1969م .

6- العلايلي، العلامة الشيخ عبد الله : الصحاح في اللغة والعلوم . إعداد وتصنيف نديم وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، ط1، مجلدان، بيروت 1974م.

7- مجموعة مؤلفين : المعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مركز الدراسات العسكرية، إشراف : مصطفى طلاس ، 5 مجلدات، ط1، دمشق 1992م .

8- مركز الوثائق التاريخية بدمشق، السجل 176 وثيقة 113.

9- مجلة دراسات تاريخية ، العدد 39، 40، مطابع جامعة دمشق عام 1991م .

10- مؤنس، حسين: أطلس تاريخ الإسلام ، ط1، مطبعة الزهراء، القاهرة 1987م .

11- الموسوعة الفقهية : 45 مجلداً ، الكويت 2004 - 2008 م .

12- الموسوعة الإسلامية : بقلم : هونيكان : م 15.

13- الموسوعة الفلسطينية : هيئة الموسوعة الفلسطينية 11 مجلد

.....

المصادر والمراجع الأجنبية

ory of Deeds done beyond the sea, 2 Vols, trans. By E.A.Babcock

William of Tyre. A Histand

A.C.Krey, NewYork, 1943.

Willbrand of Oldenburg:" Itinerarium Terrae Sanctae, ed,J.C.M. medii

acvi qutour,Leipzig.1873 in peregrinatore ,Laurent

Cahen: La Syrie du Nord,Paris,1940.

Marino Sanudo, Secretorum fidelium Crucis, ed, J;Bongars, in G.D.F,Vol2.

Liber

Hamilton(Bernard):The Latin Church in Crusader States, The Secular church

,London ,1980

الملحق الاول

خطاب البابا انوسنت الثالث الى الظاهر غازي ملك حلب الايوبي
في ٧ يونيو ١٢١١م/٢٣ ذي الحجة ٦٠٧هـ. نقلاً عن :
Innocent III, Regesta, in P.L., Vol. 216, Col. 434.

Nobili Viro Sultano De Alepia, Ad Veritatis Pervenire
Notitiam, Et in Ea Salubriter Perseverare.
Commendat et Patriarcham Antiochenum
(Laterani, VII Idus Junii)

Sicut Veridica multorum relatione didicimus, etsi nondum Christianae religionis suscepisti sacramenta, fidem tamen catholicam venerari, in multis Christi fidelibus deferendo. Unde de illius inmensa Pietate confidimus quod te suae visitationis radiis illustrabit, ut gratia divinae cogitationis accepta, ad cultum aeterni et veri Dei, qui pro salute hominum factus est temporaliter verus homo, devotus aspires. Quapropter, in nomine Jesu Christi te attentius exhortamur quatenus iustitiam excolas et diligas veritatem, quae in salutis scriptis diligenter gressus tuos, et venerabilem fratrem nostrum Antiochenum patriarcham, quem suae probitatis intuitu inter caeteros fratres et coepiscopos nostros sincera diligimus in Domino charitate, habens ob reverentiam nostram propensius commendatum, ipsam et Ecclesiam ejus non permittas, quantum in te fuerit, ab aliquibus indebite molestari, quinimo eidem exhibeas auxilium et consilium opportunum, ut per hoc divinae majestatis gratiam et apostolicae sedis favorem tibi valeas comparare.

Datum Laterani, VII Idus Junii, Pontificatus nostri Anno quarto decimo.

الترجمة العربية

الى الرجل النبيل سلطان حلب (١) من أجل الوصول الى معرفة الحقيقة ، والاستمرار من خلالها في الطريق الصحيح ، يوصيه (البابا انوسنت الثالث) خيرا ببطريك انطاكية (٢) .

بما أننا علمنا بحقيقة علاقة الكثيرين ، فانك حتى اذا لم تكن قد اضطلعت لأن بقسم ولاء للديانة المسيحية ، فانك مع ذلك مستصل الى الطريق القويم للايمان ضمن الكثيرين الذين آمنوا بالمسيح (٣) . ومن ثم فإننا نثق بتقوى وورع انه (المسيح) سيفمرك بانوار زيارته . وعلى هذا فإننا نحرص على حثك باسم يسوع المسيح أن ترعى العدل وتحمل الحق للذين سيهددان خطاك في طريق الامان ، فلديك أخانا المبجل بطريك انطاكية الذي نوقره بسبب قطره المخلصة في التوفيق بين بقية الاخوة وبين أساقفتنا ، فأدخلناه في رحمة الرب وأحسنائه ، وحظي باحترامنا وحسن تقديرنا له . فلا تسمح لأحد بالمساس به أو بكنيسته بدون وجه حق ، طالما بقي معك ، ولتوفر له فرصة العون والمشورة ، وكل ذلك بغضل العناية المقدمة ، ولتقارن أنت فضل مكينة واممئنان الاتباع (الحواريين) الذي حظيت به .

في السابع من يونية من السنة الرابعة عشر من بابويتنا (٤) .

(١) المقصود به الظاهر غازي ابن صلاح الدين ، ملك حلب (١١٨٦ - ١٢١٦م/٥٨٢ - ٦١٣هـ) .

(٢) المقصود به بطرس الثاني أوف أفريقيا (١٢٠٩ - ١٢١٧م/٦٠٦ - ٦١٤هـ) .

(٣) هذه هي النعمة التي سادت في الغرب ايان تلك الفترة من الزمن . ولا غرو ، فقد كان أحد أهداف الحركة الصليبية التبشير بالمسيحية على المذهب الكاثوليكي بين المسلمين في الشرق الأدنى وتحويلهم .

(٤) ٧ يونيو ١٢١١م/٢٣ ذي الحجة ٦٠٧هـ .

نقلاً عن : حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية ، مكتبة التاريخ الوسيط، ط1، 1989م،

دار المعرفة الجامعية، القاهرة ، ص 508.

الملحق الثامن

خطاب البابا هنوريوس الثالث الى المندوب البابوي بيلاجيوس في
٩ يوليو ١٢٢١م/١٦ جماد أول ٦١٨هـ ، نقلا عن :

Regesta Honorii Papae, Vol. I, no. 3495, p. 568.

«Pelagio Albanensi episcopo Apostolice Sedis Legato». Cum Civitas Antiochena in eo statu existat quod de ipsius sit gravi periculo metuendum, mandat ut caute procedat in facto comitis Tripolitani ut nihil sinistri de eadem civitate christianitati contingat, in cuius amissione, sicut dicitur, plus damni et ignominiae sustineret populus christianus quam si plures perderet Damiatas; super facto ergo ipsius Comitis est maxime subsistendum quia de nobili viro Rupino qui captus fuit minime dubitatur et nunc publice fertur eundem carnis debitum exsolvisse. Laterani VII Id, Iulii anno quinto.

الترجمة العربية

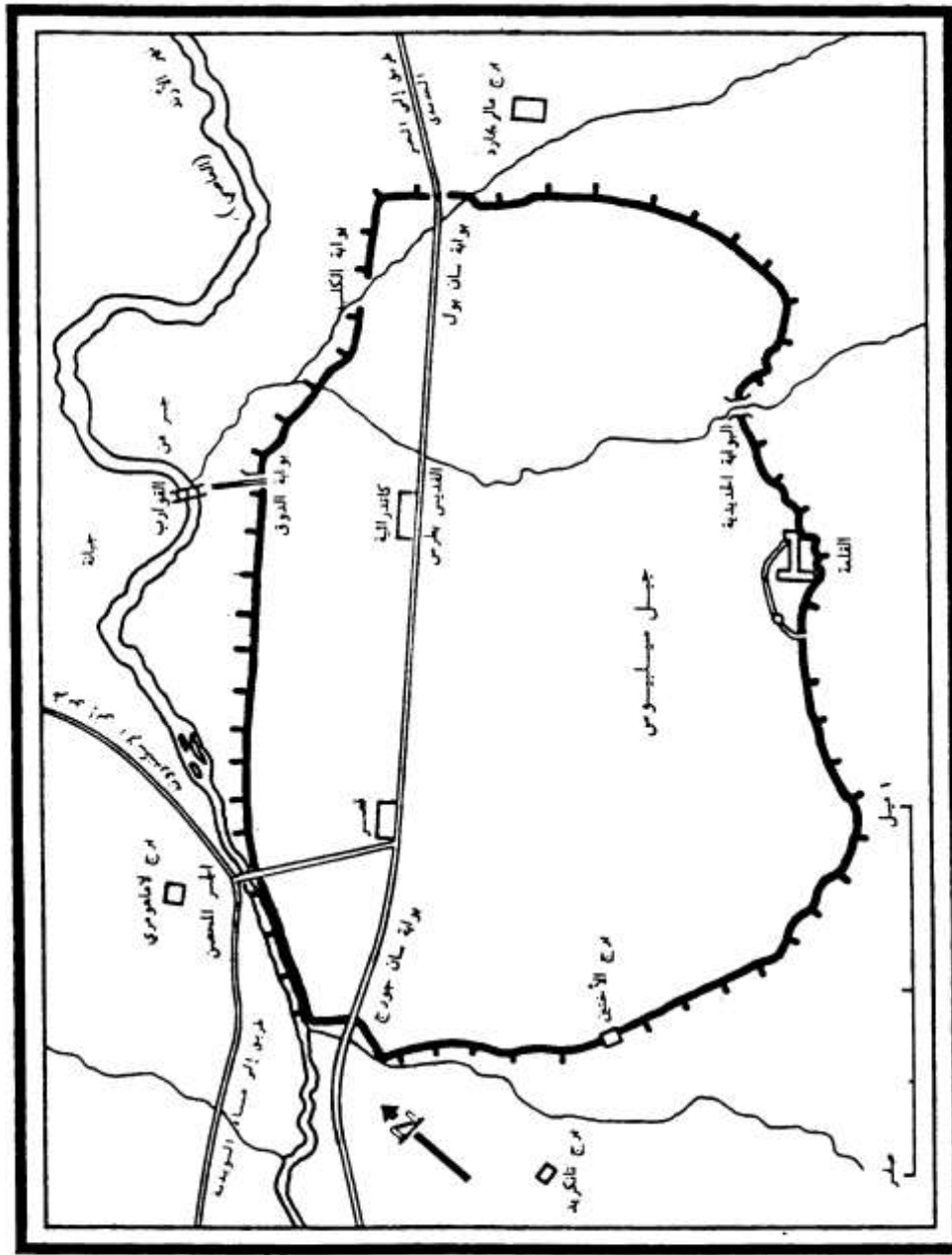
اللاتيران ٩ يوليو (١)

« الى بيلاجيوس أسقف أباتو (٢) ومندوب السدة البابوية » .

لأن مدينة أنطاكية في هذه الحالة تمر بموقف بيعت على الخوف
بسبب الخطورة التي تتعرض لها ، (فإن البابا) يأمر (بيلاجيوس)
بأن يتناول مسألة كونت طرابلس بحرص حتى لا يقع بالمسيحية مكروه
في تلك المينة (٣) التي يفقدانها ، كما يقال ، سيتحمل الشعب المسيحي
خسارة ودمارا أفدح مما لو فقد أكثر من دمياط ، ومن ثم ينبغي معاونة

-
- (١) في ذلك الوقت كانت قوات الحملة الصليبية الخامسة تقيم خارج
مدينة دمياط استعدادا للتقدم نحو المنصورة (في ١٧ يوليو
عام ١٢٢١م/٢٥ جماد أول ٦١٨هـ) بعد أن نجحت في الاستيلاء
على دمياط . انظر : محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية
الخامسة ، ص ٣٦٧ ، ٣٧١ .
(٢) إحدى مدن البرتغال .
(٣) المقصود بها مدينة أنطاكية .

نقلاً عن : حسين محمد عطية : إمارة أنطاكية الصليبية ، ص 515.

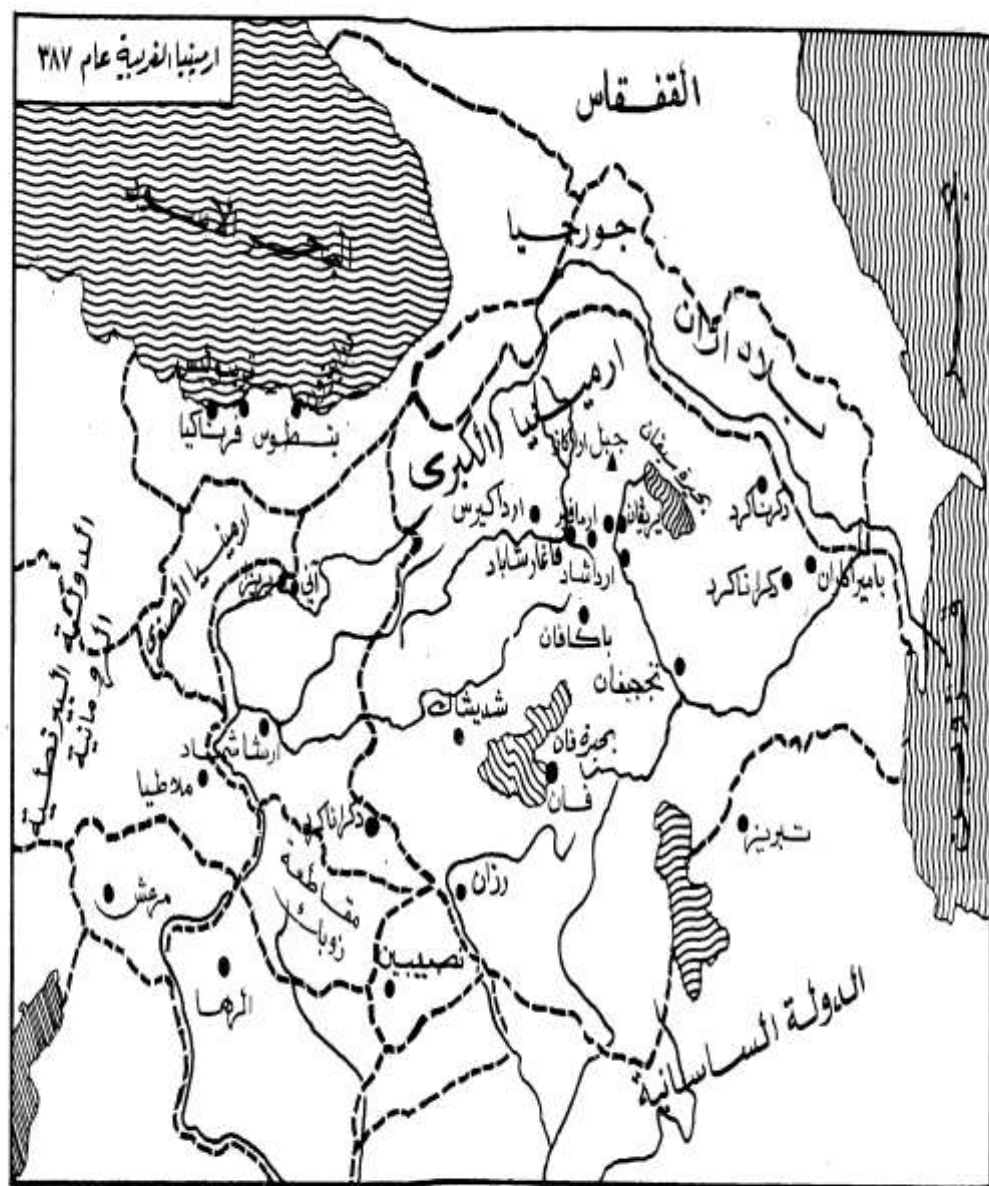


خريطة رقم (4) : أنطاكية سنة ١٠٩٨

خريطة أنطاكية ١٠٩٨ ميلادية

رنسيमान : تاريخ الحملات الصليبية ، ج1، ص399

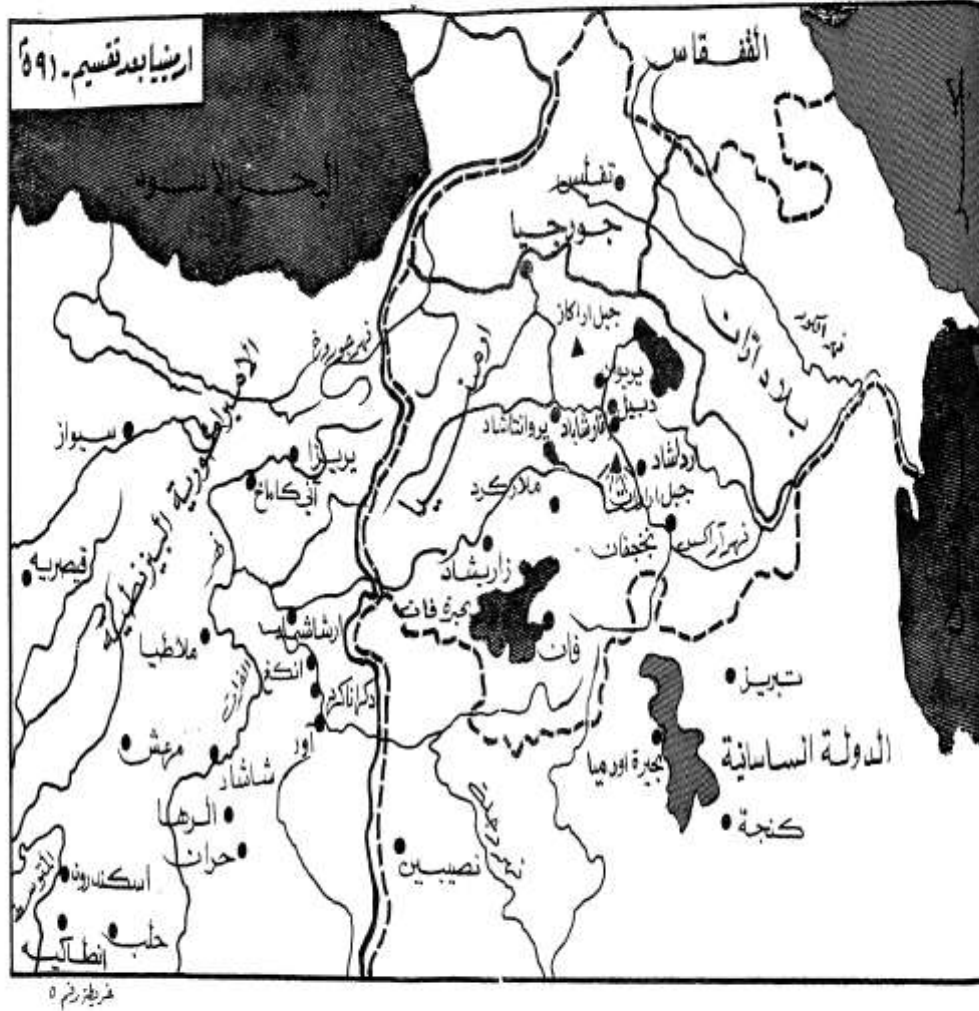
[ملحق فصل أرمينية](#)



فصل پنجم در قسم ۴

حدود ارمينيا الغربية بعد الاتفاق الساساني - البيزنطي عام ٣٨٧

نقلًا عن (المدور ، مروان : الأرمن عبر التاريخ، خريطة 2).



نقلًا عن (المدور ، مروان : الأرمن عبر التاريخ، خريطة 3).

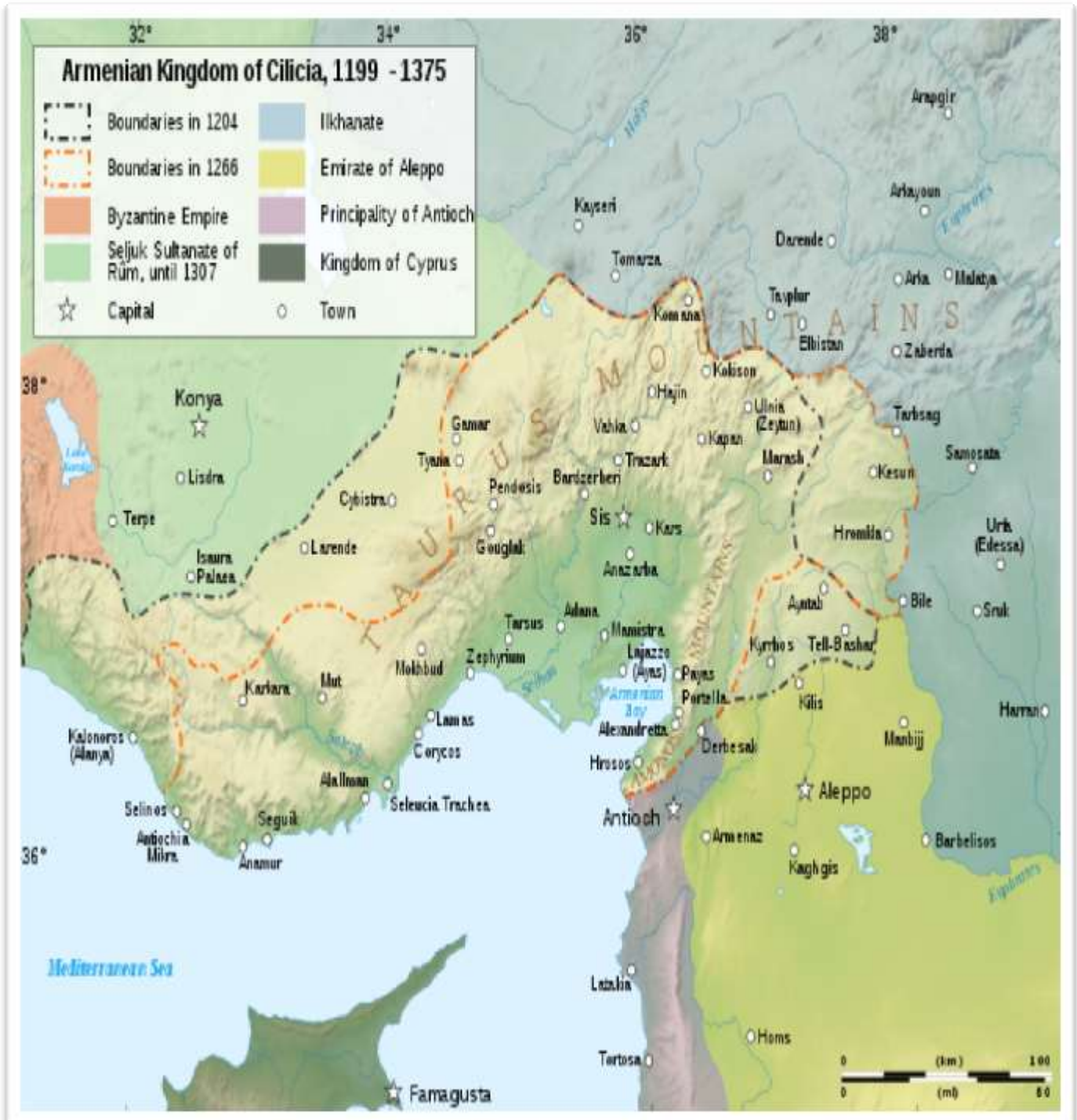
أرمينية بعد تقسيم سنة 591م



مملكة أرمينية في أقصى اتساعها تحت حكم تيغرانس الكبير والذي حكم بين 95-66 ق.م.

من الانترنت

مملكة قيليقية الأرمنية 1199-1375م



من الانترنت



من الانترنت